



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الحاج لخضر باتنة 1



كلية العلوم الإسلامية قسم أصول الدين

الدور الاستراتيجي للاستشراق المعاصر
في الشرق الأوسط
" لويس برنارد-أنموذجا "

رسالة لنيل درجة " دكتوراه العلوم " في العلوم الإسلامية
تخصُّص: عقيدة

إشراف:

أ. د. مقلاتي صحراوي

مقدّمة من الطّالب:

محمد بحري

السنة الجامعية 1439-1440 هـ / 2018-2019م

الشُّكْرُ وَالتَّقْدِيرُ

إلى أصحاب الفضل عليّ في هذه الدراسة وأولهم ذكرا من أشرف عليها

أكاديميًّا، الأستاذ الدكتور: مقالاتي صحراوي.

إلى من حباني بالاحترام والتشجيع، الأخ العزيز الأستاذ الدكتور:

العربي فرحاتي.

إلى إخواني وزملائي، عبد الله، مولود، مصطفى.

محمد

الإهداء

إلى أولى الناس بِصُحْبتي إلى الرُّوح الطَّاهرة والِدَّاي عليها نساءم الرِّحمت.

إلى أمِّ صلاح الدِّين صاحبة الجهد المشكور و السِّند القوي

في هذه الدِّراسة

إلى المنحة الربَّانية ولدي (صلاح الدِّين)

إلى عمِّي وجميع إخواني رعاهم الله.

محمد

المقدمة

الحمد لله الذي فضّلنا على كثير ممن خلق تفضيلاً، والصلاة والسلام على من بجلّه تجيّلاً، نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

قد يتفق كل المتتبعين للشأن العربي والإسلامي أنّ " الفكرة التّوأم " لجيل القرن العشرين العربي الإسلامي هي ' الصّراع العربي الإسرائيلي '، و ' الحركة الإسلاميّة في الوطن العربي '، وظلّ لكلّ منهما أسبابه وملامحه إلى بداية الثّمانينات وأحداث اجتياح إسرائيل للبنان، حيث تراجمت الأحداث السياسية والعسكرية وظهرت الأطماع الغربية في المنطقة العربية بالخصوص والشرق عموماً، عندها تلافي العنوان الجديد للمرحلة ثنائية الطّرح الكلاسيكي المتمثّلة في مصطلّحي ' الصّراع ' و ' العربي الإسرائيلي '.

لم يكن هذا التّحول اعتباطياً بل وفق دراسة ومنهجية نتلمّس فيها بصمات واضحة للفكر والمعرفة، وخاصة الدّور التاريخي والأهداف الإستراتيجية، وظهر ذلك من خلال الدّور الذي تبنّاه بعض المؤرخين الغربيين وخاصة المستشرقين منهم.

لقد بقي مصطلح ' الاستشراق ' غير مفهوم وعصيّ من قبل عامة القراء والمتقنين العرب والمسلمين طوال حقبة طويلة، ولم يتحسّسوا منه إلا الجانب الجغرافي الدّال على جزء منه وهو ' الشرق '، بل ليس كهانة إن قيل أن تداوله كان حكراً على بعض خريجي الجامعات الأوربية والنّاطقين باللّغات الأجنبية، أو ما كان يطلق عليهم آنذاك ' بالنخبة المُستتيرة ' - بحسب معايير تلك الفترة - من أمثال: طه حسين وعلي الوردي وجواد علي وغيرهم.

مع بداية الثّمانينات وامتداداً إلى اليوم، حدث تغيير مهول في النواحي الثقافية والسياسية مؤسّس على تحولات اقتصادية واجتماعية كبرى، كان مؤشراً على نهاية حقبة فكرية بنماذجها، وانتهاء صلاحية العمل بها، وبداية مرحلة بطرح جديد لتلك المواضيع التي كانت محور الصّراع، وكان الاستشراق من أهمّ مواضيعها ووسائلها بمنظرين أكثر حدّة، اتضح ذلك من خلال آثاره على فكرنا وثقافتنا.

وفي زحمة الخلط بين ما هو تاريخي بحثّ وما هو فكر ملعّم، بات من الضروري أن يباشر الفكر العربي الإسلامي طرائق جديدة ومدروسة في التعامل مع الاستشراق وطرائقه مع الشرق.

لذلك تأتي هذه الورقة البحثية في هذا السياق الهام لتُنَبِّه إلى مخاطر استنبقاء التَّعامل مع الظَّاهرة الاستشراقية كونها محاولة معرفة تراث وثقافة وعقيدة الشرق أوسطيين بغرض التقارب الإنساني و الثقافي، وضرورة الشُّعور بتغيُّر هذا الهدف إلى أهداف إستراتيجية ' عقائديا وثقافيا وسياسيا واجتماعيا ' غرضها الطَّعن في أصالة وإنسانية كل ما هو عربيّ وإسلامي، وقد يتعدَّى إلى كل ما هو شرقيّ.

1 - أسباب اختيار الموضوع وأهميته:

تأتي أهمية الموضوع لكثرة الدراسات الغربية التخصُّصية للتاريخ والفكر الإسلامي، وما يترتَّب عن تلك الجهود من أحكام تُبنى عليها مواقف مؤثِّرة وعلاقات مهمَّة في واقع الشرق أوسطيين تمتد تردُّداتها إلى مستقبلهم بكل أبعاده ' العقائدية والسياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية والأمنية '، والواجب الدِّيني والتَّاريخي يفرض الوقوف على مستندات تلك الأحكام من الناحية العلميَّة والتاريخية وطرق استنمارها.

وأما من حيث اختيار تخصص الاستشراق ونموذجه، فإن هذا النوع من المعرفة مهم بطبيعة ارتباطه بما هو عربي إسلامي، وبالتالي فهو أقرب التخصصات التي تستطيع أن تقرأ وتُشكِّل الحالة العربية والإسلامية، ووفقا لما تهدف إليه بعض المشاريع الفكرية والسياسية في الغرب.

يأتي اختيار الشَّخصية العلميَّة للموضوع تحديدا لعدَّة اعتبارات، منها المكانة العلميَّة للمستشرق البريطاني المولد، الأمريكي الجنسية والنَّشاط برنارد لويس في هذا التخصُّص، ثم لدوره الفاعل في السَّاحة السِّياسية والفكرية المعاصرة.

ومما رغب في اختياره أن أشهر المفكرين العرب والمُنشغلين بهذا الحقل المعرفي: إدوارد سعيد ومحمد أركون اللذان أجمعا أن المستشرق " برنارد لويس " شخصية مُشوِّقة للدراسة على حدِّ تعبيرهما، للمكانة العلميَّة وللقَبول الذي تلقاه استشارته وأراؤه غربيا.

إشكالية الموضوع:

تعالج هذه الأطروحة إشكالية جوهرية وهي: ما هو الدور الاستراتيجي للاستشراق المعاصر في الشرق الأوسط؟ ويتفرع عنها مجموعة من الإشكاليات الفرعية التالية:

- ما هي طبيعة العلاقة بين مواضيع تاريخ الفكر والفقهاء الإسلاميين بكل تنوعها (العقيدة والفقهاء والأصول والحديث والتفسير واللغة العربية بموضوع الاستشراق؟).

- كيف نفسر هذا الترهل في موقف النخب العربية والإسلامية في التعاطي مع نتائج بحوث هذا النوع من المعارف بشكل نمطي غير مدروس مستند على الرؤيا الكلاسيكية لأهداف الاستشراق وهي معرفة تراث وفكر الآخر؟.

- ما أثر دراسات هذا التخصص على الحركة الفكرية الإصلاحية، والتوجهات الرسمية العربية والإسلامية، السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية؟

- هل هناك علاقة متفق عليها بين أعلام هذا التخصص والأنظمة والساسة الغربيين مُجسدة في تنسيق يُمكن تحديده؟

- هل للاستشراق - كفعل معرفي - دور وجهد في ما يتوعد به الغرب الشرق الأوسط من مشاريع عقابية جيوسياسية، لغرض إستيلاء شرق أوسط ' كبير أو جديد ' يليق بممثل الغرب وأمريكا في الشرق الأوسط؟

3- حدود الدراسة

ستحاول الدراسة الإسهام في معالجة هذه الأسئلة ومناقشتها، وتقديم مقاربات قد تُسهم في الإجابة على بعض هذه الإشكالات، أو تكون جزءاً من الحلّ من خلال طرحها ضمن الحدود التالية:

1- البعد التاريخي للصراع الحقيقي أو المُفتعل بين الديانات والأفكار، وتعدد أسبابه وتنوع قراءاته.

2- رصد السيرة الذاتية لعلم الاستشراق من خلال أهم مدارسه المعاصرة، والأسباب والأهداف التي جعلته يغير مواقفه.

3- التركيز على أهم المدارس الاستشراقية الفاعلة في الأحداث العالمية المعاصرة ' البريطانية والأمريكية ' تحديداً.

4- اعتماد الشخصية العلمية لبرنارد لويس كنموذج مؤهل للكشف عن حقيقة هذه العلاقة من عدمها، توافقا مع الحدّ السابق.

5- محاولة إثبات المفهوم والفعل الاستراتيجي في مباحث علم الاستشراق من خلال هذا المؤرخ المستشرق الأنموذج.

6- الاستقطاب السياسي والاقتصادي والتكنولوجي ' الأورو أمريكي، ومدى إسهام ذلك في طرح مشروع الشرق الوسط الكبير " الجديد".

7- الحالة الرأهنة المتأزمة لمجتمعات وحكومات أغلب الدول الشرق أوسطية، والازتهان الذي تمرُّ به المنطقة - على الأغلب - لسطوة المركز الغربي.

8- الحضور الأمريكي على كل المستويات، وانفراده بمسارات القضية " الأم " في الشرق الأوسط وعلاقته غير الطبيعية بالطرف الإسرائيلي.

4- المنهج المتبع:

رغبة في تقدُّم خطوات هذه الرسالة العلمية وقربها من الهدف المرسوم، أعتمد منهجان لدراسة فصول ومباحث هذه الورقة تناسباً مع ما تقتضيه طبيعة الموضوع، من وجوب الاطلاع على أقوال وأحكام ومبررات بعض المستشرقين والمؤرخين، وتحديدًا المستشرق المؤرخ موضوع الدراسة، وهذا ما يفرض اعتماد المنهج الوصفي مع اعتماد آلية التحليل الاستقرائي.

كما تستوجب كثير من محطات التحليل والنقاش منهج المقابلة والمقارنة بين الآراء والمواقف لبيان مُرتكزات تلك الجهود، ومدى واقعيّتها وانضباطها بالشروط العلمية في أي تخصص.

5- الدراسات السابقة ونقد بعضها:

وضعت الدراسة ما سبقها من البحوث والدراسات موضع التقدير والاهتمام، حيث ثمنت الاهتمام بهذا التخصص، وأشادت برقي الطرح العلمي الواعي عند أكثر الباحثين، كما كانت الاستفادة من المؤلفات التي ترجمت لبرنارد لويس وقد خصت الأطروحة الدراسات التي قدّمت نقاشاً علمياً ونقداً جدياً بناءً للمؤلف، وخاصة تلك التي تتبعت أثره كمستشرق مؤدج يحمل مشروع يهدف إلى تفتيت المنطقة العربية والإسلامية، ومن أهم هذه الدراسات التي أثبتتها الأطروحة كمصدر مباشر أو غير مباشر ظهر أثره في هذه الفصول ما يلي :

1- اكتشاف المسلمين لأوربا، برنارد لويس، تر: أ.د/ ماهر عبد القادر¹.

يعترف المترجم بخبرة المؤلف الواسعة بالحركات السياسية في الإسلام، فضلا عن رؤيته الخاصة كمستشرق، فإنه يفسر مُعطيات التاريخ السياسي الإسلامي بصورة تفنّنٍ إلى الحيادية في كثير من الأحيان.

النّقد الموجّه للمؤلف أنّ النّصيب الأوفر في الكتاب بسيط العلاقة مع العنوان الذي يُوحى بمظاهر اكتشاف المسلمين لأوربا، إلا أنّ جُلّ الكتاب يتحدّث عن شيء آخر وهو كيف استطاع الأوروبيون أن ينظّموا أنفسهم ويستغلّوا نقاط الضّعف عند المسلمين، ليوجّهوا لهم ضربة قويّة، تبعثها ضربات وهزائم لا زالت مستمرة إلى الآن.

فعلّ المؤلف خبرته الواسعة بالحركات الإسلامية السياسية، كي ينتقل من مُعطى 'الخطر المُحدق' إلى توضيح الطريفة التي تمكّن من خلالها الأوروبيون من كشف نقاط الضّعف عند المسلمين واستغلالها.

من المواقف التي يُؤاخذ عليها المؤلف عند حديثه عن معاهدة 1699م بين الدّولة العثمانية وأوربا المسيحيّة حيث لم يتطرّق إلى الأبعاد التي أثّرت عليها هذه المعاهدة، وخاصة جانبها السلبي على الكفاح الإسلامي في الغرب.

في نفس السّياق سكوته العمدي عن تسمية تدخّل البابا في الشّؤون السياسيّة، حيث أنّ هذه المعاهدة كانت بتحريض وتدخّل بابا روما لدى الدّولة العثمانية في مشكلة جلاء المسلمين جميعهم من اسبانيا جملة واحدة، وهو ما يتعارض مع العلمانية التي تعتنقها الدّول الغربية، وهو ما يُعتبر انتقاء لحظات العلاقة بالدين حسب المصلحة وليس مبدأ مقدسا، مما يُعطي للمسلمين الحقّ في تشكيل مسارهم السياسي بالتّوافق مع أحكام دينهم.

تجدد الإشارة كذلك إلى تغاضيه عن الحقيقة التاريخية التي أثبتتها في إجبار مسلمي الأندلس على التّصير أو الطّرد والجلاء، ولم يعتبر ذلك عداءً دينيّاً من المسيحيين، ولم يُثبت أنّ النّصرانية قد انتشرت بالإكراه، كما هي قناعته أنّ الإسلام انتشر بالسيف والجهاد ولا توجد الحرّية الدّينية في الإسلام.

وكعادته في تكرار ما كتب في مؤلفات أخرى، يجد برنارد لويس نفسه تحت ضغط استعداد المسلمين، فيدخل من خلال قضايا الاتّصال والتأثر لموضوع دار الحرب ودار الإسلام، والحديث

¹ - لويس، برنارد، اكتشاف المسلمين لأوربا، تر: أ.د. ماهر عبد القادر، القاهرة، المكتبة الأكاديميّة، ط1، 1996م.

عن الجهاد الذي يبني عليه العلاقة بين دار الحرب ودار الإسلام، أما ظهور فكرة التسامح التي ذكرها، فإنها مجرد فكرة لا تتجاوز العلاقة البيئية مع المسلمين في اغلب الظروف.

3- الحشيشية، الاغتيال الطقوسي عند الإسماعيلية النزارية، تأليف برنارد لويس، ترجمة وتقديم وزيادة: أ د / سهيل زكار¹.

أظهر المترجم الاستعداد النفسي والفكري الذي تفرضه ترجمة هذا الكتاب، حتى تكون ترجمته في سياق ما يطرحه المؤلف، كما صرح بتفهّمه للوضع العالمي الذي جاءت فيه الترجمة والضغوط والتأويلات التي قد تتحو بالعرض من هذه الترجمة، وبيّن موقفه من كل ذلك.

يقول المترجم: عندما شرعت بهذا العمل لم تكن أحداث 11 أيلول قد وقعت، لذلك لم يكن من دوافعي مجارة التيار الذي تقوده الولايات المتحدة الآن باسم الحرب على الإرهاب، فضلا عن أنني أمتلك قناعاتي الخاصة حول الإرهاب، والتّمييز بينه وبين النضال في سبيل التحرر والعدالة والقضاء على إرهاب الدولة².

المترجم أحد الطّلاب العرب الذين أشرف المؤلف على رسائلهم الجامعية، بمعنى أنه على إطلاع بمنهج المؤلف في الكتابة حول المواضيع الإسلامية، ولذلك كلّف نفسه التأليف في الموضوع نفسه وبكل ما له علاقة من الناحية التاريخية به، وهو جهد جبار لم أجده عند من اطّلت عليهم من المترجمين لبرنارد، حيث وضع القارئ بين طرحين يصحّ أحدهما الآخر، إذ ضمّن تأليفه الأبعاد التي تغافل عنها برنارد لويس ومن أهمها الحقيقة الدينية والسياسية للإسماعيلية كفرقة إسلامية من المذهب الشيعي المعتمد في الفقه الإسلامي، وانجازات الفاطميين ودورهم في التاريخ الإسلامي.

حضّر المترجم مدخلا طويلا حول الإسماعيلية والقرامطة، وتاريخ الخلافة الفاطمية، ثم أعاد ترجمة النص الانجليزي مع ملاحق توثيقية هامة .

يرى المترجم أنه من المهمّ جدا التّعامل مع تاريخ الإسماعيلية؛ فالإسماعيليون لم يستهدفوا إحلال أسرة حاكمة محلّ أخرى فقط، بل أرادوا أن يقدّموا عقيدة عالمية مرتكزها الإسلام والتّجارب الفلسفية الإنسانيّة، ولذلك لاقى فكرهم القبول وسيطر على العقل الإسلامي لأكثر من قرنين، وتمّت

¹ - لويس، برنارد، الحشيشية، الاغتيال الطقوسي عند الإسماعيلية النزارية، ، ترجمة وتقديم وزيادة: أ د سهيل زكار، بيروت، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 2006م .

² - لويس، برنارد، الحشاشون، ص 9

صياغة العقيدة الإسماعيلية عبر مناطق دار الإسلام كلّها، في العراق والمشرق والشام واليمن ومصر وأفريقيّة" ¹.

أظهر المترجم كفاءة - حسب تقديري - في وصف الحشيشيين وتتبع مراحل وأسباب ظهورهم كنتيجة للتطبيقات السيئة لمشروع الاسماعيليين، لا كما يُصورها الاستشراق بمعزل عن تلك الأسباب والمراحل رغم أهميتها.

" بعد أن حققت هذه الدعوة النّجاح السياسي بالوصول إلى السّلطة، واجهت التطبيق للنظريات، وهنا ظهر الإخفاق والعزلة عن الجماهير، لذلك قام عبد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين ببناء المهديّة لتكون حصناً للسّلطة " ². أنظر الخارطة 1 و 2 ³ ، ملحق الخرائط و الصور ص 390

تنبّه المترجم إلى تعمد تركيز المؤلّف على اختيار الحشيشية التّواجد في القلاع زيادة في بشاعة تصويرهم للقرّاء انسجاماً مع تهمة الاغتيالات السياسيّة التي ميّزتهم عن بقية الفرق الأخرى، حيث أسقط هذه الحجّة بالاستشهاد بما كانت عليه ثقافة القلاع آنذاك.

" في إطار هذه السّمة، نشأت قلعة دمشق، وقلعة في كلّ مدينة، حتّى كان عصر الأتابكة والأيوبيين والحروب الصليبية هو عصر القلاع " ⁴. أنظر الصورة 1 و 2 ⁵ ملحق الخرائط و الصور ص 393 .

" مثّلت العقيدة التي أعاد صياغتها حسن الصبّاح آخر الانتكاسات، إذ توقّعت العقيدة الإسماعيلية، وتخلّت عن أهدافها العالمية، واكتفت بممارسة الاغتيال الطّقوسي، وأعمال الاغتيال مهما كانت مسوّغاتها مرفوضة، ومع ممارسة الاغتيال والوقوفة تحوّلت مؤسّسة الصبّاح إلى دويلات قلاع في إيران وسوريّة، مثل البارونيات الصليبية " ⁶. حيث سحب البساط من تحت أقدام المعوليين على اعتماد الاغتيالات في الإسلام.

" لكن يبقى التّاريخ هو نهر الزّمان المرتبط بالماضي والدّائم التّدقّق، لذلك علينا التّعامل مع أحداثه بشكل علمي، وأن نضع الأمور في نصابها دون مُبالغات أو انحياز، ودون أن نُسأير ما كان

¹ - المرجع السابق، ص 9

² - المرجع السابق، ص 9

³ - المرجع السابق، ص 90

⁴ - المرجع السابق، ص 9 .

⁵ - Lewis, Bernard, The assassins, A radical Sect in Islam, , 1st edition 1967, Phoenix, imprint of Orion Books Ltd, London, 2003 edition, pp. 85, 86.

⁶ - المرجع السابق، ص 10، 11

يُطرح قبل سنوات، وهو 'تسوية العنف الثوري'، وما يُقال الآن حول 'الإرهاب' وما قد يُقال في المستقبل¹.

4- مازن صلاح مطبقاني، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي².

هذه الدراسة عبارة عن رسالة دكتوراه في منهج برنارد لويس، في بداية حديثه عن شخصية برنارد لويس، أشار المؤلف إلى نقطة مهمة في مسيرة المستشرق، "ومع تشرب الحرب العالمية الثانية انظم إلى صفوف القوّات البريطانية التي أعارت خدماته بدورها إلى وزارة الخارجية، فتمكّن خلال هذه المدّة من أن يعيش تجربة ارتباط الدّراسات الاستشراقية بالسياسة"³.

أكد المؤلف على الاحتضان الكبير الذي وفّره المؤسّسات الغربيّة لبرنارد لويس، حيث "حضي لويس باهتمام واسع لدى الأوساط الثقافية والسياسية الأوروبية والأمريكية، فقد كان على صلة وثيقة بوزارة الخارجية البريطانية، مما دعاها عام 1954م لانتدابه للقيام برحلة علمية ألقى خلالها عدد من المحاضرات في الجامعات الأمريكية، وقدم أحاديث إذاعيّة وتلفزيونيّة عن قضية الشرق الأوسط"⁴.

أما من حيث تصنيفه، فإنّ المؤلف يضع هذا المستشرق المخضرم "من بقية الجيل الأخير للمستشرقين الكبار الذين لا يحدهم اختصاص معيّن في دراسة الإسلام، بالإضافة إلى ما يميّز به لويس نفسه من أسلوب أدبي جذاب وغازة في الإنتاج"⁵.

يحدّد المؤلف طبيعة بحثه، والهدف منه حيث يُقرُّ بأن "هذا البحث ليس دراسة تاريخيّة تهتمّ بالتاريخ الإسلامي، ولكنه دراسة فكرية لرؤية مستشرق غربي في حركة الفكر الإسلامي عبر العصور، أما الجوانب التاريخيّة في أعماله فتحتاج إلى تناول تاريخي يحلّلها وينقدها استناداً إلى المصادر التاريخيّة الإسلامية"⁶.

يشير الباحث إلى المواضيع التي شملها بحثه من رؤية برنارد لويس مثل القرآن والحديث والفقهاء والعقائد والتاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية والحركات الإسلامية، وتجدر الإشارة إلى أنّ

¹ - المرجع السابق، ص 11.

² - مطبقاني، مازن صلاح، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، الجزائر، مؤسّسة عالم الأفكار للنشر والتوزيع، ط1، 2011م.

³ - المرجع السابق، ص 13.

⁴ - المرجع السابق، ص 14.

⁵ - مطبقاني، مازن صلاح، المرجع السابق، ص 14.

⁶ - المرجع السابق، ص 14.

هناك رسائل موثقة بين المستشرق والمؤلف، خُتمت في الأخير بلقاء تخلّته حوارات، أثبتها المؤلف ضمن المُلحقات.

أثبت المؤلف بعد دراسته لمنهج برنارد لويس الملاحظات التالية:

- أنّ برنارد لويس سار على منهج الاستشراق التقلّيدي في دراسته للإسلام، لكنّه أخطأ بينها وبين الدّراسات الإقليمية والواقع الإسلامي المعاصر والقضايا السياسيّة والدينيّة والاقتصاديّة، والصّراع العربي - الإسرائيلي.

- إنكاره حجّية السّنة النبوية لطغيان الدّوق الاستشراقي الكلاسيكي، وابتعاده عن المنهج العلمي الصحيح، حين يزعم مصداقية وموثوقية الطّبقات وينفي ذلك عن الحديث الشريف، دون نقاش علمي مقبول.

- قام الباحث باستقراء واستقصاء ما كتبه لويس حول الموضوعات السّابقة لاستخراج منهجه والرّد عليه، ويتبيّن أن دراسة لويس لم تكن دراسة متخصصة لاعتماده على الدّراسات الاستشراقية لجولد زيهر وشاخت وبروكلمان وجب.

- يصرّ برنارد لويس على ضرورة تشجيع إسقاط المناهج الغربية في نقد النّصوص الدينيّة كي تتسجم مع الطّرح الغربي، إضافة إلى اعتماده على مصادر غير متخصصة بل غريبة جدّاً، ويترك المصادر الإسلاميّة الأصيلة.

يختم المؤلف تقيّمه لمنهج برنارد لويس بالتّوجيه التّالي: يبقى الحكم النّهائي على منهج لويس أن سلبياته وعيوبه وعداءه للإسلام والمسلمين، تجاوزت كل الايجابيات، الأمر الذي يتطلّب ضرورة مواجهة لويس وأمثاله من المستشرقين، وهذه المواجهة لا يمكن أن تتمّ من خلال الجهود الفرديّة وحدها¹.

5- برنارد لويس، سيّاف الشّرق الأوسط/ ومهندس سايكس بيكو 2، عادل الجوجري².

لم يترجم مؤلف هذا الكتاب لبرنارد لويس، بل تناول مشروعَه لتفتّيت الشّرق الأوسط المؤسّس على ما سبق طرحه في المؤلّفات السّابقة التّرجمة، وحدّد مؤلف الكتاب السيّاقات التي يطرح ضمنها

¹ - مطبقاني، مازن صلاح، المرجع، المؤلف، خاتمة الكتاب، ص 552.

² - الجوجري، عادل، لويس برنارد، سيّاف الشّرق الأوسط، ومهندس سايكس بيكو 2، دمشق، دار الكتاب العربي، ط1، 2012م.

هذا المشروع، كما حدّد أهداف هذا المشروع المتوافقة مع تلك السيّاقات، كما ربّط المؤلف هذا المشروع كأهمّ المشاريع التي يتبنّاها الغرب في علاقته مع الشرق أوسطيين.

" من ضمن الأفكار و المشاريع الغربية الصهيونية، يتصدر مشروع برنارد لويس المفكّر اليهودي البريطاني الأصل، الذي تحوّل إلى أسطورة بسبب نجاحه في التّطبيق العملي لفكرة تقسيم الوطن العربي، بعد أن تحوّل إلى إجراءات وخطط، وبرنامج عمل"¹.

فكرة الكتاب تتّمخّر حول سؤال جوهري ومهمّ، وهو : ماذا تحقّق من مشروع برنارد لويس الهادف إلى تقسيم الشرق الأوسط ؟، وما هي مواطن نجاحاته وإخفاقاته؟ وما هي أسباب النّجاح والفشل؟

يشير المؤلف إلى الجديّة التي ظهرت في سلوك الدّول الغربية لتطبيق هذا المشروع، موصّحاً خطورة مُرتكزاته الفكرية التي تتضمّن مؤلفات برنارد لويس، التي اختارت اللّعب على عدّة عناصر ثقافية ومذهبية وطائفية تخصّص برنارد لويس في تحليلها من خلال قراءاته للتّاريخ الإسلامي قراءةً تهدف إلى تأسيس مشروع مستقبلي مُنحاز إلى تأسيس التّبعية للغرب والصّهيونية.

كما أشار المؤلف إلى تقاطع هذا المشروع مع مشاريع أخرى في المنطقة، واستفادت كلّها مما هيّأه الغرب من تسهيلات سياسية واقتصادية وإعلامية لمشروع برنارد لويس، الذي أصبح المشروع المُبجّل في الدوائر الغربية والأمريكية على الخصوص.

سرّد المؤلف محطات مهمّة في مسيرة هذا المشروع منذ 1980م إلى 2007م وجمّلة التّصريحات والمؤلّفات والقرارات والمقالات والجلسات ذات الصّلة بالمشروع، بعدها طرح المؤلف تفاصيل المشروع مركزاً على ما تمّ تحقيقه منه، وأكّد المؤلف أن تقسيم دولة السودان إلى شمال السودان وجنوبه على أساس ديني ثقافي يُعتبر أكبر نجاح لبرنارد لويس، مشيراً إلى أسباب هذا النّجاح وتداعياته على الوطن العربي والجوار الإفريقي.

كما اعتبر المؤلف التّجربة العراقية من أسوأ محطات المشروع وأفشلها، مشيراً إلى المحاولات المستقبلية للمشروع في بقية الدّول مثل سوريا واليمن ومصر والمغرب العربي، مدّعماً ذلك بخرائط توضيحية تكشف رؤية المشروع النهائي.

¹ - المرجع السابق، ص 5.

6- خطة إنجاز البحث:

اعتمدت الدراسة في تأصيل وتوثيق مراجعها ومصادرها على منهجية إثبات المرجع بالصورة التالية: حيث تبدأ بكنية المؤلف، ثم اسمه الكامل، ثم اسم كتابه كاملاً، ثم مترجمه أو محققه - إن وجد، ثم بلد النشر، ثم دار النشر ورقم الطبعة - إن وجدت -، وسنة النشر ثم الجزء - إن وجد - وأخيراً الصفحة.

إن طبيعة البحث باعتباره بحثاً يترقّب المواطن المدروسة في فكر ومنهج المستشرق برنارد لويس في دراسة الفكر والتاريخ الإسلاميين، يفرض إثبات العلاقة أو نفيها بين ما يطرحه برنارد لويس من أحكام وأراء وأثرها في واقع المسلمين المعاصر، وبيان أن الدراسة تمت وفق إستراتيجية معينة اعتمدها المؤلف، ما يجعلها انتقائية لا تحترم الضوابط العلمية، وتأكيد علاقة الاستشراق بهذه الإستراتيجية.

لذلك كان الفصل الأول بعنوان: (مفهوم الإستراتيجية والاستشراق، الشرق الأوسط، الفكرة والأبعاد) حيث تضمّن المبحث الأول منه ' معنى الاستشراق والإستراتيجية ' باعتبارهما مصطلحين حديثا نشأوا وخاصة بالنسبة للاستراتيجية، وبداية استعماله في المجال العسكري، وكيف ارتحل إلى مجال المعرفة وأسباب ذلك التوسع، بعدها تتبّع المطلب الأول ' التطورات الدلالية لمصطلح الاستشراق' من الناحية اللغوية والاصطلاحية، والتنوّع في المفهوم الأخير، وهو ما كان في المطلب الثاني ' التطورات الدلالية لمصطلح الاستراتيجية ' .

المطلب الثالث، رصد حالة مصطلح الاستراتيجية في وضعيات ' تمدد هذا المصطلح ' وكيف غير من مواقعه، بل وأطر سلوكه في عمل جماعي هادف وهو ما كان في المطلب الرابع ' مأسسة التفكير الاستراتيجي ونفعيله '، أما المطلب الخامس فقد دلّل على أثر الفعل الاستراتيجي من خلال ' نماذج سياسية لصناعة إستراتيجية '، يأتي المطلب السادس والأخير في هذا المبحث ليبرز العلاقة بين ' الاستراتيجية والاستشراق '.

المبحث الثاني، جاء كالتزام مع عنوان الدراسة وتناغماً مع ما يخدم المعرفة العلمية بالمستشرق قيد الدراسة الذي تشرّب استشراق مدرستين غربيّتين فقد شمل المبحث التعريف بـ ' الاستشراق البريطاني ' في مطلبه الأول جاءت ' فكرة بداية الاتّصال بالشرق '، ثم أسباب ' تطوره وهيمنته ' في المطلب الثاني، إلى أن جاء الزحف الأمريكي وتفهُّر بريطانيا أوريبيا، وهو ما تناوله المطلب الثالث بعنوان ' الاستشراق البريطاني في القرن العشرين '، كي نستكشف نوعاً جديداً في الطرح الاستشراقي من خلال ' الاستشراق البريطاني الأكاديمي ' في المطلب الرابع، ويأتي المطلب الخامس الذي تناول ' طبيعة الاستشراق البريطاني وأهم ملامحه '.

المبحث الثالث، رفع عنوان الشق الثاني لتركيبة المستشرق برنارد لويس الفكرية وهو ' الاستشراق الأمريكي ' من حيث ' حقيقة الانتساب والنشأة ' في مطلبه الأول، ثم ' الطبيعة والاضافة ' في المطلب الثاني، ثم الأبعاد التي حددها الاستشراق الأمريكي في المطلب الثالث الذي عنوانته الدراسة بـ ' الأبعاد السياسية والاقتصادية والثقافية ' ليأتي المطلب الرابع كي يؤكد اعتماده على ' الدراسات الإقليمية والحركات الفكرية '، ليتحدّد ' الارتباط بالعلوم الاجتماعية ' في المطلب الخامس، ليس هذا فحسب، بل ' الجهد العربي في الاستشراق الأمريكي وكيفية استثماره ' في المطلب السادس، ليختتم المبحث بالمطلب السابع الذي أثبت ' القرصنة الصهيونية اليهودية ' على الاستشراق الأمريكي .

المبحث الرابع بحث لمسات ' الاستشراق من خلال جذور مشروع الشرق الأوسط '، أكد المطلب الأول ' الطبعة العتيقة للشرق الأوسط'، ليبرز المطلب الثاني ' ذاتية الحضارة الشرق أوسطية '، وتأتي ' العلاقة والتعبير بين الغرب والشرق ' في المطلب الثالث.

المبحث الخامس، قرأ ' التصوّرات والترتيبات للشرق الأوسط الجديد'، فكانت ' التّصوّرات والترتيبات الاعلامية ' مضمون مادّة المطلب الأول، ثمّ ' الطّرح الغربي الرّسمي ' موضوع المطلب الثاني.

يأتي المبحث السادس متضمنا أحد أبعاد المشروع وهو ' البعد السياسي للمشروع ' في ' مطلب تمهيدي أول'، كي يجيب المطلب الثاني عن ' دلالة المصطلح على هذا البعد' ضمن المشروع الذي لا تخفى فيه اللّمسة الاسرائيلية في جوهر وحقيقة هذا البعد ' في المطلب الثالث، تلك اللّمسة التي تجرأت بتحريض من ' الأسس الفلسفية للسياسة الأمريكية ' في المطلب الرابع، لأنّ المشروع في حدّ ذاته ' إسقاط ثان للتّجربة الأمريكية وتكرار للذات' كما أوضح المطلب الخامس.

المبحث السابع تحدّد فيه ' البعد الاقتصادي للمشروع ' من خلال المطلب الأول الذي كشف ' الرؤية الأمريكية لاقتصاديات هذا المشروع '، ممّا استوجب التّطرق الى ' المنطق التجاري عند الشرقيين ودوره في المجتمع الشرقي ' في المطلب الثاني، ومقارنة تلك الرّؤى بـ ' الرؤية الاسرائيلية لهذا البعد '، في مجالي الطاقة والبنوك.

المطلب الرابع، تمثّل في ' جدول يبيّن مؤشّرات أساسية للاقتصاد الاسرائيلي مقارنة بمؤشّرات إقتصاديّات بعض الدول العربية '.

المبحث الثامن، أشارت الدراسة إلى أحد الأبعاد المهمة في المشروع وهو ' البعد الثقافي للمشروع ' وكيف كان ' للتأسيس الأكاديمي لهذا البعد ' الدور الفاعل وذلك في المطلب الأول،

الذي تطلب إظهار ثمرة هذا التأسيس في شكل بقاء ' السؤال الثقافي ' في المطلب الثاني، وهو يطرح نفسه بحدّة على المشروع، ثمّ جاء المطلب الثالث كي يقدّم ' نماذج وصوّر عن الربط الثقافي ' المرتقب من هكذا مشروع.

الفصل الثاني، أخذ عنوان ' حياة برنارد لويس العلمية ومنابعه الفكرية وأثرها على علاقة الاستشراق بالعولمة ' جاء المبحث الأول منه واصفا ' نشأة برنارد لويس ' في المطلب الأول، ثم أشار المطلب الثاني إلى ' رحلة تحوّل برنارد لويس إلى أمريكا '، ثم إلى ما وجده برنارد لويس وحظي به من تبجيل و ' مكانة اعتبارية ' هناك في أوساط السياسيين والمثقفين وذلك في المطلب الثالث.

المبحث الثاني، توقّف عند المرتكزات التي يستند عليها برنارد لويس ويتغذى منها فكره وهو ما دلّ عليه عنوان المبحث ' المنابع الفكرية لبرنارد لويس ' حيث ظهرت ' الثقافة اليهودية الصهيونية ' بكل وضوح كأول ملمح في المطلب الأول، ثم دور ' الرّحم الاستشراقي الأوربي ' كعامل أصيل في توجيه تفكيره في المطلب الثاني، إلى طغيان الذوق الأمريكي من خلال تزعمه ' للاستشراق الأمريكي ' المؤلّج في المطلب الثالث، وتأتي في المطلب الرابع ' الأحداث المعاصرة والظروف السياسية العالمية '.

المبحث الثالث، كان عبارة عن أرشفة لـ ' مؤلفات ونشاط برنارد لويس الفكري ' التي انتظمت في تخصّصات دراساته من ' الفرق والعقيدة الإسلامية ' في المطلب الأول، إلى فضاء ' التاريخ العربي الإسلامي ' في المطلب الثاني، ثمّ إلى أهم ما شغل اهتمام برنارد لويس في العصر الحديث ' الفكر السياسي والحركات الإسلامية المعاصرة ' في المطلب الثالث.

المبحث الرابع، رصد مصطلحا جديدا - متقادما - وعلاقته بالاستشراق تحت عنوان ' كرونولوجيا فكرة العولمة وحقيقتها بلاستشراق، مخبرية أم عفوية '، كان المطلب الأول عبارة عن ' تعريف تمهيدي بهذا المصطلح '، ثمّ جاء التحوّل في الطّرح لهذا المصطلح من خلال ' الطرح الجديد للفكرة المتجدّدة ' في المطلب الثاني.

أمّا المبحث الخامس ' بداية تكوّن الشّرق في الوعي الأوربي ' فقد شمل مطلبه الأول ' تعريفا تمهيديا عن بداية هذا التكوّن '، ثمّ مطلبا ثانيا مقدّما ' الطّبعة الأخيرة من حيث الأطر والمفاهيم '.

يأتي المبحث السادس ليحمل عنوان ' عولمة الاستشراق والهيمنة على مدارسه ' الذي جاء مطلبه الأول عبارة عن ' تعريف تمهيدي ' استبق سلوك العولمة والهيمنة، ثم استعرض المطلب الثاني ' مفاهيم استشراقية مؤسّسة للعولمة ودالّة على العلاقة '.

الفصل الثالث جاء ليجسدّ الفعل الاستراتيجي للاستشراق من خلال ' برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي، المصطلحات، التّحريض والتّجيش، الرّوح الاستعلانية والتّمرّكز حول الأنا '، مبحثه الأول تناول ' إستراتيجية استخدام المصطلحات '، كان النموذج الأول لها مصطلح ' الديمقراطية حقنة اجبارية رغم انتهاء الصّلاحية ' في المطلب الأول، يأتي بعده المصطلح الرّيبب للديمقراطية وهو ' العلمانية حرب على القداسة '، إلى المصطلح الأعمّ والأشمل والمضللّ ' الحداثة وإستراتيجية الانسلاخ ألقيمي ' في المطلب الثالث، المطلب الرابع تحدّث عن المصطلح الذي يعاني الغربة عن بيئته وحاضنته الغربية البروتستانتية ' الأوصولية، المرجعية والاستخدام '، أمّا المطلب الخامس فتأتي القراءة الخاطئة لمفهوم ' دار الحرب ودار الاسلام ، بين المسيحية والاسلام '

المبحث الثاني، جسّد سلوك ' التّحريض والتّجيش ' من خلال المواقف ' السلبية أمام الأقوال الفجة وعدم الردّ عليها ' في المطلب الأول، تُضاف إليها ' الانتقائية في الاستشهاد بمحطّات استثنائية في العلاقة الدينية ' وتأسيس علاقة مُستدامة على ذوقها في المطلب الثاني. لُقِّدَم على ضوءها ' نصائح في شكل جرعات إجبارية ' في المطلب الثالث، توطّر كل هذه الاستراتيجيات وُفق قراءة تعتمد على ' إستراتيجية اعتماد (علم الإسلاميات) القروسطي '

المبحث الثالث، عالج حالة من الغرور الغربي يكون عليها المؤلف لحظة دراسته للتاريخ والحضارة الإسلامية ما يُطلق عليه ' إستراتيجية الرّوح الاستعلانية والتّمرّكز حول الأنا '، في المطلب الأول جاء دور هذا التّمرّكز والاستعلاء في تزييف الحقائق من خلال ' الأنا الغربي وإستراتيجية تأسيس السّلبية في السلوك الاسلامي ' وذلك نتيجة اعتماد وتوجيه تهمة باطلة للعقلية العربية والاسلامية في المطلب الثاني ' العقل العربي وتهمة الذرّية في التّفكير'، ليمتدّ الاستعلاء الى خارج السلوك الانساني ويتجسّد في ' استراتيجيّة الاستعلاء بالذّوق العمراني الغربي ' في المطلب الثالث، ثمّ تأتي ' استراتيجيّة تعويم الأحداث والحقائق في طرح ايديولوجي ' لتضييع الحقيقة التاريخية.

الفصل الرابع، يعمل على كشف طبيعة المصادر والمراجع التي ينتقياها برنارد لويس لدراسة التاريخ والحضارة الاسلاميين، ومنه كان عنوانه ' إستراتيجية انتقاء المصادر لأحداث وُفرق في التاريخ الإسلامي '، ليكون المبحث الأول منه ' استراتيجيّة مصادر دراسة السلوك الاسلامي '، جاء نموذج سلوك العلماء المسلمين في المطلب الأوّل ' علماء الاسلام ومصدر الحكم على سلوكهم '،

ليكون المطلب الثاني كجهد معرفي انتقائي لاستثمار الخلاف السنّي الشيعي من أجل ' استراتيجية تأسيس عداوة سنّية شيعية '، مؤسّسة على بحث المؤلف في فرقة الإسماعيلية الحشيشية في مطلب ثالث ' إستراتيجية لويس مع الحشّاشين ' وتعسّفه في ترتيب المصادر المهتمّة بهذه الفرقة، ثمّ المطلب الأخير المتمثّل في تعمّد الغياب التاريخي الذهني عند دراسة النماذج الإسلامية الفدّة، وكان نموذج غياب برنارد لويس مع ' صلاح الدّين الأيوبي والغياب التاريخي المدروس '.

المبحث الثاني، تخصّص في متابعة المصادر التي اعتمدها برنارد لويس في دراسته للخلافة العثمانية التي أصبح الحجّة فيها غربيا حيث جاء المبحث بعنوان ' استراتيجية مصدرية النصّ لشخصية الحاكم العثماني - المسلم - '، ومنه جاء المطلب الأول ' محمد الفاتح، القائد الذي تجاوزت سيرته الحسّ الغربي المزهّف '، وذلك بمحاولة الظهور بمظهر تنوّع وتعدّد المراجع والمصادر في الحالة العثمانية في المطلب الثاني ' استراتيجية الإيحاء بتعدّد المصادر ' ممّا يعطي مساحة أكثر للأخذ بالروايات، ويؤكّد برنارد لويس هذا التوجّه مع شخصية عثمانية أخرى في المطلب الثالث ' استراتيجية لويس مع السّطان سليم الثاني '

أما المبحث الثالث فقد تناول عصاره جهد المستشرق برنارد لويس وخاصة في العفدين الأخيرين واطمئنانه على نجاح عدّة مشاريع استراتيجية، ولذلك كان عنوانه ' برنارد لويس، نماذج استشراقية معاصرة '، تقدّمت الصّهيونية التي تميّز بها هذا المستشرق في المطلب الأول ' إستراتيجية الاستشراق في تقديم الصّهيونية واستثمارها '، وذلك من خلال العلاقة بين السياسة والاستشراق التي أكّدها المطلب الثاني ' السياسة والاستشراق، التّجاوب الاستراتيجي '، الذي بدوره سكت وتجاهل العنصرية الصّهيونية التي أثبتتها المطلب الثالث ' الصّهيونية والواقع البيولوجي اليهودي المهجّر '.

يأتي الهاجس الأكبر الذي يقضّ مضجع برنارد لويس وهو الصّحوة الإسلامية في العالم العربي في المطلب الرابع ليُعطي التعريف الاستشراقي لها بعنوان ' الحركات الإسلامية من زاوية استشراقية ' أما المطلب الخامس فقد أوضح بما لا يدع الشكّ إلى حقيقة ' التّموضع وتسخير الدّيني للإيديولوجي ' في التفكير السياسي لبرنارد لويس، ليأتي المطلب السادس مُعلنا على لسان برنارد لويس ومواقفه على ' تحالف العهدين ' اليهودية والمسيحية ضدّ كل ما هو إسلامي في كل المحافل الدّولية، وذلك من خلال ' اعتماد إستراتيجية المقالات ' في المطلب السابع، ذلك التّحالف الذي كان له الدور الكبير في الوصول إلى الغاية من كل هذه الاستراتيجيات وهي ' التفتّيت ونهاية الاستراتيجيات ' التي كانت مضمون المطلب الثامن.

الخاتمة

ملحق الفهارس

فهرس الموضوعات

فهرس المصادر والمراجع

فهرس الأیات والأحاديث

فهرس الخرائط والصُّور

فهرس الأعلام

فهرس الأماكن

فهرس المصطلحات

الملخص باللغة العربية

الملخص باللغة الانجليزية

الفصل الأول:

مفهوم الإستراتيجية و الاستشراق (الشرق الأوسط
الفكرة والأبعاد)

المبحث الأول: في معنى الإستراتيجية

المبحث الثاني: الاستشراق البريطاني

المبحث الثالث: الإستشراق الأمريكي

المبحث الأول:

في معنى الاستشراق و الإستراتيجية

المطلب الأول: المصطلح الدلالي للاستشراق

المطلب الثاني: المصطلح الدلالي للإستراتيجية

المطلب الثالث: بداية التمدد و أسبابه

المطلب الرابع: مأسسة التفكير الإستراتيجي و تفعيله

المطلب الخامس: نماذج سياسية لصناعة إستراتيجية

المطلب السادس: الإستراتيجية و الإستشراق

المبحث الأول: في معنى الاستشراق و الإستراتيجية

المطلب الأول: التطور الدلالي لمصطلح الاستشراق

1 - لغة:

لفظة ' استشراق ' مصوغة على وزن ' استفعال ' مأخوذة من كلمة ' شرق '، ثم أضيف إليها ثلاثة أحرف هي: الألف والسين والتاء، ومعناها طلب الاستشراق، وليس طلب الشرق سوى طلب علوم الشرق وآدابه ولغاته وأديانه. و جاء في المعجم الوسيط: ' شرقت الشمس شرقا وشرقوا، إذا طلعت¹. وجاء في لسان العرب: ' شرقت الشمس تشرق شرقا وشرقوا: طلعت، واسم الموضع: " المشرق و التشريق: الأخذ في ناحية المشرق، فقد شرق² '.

2 - اصطلاحا:

إن مفهوم الاستشراق (Orientalism) يعني: علم الشرق أو علم العالم الشرقي³، وعرفه البعض بأنه: " ذلك التيار الفكري الذي تمثّل في الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي، والتي شملت حضارته وآدابه وأديانه ولغاته وثقافته " ⁴.

وأحيانا يقصد به : ' أسلوب للتفكير يرتكز على التمييز المعرفي والعنقي والإيديولوجي بين الشرق والغرب' ومرة يراد به: ' ذلك العلم الذي تناول المجتمعات الشرقية بالدراسة والتحليل من قبل علماء الغرب ' ⁵.

المطلب الثاني: التطور الدلالي لمصطلح الإستراتيجية

الفعل العقلي عادة ما يتخلى عن التفكير النمطي الروتيني، و يبتعد عن الرتابة التي يألفها في كثير من معالجاته للمواضيع الاعتيادية التي سبّرها و احتكّ كم من مرّة بعلاقتها، فإذا ما تعرّض لاستفزاز أو تحريض يكون منشأه خصوصية و أهمية الموضوع المكلف بمعالجته ، فإنه يستشعر ضرورة تغيير نمط و آليات نشاطه.

¹ - المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ج1، القاهرة، 2004، ص 482.

² - ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، دون طبعة، 2003، ج8، حرف (ش)، ص 421.

³ - زقروق، محمود الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، القاهرة: دار المعارف، 1997، ص 18.

⁴ - محمد الأمين، عبد الله ، الاستشراق في السيرة النبوية، المعهد العالمي للفكر الاسلامي، القاهرة 1997م، ص16.

⁵ - الحاج ، ساسي سالم، نقد الخطاب الاستشراقي ج1، ، بيروت: دار المدار الإسلامي، 2002، ص 20.

هذا التّغيير يهدف إلى استثمار الجهد و الوقت والتّدقيق في قيمة النتائج عند معالجة إشكال ما، أو التّسارع به إلى دائرة النقاش لاعتبارات مختلفة.

عادة ما يواجه الفكر (العقل) هذه المواقف في الطّروف الخطرة والحرّجة كالحروب والكوارث الطّبيعية وما شابههما بما يتطلبه الطّرف من جميع الطّاقات الذهنية بغرض الاستغلال الأنسب للمتاح من المادّيات و للتقليل من النتائج السلبية، أو تحقيق خطوات عملاقة، تؤتي أكلها على المدى القريب و البعيد.

كلمة استراتيجية ليس لها مرادف في اللغة العربية، وهي منقولة بلفظها الأصلي من اللغة اليونانية.

هذا التفكير في الأغلب ارتبط بالحروب لأن مصطلح الإستراتيجية (Strategy) مشتق أصلا من كلمة يونانية (Stratos) بمعنى جيش أو حشد ، ومن مشتقات هذه الكلمة (Stratego) و التي تعني فنّ القيادة ، ومن مشتقاتها أيضا (Stratagem) والتي تعني: الخدعة الحربية في مواجهة العدو¹.

إلا أن مصطلح (الإستراتيجية Strategy) ، لم يبق حبيس التفكير العسكري بل وسّع في مجالاته و إن كانت أغلبها ذات علاقة بالدّوق العسكري أو بخلفيات عسكرية ، و هو في كل الأحوال قد حافظ على مضامينه التي تميزه عن غيره من أنواع التفكير، و إن كانت بمسميات جديدة يفرضها الحقل الجديد.

ولأن المصطلح وليد معطيات إجتماعية في زمن ومكان ما، فقد اصطبغ بمؤشرات عسكرية مثل : (الحشد ، الجيش ، فن القيادة) التي تعبر عن العلاقات المتوترة آنذاك " و تعكس حال المجتمعات أو القوى الأوروبية التي كانت تعيش حروبا طاحنة لتحقيق أهداف سياسية ، فالحروب و الصّراعات المسلّحة كانت هي الصّفة الطّاغية في تأطير العلاقات فيما بينها أكثر من أي نشاط آخر"².

¹- David L. Sills, The International encyclopedia of social sciences, New York. The Macmillan company and the free press-1968, p281

² - حسين، فوزي حسن، التخطيط الإستراتيجي للسياسة الخارجية و برامج الأمن القومي للدول - الولايات المتحدة أمودجا - ، دار المنهل اللبناني، ط1 ، 2013م، ص: 32.

وتماشيا مع هذه الحقيقة ، عرّف (كلاوز فيتز، Klaus Witz) مصطلح الإستراتيجية بأنه: " نظرية استخدام الاشتباك للوصول إلى هدف الحرب " ¹.

واضح أن كلمة " الاشتباك " تكتنز الفعل الإستراتيجي ، فإن هذا الاشتباك لم يُقصد بعينه بل هو آلية لتحقيق ما يراد من الحرب ، لأن العادة إقتضت وجود أسباب و دواعي (اقتصادية سياسية، استعمارية ، ثقافية ، عقائدية) تكون المحرّك والدافع والجاذب لحدوث الحرب ولذلك تحرّر مفهوم الإستراتيجية من قبضة العسكريين و فكرهم ليترنحل إلى السياسيين و المفكرين و العلماء.

فكان تعريف (ليدل هرت -Hart B.H.L.) دالا على التحوّل حيث عرّفه بأنه: " فن توزيع و استخدام الوسائط العسكرية لتحقيق هذه السياسة" ².

المطلب الثالث: بداية التمدّد و أسبابه:

لم ينكمش مصطلح " الإستراتيجية" و يتفوق على نفسه ، بل ساير التحوّل الذي تشهده المجتمعات على جميع الأصعدة ، فبعد أن كاد أن يأفل نجم الاهتمام بالتّصعيد العسكري الكلاسيكي الذي كان سببا في ظهور هذا المصطلح، و بعد أن كانت لغة السّلاح و الإستحواذ على الأقاليم و المدن هي مؤشّر دال على قوّة دولة ما من خلال جيوشها وما تحقّقه من نصر فرض النّظور على المجتمعات لغة أخرى و لذلك " فإن الإستراتيجية لم تعد مرتبطة فقط بالنشاط العسكري للدولة ، بل تعدّت ذلك لتشمل الجانب السياسي و الإقتصادي و الاجتماعي و الأمني، و ذلك بفضل التّطورات التي مرّ بها النظام الدّولي في منتصف القرن الثّامن عشر وكامل القرن التّاسع عشر" ³. لذلك ، كان هذا التّحوّل فتحا عظيما في ماهية هذا المصطلح الذي كُتب له أن يُجرّب في ميادين متعدّدة.

تغيّر منطق الصّراع بين الدّول وتغيّرت آلياته ، فكان من الضّروري النظر و التفكير في أسس بناء و بقاء تلك الدول ، لأن الأسس الكلاسيكية و الآليات لم تُعد لتصمد أمام ما يشهده العالم من تطوّر متسارع و نظريات في شتى المجالات وضرورة التّسيق و التّكامل في معنى الدولة و شكلها.

¹ - K. Von. Klaus witz, on war, translated by : JJ Graham,1908.london Routedege 1966 .,p:156.

² - B.H.L.Hart, strategy, the Indirect Approach, London rober.1966, p:334.

³ - حسين، فوزي حسن، التخطيط الإستراتيجي للسياسة الخارجية، المرجع السابق ص.32.

و لذلك " باتت مُتطلبات بناء الدولة الحديثة لا تستند على مَتانة قاعدتها العسكرية فقط، بل على قوّة بُنيان قاعدتها الاقتصادية والتكنولوجية والاجتماعية أيضا ، بمعنى أنّ الدُول أخذت ترسم إستراتيجيتها لا على أساس إفتراضات الخيار العسكري (ضرورة الحرب) ، وإنما في ضوء احتياجات و متطلبات الواقع العملي " ¹.

" ونظرا لاشتداد الصّراع الطّبقي ، فإن أهداف الحرب الحديثة لن تتحدّد بتدمير القوات المسلحة للعدوّ فقط كما كان الأمر في السّابق ، و إنّما بالتّدمير الكامل لكافة طاقته و مقدّراته الاقتصادية و لكافة أجهزة الدولة " ².

و إذا كان تتبّعنا لمفهوم وحقيقة " الإستراتيجية " سيقودنا إلى إدخال كل ما له علاقة بالتّخطيط من النّاحية النظرية أو العملية ، فإنّ كل المجالات ذات العلاقة بالحالة المراد التّخطيط لها سيكون لها نصيب في تشكيل مفهوم " الإستراتيجية " وهو ما قد تجده في تعريف (أندريه بوفر André Beaufré 1902-1975) * الذي يُعدّ أوّل من تجرأ على تحرير هذا المصطلح من الملمح العسكري إلى الحقيقة الشّمولية حيث يرى بأنّها " تنسيق و استعمال القوى السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنّفسية والعسكرية ضمن مخطّط هادف إلى تحقيق المصلحة القومية " ³.

جذب الفعل الإستراتيجي إلى دائرة إهتماماته معاني جديدة كانت أبعد ما تكون عن مجال تخصّصه، حيث عرّفت الأبعاد الفكرية و القومية حيّزا لها، زاحمت بذلك الأهداف الكلاسيكية للتّخطيط الاستراتيجي، وإن كانت في واقع الأمر معنية بطريقة غير مباشرة في أغلب الصّراعات السّابقة التي كان ظاهرها عسكريا.

" أصبحت الإستراتيجية ذات طبيعة شّمولية، أو لنقل أصبحت الإستراتيجية قومية المعنى والمضمون ، حيث تشكّلت الإستراتيجية القومية أو (العليا) لتتفرّع عنها أنواع الإستراتيجيات

¹ - حسين، فوزي حسن، التخطيط الإستراتيجي للسياسة الخارجية، المرجع السابق ص 32.

² - طلاس، مصطفى وآخرون ، الإستراتيجية السياسية العسكرية ، ج1، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط 2011، ص

22

³ - خليفة، نبيل ، جيوبوليتيك لبنان ، الإستراتيجية اللبنانية ، جبل لبنان ، مركز بيبيلوس للدراسات و الاتجاهات ، ط 2006 ، المقدمة . * بوفر، أندريه: André Beaufré 1902-1975: جنرال فرنسي، ولد في (نويي) على نهر السين و هو مؤلف لعدة كتب عن الإستراتيجية الحديثة : أندريه بوفر ، مدخل الى الاستراتيجية العسكرية، ترجمة وتحقيق: اكرم ديري-الهيثم الايوبي، دار الطليعة للطباعة والنشر، 1970 م.

التأنيوية المُكَمَّلة لمعناها القومي من إستراتيجيات سياسية واقتصادية وعسكرية وأمنية وما إلى غير ذلك¹.

وإذا كان التَّفكير الاستراتيجي يعتمد أساسا على استكشاف العلاقات الكامنة والمتوقَّعة بين الظواهر (الفكرية والاقتصادية والاجتماعية) وكذلك المواقف السياسية ، فإنه تعدَّى حتى إلى قراءة جغرافية الدول و تضاريسها، " فقد يُوصف موقع ما - أو جزء من دولة - بأنه إستراتيجي مثل القول بالموقع الإستراتيجي لمضيق هرمز، أو لباب المندب، وقد يوصف قرار سياسي أو إقتصادي هام بأنه إستراتيجي إذا كان يؤثر على السياسة و الاقتصاد في البلاد، كما يطلق " وصف إستراتيجي " على بعض الأسلحة ذات التأثير الحاسم في الحرب ، كالتي شملتها (معاهدة الحدّ من الأسلحة الإستراتيجية (S.A.L.T) Strategy Arms Limitation Treaty².

و إذا كان (أندريه بوفر: 1902-1975) قد وصّف التفكير الإستراتيجي بأنه " نمط من التَّفكير يجب - برغم تعقيده - أن يكون بمثابة مُرشد عملي لتحقيق غايات السياسة على خير وجه وخاصة لتفادي الأخطار الجسيمة التي يُظهر لنا التاريخ الحديث أمثلة عديدة منها"³. فقد أقرَّ بحقيقة تعقيده سواء كان التّعقد حقيقي ناتج عن دِقَّة العلاقات ، أو كان مُفتعلا وذلك بتشويه بعض العلاقات وإعاقتها إمّا بالتزوير أو بالتوجيه الخاطئ أو التفسير البعيد ، أو التّضبير المُجافي للحقائق العلمية والتاريخية ، وذلك على خلفية عقائدية أو إيديولوجية، حيث كشف (مولتكه) عن نقطة مهمّة ضمن مفهوم ودور المصطلح إذ عرّفه: " بأنه إجراء المُلائمة العملية للوسائل الموضوعة تحت تصرّف القائد إلى الهدف المطلوب "⁴. هذا الإجراء الذي لا يعني بالضرورة أنه يتمُّ بطريقة تحترم المبادئ والقيم والخصوصيات وتلتزم العلمية ، بل قد يكون تَعسُفا في حق أحداث لا يرقى حتى الهدف الإستراتيجي نفسه إلى مرتبتها ، وخاصّة إذا تعلّقت (بالآخر).

المطلب الرابع: مأسسة التفكير الإستراتيجي و تفعيله:

لم يبق المفهوم الاستراتيجي مجرد مصطلح هائم في الحوارات ، أو تعريف شاردي يخضع للصدفة أو الحظّ ، بلُ حاز إهتمام الجهات الفاعلة في الأنظمة الغربية والمؤسسات المعرفية والاقتصادية والدوائر التي لها علاقة بالسياسة.

¹ - حسين، فوزي حسن ، التخطيط الإستراتيجي، مرجع سابق، ص32.

² - طلاس، مصطفى و آخرون ، الإستراتيجية السياسية العسكرية ، المرجع السابق ، ص:381.

³ - المرجع السابق ص:382.

⁴ - المرجع السابق ص:383.

و حتى لا يبقى التفكير الاستراتيجي عبارة عن مهارات فردية، وقدرات شخصية يصعب التحكم فيها من حيث طرح المشاريع المفاجئة بنتائجها للطرح العالمي والتوجه الخاص بكل دولة، أو منظومة فكرية أو سياسية أو إقتصادية ، تسارع الغرب إلى تأطير هذا النوع من التفكير لغرض استثماره من جهة، و تجنب نتائج المفاجئة من جهة ثانية، والأمل في صناعته وإنتاجه بطريقة مدروسة خدمة للأمن القومي بالدرجة الأولى ، وكقوة دافعة بهدف الهيمنة.

هذا الإهتمام تجسّد في تجربة إنشاء " مراكز " جادة تُعطى لها الأولوية في قائمة اهتمامات الدولة، من حيث الدعم المالي والقانوني والسياسي، تستقطب أبرز المفكرين و المحلّين و المنظرين الذين أظهروا دقّة في الطرح من خلال تخصصاتهم ومعالجتهم لبعض القضايا الفكرية والسياسية والاقتصادية التي شغلت الرأي العام العالمي عبر الدراسات الأكاديمية أو حتى عبر وسائل الإعلام المختلفة .

وفي هذا السياق، تُعتبر الولايات المتحدة الأمريكية الدولة الرائدة في مجال التفكير الاستراتيجي الحديث، والذي تأسس على يد مجموعة من المفكرين الإستراتيجيين الأمريكيين ، وتطوّر عبر الخمسين عاما الماضية¹ .

هذه الريادة التي انفردت بها الولايات المتحدة لم تكن ناتجا عشوائيا بل حالة ساهمت عدّة معطيات مختلفة ومتنوّعة، ذاتية وخارجية في تشكيلها، فقد " نشأت الحاجة الاجتماعية لوجود هذه المؤسسات داخل المجتمع الأمريكي في منتصف القرن التاسع عشر نتيجة للتطورات الداخلية و الخارجية التي شهدتها الولايات المتحدة، والتي أسفر عنها بروز العديد من القضايا المُستحدثة التي تطلّبت إيجاد مؤسسات لدراستها بشكل علمي و إبداعي"²، وما يتبع ذلك من حقائق نفسية وعرقية و مذهبية ، كل ذلك تطلّب الحذر وعدم التهاون مع الإشكالات الداخلية، والتطورات العالمية (الخارجية) التي نتجت عن تراجع أوروبي على الصّعيد السياسي و العسكري.

كما أنّ هناك عامل مهم ينمو تحت الظلّ و هو تبنيّ النظام الأمريكي - آنذاك - لأكثر القضايا حساسية من النّاحية التّاريخية المعاصرة وهي قضية " الشرق الأوسط " التي ورثتها عن أوروبا عموما وبريطانيا بشكل خاصّ .

¹ - حسين، فوزي حسن ، التخطيط الإستراتيجي، المرجع السابق ، ص402.

² - المرجع السابق ، ص402 .

ومن أهم السوانح و المحفزات التي شجعت على إنتشار هذا النموذج من المراكز (النوعية) داخل الولايات المتحدة بداية من مؤسسه (راسل سيج 1907) بولاية نيويورك، إلى مؤسسه (التقدّم و الحرّية 1993) بواشنطن، إلى يومنا هذا، " طبيعة النّظام السياسي الذي يقوم على مبدأ الفصل بين السّطات واللامركزية، مما سمح بدخول العديد من الفواعل المجتمعية الجديدة و تنشيطها داخل النّظام"¹.

وهذا النّظام السياسي ' النموذج ' أستخلص من سلبيات الأنظمة المغلقة على نفسها، التي عادة ما تعتمد فقط على الدوائر الضيقة التي تُفرزها الانتخاب أو الانقلابات، وتستأثر لوحدها بمهمة صنع القرارات ومعالجة القضايا الرّاهنة، ما يخلّي ذمّتها من واجب الاعتراف بفشلها في ذلك، كما تعتمد على سياسات التّرقيع، وترى في اشتراك (الفاعلين) من الأدمغة والمفكرين اعترافا بسوء تسييرها وعدم قدرتها ونقص كفاءتها، وهو ما لا تقبل بأن تُوصف به، حتّى ولو كان على حساب مصلحة المجتمع، حفاظا على مكانة وسمعة منظّمتها ومصالح رموزها.

في الجهة المقابلة في الأنظمة الغربية، يشجّع السّاسة والحكّام على تفعيل منظمات وإنشاء مراكز تسعى إلى ترشيد مسار الخطّ السياسي والاقتصادي، حيث " شجّع الأمير الهولندي على إنشاء مجموعة (بيلدر بيرغرز) بمؤازرة (آل روتشيلد) و ترأسها حتّى عام 1976 في بريطانيا، ثم تولّى رئاستها اللورد البريطاني (كارينغتون)، الوزير السّابق و السكرتير العام للنّاتو (NATO)"².

إضافة إلى جهود هذه المنظمات في الانتخابات الأوروبية والأمريكية في دعم الرؤساء ورسم سياساتهم الداخلية والخارجية، فإنها تعمل على نطاق أوسع على المستوى الأوروبي والأمريكي، " فمفهوم خلق أوروبا موحدة ذات عملة واحدة وجيش واحد وسوق مشتركة، كانت فكرة تلك المنظمة كما ذكر ذلك (جورج ماك) أحد أعضائها والسفير الأمريكي السابق في ألمانيا الغربية، وهذا ما أكده أيضا (جاك شينكمان) عضو المنظمة في عام 1996"³.

و إذا كان الإتحاد الأوروبي كظاهرة (اقتصادية سياسية عسكرية) هي الترجمة الحقيقية لجهود منظمة استراتيجية غير حكومية على المستوى الأوروبي، فإن ترجمة هذا الجهد على الجغرافية السياسية و الاقتصادية والعسكرية الأمريكية لا يقل شأنًا، حيث تستقطب المراكز الإستراتيجية و " توظف العديد من المؤهلين لصناعة التّفكير الاستراتيجي حيث تُقدّم أكفأ العناصر المرشحة لأهم المناصب في الإدارات الأمريكية المتعاقبة، ومن أهم هؤلاء على سبيل

¹ - حسين، فوزي حسن، التخطيط الإستراتيجي، المرجع السابق، ص 402

² - منصور، عبد الكريم، الإمبراطورية الأمريكية، البداية والنهاية، دمشق، دار الكتاب العربي، ط1، 2005، ص 222.

³ - منصور، عبد الكريم، الإمبراطورية الأمريكية، البداية والنهاية، المرجع السابق، ص 222 .

المثال : هنري كيسنجر، و زيبغينيو بريجنسكي، وقد لعبت مراكز التفكير الإستراتيجي ومفكروها دوراً هاماً في صياغة الرؤى الإستراتيجية للإدارات الأمريكية المتتالية¹.

المطلب الخامس: نماذج سياسية لصناعة إستراتيجية:

إذا كان إنشاء مركز إستراتيجي في العالم الثالث عموماً والعالم العربي خصوصاً يعني احتمال الفضيحة السياسية، وخطراً يهدد أسس النظام الحاكم، وقریب يفسد نشوة فساد المال العام الذي تحتاجه وزارات الدفاع والأمن والرياضة، فإن مفهوم المركز الإستراتيجي عند الأمريكيين لا يقل عن مفهوم الخزانة العامة وما تمثله بالنسبة للمجتمع الأمريكي، فالفكرة عندهم عملة " ولذلك كانت المؤسسات البحثية في الولايات المتحدة والتي تُسمى (مستودعات الأفكار - Think Tanks) هي منظمات غير ربحية، تقوم هذه المراكز بتقييم صحة السياسات ومدى فاعليتها ومطابقتها للواقع، حيث يوجد أكثر من 2000 مركز بحثي في الولايات المتحدة، كما تُنفق هذه الأخيرة حوالي 2,5 % من نتاجها القومي الإجمالي البالغ أكثر من 14 تريليون دولار².

وبالنظر السريعة إلى مُخرجات دراسات هذه المراكز بالإضافة إلى أنشطتها المعلنة فإن الفاحص لها يتبين أنها تعمل وفق أجندة إيديولوجية، فكرية وعقائدية ثابتة، حيث شهدت الولايات المتحدة الأمريكية منذ تولي الرئيس (جورج واشنطن) الرئاسة عام 1789 إلى غاية (جورج بوش الابن) عام 2001م -2008م ترسانة من الرؤساء والبالغ عددهم 42 رئيساً، " يُلاحظ أنّ كل الرؤساء الأمريكيين كانوا من البروتستانت البيض (الأنجلو ساكسونيين)، إلا الرئيس (جون كينيدي)، فكان كاثوليكي المذهب"³. الذي تولّى الرئاسة من 1961م-1963م .

فقد ترسخت العلاقة بين هذه المراكز البحثية العلمية الإستراتيجية والمُشتغلين بحقل الفكر والسياسة لقدرتها " على إنجاز احتياجات صنّاع السياسة، ومرشحي السياسة من تصوّرات ومُلخّصات واضحة، إضافة إلى تقييم دقيق للسياسات من حيث التكاليف والفوائد، وبقوت قصير، الأمر الذي يخلق عدّة خيارات فاعلة أمام صنّاع القرار"⁴.

هذه الدّراسات (الخدمات) التي تلتزم المراكز بتقديمها وتحقيقها، تقابلها التزامات ووعود يُلزم بها المرشّح المستفيد من تلك الخدمات، التي عادة ما تكون تحقيق مشاريع إيديولوجية (فكرية

¹ - حسين، فوزي حسن، التخطيط الإستراتيجي، المرجع السابق، ص 402.

² - Richard Samuels, Encyclopedia of US National Security, 2005, P :503

³ - منصور، عبد الكريم، الإمبراطورية الأمريكية، البداية والنهاية، المرجع السابق، ص334.

⁴ - حسين، فوزي حسن، التخطيط الإستراتيجي، المرجع السابق، ص406.

عقائدية إقتصادية) تتناسب مع إيديولوجية المرشح، حيث يلجأ المرشحون إلى أكثر المراكز تأثيراً " طلباً للدعم الإيديولوجي، كمؤسسة (هيردنج) التي غالباً ما تقدم الدعم الإيديولوجي لمن هم في الحكم " ¹.

ولقد جسّد هذه العلاقة المؤثرة المتأخرون من الرؤساء الأمريكيين نظراً لتطور هذه المراكز في العصر الحديث من جهة، و لتراكم أوجه الصّراع الإيديولوجي والسياسي، و جدّة الاستقطاب الدولي من جهة ثانية.

" فعلى سبيل المثال، اعتمد الرئيس السابق (جيمي كارتر)، [الذي تولّى الرئاسة من 1977م إلى 1981م على ' مجلس العلاقات الخارجية '، كمؤسسة بحثية مرموقة لدعم حملته الإنتخابية، تلك المؤسسة العائدة لعائلة الثري اليهودي (روكفلر)، وبعد فوز (كارتر) بمنصب الرئاسة الأمريكية، قام بتعيين (54) خبيراً من (مجلس العلاقات الخارجية) في إدارة البيت الأبيض " ².

نستطيع القول أنّ ' مجلس العلاقات الخارجية ' لم يترشّح لرئاسة الولايات المتحدة كمركز بل كفكرة كان لها في الأخير ما أرادت حيث " كانت سياسات (كارتر) تُجاه العديد من القضايا الدولية تبدو كأنّها تتشكّل وتتقوّلب وفقاً لأعضاء بارزين في مجتمع المؤسسات البحثية في واشنطن " ³.

وحافظ هذا التواجد المؤثر على فاعليته حتّى الوقت الحالي مع الإدارتين المحافظة الجمهورية والديمقراطية، فأغلبهم " ينتمون إلى هذه المنظّمات مثل : بيتر ترانوف، و أونتوني ليك، و آل غور، و دين كريستوفر، و كولن باول، و ليس أسبين، و جيمي وولسي، و وليام كولعين، و صاموئيل لويس، كلهم أعضاء في منظمة (مجلس العلاقات الخارجية - CFR) " ⁴

ثم تُعطينا التجربة الإستراتيجية التي تحكّم العالم الغربي عموماً أو أمريكا على الخصوص نموذجاً أكثر تقدماً مع رؤساء الولايات المتحدة المعاصرين من رونالد ريغان إلى بيل كلنتون إلى بوش الأب فالابن حيث " يقرّر الناشر الأمريكي (جون إف ماكنوس) أنّ الرئيس الأمريكي " بيل كلينتون " عام 1998م حيث تعرّض لفضيحة السكرتيرة اليهودية " مونيكاً " لجأ إلى أصدقائه

¹ - إيلسون، دونالد ، هل هناك أهمية للمؤسسات البحثية ؟ مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية ، الإمارات . أبو ظبي ، 2007، ص 53.

² - حسين، فوزي حسن ، التخطيط الإستراتيجي، المرجع السابق ، ص407.

³ - المرجع السابق، ص408.

⁴ - منصور، عبد الكريم، الإمبراطورية الأمريكية، البداية والنهاية، المرجع السابق، ص:214.

في مجلس العلاقات الخارجية " لأنه يعلم جيداً أنه يخدم كرئيس، وأن أعضاء تلك المنظمة السرية هم الذين اختاروه ويتوقعون منه أن يُنفذ خطة المنظمة¹ .

و لأن أصحاب الأفكار والمخلصين لمبادئهم لا يدخرون جهداً كلاً ما لاحت فرصة في الأفق، فعندما ظهرت الحاجة - المزعومة- إلى وسيلة تجعل العالم كله منظومة واحدة خدمة للجنس البشري على زعم " بريجينسكي "، فقد كانت بصمة " روكفلر " مرة ثانية ظاهرة عندما أنشئت " منظمة الهيئة الثلاثية " و التي تهدف إلى التعاون بين الولايات المتحدة و أوروبا الغربية و اليابان، وتأسست عام 1973م برئاسة " (ديفيد روكفلر) والكثير من أعضائها الأساسيين هم الآن في موقع السلطة في الولايات المتحدة، وتتلقى الدعم من مؤسسات كبرى مثل : مؤسسة ليل أنداومنت، ومؤسسة تمويل (مارشال الألمانية)، ومؤسسات (التأييمز و جينرال موتورز) وغيرها من المؤسسات².

هذه المراكز هي التي أغرقت الطرح السياسي والإعلامي بسيل من المفاهيم والمصطلحات التي كانت المادة الدسمة لكثير من النقاشات، وأحياناً سبباً في زوال أنظمة وقيام أخرى وكتقرير لهذه الحقيقة، كتب المؤلفان : " ستان ، و وود " في عام 1979 م: " إذا كان القول بأن مجلس العلاقات الخارجية هو الأرض المنتجة لمفاهيم (مثالية العالم الواحد)، فإن (الهيئة الثلاثية The-Trilateral-Commission) هي الحملة العسكرية المجمععة الهجوم على رؤوس الجسر " ³ .

ولم يسلم بقية الرؤساء من كمشاة هذه المنظمات و المراكز ، بل كانت في اغلب الحالات الذراع الايمن لبعض الرؤساء ، فالرئيس " بوش الابن اعتمد على مؤسسة (هوفر) لتشكيل لجان تعمل على تعميق معرفة (بوش) بقضايا السياسية الداخلية ، إضافة إلى تقديم النصح في السياسة الاقتصادية و الخارجية و الدفاعية⁴ .

المطلب السادس: الإستراتيجية و الإستشراق:

في غمرة الحاجة إلى التفكير الإستراتيجي، تطفو على السطح ضرورة اعتبار معطيات تتعلّق بالظاهرة المراد تفعيل الفكر وتدقيقه بخصوصها.

¹ - المرجع السابق، ص214.

² - المرجع السابق، ص 215.

³ - منصور، عبد الكريم، الإمبراطورية الأمريكية، البداية والنهاية، المرجع السابق ، ص:215.

⁴ - حسين، فوزي حسن، التخطيط الإستراتيجي، المرجع السابق، ص408.

و لأنَّ أي معطى لا يشكّل لوحده الصُّورة المتكاملة ، بل يبقى في أمْس الحاجة إلى معطيات متنوّعة ذات الصّلة بالموضوع، فقد تطوّر مفهوم الإستراتيجية إلى دراسة و استثمار جوانب جديدة وأهمها (الجانب المعرفي التّاريخي والعقائدي).

إنّ ظهور حقل جديد خصب تجد فيه الإستراتيجية مطّلبها، لما يوفّره لها من مادّة علمية ضخمة تُغري الفكر الإستراتيجي لدراستها واستثمارها في سياق التّوجهات العالمية الحديثة، و لذلك كان الاهتمام بالحقل الإستشراقي أمراً مفيداً واستراتيجياً لعلاقته (بالآخر) كفكر واعتقاد وعرق، ما يُمكن من فهم الآخر ومعرفته معرفة دقيقة وموثّقة، من خلال التخصّصات التي إهتم بها الإستشراق.

فكان الفعل الإستشراقي الإستراتيجي من أخطر أنواع الدّراسات الإستراتيجية لسببين رئيسيين هما:

أ- أن هذا الدّور موقوف على نُخبة تترع وتتحكّم في مؤسّسات عريقة في البحث العلمي، كما أوكلت لها مهمّة وضع مناهج و برامج تعليمية في تلك الدّول وغيرها.

ب- كما أنّ حقيقة هذه النُخبة لم تكتفِ بذوقها المعرفي العلمي المجرّد الباحث عن الحقيقة العلمية، بل ارتبطت وبشكل رسمي- بدوائر إيديولوجية ومراكز بحثية، وسياسات غارقة في الصّراع الدّولي المتعدّد الأوجه.

إنّ الدوائر الغربية الفاعلة في المشهد السّياسي، وجدت ضالّتها في المفكرين المُشغّلين بالشرق كحالة معرفية دسمة، ممّا حتمّ عليها تقديم كل وسائل البحث وتسخير القرار السّياسي والدّعم المالي لمثل هذه التخصّصات، و تبنّي دراساتها ومشاريعها وتفعيل نتائجها والاستفادة منها في القرارات الحاسمة.

بل أصبحت جزءاً مهماً من صنّاع القرار والتّنظير له، والدّعاية له بطرق بحثية علمية عبّر الجامعات ومراكز الدّراسات ووسائل الإعلام المختلفة، وحتى لا يكون هذا المبحث خلاصة لكل الرّسالة، فإنّ الفصول القادمة ستحاول إلقاء الضّوء على حقيقة هذه العلاقة وتطبيقاتها العملية، وأثر هذه التّطبيقات من الناحية الجغرافية والتّاريخية والسّياسية والنّفسية على كل ما ليس له صلة بالغرب.

المبحث الثاني: الاستشراق البريطاني

المطلب الأول: بداية الاتصال بالشرق

المطلب الثاني: تطور الاستشراق البريطاني

المطلب الثالث: الاستشراق البريطاني في القرن العشرين

المطلب الرابع: الاستشراق البريطاني الأكاديمي

المبحث الثاني: الاستشراق البريطاني

المطلب الأول: بداية الاتصال بالشرق

الاستشراق حالة معرفية مثلها مثل بقية المعارف التي عرفتها بريطانيا، وهي التي كان لها الدور الرائد في كثير من التغيرات العالمية (سلما وحربا)، وقد استفادت جميع التخصصات من المركز الريادي لانجلترا في تلك المتغيرات.

وإذا أردنا أن نركز على الاستشراق ضمن ترددات وسطوة بريطانيا آنذاك، فإن صلوات الانجليز بالشرق قديمة جدا ترجع إلى سنوات ما قبل الإسلام، حيث يذكر البعض أن علاقات قامت بين إيرلندا والشرق منذ منتصف القرن الثالث للميلاد، وذلك حين ذهب بعض الرحالة الرهبان إلى مصر وسوريا وفلسطين في طريقهم إلى الأراضي المقدسة¹.

ومع أن هذه الصلات كانت مبكرة جدا، ولم تظهر نتائجها في حينها إلا أنها كانت لها أبعادا في تكوين وتركيب الاستشراق البريطاني، باعتبارها عايشت مرحلة عربية قبل الإسلام ثم تواصلت العلاقة عند البعثة وبعدها، فكانت هذه الصلات الأقدم والأعرف أوربيا بالحالة الشرقية عموما والعربية الإسلامية بالخصوص.

وبما أن هذه الرحلات كانت في سياق زمني (منتصف القرن الثالث للميلاد) له سلم أولوياته الخاصة (الاقتصادية والاستعمارية) فإن الفكر العقائدي، لم يكن في صدارة الاهتمامات باعتبار أن المناخ الروحي والفكري آنذاك لم يكن له خصم أو معارض، إذ الذوق العام مسيحي في الأغلب، ويهودي مستعطف ومتربص بالذوق الغالب.

ورغم سبق البريطاني على المستوى الأوربي تجاه الشرق، إلا أنه لم تظهر كتابات الانجليز حول الشرق إلا في القرن الأول للهجرة عندما كتب (ويلبلاد)² حول رحلته إلى البلاد العربية ثم تبعه بقية الحجاج التجار وغيرهم³.

¹ - الزبيدي، محمد فتح الله، الاستشراق: أهدافه، وسائله - دراسة تطبيقية حول منهج الغربيين في دراسة ابن خلدون - دمشق، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، 2011، ص 72.

² - ويلبلاد - (wilblad): رحالة بريطاني قديم تعتبر المصادر أول من كتب واصفا رحلاته إلى البلاد العربية، وكان ذلك في القرن الأول للهجرة، تتابع بعدها الرحالة والمستشرقون في الكتابات حول العروبة والإسلام - (نفس المرجع هامش ص 72). نقلا عن: الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا: ميشال جحا، الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، معهد الإنماء العربي، ط1 1982، ص 27.

³ - المرجع السابق، ص: 72

توالت الاهتمامات بعد ذلك بهذا الحقل المعرفي، ولكن تحت ضغط السياقات المتعددة والمتنوعة، التي فرضها الواقع الإقليمي للملكة المتحدة، وبروز سباق أوربي مسعور للذوق الاستعماري الذي كان السياق العام في علاقة أوروبا بالآخر، فكانت بريطانيا أبرز رموز هذا الذوق، " يبدو من خلال الكثير من الدراسات النقدية التي تصدت للاستشراق أن العلاقة القائمة بين الغرب والشرق علاقة متكافئة، ويشوبها الكثير من الخلط إذا ما عرفنا أن الغرب بقواه المادية والمعنوية مكرس للسيطرة والهيمنة على المادي والمعنوي في المشرق، وهنا لا يمكن التسليم بأن العلاقة القائمة بين الطرفين هي علاقة تبادل المنفعة أو علاقة الحوار القائم على التقارب في وجهات النظر"¹.

المطلب الثاني: تطور الاستشراق البريطاني:

كغيره من المعارف التي عرفت بريطانيا قبل بروز يقضة أوروبا دينيا، عرف الاستشراق البريطاني الفعلي تحولا في الوسائل والأهداف حيث " يُرجع بعض الباحثين بداية الاستشراق الانجليزي إلى ما قبل الحروب الصليبية، حيث توجه نفر من الانجليز إلى الأندلس للدراسة في جامعاتها ومدارسها"² ومن هؤلاء (أدلار أوف باث - Adelard of bath 1070م-1135م) الذي قام برحلات واسعة في الأندلس وسوريا، ودرس خلالها اللغة العربية والعلوم الإسلامية، وعندها عاد إلى بريطانيا عمل معلما للأمر هنري الذي أصبح فيما بعد الملك (هنري الثاني)³.

ومع ذلك بقي الاستشراق محتشما حتى بعد الدعم الذي لقيه عن بعض الجهات الأوربية، وحتى عندما تدخلت الكنيسة في روما لتشجيع هذا النشاط العلمي بأمر من البابا (كليمنص الخامس) بإنشاء كراسي للغة العربية في عدد من المدن الأوربية في مجمع فينا (1311-1312م)⁴.

بدأ الاستشراق الانجليزي في التبلور نسبيا، وظهرت الحاجة الماسة إليه تناسبا مع ما تمثله بريطانيا آنذاك في بقية المجالات الأوربية الفكرية، والتوسع الاستعماري الذي يفرض بالحاح معرفة (الآخر) إلا أن وضعت بريطانيا قدمها على بداية القرن 17 الذي يعتبره البعض اللحظة

¹ - الدليمي، كامل حسن ، موسوعة الاستشراق - معاودة نقد التمركز الغربي وكشف التحولات في الخطاب ما بعد الكولونيالي، مجموعة من الأكاديمين، اشراف والتحرير: د عامر عبد زيد الوائلي، و د طالب محييس الوائلي ، الجزائر، دار ابن النديم للنشر والتوزيع، ط1، 2015، ص 741.

² - Lewis , Bernard, British Contribution To Arabic Studies, Longmans Green Company, London, 1941, P. 9

³ - مطبقاني، مازن صلاح ، المرجع السابق، ص 27.

⁴ - العقيقي، نجيب، المستشرقون، القاهرة، ط4، بدون تاريخ، ص 2-9.

المفصلية و " والبداية الحقيقية للدراسات الاستشراقية في إنجلترا، وذلك بإنشاء كراسي للغة العربية في الجامعات البريطانية الكبرى"¹ من وزن جامعة كمبريدج، وأكسفورد وما شابههما.

بعد هذا التاريخ، عرف الاستشراق البريطاني قفزة مهمة ما بين القرنين (17 و 18م)، فلقد أثمرت تلك الكراسي التي أنشئت في تلك الجامعات "تمودج المستشرق الإنجليزي" المتميز، المدعوم من جهات كنسية وأخرى نافذة في هرم السلطة، لأنه بالعودة إلى قراءة الدوافع الكامنة لتفسير هذا الاهتمام باللغة العربية التي تمثل لغة الوحي الإسلامي في القرنين 17 و 18 ، " هي الدوافع الدينية التي أقرها مجمع فيينا في القرن الرابع عشر (1311م) حيث قرر المجمع ترجمة الكتابات النصرانية حتى يقرأها المسلمون وبالتالي يتحولون إلى النصرانية، كما أن على المنتصرين أن يتقنوا العربية ليستطيعوا قراءة ما يُكتب، أو ما كُتب ضد النصرانية، وكذلك كان من طموحات الكنائس الغربية توحيد الكنائس الشرقية مع الغربية².

انطلاق الاستشراق البريطاني كان بتوجيه من رجال الدين، بل مثل الاستشراق السند المعرفي والتاريخي لأدوات الهيمنة الأوربية التقليدية (التبشير والاستعمار)، " إن الاستشراق بدأ بالرهبان والقساوسة النصارى، ثم استمر بعد ذلك ومعظم المستشرقين من رجال الكهنوت المسيحي، وكان هؤلاء مدفوعين بدافع الانتصار للنصرانية، والرغبة بتتصير المسلمين الذين اكتسحوا إمبراطوريتهم، واستطاع دينهم الحق أن يغلب النصرانية المحرفة في نفوس أتباعها"³.

تماهت ظاهرة الاستشراق البريطاني كليا مع السياق العام للملكة المتحدة في القرن (19م)، ولأن الاستشراق هو النابض الدافع، والمستشار الثقة، والمحرض المعرفي لظاهرة الاستعمار الأوروبي، ففي القرن(19) انتشرت حركة الاستعمار العالمي وأصبحت بريطانيا أكبر قوة استعمارية في العالم، ووقعت أجزاء كبيرة من الشرق ومن العالم الإسلامي تحت الاستعمار الأوربي، وخاصة مجتمعات الشرق الأوسط التي استهدفت في كل خصوصياتها.

"هكذا نجد أن الرعيل الأول من المستشرقين البريطانيين كان دافعه الأول لدراسة اللغة العربية واللغات الشرقية دافعا دينيا وهو ترجمة التوراة، وكان على رأس هؤلاء

¹-Lewis, Bernard, British Contribution To Arabic Studies, op.cit.p. 14,15

²- Hamilton, Alastair: William Bedwell the Arabist (1563-1632) Leiden 1985.

³- الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة ، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، التبشير، الاستشراق، الاستعمار، دمشق، دار القلم، ط 11 ، 2013م، ص 128.

(بادويل Badwel)¹ الذي عين أستاذاً للغة العربية بجامعة أوكسفورد، ويعتبر واضع أسس تدريس العربية في إنجلترا².

انطلاقة الاستشراق البريطاني كانت تحت مظلة الكنيسة، وبتوجيه من رجال الدين، بل كان الاستشراق السند المعرفي والتاريخي لأدوات الهيمنة الأوروبية التقليدية (التشريد والاستعمار) والذي مثله بعد "بادويل" كل من " أدوارد بوكوك 1604-1691"³ و "سيمون أوكلي 1678-1720" وجورج سيل 1697-1736" وغيرهم وإن اختلفت أغراض هؤلاء المستشرقين إلا أن الرعييل الأول كان يهتم بالدراسات العربية والإسلامية لأهداف دينية أهمها التبشير، وتأتي بعدها الأهداف الثقافية والتجارية والاقتصادية التي اهتم بها المستشرقون المتأخرون⁴.

إن الاستشراق أضحى النابض والدافع، والمستشار الثقة، والمحرض المعرفي لظاهرة الاستعمار العالمي الذي أصبحت بريطانيا أكبر قوة استعمارية في العالم، ووقعت أجزاء كبيرة من الشرق ومن العالم الإسلامي تحت الاستعمار البريطاني⁵.

ولذلك يعتبر المتبعون لهذا الحقل المعرفي، " إن الاستشراق الانجليزي من بين أول وأوثق وأوسع ما عرفته أوربا من الاستشراق منذ اتصال بريطانيا بالشرقين: الأوسط والأقصى، اتصالا ثقافيا عسكريا واقتصاديا واستعماريًا، في الأندلس والقدس والهند والصين والعراق ومصر وفلسطين"⁶.

لقد تنبه الاستشراق البريطاني إلى تنوع مخرجات العهد الاستشراقي، ولذلك لجأ إلى استبدال كرسي التدريس في الجامعات بالرحلات الاستكشافية، والشركات التجارية "حيث شهدت بريطانيا المزيد من السيطرة الاستعمارية على الأراضي الإسلامية، وتجلت الفرصة سانحة أمام

¹ - بادويل Badwill 1561-1632: مستشرق انجليزي، تخرج من كمبردج، أعان على ترجمه التوراة 1604، أستاذ اللغة العربية في اكسفورد، كان يرى أنها (لغة الدين والسياسة والمعاملة من الجزائر إلى الصين) عرف بالتعصب، له المعجم العربي في سبعة أجزاء 1610، والعهد الجديد في (الكتاب المقدس)، ومعجم المفردات العربية (لندن 1615)، وفهرس القرآن باللغة التركية (لندن 1615)، العقيقي ص 40/39 ج2، المعارف القاهرة ط5/2006.

² - جحا، ميشال ، الدراسات العربية والإسلامية في أوربا، المرجع السابق ص 30.

³ - بوكوك، إدوارد: Edward Pococke 1604 - 1691 - : مستشرق انجليزي، عمل قسيسا للطائفة الإنجليزية بطلب، وبها أتقن العربية، وانتقل إلى التدريس بجامعة أوكسفورد، اشتغل بالتصوير، وجمع المخطوطات، حقق (لامية العجم) للطغرائي، وألف (لمع) من أخبار العرب: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، بيروت، لبنان، دار العلم للملايين، مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر، ط 3، 1993م ، 90-92 .

⁴ - جحا، ميشال ، الدراسات العربية والإسلامية في أوربا ، المرجع السابق ص 30.

⁵ - مطبقاني، مازن صلاح ، الاستشراق والاتجاهات الفكرية، المرجع السابق، ص 30.

⁶ - العقيقي، نجيب المستشرقون ، المرجع السابق ، ص 7.

المبشرين لينقضوا على البناء الإسلامي، ومن أبرز المستشرقين (ألويز شبنكلر 1813-1893) و (وليم ميور 1819-1900)¹،

حيث تقلد أغلب المستشرقين مناصب عسكرية سامية أو مستشارين في السفارات والقناصل العامة، ومن أمثلة هؤلاء المستشرقين (ريتشارد بيرتن 1821-1890)² الذي عمل كضابط عسكري في الهند وألف كتابه المشهور (الحج إلى المدينة ومكة)، ومنهم كذلك المستشرق (ديفيد هوكارت 1862-1927) الذي كان أميناً لمتحف أكسفورد، وعمل في الحرب العالمية الأولى في السياسة البريطانية في المنطقة العربية وتولى (رئاسة المكتب العربي) في القاهرة³ حيث قدم خدمة جليلة لبلده من خلال كتابه (اختراق الجزيرة العربية)، وهو عبارة عن توجيهات جغرافية ورسومات لحدود وتضاريس شبه الجزيرة العربية.

بهذا السلوك، دخل وبقوة الاستشراق البريطاني دائرة الاستعمار السياسي، بعد أن كانت بداياته بالأدب والتراث العربيين.

" إن هذا النوع من الاستشراق وجهود المستشرقين جاء تعبيراً واضحاً عن الاستشراق السياسي الانجليزي مع كتابات كبار الإداريين البريطانيين الذين سجلوا فيها تجاربهم في حكم المستعمرات البريطانية ومنها العربية والإسلامية"⁴.

بل تعد الأمر بالاهتمام بكل ما هو شرقي أن تم عن طريق التكليف الرسمي حتى لبعض عمال الشركات الموثوقين في رصد ورسم وجمع المعلومات، تحت غطاء وظائفهم العادية التي لم تنبئ بأي خطر أو شبهة "ومن أبرز معالم هذا القرن (19) اهتمام بعض العاملين في شركة الهند الشرقية بالدراسات الشرقية، ففي عام 1874م أسست (جمعية البنغال الآسيوية) ثم بعد ذلك (الجمعية الملكية الآسيوية) التي اهتمت بجمع المخطوطات الشرقية"⁵.

¹ - ميور، وليم (1819-1900) مستشرق بريطاني، أرثوذكسي، كتب حياة محمد (ص)، كتبه بعنوان (حياة ومد وتاريخ الإسلام) في لندن 1856-1861 في أربع مجلدات، تقلد في الحكومة الهندية مناصب رفيعة 1847، واضب على حضور "البعثة التبشيرية" في (أجرا) نشر في مجلة: (كاكوتا) 1863-64 سلسلة من المقالات عن تاريخ الجزيرة وتجاريتها في العصر الجاهلي، ثم (تاريخ الخلفاء 1853) ثم (الخلافة: ظهورها، انحطاطها، سقوطها) في لندن عام 1891: يوهان فوك ، تاريخ حركة الإستشراق، الدراسات العربية و الإسلامية في أوروبا حتى بداية القرن العاشر ، ترجمة : عمر لطفي العالم، دار قتيبة، 1996، دمشق ، ص 182 وما بعدها.

² - جاسم، ملا ، ناصر عبد الرزاق، المستشرق هاملتن، دراسة نقدية لتطور مواقف من التاريخ والحضارة العربية والإسلامية، ط1، جامعة الموصل 1998، ص 11.

³ - الدليمي، كامل حسن ، موسوعة الاستشراق، المرجع السابق ص 758.

⁴ - المرجع السابق، ص 758.

⁵ - العقيلي، نجيب، المستشرقون، المرجع السابق، ص 16-17.

المطلب الثالث: الاستشراق البريطاني في القرن العشرين:

حافظت اللمسات الكنسية والذوق المسيحي على وجودها في الطرح الاستشراقي البريطاني المعاصر من باب الولاء والاعتراف بفضل الكنيسة وما قدمته من دعم مادي ومعنوي وغطاء مؤسسي أتاح للاستشراق أن يؤكد فضله ويملك حق تبرير تعسف وجرائم الاستعمار، في القرن العشرين " كما حافظ على نفس الأهداف والدوافع، ولكنه يتفوق على ما سبقه باتساع نطاقه، وعمق جهوده، وزيادة العاملين في هذا المجال، وزيادة عدد المؤسسات الجامعية ومراكز البحوث المهمة بهذه الدراسات"¹.

يعتبر الاستشراق البريطاني عموماً المرجع الرئيسي لكل المدارس الأوربية لما له من سبق الدراسات في مجال اللغة العربية بالخصوص لما لها من ارتباطات بشتى المعارف، لأنها لسان حال المعارف الشرق أوسطية، ولذلك أكسب الاستشراق من خلال اهتمامه باللغة العربية بريطانيا وزناً في مجالات الدراسات الاستشراقية لذلك "كان أبرز نموذج لدراسة الاستشراق الأوربي هو الاستشراق الانجليزي لكونه الأقدم والأعرف والأكثر انجازاً والأكبر حجماً في مجال ظهور المستشرقين"² إضافة إلى تنوع أنماطه ومناهجه.

فقد اعتمد في هذه المرحلة على جذب الطاقات الحية في العالمين العربي والإسلامي، من خلال تسهيل وتشجيع الانضمام إلى بعض المراكز والمدارس التي ادعى أنها تعمل في مد الجسور بين أوربا والآخر بشقيه، العربي والإسلامي، بل تعدى ذلك إلى الإشارة إلى البعد الإفريقي مثلما حصل مع (مدرسة الدراسات الشرقية الإفريقية) التي حدد تقرير حكومي مجالات اهتمامها المتلخصة في الترجمة والتاريخ والمعاجم والعلوم الاجتماعية، والمجالات العلمية البحتة، دون إغفال الحركة التجارية.

كما نصح التقرير بضرورة " الاهتمام بالمكتبات في الجامعات ولا بد من زيادة الاعتمادات المالية لشراء الكتب ولزيادة التبادل، والإعارة بين المكتبات في بريطانيا، فضلاً عن تعيين أساتذة من هذه الدول ليقدموا معلومات حديثة عن بلادهم ولغتهم وأن يكونوا شباباً (رجالاً ونساءً) ويمضوا مدة ثلاث أو خمس سنوات في بريطانيا، وأن لا يُعيّن إلا من كان صاحب مستوى

¹ - مطبقاني، مازن صلاح ، الاستشراق والاتجاهات الفكرية المرجع السابق، ص 32.

² - الدليمي، كامل حسن ، بين الاستشراق والغزو الفكري، موسوعة الاستشراق، المرجع السابق ص 757.

رفيع¹ كما حددت اللجنة الجهات التي هي في حاجة لنتائج الدراسات الاستشراقية، والتي شملت كل القطاعات الحكومية (الأمنية منها والمدنية) وتعدت إلى الجمعيات الثقافية والدينية التصيرية وحتى التربوية والشركات التجارية.

إلى هذه اللحظة، بقي الاستشراق الانجليزي جهدا ومشروعا ذاتيا وحافظت الدراسات الاستشراقية على ذوقها الأوروبي المحض، إلى ما بعد منتصف القرن العشرين، الفترة التي بدت أوروبا أنها ليست وحدها في تقرير المسائل العالمية ، وهي المرحلة التي انفرط فيها عقد المستعمرات الأوربية في القارتين (الإفريقية والآسيوية).

وكآخر سلوك استشراقي بريطاني، أنشأت المملكة المتحدة " لجنة أخرى برئاسة (هاتيز سنة 1961م) لإعداد تقرير عن الدراسات العربية والشرقية، وكانت للجنة هذه المرة قد حصلت على دعم من مؤسسة (روكفلر Rocefeler)² الأمريكية، وقامت باثني عشر جامعة أمريكية (عشر جامعات في الولايات الأمريكية، واثنان في كندا)³.

من هنا، دخل الاستشراق البريطاني مرحلة (الشراكة العلنية) في كل ما له علاقة بالدراسات الاستشراقية، وللتذكير فإن الشريك قد فرضته التطورات العالمية تربطه بالمملكة المتحدة، وشائج عقائدية وأمال إيديولوجية دفيئة، لخصها وعد "بلفور 1919م" الذي كان أشهر قرار (سياسي وعسكري) اتخذته الخارجية البريطانية آنذاك، عندما كانت المملكة أهم قطب عسكري وسياسي بشراكة فرنسا بعد إسقاط الإمبراطورية العثمانية بدور فاعل من بريطانيا.

الإمبراطورية العثمانية التي كانت تمثل "آخر دولة من تلك الدول التي بسطت نفوذها على العالم العربي، وارتبط بها مصير الأمة العربية حتى يقظتها الحديثة أو هي دولة الخلافة العثمانية"⁴.

ولأن العنصر الجامع بين هذه الفسيفساء البشرية، كان هو مصطلح 'الخلافة' وبما يعنيه من بعد روحي، وانقياد أخلاقي، والتزام حضاري، وسبق عسكري، فإن بقاء هذا النموذج إهانة

¹ - Report of the Interdepartmental commission of Enquiry on Oriental, Slavonic, European and African Studies (London, 1947) P. 32,35.

² - مؤسسة (روكفلر): 37، Standard Oil كان يستولي في سنة 1880 على 75% من مصانع تكرير النفط و 90% من انابيب النفط و 95% من السوق العالمية.

André Pertuzio, La Problématique énergétique des états unis, in : Revue Géostratégique, N9, Octobre 2005, P196.

³ - Report of the sub -Committee on oriental, East European and African Studies (London 1961), P.3,5.

⁴ - عبد القادر، محمد الخير ، نكبة الأمة العربية بسقوط الخلافة العثمانية، دراسة للقضية العربية في خمسين عاما (1875-1965م)، القاهرة، دار التوفيق النموذجية للطباعة والجمع الآلي، ط1، 1985م، ص 15.

لأوروبا عموماً وبريطانيا على الخصوص، وبما أنها الأقدر والأعرف بالشرق - كما سبق ذكره - فإنها " لم تأل جهداً في استغلال قرار حكام العرب - الثورة على حكم الأتراك الاتحاديين - وتوجيهه لتحقيق مآربها، رافعة شعار استقلال البلاد العربية وإحياء الخلافة في دار العروبة، فكانت الخديعة الكبرى التي واجهتها الأمة العربية في تاريخها الحديث"¹.

المطلب الرابع: الاستشراق البريطاني الأكاديمي:

وإذا كان الاستشراق عموماً قد أخذ صوراً مختلفة كالرحلات والاستكشافات والدوافع الدينية (الفردية والجماعية)، فإن العملية الأكاديمية تختلف عما سبق، فالجهد الأكاديمي يتمتع بدقة الحسابات، وقيمة النتائج، وأهمية التخطيط الأمر الذي يجعل منه "المنهج الأرصن والأهم، وكل الأنماط السابقة والمناهج إنما ترجع في نشأتها إليه، فغالبا ما يتلقى المستشرق السياسي أو الديني وإلى حد ما الأدبي عملية إعداد تمهيدية أساسية على يد نظيره الأكاديمي"².

وجد الاستشراق البريطاني الأكاديمي في الجمعيات والمدارس التي أنشئت سابقاً، المادة الأولية لصياغة نمط جديد من حركة استشراقية إستراتيجية فاعلة كمدرسة "الدراسات الشرقية الأفريقية" التي وصل عدد العاملين بها سنة 1961م إلى أكثر من العدد الإجمالي للعاملين في الحقل الاستشراقي آنذاك.

ومنها استحدث الاستشراق الأكاديمي تحت رؤية ومراقبة الجامعات ما يعرف الآن 'بمراكز الدراسات الإستراتيجية' التي عوضت مصطلح 'الثكنة' عند العسكريين، ومصطلح 'المدرسة' عند المبشرين، وكان أول سلوك استشراقي أكاديمي حينما تعتمد الدولة، أو أحد رموزها خيار تمكين أصحاب الفكر من بعض المسؤوليات السياسية أو العلمية، بمعنى: تمكين الفكرة الفردية من المنصب الرسمي الفاعل، " الأمر الذي تجسد في قرار 'توماس أدامس' وهو رئيس بلدية لندن 'منحة مالية إلى جامعة كمبريدج لتأسيس كرسي للغة العربية فيها، ثم بعد أربع سنوات 'وليم لود' رئيس أساقفة كانتربري هذا حذوا آدمز حينما قدّم منحة مالية مماثلة لإقامة كرسي للعربية في أكسفورد"³ وكان ذلك بين سنتي 1932م-1936م، واستحدث كرسي تخصص ما في جامعة عريقة مثل (كمبريدج أو أكسفورد) يحتاج إلى استشارات ودراسات إستراتيجية معمقة لأنه يعني الكثير لتوجه الدولة الإيديولوجي والمالي، فضلاً أن يكون لدراسة "اللغة العربية"، كما تدرس

¹ - المرجع السابق، ص 11.

² - الدليمي، كامل حسن، موسوعة المستشرقين، المرجع السابق ص 759.

³ - آربي، المستشرقون البريطانيون، ترجمة: حامد الغامدي، لندن، 1946، ص 166.

التخصصات المؤهلة لهذا المنصب بحذر، لأنه ليس ملاً لكرسي شاغر، بل منصب أقيم من أجل مشروع" وهو معرفة الآخر من خلال التحكم في آليات تواصله وهي "اللغة".

تعاقب على هذه الكراسي فطالحة الاستشراق، وكان أكثرهم فاعلية المستشرق "بوكوك 1604م-1691م"¹ فقد درس تاريخ العربية في إنجلترا خلال القرن السابع عشر، وكان عمله غزيراً لمعرفته بالعربية والتأليف، ونشر 'لامية العجم للطغرائي' و 'مختصر تاريخ الدولة' لابن العبري وغيرها² وقد تنوعت الاهتمامات البريطانية الأكاديمية بالظاهرة العربية والإسلامية من حيث الثقافة والعادات والتقاليد فضلاً عن اللغة.

أخذ جهد الاستشراق في التركيز على مفاتيح العلوم والمعارف وهي الترجمات والمعاجم التي تعرف بقدرتها على توجيه معنى 'مفردة' ما حسب المعنى المرغوب فيه، فقد كان المستشرق "إدمون كاستل 1606م-1685م"³ أكثر نشاطاً من سابقه وألف قاموساً مشتركاً لعدد من اللغات الشرقية، وظل يعمل ثمانية عشر عاماً من العمل المضني، وكتب عام 1955م "مقدمة لقراءة اللغات الشرقية" وهي قواعد لدراسات اللغات الشرقية⁴.

وبحلول القرن التاسع عشر لم ينقطع الاهتمام الاستشراق البريطاني بالشرق بل زاد تركيزاً على خصوصيات المشاركة من خلال بعض الرحلات فقد ظهر في هذا المجال "أدوار نين"⁵ الذي ألف كتابه "الشهير (طبائع المصريين وعاداتهم وشمائلهم في العصر الحديث) وصف مصر بالاعتماد على الملاحظة المهمة من خلال رحلاته (1833-1834، 1834-1835) وله القاموس العربي-الانجليزي مكث سبع وعشرين عاماً في إعداده، واستند فيه على 'تاج العروس' للزبيدي⁶.

وفي نهايات القرن التاسع عشر التي تُعتبر آخر طبعات الاستشراق البريطاني بلامحه الذاتية وأثره الخصوصي في هذا النوع من المعارف، لمعطيات دولية وإقليمية أجبرت كثيراً من المستويات الأوروبية للانسياق ضمن طرح معرفي عالمي جديد، فقد ظهر في هذه الفترة المستشرق

¹ - بدوي، عبد الرحمن ، موسوعة المستشرقون، ص،90، 92.

² - الدليمي، كامل حسن ، موسوعة المستشرقين، المرجع السابق ص 759.

³ - كاستل، إدموند: E-Gastell 1606-1685 مستشرق إنجليزي، تخرج من كمبردج، قضى ثماني عشره سنه في تصنيف (معجم اللغات السامية السالميه) لبيع لغات ومن 1651-1969 حيث أنفق جميع ثروته، عين كاهنا خاصا للملك (1666) ثم راعيا لكاتدرائية (كانتيري) ثم أستاذ اللغة العربية في كمبردج 1667، ترجم الثورات 1657، نجيب العقيقي ج2، ص 42-43، ط5، المعارف القاهرة 2006.

⁴ - الدليمي، كامل حسن، موسوعة المستشرقين، المرجع السابق ص 759

⁵ - لين، إدوار: Edward William lune 1801-1876 مستشرق إنجليزي عرف بالرحلة وخاصة إلى مصر 1825 وأصابه المرض هناك ، ترجمة (ألف ليله و ليله) 1838-1840، و"تاج العروس" للمرتضى الزبيدي ثم "القاموس العربي الفارسي" لابن معروف و"تعريفات الجرجاني" و "مقدمة الأدب للزمخشري" : عبد الرحمن البدوي، ص 523.

⁶ - جحا، ميشال ، الدراسات العربية الإسلامية في أوربا، المرجع السابق ص 100.

"أنطوني بيفان 1859م-1933م"¹ الذي درس العبرية ثم اللغات السامية في (ترنتي) في كمبردج، ففي عام 1893م، أصبح أستاذ كرسي اللورد "منير"، وبقي حتى وفاته حيث درس التاريخ العربي القديم"²، بالإضافة إلى الجهود الفردية الأكاديمية التي وردت كنماذج فقط من الاستشراق البريطاني الأكاديمي، فإن الجهد المؤسسي حاضر من خلال ما نشرته جامعة كمبردج حديثاً والمتمثل في "تاريخ كامبردج للإسلام" وكان في مجلدين، ظهرت طبعته الأولى سنة 1970م، وهو جهد جماعي قام به عدد من نجوم الاستشراق البريطاني بتوجيه ورعاية من إدارة الجامعة.

كما أسهمت من جهتها مدرسة " الدراسات الشرقية والإفريقية " بجامعة لندن بمجلد ضخم بعنوان "الثورة في الشرق الأوسط" وبعض الأنشطة في نفس السياق.

المطلب الخامس: طبيعة الاستشراق البريطاني وأهم ملامحه:

أدى السبق البريطاني في الاهتمام بالشرق إلى اكتسابه طبيعة خاصة، منحتة صفة "التركيب" حيث يستشعر الدارس له عدة أدواق في فكرة واحدة تدل على جدية العمل والحقبة الزمنية التي استغرقها إنتاج هذه المعارف وإن كانت بعض هذه الخصائص قد أُشير إليها من خلال الحديث عن نشأة وتطور الاستشراق وعند الحديث عن رموزه في ما سبق ومشاريعهم وتكوينهم، فإننا نستطيع تلخيص هذه الطبيعة وتلك الملامح في النقاط التالية:

1- الطبيعة الدينية (الدافع التنصيري):

" لا يكاد الاستشراق الانجليزي يختلف في نشأته كثيرا من غيره من مدارس الاستشراق الأوروبي في الاهتمام بالجانب الديني، حيث بدأت الدراسات العربية الإسلامية في أوربا بدافع ديني بحث لمعرفة الإسلام معرفة تفصيلية لتحقيق هدفين:

أولهما: تصوير الإسلام بصورة كريهة لتنفير النصارى من الإقبال عليه، وذلك بالتعرض للرسول (صلى الله عليه وسلم) والقرآن الكريم والشريعة الإسلامية"³.

¹ - بيفان، أنطوني أشلي - 1933-1859 Anthony Ashley Bevan: مستشرق انجليزي عالم بالكتاب المقدس، ولد في ترانت بارك Trent Park في 1859/05/19، التحق بجامعة، تتلمذ على نولده، ثم التحق بجامعة كمبردج 1884 بكلية (الثالوث) حقق (لقضاء جرير والفرزدق 1905-1912) له مقال بعنوان "عقائد المسلمين الأوائل فيما يتعلق باليوم الآخر" في مجلة اللاهوت 1904 (أكتوبر)، له (موسوعة الدين والأخلاق) و (موسوعة الكتاب المقدس) توفي في كمبردج. عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، مرجع سابق، ص 152.

² - سعيد، إدوارد، الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء، بيروت، دار صعب، ط1، 1981، ص 75.

³ - عبد الحميد، عرفان ، المستشرقون والإسلام، بيروت ط3، 1983، ص12.

وأما الهدف الثاني فهو جهد معرفي أكاديمي انبرى له المستشرقون الذين أصبحوا أشخاصا غير مرغوب فيهم بالتعبير الدبلوماسي - داخل المجتمعات الإسلامية، باعتبار أن سلوكهم يفسر بأنه نوع من الاعتداء على دين ومذاهب الأمة، فقد تولى المستشرقون هذا الدور "وكان مهمهم التعرف إلى الإسلام بغية كشف أسراره، والتعرف إلى سر عظمته، وتلمس مواقع القوة والضعف فيه، توطئة للقضاء عليه إما بتتصير أتباعه أو بالاستيلاء على أراضيه"¹.

بقي الهدف الديني مرافقا لحركة الاستشراق البريطاني بقاء إشعاع الشرق واستقطابه، سواء في سلوكه الفردي أو الأكاديمي حتى عند من يرى بدايته "من دوافع ذاتية تمثلت في اتصال العلماء البريطانيين بالأندلس وصقلية لتعلم اللغة العربية والاطلاع على الفلسفة اليونانية من خلال ما تُرجم منها إلى العربية، ثم تطورت هذه الدوافع بعد ذلك إلى دوافع دينية كان الهدف منها تنشيط حركة الإرساليات التنصيرية"².

ويقر بهذا الهدف حتى بعض المستشرقين أنفسهم، ويؤكدون مطابقة الأهداف الاستشراقية " خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، وكما في العصور الوسطى، ظل الهدف ألتنصيري دافعا مهما للدراسات الغربية، لكن أهداف حملات التنصير تغيرت منذ العصور الوسطى"³.

2- نماذج من المستشرقين المنصرين:

الحديث عن رموز الاستشراق التنصيري يفرض الإشارة والوقوف عند المستشرق "وليام بدويل-William Bedwell 1561م-1632م" الذي عمل راعيا لكنيسة (سنت ايثبورج ST Etelberg) وجمع إلى عمله الكنسي، دراساته وبحوثه في اللغة العربية، وكتابه عن الرسول (صلى) الطبعة الأولى والثانية بعنوان: Mohammedis Imposturac Mohamet Unmasled الذين أشبعهما حقدا على الإسلام، ثم جاء كتابه الأخير " اللقاء الروحي Spiritual Conference"⁴.

نموذج ثان يُمثله المستشرق " أبراهام ويلوك Abraham Wheelock 1593م-1653م) الذي تخرج في كمبريدج، وعُين أستاذا في كلية (كلير)، وعمل راعيا لإحدى كنائس كمبريدج من (1622م-1642م)، كما عمل أستاذا لكرسي اللغة العربية في كمبريدج"⁵.

¹ - الحاج، ساسي ، الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية، المرجع السابق، ص 139.

² - الزبيدي، محمد فتح الله ،الاستشراق: أهدافه ووسائله...، المرجع السابق، ص 73.

³ - P.M. Holt "the origins of Islam Studies" in Al Kulya (Kartum) N⁰ 1 1952., PP:20-27

⁴ - ALastair Hamilton, william Bedwell the Arabist , P: 65,68

⁵ - العقيقي، نجيب، المستشرقون، المرجع السابق، ص 50.

ولم يقتصر الدور الاستشراقي على دور "رعاية" الدور والكنائس، الذي قد يكون منطلقه الانتماء لدين الكنيسة وقد يقوم به الفرد المتدين من باب التطوع والسلوك الاجتماعي، بل تعدى دور الاستشراق إلى تصدُر وشغل مراكز حساسة ورسمية في الكنيسة، بل أعلاها وهي رئاسة الكنائس والإشراف على كل أنشطتها، فهذا "المستشرق (سيمون أوكلي Sumon Ockley 1678م-1720م) الذي درس في كمبريدج، وعمل راعيا (لسوانسي)، ثم رئيسا لقساوستها، بالإضافة إلى ترجمته لتاريخ (أبي الفرج ابن العبري) إلى اللاتينية¹ وغيرهم من المستشرقين الذين كان لهم نفس الدوافع من أمثال: جوزيف وايت Joseph White 1746م-1814م، وزميله ألكسندر نيكول Alexander Nicoll 1793م-1828م، وجيمس روبنسون Jamesse Roenson وغيرهم.

3- الطبيعة السياسية والاقتصادية الاستعمارية:

نظرا للدور المهم الذي لعبه الاستشراق في بسط نفوذ بريطانيا على مستعمراتها، وفاعلية رواده في تأدية مهامهم على أكمل وجه وبصورة مدروسة، لذلك الغرض "انخرط بعض المستشرقين الانجليز في السلك العسكري والدبلوماسي وعملوا ضباطا أو مستشارين في وزارتي الخارجية والمُستعمرات البريطانية، ومن هؤلاء: ريتشارد بورتين 1821م-1890م²، وواطسون³ 1844م⁴ وغيرهم⁵.

وبزيادة النشاط التجاري بين بريطانيا ومُستعمراتها، فقد كان للاستشراق الدور المهم في ربط الاقتصاد التجاري بين مملكتهم ومُستعمراتها، حيث ركز في دراساته للشرق على خصوصية كل بلد في عاداته وتقاليده وطريقة حياته وأساسيات مجتمعه في المأكل والملبس والإنفاق، فقدّم الاستشراق تقريره في هذا الشأن، فقد "تأسست سنة 1581م، الشرق اللندنية The Levant Company of London التي بدأت في مد النفوذ البريطاني إلى مناطق محتلة من العالم الإسلامي، وتحولت

¹ - المرجع السابق، ص 41.

² - بورتين، ريتشارد: 1821-1890 مستشرق انجليزي ذائع الصيت، درس في أوكسفورد وخدم الجيش البريطاني في الهند، استطاع دخول بعض الأماكن المقدسة في البلاد الإسلامية و لُقّب بالحاج عبد الله وعمل قنصلا عاما في الشام، ترجم ألف ليلة و ليلة، ووصف رحلته إلى مكة في ثلاثة كتب، أنظر ميشال جحا، الدراسات العربية، مرجع سابق، ص: 39.

³ - واطسون، تشارلز مور: sir Charles moore whatson 1844، مستشرق إنجليزي تخرّج من جامعة دابُلن، رحل كثيرا إلى البلاد العربية، عمل في الجَيْشَيْن المصري و البريطاني، لُقّب بواطسون باشا نتيجة ما أسداه للدراسات الشرقية، ميشال جحا، الدراسات العربية، مرجع سابق، ص: 40.

⁴ - الزيايدي، محمد فتح الله، الاستشراق: أهدافه ووسائله، المرجع السابق، ص 73.

⁵ - المرجع السابق، ص 73.

الشركة إلى ما يُسمى (شركة الهند الشرقية) عام 1750م، وكانت هي التي تولّت النفوذ البريطاني على الهند، حيث تسلّمت الحكومة البريطانية الأمور منها - من الشركة - عام 1857م¹.

ولعب التّوجيه الاستشراقي الأكاديمي دورا استراتيجيا في معرفة الاهتمامات الاقتصادية لشعوب المناطق المستعمرة من خلال احتكاكه بأهالي الشرق، فقدّم مشاريع إستراتيجية هادفة إلى حكوماته، بل كان "رجال السياسة القائمون بنشر الاستعمار في البلاد الإسلامية يتوجهون إلى المتخصصين في الدراسات الشرقية ليسنّمُوا من كُتُبهم ما لا بُدَّ منه من المعلومات لتدبير شؤون الأهالي"².

كان لسلوك الرّبط بين الطبيعة السياسية والاقتصادية للاستشراق البريطاني الذي تولّدت من الطبيعة الكلاسيكية وهي (الدينية والتصويرية)، ظهور حثّمية إستراتيجية في دراسة الشرق في سياق كانتونات إقليمية مُركّزة، الأمر الذي استدعى إنشاء فرع معرفي انتشر من جديد عُرف (بالدراسات الإقليمية)، وكانت حملة نابليون على مصر سنة 1798م بمثابة إنذار لبريطانيا حتى تعلم أنها ليست وحدها في السّاحة الاستعمارية، وأن الأراضي التي تضمن أنها تحت نفوذها وسلطتها غير مضمونة، فهي تحتاج إلى تثبيت أقدامها وذلك من خلال زيادة معرفتها بدقّة مُتناهية، و لذلك كان هذا الفرع الذي يهتم "بمعرفة فُطر بعينه تُيسر سبل الهيمنة الراعية عليه أكثر من السلاح والمال، والمعرفة في نظر المستشرقين تعني الاهتمام بشئى جوانب التاريخ والحضارة المُتصلة بمنطقة معينة منذ بدايتها ومرورا بفترة ازدهارها وانتهاء إلى فترة ركودها وانحسارها، بل إن المعرفة عندهم تجاوزت الإلمام بالوضع الحالي إلى الوضع المُستقبلي لمنطقة معينة"³.

ولم يكن الاستشراق البريطاني في غفلة عن موقع الخليج العربي الجغرافي أنه أكبر سفينة عائمة على محيط من النفط، ولذلك "ساعد الاستشراق الامبريالية في جعل الاحتلال أكثر مشروعية -في نظرهم- حيث اشترك بعض المستشرقين اشتراكا مباشرا في مساعدة الإدارات الاستعمارية بتقديم تفسيرات لكيفيات تفيد فهم المواطنين للإسلام"⁴.

¹ - مطبقاني، مازن صلاح ، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي ، المرجع السابق ، ص 41.

² - أركون، محمد، الدراسات العربية الإسلامية في أوروبا، في مجلة الأصالة، الجزائر، العدد 44، مجلد 6، ربيع الثاني 1397هـ، أبريل 1977م، ص 93-103.

³ - فرسوني، فؤاد ، بين الدراسات الإقليمية والدراسات الاستشراقية، في عالم الكتب، الرياض، مجلد 5 العدد 01، رجب 1404هـ، أبريل 1984م، ص 37.

1- Asef Hussain, " the Ideology of orientalism " in Orientalism, Islam, And Islamists (ed, A,Hussain et al, (Vermont, USA: 1984). PP -5-23.

ومن بين هؤلاء نموذج من المستشرقين الذين كان لهم دور كبير في أهم المراحل المفصلية للأمة العربية والإسلامية حيث سَخَّرُو معارفهم لخدمة لحظة تاريخية غَيَّرت حاضر وتَحَكَّمت في مستقبل أُمَّم بأكملها، فقد كان للمستشرق " إدوارد هنري بالمر Edward Henry Palmer 1840م-1882م الذي كلفه رئيس الوزراء البريطاني آنذاك (جلادستون) بعدة مَهَمَّات في مصر، ومن بينها تَخْذِيل العرب عن تأييد ثورة عرابي"،¹ الأثر البالغ في إحكام القبضة على مصر.

وإذا كان جهد (إدوارد هنري بالمر) يَنْدَرُج في إطار مُخْرَجَات " الدراسات الإقليمية " التي كانت مصر ساحتها، فإنَّ من جهود المستشرقين الاستعمارية التي تُعْنَى وتهتم بتدمير حضارات بأكملها ، و تفتيت إمبراطوريات، ما جسده أحدهم و هو المستشرق " ت لورانس " T.E Lowrance " 1888 -1935² الذي درس في أكسفورد، ثم التحق بالجيش وكان له دور بارز في الثورة العربية ضد الدولة العثمانية، وكذلك المستشرق (وليام بلنت 1840-1922م)³ الذي عمل في السلك الدبلوماسي، وكان مُهْتَمًا بتدمير الروابط الدينية بين العرب المسلمين والترك، مناديا بأنَّ الخلافة من حق العرب"⁴.

4- الطبيعة الاستعمارية ودعوى التفوق:

يُنْتَابُ الغربَ إحساس مُطَرَّد بالأفضلية في أي مجال مقارنة مع العرب والمسلمين، بل تعدَّى ذلك إلى أن أصبح ذوقا وسلوكا تَصْطَبُغُ به ممارساته حتى في مجال ليس للغرب فيه أي أثر يُذَكِّر، أو حتى لا تحتل طبيعته أي فكرة عن المقارنة، فقد كان اللّون المعرفي (الاستشراق) أحد أهم مؤسسي وداعمي ورعاة هذه النُّبْرَة الاستعمارية "حيث كَرَّس الاستشراق الانجليزي دعوى نزعة تَفُوق الغرب على الشرق في ميادين الحياة كلها، وأنَّ سبب تَفُوق الغرب يعود إلى الديانة النصرانية، بينما يرتبط تخلف الشرق بتمسكه بالإسلام"⁵.

¹ - Asef Hussain, Western Conflit with Islam, (Leicester 1990), P:18

² - ت- لورانس T-Laurance: 1888-1935م، شخصية استشراقية شهيرة، ارتبط اسمه بالعرب حتى سُمي (لورانس العرب Lawrance of Arabia)، لعب دورا في تصوير البيئة العربية والبنية السياسية، عمل في الجيش الانجليزي وتقلد رُتبا مُهمَة، له (أعمدة الحكمة السبع) (القلاع الصليبية) المستشرقون، نجيب العقيلي، المستشرقين، مرجع سابق ص 115.

³ - بلنت، وليام: (1840-1922م): مستشرق إنجليزي، تلقى العلم في (ستونيهرست وأوسكوت) التحق بالسلك الدبلوماسي

1858م، طاف الشرق الأوسط وشمالى افريقيا وزار نجد والعراق والهند، عارض الاستعمار الانجليزي لمصر والهند وايرلندا، تكلم العربية له: (مستقبل الإسلام، لندن 1882)، (خواطر الهند 1885)، (التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر 1907) نجيب العقيلي: المستشرقون، ج2، ص المعارف، القاهرة ط05، 2006 ص 66.

⁴ - Asef Hussain, Western Conflit with Islam, op.cit, P:19

⁵ - مطبقاني، مازن صلاح ، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي ، المرجع السابق، ص 45.

وربط النَّفَوقَ المطلق - المزعوم- بالالتزام بالديانة المسيحية ربط يُجافي الحقيقة، لأن النَّفَوقَ المُعلن أساسه علمي، والكنيسة الجهة الممثلة للنصرانية في علاقة عدائية رسمية مع العلم والمعرفة - إلا إذا كانت العلاقة السلبية تُنمّر حضارة وتُفوّقا لأنه " ما أن أخذت الكنيسة بزمام القيادة في أوربا، وما أن سقطت الإمبراطورية الرومانية حتى قامت هذه الكنيسة بإزالة جميع أنواع التعليم، والتقنيات، والعلوم، والطب، والتاريخ، والفن، والتجارة"¹.

لهذا الرِّبَط - الخاطئ- أبعاد وأهمها البُعد الدَّعوي للنصرانية والمتمثلة في حملة تَغريب الأفكار والسلوك التي تعرضت لها المجتمعات الشرقية ردحا من الزمن، تحت مغالطة أن الحضارة والنَّقْدَم خصوصية أولية للغرب كجنس وللمسيحية كدين، ولمن صدَّق بهذين الأمرين من المشاركة.

ثم إن ردَّ تخلف المشاركة - العرب المسلمين- عائد إلى إيمانهم بشريعة الإسلام وانتمائهم إليه، ردُّ لا يقبله كثير من المسيحيين الذين أرخو لعلاقة الإسلام بالمعرفة، وجهود من حكموا باسم الإسلام في إرساء وتوطيد وترسيخ علاقة مستدامة وبنائة وفاعلة.

ثم إذا كانت المسيحية هي سبب هذا النَّفَوق ، فماذا يُمكن القول عن المسيحيين المشاركة الذين كانوا أكثر تمسكا من غيرهم، ولماذا تم تجاوزهم وإقصاؤهم؟! .

أم أن حقيقة هذا الاستعلاء هو عرقي صرْف، دَعَمه النَّفَوق المادي والفتح التكنولوجي، أسنَّمت رَدَّائهُ في جوانب متعددة أهمها العقائدية.

لقد قدّم الاستشراق لهذا الهوس النفسي ما يُوجِّهه في الشعور الغربي، بل ما يجعله جزءا لا يتجزأ من البنية الفكرية والشعورية للفرد الغربي، بما قدّمه له من مثالب وزوايا مظلمة عن الحياة الشرقية، وبما سكت عنه من لوحات مُشرقة ورائدة.

"إن جوهر الاستشراق هو التمييز الذي يستحيل اجتنائه بين الفوقية الغربية والدونية الشرقية، ثم ان الاستشراق في تناميهِ وفي تاريخه اللاحق، قد عمق هذا التَّمييز، بل أعطاه صلابة وثباتا"².

وعمل الاستشراق على تأصيل هذه النزعة في أي سلوك غربي - بغض النَّظَر عن نتائجه-، فكوّنه من إصدارات الغرب يُغنيهِ عن المُساءلة، ويُكسبه التقييم الأفضل عما يُشابهه في

¹ - إيلبري، هيلين ، الجانب المظلم في التاريخ المسيحي، تر وتقديم: أ. د/ سهيل زُكَّار، دمشق، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 2014، ص 16.

² - رشق سعد، خير الله ، الاستشراق: منهجية الثعالبي على تراث الشعوب، في مجلة دراسات عربية ص 40، عدد 09، جويلية 1990.

الشرق، لأنه يكفي لضمان هذا الاستعلاء وجود علاقة -حتى محتملة - مع الشرق، ولذلك اعتمد الاستشراق "بطريقة مُطَرَّدة على سياسة وضعية النَّفَوق ' المرنة ' ، والتي تضع الغربي في سلسلة علاقة ممكنة مع الشرق دون التنازل عن فوقية الغربي"¹.

هذه الطبيعة وليدة لحظة في بدايات ارتباطها بالشعور الغربي، لكن الاستشراق البريطاني جعل منها حالة مُستدامة مصاحبة لكل لقاء بين الشرق والغرب، من خلال دراساته المُركَّزة والمُوجَّهة، بل حالة لازمة تُؤطر مُجريات العلاقة بين الطرفين.

5- الطبيعة التخصصية التحليلية:

اهتم الاستشراق البريطاني بوسائل فهم الآخر قبل أن يدرس إنتاجه، فركَّز على آليات إنتاج الفكرة عند الآخر وماذا تمثله الأدوات العقلية ومنتجاتها عند المشاركة، فكان المنهج التحليلي مركزا على "طبيعة الفكر، وقوانين المنطق، والإنسان، والعلاقات بين أفكارنا والواقع، وطبيعة الحقيقة، ومدى صلاحية مختلف المناهج التي نستخدمها في الوصول إلى الحقيقة أو المعرفة"².

فقد قاده التركيز على طبيعة الفكر عند الشعوب الإسلامية إلى المعرفة البدائية والنظرة للحياة عند عدد من تلك الشعوب قبل دخولها تحت مظلة الإسلام، فحلَّ وسائل عودتها وأسباب استئثار ذلك، فما كان عليه إلا أن "عالج تاريخ الشعوب، وسعى جاهدا إلى عزل تاريخ كل شعب عن الآخر تمهيدا لتحقيق الهدف السياسي البعيد المدى، كما قام بتناول تاريخ كل شعب على حدة بعيدا حتى عن التاريخ الإسلامي الذي يُوحِّدُ جذور تلك الدول ويوثق علاقاتها ببعضها"³.

فالعودة في قراءة تكوين هذه الشعوب إلى بداية تكوينها، وتحليل بنيتها الفكرية يُعطي نتائج أفضل وأقرب إلى الحقيقة من قراءتها وتحليلها على الصورة النهائية كمجتمعات مُسلمة تحكمها القيم والمبادئ، ومنه يسهل على الاستشراق أن يُخادع الشعوب ويدفع بها إلى إنكار المقدس، أو استخدامها كأداة في تخريب والقضاء على الرمزية الذاتية كما حدث مع القوميون الذين صدَّقوا بأحجية " الخلافة العربية " فكانوا مَعَاوِلَ أُسْقِطَتْ تحت ضرباتها آخر حصون " الخلافة الإسلامية " بتوجيه إستشراقي بريطاني ماهر.

¹ - سعيد، إدوارد، الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء، مرجع سابق، ص 07.

² - سمايلوفيتش، أحمد ، فلسفة الاستشراق وأثرها على الأدب العربي المعاصر، القاهرة، 1980م، ص 200 وما بعدها.

³ - فضيل، حيدر تقي ، البعد السياسي في الفكر الإستشراقي ،موسوعة الاستشراق، معاودة نقد التمرکز الغربي، وكشف التحولات في الخطاب الكونيلياي، تاليف مجموعة من الاكاديميين، اشراف وتحرير د. عامر عبد زيد الوائلي، طالب المحييس الوائلي، الجزائر ابن نديم للنشر والتوزيع الطبعة الاولى ، 2015م، ص 732.

فقد قُدمت تبريرات أُخذت بعين الاعتبار - عن طريق التحليل - علاقة العرب بالخلافة وفُرِيهم من صاحب الرسالة (صلى الله عليه وسلم)، ونزعة العربي وحبه للتبجيل، وانتصاره لعروبه التي شرفها نزول القرآن بلسانها، وغير ذلك من الأوتار التي يُدْعَدُ لحنها مشاعر العربي فيفقد صوابه.

كل ذلك ناتج عن دراسة تحليلية تخصصية يعتمدها الاستشراق في قراءته لواقع الآخر ونفسيته ومحيطه.

ومما زاد الاستشراق البريطاني فعالية إنشائه لفرع " الدراسات الإقليمية " التي تُعتبر أول سلوك تخصصي، حيث يستفرغ المستشرق جهده في إقليم جغرافي ضيق، حتى يُمنح الوقت الكافي للإحاطة بكل ماله علاقة بذلك الإقليم، الذي قد يكون بلدا واحدا، وبعد النتائج الجيدة لتجربة التخصص الجغرافي، أُسقطت التجربة على المعارف الإسلامية بعد أن كان المستشرق يتعامل مع كل ما هو معرفي باعتباره إسلاميا أصبح التخصص الاستشراقي يربط المستشرقين ومجموع التخصصات الإسلامية.

فأهتم بعض المستشرقين بدراسة القرآن والتخصص فيه وترجمته، وهي أولى أعمال الاستشراق البريطاني بعد الاهتمام باللغة العربية، وظهر كذلك مستشرقون مختصون في دراسة السنة النبوية، وآخرون في الفقه الإسلامي، وأصبح الاهتمام الموسوعي من الماضي.

كما تعدى ذوق التخصص إلى المعارف الأخرى، حيث يصرفُ المستشرق كلَّ جهده في دراسة نظام سياسي معين، أو نظام اقتصاد دولة ما، أو النظام الاجتماعي لإقليم مُحدّد.

بل وصل الأمر بالمُتخصصين إلى عقد مؤتمرات وندوات، يحمل كلٌّ منها عنوانا واحدا، يُعالج مسألة محدّدة في دولة واحدة وفي فترة زمنية معيّنة، ومن أمثلة الطابع التخصصي لهذه الأنشطة في الاستشراق الانجليزي، ما تُلخصه نشرية "مركز دراسات الشرق الأدنى والأوسط"، وهي نشرية دورية إخبارية حول الندوات والمؤتمرات والمحاضرات في بريطانيا¹.

¹ - مطبقاني، مازن صلاح، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، المرجع السابق، ص 49.

المبحث الثالث: الإستشراق الأمريكي

المطلب الأول: حقيقة الانتساب و النشأة

المطلب الثاني: الاستشراق الأمريكي (الطبيعة و الإضافة)

المطلب الثالث: البعد السياسي و الاقتصادي في الاستشراق
الأمريكي

المطلب الرابع: خصوصية الإستشراق الأمريكي (الدراسات الإقليمية
و الحركات الفكرية)

المطلب الخامس: الارتباط بالعلوم الاجتماعية (خصوصية
الإستشراق الأمريكي و إضافته)

المطلب السادس: إستراتيجية الجهد العربي و الإستشراق الأمريكي

المطلب السابع: الإستشراق الأمريكي و القرصنة اليهودية

المبحث الثالث: الإستشراق الأمريكي

المطلب الأول: حقيقة الانتساب و النشأة:

نسبة الإستشراق لأمريكا نسبة مجازية، فهي لا تعني نفس المفهوم والقصد في حالة بريطانيا و فرنسا وروسيا وغيرها من المدارس الأوروبية ، حيث تعني النسبة انتماء هذه الظاهرة المعرفية لجذور المدارس الفكرية في هذه الدول، و تشكلها وفق أنماط أخرى معرفية تشترك في التوجهات الأساسية الذاتية لتلك المدارس ، أو أعلامها.

نستطيع القول أن الاستشراق الأمريكي لم يَمُرْ بالمرحلة الكلاسيكية - إن جاز التعبير - لافتقاده العرَاقَة التي تميّزت بها بقية المدارس من خلال رصيدها الفكري في باقي العلوم والفنون القديمة منذ تكوين مجتمعاتها و تدرّجها وفق سُلّم التطور التاريخي، حيث يُعتبر الاستشراق الأوروبي مرحلة مُهمّة في تاريخ أوروبا.

ولأنّ أوربا حازت السبق في الظهور على أمريكا، فقد أُطلق عليها " القارة العجوز " التي احتضنت الإستشراق بين دولها العظمى - آنذاك - " فبقدر ما ثَمَّن المُطَّلِعون أهمية إنجلترا للإستشراق في القرن 18م المُنصرِم و القرن 19 الذي بدأ - آنذاك - فقد آلت القيادة في مُستهل القرن في هذا المجال إلى فرنسا بفضل الإنجازات الخارقة (لأنطوان إسحاق سلفستر دي ساسي 1758-1838)¹ بدون مُنازع "².

الإستشراق حالة فكرية صاحبة الفرد الأوروبي في حله و تَزَحَّاله ، و حربه و سِلْمه، فهي لا تَنفَك عنه و لا تغادر مشاريعه (السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعسكرية في حالة يُعَبَّر من خلالها عن قلقه من (الآخر) واهتمامه بجغرافيته وتاريخه ومعتقداته، لأنّها تُمَثَّل بالنسبة إليه - المِلف الذي يجب الإطّلاع على كل مستنداته و إعادة ترتيبه أو تزوير بعضها إن اقتضت الضّرورة .

استكمل الاستشراق الرّصين من حيث انتسابه للمدرسة الفرنسية مراجله المُشرقة مع فطاحلة الإستشراق الفرنسي بعد (دي ساسي) في شتّى الأغراض رغم ما أنتج من مشاريع

¹ - دي ساسي، سلفستر (Sylvestre du Saci) (1758 - 1838)، شيخ المستشرقين الفرنسيين، ولد في باريس 21 سبتمبر 1758 ، 1765، يُجهل أسانته، كان يلتقي أحد رجال الدين في حدائق (دير سان جرمان)، بدأ تعلم العبرية في الثانية عشر ، تعرف على الراهب (برتو 1781) له : ترجمة رسالتين كان السامريون قد بعثو بهما إلى (سكاليجي Scaliger) في القرن 16 ، درس اللغة العربية 1796 ، له : (النحو العربي)، (مقامات الحريري 1812) كتيبة ودمنه، 1816)) عبد الرحمان بدوي ، موسوعة المستشرقين، مرجع سابق ، ص 334،335 .

² - فوك، يوهان ، تاريخ حركة الإستشراق، الدراسات العربية و الإسلامية في أوروبا مرجع سابق ، ص 141.

خاطئة و موجّهة، إلا أنّ الظاهرة بقيت محافظة على مكانتها ودورها باعتبارها محلّية نابغة من مُخرجات مجتمعية متناسقة، تتشارك القيم و الآمال فكان الإستشراق الفرنسي حاضرا في كل مراحل سطوة فرنسا على مستعمراتها شرقا و جنوبا، بل لم يخلُ أيُّ انتصار فرنسي من بصمة إستشراقية سابقة أو مرافقة للحظة الانتصار.

وحيث أنّ أوروبا قد استسلمت و اقتنعت بمظاهر الشّيخوخة و تجاعيد العجز الرُّوحي التي أفرزها طغيان الثّورة الصّناعية في القرن 18 م وجهد الكنيسة الموجّهة آنذاك، الذي يرمى إلى " اقتناع النّاس بأن الرّب يعيش منفصلا عن العالم المادّي، أرست المسيحيّة- ربما بدون فهم - الأساس للعالم الحديث ، و هو عالم يعتقد أنّه آلي ، و غير محكوم بقدر ، عالم الرّب فيه بعيد جدّا و هو خالق غير متجسّد و صار النّاس يَعْزّون مشاعر عجزهم ليس إلى طبيعتهم الإنسانيّة المدنبة بقدر ما عزّوه إلى عدم أهميّتهم في مثل هذا العالم " ¹ .

و لأنّ الإستشراق يرفض التخلّي عن المهمّة ، فقد ارتحل- كما ارتحلت كل المعاني الأوروبيّة حيث الحياة البكر غربا ليُجعل من أوروبا شرقا للمولود الجديد ، و هذا كلّهُ من تداعيات القلق الحضاري الرُّوحي الذي أحدثه الشّرْقان (الأوسط و الأدنى) في النّسيج المعرفي للفكر الأوروبيّ.

كان الاهتمام الأمريكي قد انصب منذ البداية على الحملات التّبشيرية التي قذفت بها إلى الشرق للتّبشير بالمسيحيّة ² منذ أن وطئت قدم الرّحالة الأوروبي " كريستوف كولومبس" للأرض الجديدة التي جعل منها الأوروبيّون و خاصّة المستشرقون نقطة بعث جديد لكلّ ما هرم في أوروبا و تأثّر بأبعاد و نتائج الحربين العالميتين.

بداية تكوين الوجود الأمريكي كان على أيدي الوافدين من أوروبا ، و لقد صاغ هؤلاء أبجديات المجتمع الأمريكي انطلاقا من تركة المعرفة الأوروبيّة القديمة التي طبعت القرون الوسطى، و هي بالنّحديد من صنع و تصميم البريطانيّ البروتستانت الذين هاجروا من بريطانيا و أوروبا إلى الولايات المتّحدة ليُعلنوا قيام دولة الولايات المتّحدة الأمريكيّة المستقلّة في بداية القرن الثّامن عشر، و ترتكز الهويّة الأمريكيّة على أربعة ركائز : العرق الأبيض ، اللّاتينية الانجليزية ، و الدّيانة المسيحيّة و البروتستانتية و الثّقافة الانجليزية البروتستانتية و لذلك كان

¹ - ايلبري، هيلين، الجانب المظلم في التاريخ المسيحي، المرجع السابق، ص17/16.

² - الحاج، ساسي، الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية ، المرجع السابق ، ص 175.

الوعي الأمريكي ، إنجليزي الثقافة بروتستانتية العقائد¹ و لكن على جغرافية غير أوروبية ، لا تتخللها أي أفكار مناوئة له ، و كان الإستشراق ضمن معطيات هذا الوعي.

الاستشراق الأمريكي حديث حداثة أمريكا نفسها ، و نشاطه الفعلي لم يلاحظ إلا في فترات قريبة جداً و بشكل مثير في القرن العشرين ، بحيث صارت أهم مراكز الإستشراق و أبرز أعلامه يتخذون من أمريكا مقراً ، و من جامعاتها و إمكاناتها وسيلة للحركة و الفاعلية².

و ليس غريباً أو عجباً أن نقول أن الاستشراق الأمريكي هو طبعة جديدة للإستشراق الأوروبي عموماً و الإنجليزي على الخصوص ، لأنّ المؤسسين له هم وادون من أعرق المدارس الأوروبية و لذلك كان شقيق الإستشراق الإنجليزي من حيث الطبيعة .

" لقد وجدت الدراسات العربية و العلوم الإسلامية في أمريكا أول ممثل مهم لها في الاسكتلندي (دنكان بلاك 1863-1943 Duncan Black)³ صديق وزميل المستشرق نيكلسون ..."⁴.

المطلب الثاني: الاستشراق الأمريكي: (الطبيعة و الإضافة)

لم يشذ الإستشراق الأمريكي عن الدوق الأوروبي من حيث الطبيعة ، بل هو حالة أوروبية خارج الجغرافية الأوروبية حيث ارتحلت ملامح الإستشراق الأوروبي (الإنجليزي بالخصوص) بارتحال أعلامها إلى الغرب ، والغرب المعاصر لم يكتف عداؤه للإسلام ، فقد ظهرت تصريحات واضحة من قبل كبار مسؤولي الغرب ومنهم (ريتشارد نيكسون) و هو أحد رؤساء الولايات المتحدة حيث صرح بضرورة انتهاز الفرصة من خلال التصدي للإسلام و إحياء التراث الإستشراقي و تجديده⁵.

التراث الإستشراقي المراد إحياءه و تجديده ، هو التراث الأوربي ، و لذلك كانت طبيعة الإستشراق الأمريكي عملية تجديد و إحياء لطبيعة الإستشراق الإنجليزي بوسائل حديثة فقط.

¹ - هنتغتون، صموئيل ، من نحن ؟ ، تحديات الهوية الوطنية الأمريكية ، الولايات المتحدة ، دار سينتر، 2004م، ص48.

² - الزيايدي، محمد فتح الله ، الإستشراق : أهدافه ووسائله ، المرجع السابق ص 101-102.

³ - بلاك، دنكان 1863-1943 Duncan Black مستشرق أمريكي الإقامة ، بريطاني المولد و التنشئة ، ولد في جلاسكو Glascko ، شديد التقوى بالمسيحية ، ناشط في التبشير و إعداد المبشرين في مدرسة (كندي Kennedy ، للدراسات التبشيرية سطحي في بحوثه) اهتم بتاريخ العلوم الإسلامية 1920 ، و ألف ليلة و ليلة ، له (تطور علم الكلام) الفقه و النظرية الدستورية في الإسلام)) نيويورك 1903 ، (الموقف الديني و الحياة الدينية في الإسلام) شيكاغو 1909: عبد الرحمان بدوي، موسوعة المستشرقين، مرجع سابق، ص 538

⁴ - فوك، يوهان ، تاريخ حركة الإستشراق ، المرجع السابق، ص 298.

⁵ - فضيل، حيدر تقي ، موسوعة المستشرقين ، عامر عبد زيد الوائلي و آخرون ، المرجع السابق، ص 725.

على نمط و نفس الذوق و السلوك الأوروبي ، كان أول حجر أساس للإستشراق الأمريكي التركز على تأسيس و إنشاء الجمعيات التبشيرية بالدين المسيحي الذي يأتي في مقدمة و جوهر النشاط الإستشراقي بلا منازع حيث " وصلت بعثاتهم إلى سوريا سنة 1820 م و أنشئت أول مدرسة لتخريج المعلمين و الواعظين (المنصرين) سنة 1843 م ، ثم مدرسة للبنات في لبنان عام 1859 م " ¹.

أخذ هذا الجهد طابعا أكاديمياً بحق يستقطب الجالية المسيحية في لبنان تحت شعار التسامح الديني و التنوع الطائفي الذي يعرفه لبنان، فكان التأكيد على هذا الطرح في المنطقة " تأسيس الكلية السورية الإنجيلية عام 1866 م و أصبحت تُعرف بالجامعة الأمريكية فيما بعد ، وكان أول رئيس لها هو (دانيال بلس 1823-1916 م) ، و خلفه ابنه (هوارد بلس 1860-1923 م) ².

و انتقال الاهتمام و التمثيل للسلوك الإستشراقي داخل الأسرة الواحدة يدل على مجتمعية الفكرة و تواصلها عبر كل العلائق الأسرية و المجتمعية .

و الدليل على أنها لم تكن فكرة أو مشروع فردي منعزل ، ما أنبأت به (المحاولة المنظمة على يد أربعة من كبار المنصرين هم : الدكتور (لانسنج ، و جيمس كانتين ، و صموئيل زويمر ³ و فيليب فيليبس) حيث أسست " البعثة العربية " سنة 1889 م التي جددت هدفها " بتتصير الجزيرة العربية انطلاقاً من الساحل " و استمرت في العمل حتى عام 1973 ⁴ و لتأكيد الجهد الجماعي و العمل الاستراتيجي للإستشراق فإن هذه البعثة العربية لم تكن وليدة نفسها بل كانت ثمرة جهد سابق " في الولايات المتحدة نفسها فقد حذا نفرٌ من علمائها حذو إنجلترا و فرنسا فأنشأوا على غرارهما " جمعية أسيوية سنة 1842 " عقدت أولى جلساتها الرسمية في 7 نيسان/ أبريل 1843 م في منزل أحد أعضائها ، وكانت مؤلفة من رئيس و نائبين هم : بيكرنج Pickering ، وروبنسون Robinson و جانكنز Jenkins ⁵ .

¹ - الخالدي، عمر فروخ و مصطفى ، التبشير و الاستعمار في البلاد العربية، بيروت، ط5، 1973، ص80.

² - العقيلي نجيب ، المستشرقون، ج3 ، دار المعارف القاهرة ، ط4، 1980 ، ص 118.

³ - صموئيل، زويمر 1867S.Zewmer-1952 م رئيس المستشرقين في الشرق الأوسط ، له مؤلفات في العلاقات الإسلامية المسيحية أفقدها بتعصبه قيمتها العلمية، له كذلك : (يسوع في إحياء الغزالي 1912) ، (داخل عالم الإسلام 1919) و عدة دراسات في: مجلة العالم الإسلامي (1-12-16-19) ، (أمية النبي 1921) نجيب العقيلي، المستشرقون، ج3 ، المرجع السابق، ص 138.

⁴ - العقيلي، نجيب، المستشرقون، المرجع السابق، ص 43، 44 .

⁵ - المرجع السابق، ص 159.

ومما يحمّل الإستشراق الأمريكي عدم نزاهته و ينزع عنه طابع العلمية المجرّدة، أنّ أهم أقطابه المؤسّسين - بالإضافة إلى انحدرهم من المدارس البريطانية - فإن العناصر الفاعلة فيه تجمّع بين نشاطين هما التّصير و الاستشراق ، حيث برزت هذه الصّفة التّصيرية في عدد من المستشرقين الأمريكيين ، و من أهمهم (صموئيل زويمر 1867-1952) الذي قضى حياته في التّصير مستخدماً عدة وسائل منها التّأليف حيث أصدر العديد من الكتب حول الإسلام¹ كما اشترك في إصدار مجلة " العالم الإسلامي " و المشاركة في العديد من المؤتمرات التّصيرية في العالم الإسلامي، منها مؤتمر القاهرة عام 1906 م ، ومؤتمر أدنبرة عام 1910 م ومؤتمر لكنار بالهند 1911م² .

و يكفي الاستشراق الأمريكي و صفه بالمسيحي أن يكون الرّجل الأول على قائمته منصرّاً بامتياز نعني به المستشرق (دانكان بلاك ماكدونالد 1943-1973 م)، الذي اشترك مع (صموئيل زويمر) في إنشاء مجلّة (العالم الإسلامي) " كما اهتم بالعقيدة الإسلامية ، و كتب كتاباً بعنوان : (تطوّر العقيدة الإسلامية the Deferment of Muslims Theology) كما اهتم بالكتابة حول عقلية المسلمين و الفرق بينها و بين عقلية الغربيين، زاعماً أنّ الفرق ليس في التّصديق السّاذج بالأمر الغيبية، و لكن في عدم قدرة العقل المسلم على تركيب نظام من الأمور المُشاهدة " ³ .

ترسيخ القناعة بعجز العقل المسلم عن الاستفادة و التفاعل مع الواقع بكل مادّياته المشاهدة، و التّهوين و التقليل من علاقته مع ما هو غيبي هو هدف تنصيري مُعلن يمهّد لربط كل إخفاق بالحياة المؤسّسة على الوحي و الإيمانيات.

الدّوق التّصيري أصبح " لازمة " من لوازم الإستشراق الأميركي ، إضافة إلى المراكز الأكاديمية للمهتمين بهذا الحقل، فقد كان المستشرق (كينيث كراج Kenneth Gragg) الذي تولّى رئاسة مجلّة " العالم الإسلامي " بعد زويمر ، وقام بالتّدريس في الجامعات الأوروبية والأمريكية ومنها الجامعة الأمريكيّة في بيروت⁴ منصرّاً بامتياز ، و لم يستنه بهذا الدّور ، بل كان من أهمّ اهتماماته .

إضافة إلى هذه النّماذج المهمّة الدّالة على مدى تغلغل الهدف التّصيري في الفكر الإستشراقي الأمريكي مثال يُضاف إلى ما سبق يجسّده المستشرق أدوين كالفرلي E.E.Calverly

¹ - مطبقاني، مازن صلاح ، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي ، المرجع السابق ص 49.

² - عبد الحميد، غراب أحمد ، رؤية إسلامية للإستشراق ، لندن، المنتدى الإسلامي 1411 هـ، ط3، ص 61-64.

³ - Asef Hussain, Western Conflit with Islam, op.cit, .38

⁴ - عبد الحميد، غراب احمد ، رؤية إسلامية للإستشراق المرجع السابق، ص 65 - 66.

1882-1971) الذي درّس اللغات الشرقيّة في جامعة برنستون ، و كان أحد أعضاء البعثة التّصيرية التي أسّسها (صموئيل زويمر) في الخليج العربيّ ، و قد عمل محرراً في مجلة " العالم الإسلامي " من عام 1909م إلى 1930م و عمل مستشاراً لشركة الزيت العربيّة الأمريكيّة، و قد تقلّد بعض المناصب التّعليمية في الجامعة الأمريكيّة بالقاهرة " ¹.

المطلب الثالث: البعد السياسي و الاقتصادي في الاستشراق الأمريكي:

في زحفه التّصيري ، و هو يُبشّر بالمسيحيّة و يسفّه غيرها من العقائد ، لم يُهمل الإستشراق الأمريكي الأبعاد الحيوية الأخرى، بل جعلها قاعدة خلفية لمشاريعه تدعّم الأطروحات ، كلما استعصى على الجهد التّصيري أحد الثّغور الإسلاميّة، فيكون الجهد الاستشراقي مركّزاً على الأهداف السياسية أو الاقتصادية ، التي أصبحت اهتمام إستراتيجي بديل عن التّبشير و التّصير اللّذين أصبحت أوراقهما مكشوفة ، ووسائلهما مستهلكة و منتهية الصّلاحية.

و لذلك غير الإستشراق من لغته ووسائله و أهدافه و تمثّل ذلك كما يرى ساسي الحاج (في إنشاء الجمعية الشرقيّة الأمريكيّة) سنة 1832 م، مقفية أثار الإستشراق الأوروبي و أهدافه الاستعمارية ، و شرعت الجامعات الأمريكيّة في الاهتمام بالدراسات اللّغوية و جمع المخطوطات " ².

ومع أنّ هذا الاهتمام بقي محتشماً للوجود الطبيعي للنزعة الدينية المسيحية اليهودية في مخطط و سلم أهداف المشروع الإستشراقي. و لذلك " لم تتل العربية حضها من دراسات الامريكين إلا بعد أن أدركوا أنها أشدّ صلة بالسامية من العبرية ، و أبعدها منها أثرا في استيعابها التراث الإنساني و نقله إلى أوروبا في العصر الوسيط " ³.

دخلت الولايات المتحدّة - و بصفة رسمية- الصراع السياسي العالمي. بعد أن أخلت لها بريطانيا الساحة بكل أبعادها و قدمتها للعالم كوارث شرعي ووحيد لإدارة دفة السياسة العالمية. " إن السياسة هي الأساس الذي حقّز الغرب على التخصص في مجال الدراسات الشرقية و الإستشراق، فالعامل الديني لا يمكن له أن يكون عاملاً مستقلاً لنشوء الإستشراق إن لم يكن هناك هدف سياسي من أجله تم استخدام الدين " ⁴.

¹ - العقيقي، نجيب ، المستشرقون ج3، المرجع السابق، ص 143.

² - الحاج، ساسي ، الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية ، المرجع السابق، ص 176.

³ - العقيقي، نجيب ،المستشرقون ج3، المرجع السابق، ص 118.

⁴ - فضيل، حيدر تقي ، البعد السياسي في الفكر الاستشراقي- موسوعة المستشرقين ، المرجع السابق ، ص 720

السلوك الأوروبي الاستعماري تشكل في الحرب الصليبية التي تعامل معها الغرب و تفاخر بها و دعا إليها من منطلق عقائدي صرف ، و هذه الحروب لم تتشرف أمريكا كدولة و مؤسسة في أن يكون لها فيها دور فأحست بهذا الخلل و هي تريد أن تستكمل المشروع الصليبي و لكن بوسائل و قراءات جديدة، وهذا يتطلب معرفة جديدة من جهة بالشرق ، كعقيد و تراث و تاريخ ، و بنتائج الحروب الصليبية التي كانت ردة فعل لفعل سياسي و اقتصادي الذي تمثل في إنجازات الفتوحات الإسلامية .

هذه الأخيرة- الفتوحات الإسلامية، التي أعطت قراءة جديدة للإسلام في مفهوم الغرب " أنه دين أخذ على عاتقه الانتشار و الامتداد و فتح البلدان ، ومن هنا أدرك الغرب خطوره القضية ، فالإسلام ما عدا دينا فقط و إنما أصبح دولة ذات منهج سياسي و عسكري ، فأروبا لم تستطع الوقوف بوجه المدّ العسكري والسياسي للإسلام ، و ما الحروب الصليبية التي دامت قرابة القرنين من الزمان الا نتاجا للقوة العسكرية و السياسية للإسلام " ¹ .

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية و ما وفرته نتائجها من محفزات و سوانح سياسية و عسكرية و اقتصادية للولايات المتحدة ، فرض الجانب المعرفي في الشرق نفسه على صناع القرار الأمريكي آنذاك ، إذ يقول ضابط المخابرات الأمريكي .(مايكز كويلاند Maykez Kuwland): " حينما قررت بريطانيا التخلي عن مركزها في الشرق الأوسط ، و طلبت من أمريكا أن تحل محلها ، بحث الأمريكيون عن متخصصين في شؤون الشرق الأوسط فلم يجدوا إلا عدد قليلا من الباحثين و المنصرين، ورجال أعمال ، فأسرعوا إلى اتخاذ قرار بزيادة الاهتمام بهذه المنطقة " ² .

من منطوق هذه الشهادة يتبين جليا أن الدور السياسي في منطقة الشرق الأوسط قد تم تبادلها بين بريطانيا و الولايات المتحدة وفق تفاهات بين الطرفين كان للإستشراق فيها الدور البارز مع ضرورة التأكيد أن هذه التفاهات لا تلغي الإرث التعسفي التاريخي الذي تركه الاستعمار السياسي البريطاني في المنطقة، أو على أقل تقدير تشترط المحافظة عليه و تنميته من المسؤول الأمريكي ومن أهمه المشروع الإسرائيلي في المنطقة.

ولذلك كان التفعيل لهذا التوجه من خلال اعتناق الفاعلين في النظام الأمريكي من حكومات و دوائر سياسية و شخصيات فاعلة هذا الطرح " لذلك اتخذت الوسائل كافة لتشجيع هذا الجانب ، وكان زمام التوجيه بيد الحكومة، و بالذات مجلس الشيوخ الذي أصدر مرسوما عام

¹ - فوزي، فاروق عمر الإستشراق و التاريخ الإسلامي ، القرون الإسلامية الأولى، دراسة مقارنة بين وجه النظر الإسلامية ووجهة النظر الأوروبية، عمان الأهلية للنشر و التوزيع ، ط1، 1998م، ص 30.

² - Moroe Berger, Middle Eastern and North African Studies: Development and needs, in Middle East studies Association Bulletin .Vol.1. No.2, 1967..pp.1-18

1958 م بإسم " مرسوم مجلس الدفاع القومي للتعليم " فكان عاملا مهما له أكبر الأثر في تشجيع الجامعات الأمريكية على الاهتمام بالدراسات العربية الإسلامية، ففي عام 1965م أصبحت اللغة العربية تدرس في خمس عشر مركزا، أنشئت بأموال قدمتها الحكومة الفيدرالية¹ ربط الجهد الإستشراقي بالإحساس القومي مكنه من الخروج عن المألوف الأوروبي و مد أذرع خارج الدائرة الحكومية، إلى بعض المؤسسات الخاصة الفاعلة منها الفكرية و المالية الاقتصادية و غيرها.

يشير (مورو بيرجر Moroe Berger) إلى أن العديد من المؤسسات الأمريكية قد أسهمت في الدعم بملايين الدولارات- آنذاك- لدعم هذه الدراسات² مع العلم أن هذه المؤسسة اقتصادية بحثه في صناعة السيارات ، حيث يشعر القائمون عليها بمدى أهمية هذا النشاط و مردوده الاقتصادي و القومي و خاصة الأسواق الشرق أوسطية، و من المؤسسات الأخرى مؤسسة (روكفالر Rockfller ، و راند Rand كارينجي Karingie)³ و هي كلها مؤسسات فكرية إستراتيجية ، تقوم بقراءة الأوضاع و تقديم دراسات إستشراقية للحكومات، و المرشحين في الانتخابات الأمريكية بكل أنواعها.

و على سبيل التذليل على خطورة هذه العلاقة بين الإستشراق و المؤسسات سألقة الذكر مؤسسة (راند Rand) مثلا " أنها من المؤسسات التجسسية مع الحكومة الفيدرالية ووكالاتها"⁴.

ولأن الاستعمار البريطاني هو الأعراف بمستعمراته ، فقد لجأ القوميون الأمريكيون إلى الاستعانة بأبرز مفكريهم ، و تمكينهم من رئاسة بعض الكراسي في الجامعات الأمريكية " و كان من هؤلاء المستشرقين (هاملتون جب) ، الذي استدعته جامعة (هارفارد Harvard) ، ليؤسس قسم دراسات الشرق الأوسط، كما استقدمت جامعة كاليفورنيا- لوس أنجلس- المستشرق (جوستافوف جرونيوم ، كما تقدمت دعوات لأساتذة زائرين وكان من هؤلاء - برنارد لويس⁵ .

¹ - Robert , Devereau, "A Note on Middle eastern studies in the United States, " in Islamic Quarterly (London) vol 10, N° 3,4,july-Dec 1966. .pp:95-102.

² - Moroe Berger .OP.Cit,P:02.

³-Bernard Lewis, the state of the middle Eastern studies "in the American scholar, summer 1979,pp:365-381

⁴ -A critical Analysis of Islamic studies at north American universities, compiled, by the committee On Oriental studies of the Islamic youth Congress in Tripoli , Libya,1973 and update in march 1975, cedar rapids (USA). p:5.

⁵ - Ibid, p:3 and 9.

ومن خلال نظرة فاحصة للبرامج المختلفة و العددية لأقسام دراسات الشرق الأوسط في الجامعات الأمريكية عموماً يتبين مدى هيمنة البعد السياسي و الاقتصادي على أهداف و استراتيجيات الإستشراق الأمريكي الذي يستخدم لفرض هيمنة اقتصادية سياسية ، و ذلك من خلال الاهتمام الدقيق و المدروس للأوضاع السياسية و الاقتصادية لتلك الدول، و تقديم نتائج ذلك الاهتمام في شكل مشورات و نصائح تعتمد عليها الحكومات الأمريكية في علاقتها مع العالم الإسلامي. لاتخاذ قرارات حاسمة .

" عادة ما تستدعي لجنة الكونغرس بعض الأساتذة الجامعيين للإدلاء بأرائهم حول قضية معينة، ومن ذلك استدعاء برنارد لويس (المستشرق موضوع الدراسة) في 08 مارس 1974 م لإلقاء محاضرة على اللجنة الفرعية الدائمة في الكونغرس حول أرائه في النزاع العربي اليهودي في الشرق الأوسط " ¹ .

من هنا يظهر الدور الاستراتيجي للإستشراق المعاصر في تحديد و توجيه السياسات الغربية و كيف أن الإستشراق لم تُعدْ تَهْمُهُ الدراسات الكلاسيكية كبحوث معرفية تدرّس في مدرّجات الجامعات ، بل صعد من لهجته ، و غير من أسوله. وهذا الفارق بينه و بين التوجه الكلاسيكي، بحيث خضع لتطورات الحياة و حركية السياسة و الاقتصاد .

المطلب الرابع: خصوصية الإستشراق الأمريكي: (الدراسات الإقليمية و الحركات الفكرية)

يعتبر الإستشراق الأمريكي النموذج في الدراسات الإستراتيجية ، و خاصة الضيقة المركزة المحدودة الجغرافياً و الزمن، لما يتيح هذا النمط من الدراسات من توفير الجهد و الوقت، و تفعيل أكثر للوسائل و الطاقات المادية و البشرية للوصول إلى أوثق و أسرع و أدق المعلومات، و ذلك باعتماد الدراسات الإقليمية المحددة ، أو ما يسمى " دراسات المناطق Ame Studies " .

اعتمد هذا النوع من الدراسات حيث " أصبح لهذه الدراسات أقسام خاصة بها في كثير من الجامعات الأمريكية " ² .

تأتي أهمية هذا النوع من الدراسات أنه يجمع بين أعضائه المتخصصين في معرفة إقليم معين من كل جوانبه الثقافية و السياسية و الاقتصادية، وحتى المذاهب العقائدية السائدة هناك ،

¹- Bernard Lewis, Negotiation and StatCraft, Hearings before the permanent-before the Subcommittee on Government Operations , United state , 93^{ed} Congress 2nd session , March, 8,1974,pp:124-149.

²- دليل برامج الدراسات العربية و الإسلامية و الشرق الأوسطية بالجامعات الأمريكية ، (واشنطن : الملحق الثقافي ب سفارة المملكة العربية السعودية ، بدون تاريخ) .

لقراءة العلاقة القائمة بين كل هذه المستويات و الوصول إلى مفاتيح التعامل مع هذا الإقليم بطريقة ذكية دون المساس بمراكز و نقاط الاستفزاز لغرض الوصول إلى استغلاله بأقصى ما يمكن لمصلحة المجتمع و الحكومة الأمريكية (سياسيا و اقتصاديا و ثقافيا) و هذا ما أوضحه (مورو بيرجر)¹ في " دراسة قدمها لرابطة دراسات الشرق الأوسط نشرت عام 1967م حدد فيها أهداف الإستشراق الأمريكي المعاصر، كما حددت مجالات الدراسة ، فمن ناحية الأهداف ذكر أنها تتلخص في معرفة المنطقة و فهمها كما هي الآن بما في ذلك اختلافاتها الداخلية ، و المظاهر المشتركة بالنسبة للمؤسسات الاجتماعية ، و الأوضاع الاقتصادية ، و الكيان السياسي و الحياة الفكرية و الروحية و التأكيد على الوضع الحالي لإعطاء الشعب الأمريكي نقطة البدء في تقرير ما يحتاج إلى معرفته² .

أشارت الدراسة إلى نقطة غاية في الأهمية و تتعلق بتحديد الإستشراق لعلاقة المجتمع الأمريكي بالآخر، و قد عبّر عنها (بنقطة البدء)، التي تختلف من منطقة إلى أخرى بحسب اختلاف المناطق من حيث المستويات المراد دراستها، ومنه كان للموقف الأمريكي في علاقتها مع الآخر (وخاصة العربي المسلم) نقاط بدء مختلفة ، استطاع من خلالها تفنيت الموقف العربي الإسلامي، أو على الأقل إحداث التباين فيه (سياسيا و اقتصاديا) .

بالإضافة إلى (مورو بيرجر) ، فإننا نجد من المستشرقين الامريكين الذين تناولوا الدراسات الإقليمية (ليونارد بايند Lyonard baindes) و حدد أهداف هذا النوع من الدراسة بقوله : " إن دافعنا السياسي الأساس هو تحقيق النفوذ في هذه المناطق و محاربة القوى المعادية و هكذا أصبحنا نميل إلى عدم الاعتراف إلى حد ما بالدراسات الأوروبية التي كانت أهدافها إمبريالية ، سواء كانت واعية لذلك أو بدون وعي³ .

محاولة إظهار التباين بين الإستشراقيين بالنسبة للمجتمعات المراد دراستها و حصارها لا يقدم لها الجديد ، فسواء كانت الامبريالية أو تحقيق النفوذ بالنسبة لها نفس الحالة، ومحاولة التبرؤ من التعسف الإستشراقي الأوروبي لا يبرر بأي حال تعسف الإستشراق المعاصر الواعي . كما أكد في مواضع أخرى هدفية هذه الدراسات الإقليمية أنها سياسية بامتياز و حقيقتها أنها تتسم بجمع المعلومات أو تكديس المعرفة ، و ليس البحث و التفسير⁴ .

¹ - بيرجر، مورو: مستشرق أمريكي، أستاذ علم الاجتماع ودراسات الشرق الأوسط جامعة برنستون، رئيس رابطة (دراسات الشرق الأوسط ، له : (العالم العربي اليوم) تقرير بعنوان (دراسات الشرق الأوسط و شمال إفريقيا - التطور و الاحتجاجات).

² -Edward Said, Orientalism, New York, Vintage Books, 1979.,P :288,289

³ - Leonard Binder, Area Studies: A Critical reassessment " in the study the Middle East. edited by Buder (New York:1976).p.1.

⁴ -Ibid,p.2

كما نجد المستشرق (برنارد لويس) من أهم الناشطين المعاصرين في هذا المنحنى الإستشراقي و قد تجسد ذلك " في محاضراته التي ألقاها في جامعة إنديانا سنة 1963م بعنوان " الشرق الأوسط و الغرب" وكذلك كتاباته حول الصراع العربي الإسرائيلي، وتناوله مختلف قضايا المنطقة¹ .

ومن أهم ما يهتم به داخل هذه المناطق الحركات الفكرية و الدعوية " إذا يهتم الكونغرس بقضية الصحوة الإسلامية ، أو الحركات الإسلامية المعاصرة التي أطلقوا عليها خطأ مصطلح " الأصولية"² في خطة مدروسة بين عدد من السياسيين و أساتذة الجامعات لضبط بعض المصطلحات و تحديد مفاهيمها و الاتفاق على مجالات استعمالها إعلاميا و خاصة في الحملات الانتخابية و خاصة حول قضايا يراد أن نلحق إعلاميا بالمجتمعات الإسلامية تحديدا ، كالتطرف و الإرهاب، و الأصولية.

ومع أن هذه المصطلحات هي تعبير عن السلوك الديني الخاطئ و الاستعمال السيئ له في الغرب، فإن المستشرقين و الساسة الغربيين رأوا في نعت المسلمين به إستراتيجية فاعلة بعد أن أشبعت هذه المصطلحات في الغرب معانٍ سيئة للغاية.

فالأصولية مثلا وجدوا لها مرادف في الاستعلامات علماء الأصول و هي الكليات العامة التي تستند عليها الشريعة الإسلامية، تسمى اختصارا " بالأصول " ألحقوها عن عمدٍ بمصطلح الأصولية التي عندهم " حركة دينية ظهرت عند النصارى خاصة في بداية هذا القرن الميلادي في الولايات المتحدة الأمريكية تنادي بالعودة إلى النصوص المقدسية- عندهم و تطبيقها حرفيا، كما ظهرت مثل هذه الحركة عند اليهود و تدعو إلى محاربة المدنية الغربية الحديثة و لا ينطبق هذا المصطلح على الحركة الإسلامية"³ .

كما مثل المستشرق (تشارلز واطسون ت 1948 م) نموذجا في الاهتمام بهذا النوع الدراسات ، حيث ركز جل جهوده في تتبع و دراسة الحركات الإسلامية في العالم الإسلامي و حتى الغرب ، و ذلك من خلال مناصبه التي تولاهها، إضافة إلى المستشرق (بايرد دودج Bayard Dodge) الذي كان مستشارا في هيئة الأمم المتحدة لووكالة غوث اللاجئيين ، فكان الغطاء الإنساني لنشاط هذه الوكالة يمثل بالنسبة له الغطاء الآمن و المقرر قانونا ، و الحامي من كل متبعات أو إجراءات، كما أنه تقلد مناصب سياسية في بعض الدول العربية ممثلا لدولته و خاصة في القاهرة، و كذلك أحد أهم أساليب الغرب في تعيين الخبراء و المخبرين و

¹ - Asef Hussain, Islamic fundamentalism and Islamic Radicalism, Hearings before the subcommittee On Europe and Middle east of the Foreign affairs of house of representatives of 990 congress, June24 , July 15,sept 30,1985, p 442..

² - Ibid ,P : 442

³ - مطبقاني، مازن صلاح ، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي ، المرجع السابق ص 54

المستشرقين في القارات و القنصليات العربية و الإسلامية و هو اختيار استراتيجي مؤسس على التعريف المتفق عليه (جغرافيا و سياسيا) لكل منهما ، حيث يعتبران سياسيا تحت الدولة الأم، و جغرافيا تابعة لها كذلك ، و لذلك كل تصرف السفير أو القنصل ، يعتبر تصرف مواطن على أرضه و تحت سلطة حكومته.

المطلب الخامس: الارتباط بالعلوم الاجتماعية (خصوصية الإستشراق الأمريكي و إضافته)

تجاوزا مع عدة مفاهيم عُرف بها الإستشراق الأمريكي و نظرياته حديثة طغت على تفكير المستشرقين الفاعلين و أهمها (صدام الحضارات) و (نهاية التاريخ) فقد تحمل الإستشراق عبئا أكبر من أجل توفير الجوّ لهاتين المقولتين ، الأمر الذي تطلب الاهتمام أكثر بجوانب أخرى منها التركيز على (علم الاجتماع) و كل روافده.

" بينما حاول الإستشراق تشويه الإسلام مباشرة ، فقد حاولت العلوم الاجتماعية تفويض التركيبة الاجتماعية للمجتمعات الإسلامية و استبدالها بالأفكار الغربية العلمانية " ¹.

وذلك تسهيلات لتقبل تلك النظريات و على شاكلة الإستشراق، سار علم الاجتماع على نفس خطى آليات الإستشراق حيث تتبع نفس سلوكه في الاستحواذ على كراسي التدريس في الجامعات و إنشاء جمعيات و مجالس تهتم بالبحث في اجتماعية المجتمعات العربية الإسلامية " حيث شاركت جمعيات العلوم الاجتماعية في الاهتمام بهذا الجانب حيث قام " مجلس بحوث العلوم الاجتماعية تكوين " لجنة الشرق الأدنى و الشرق الأقصى " بالتعاون مع مجلس الجمعيات العلمية ، مهمتها (بحث المشكلات و احتياجات البحث) في كل الجوانب الخاصة بدراسة الشرق الأدنى، و مصادر البحث فيه و التدريب ، و مساندة العلماء الباحثين " ².

هذا التجانس في السلوك ، جعل المفكر " إدوارد سعيد " في أغلب بحوثه ودراساته يتعمد عدم التفريق بين المستشرقين و علماء الاجتماع الأمريكي و يرى " أن المتخصصين في العلوم الاجتماعية الذين يهتمون بالعالم العربي و الإسلامي إنما يسيرون على خطى المستشرقين في موقفهم الفكري في القرن التاسع عشر، و هو يتعمد تسميتهم (بالمستشرقين) بالرغم من رفضهم لهذه التسمية" ³.

ولقد حدّد (سعيد) حقيقة الإضافة التي جاء بها الإستشراق الأمريكي حيث خالف كل نماذج المدارس الأوروبية الأخرى في اعتمادها على " الدراسات اللغوية " كخطوة هامة في تأسيس هذا

¹ - Assaf Hussain, , Islamic fundamentalism and Islamic Radicalism, OP, cit, p.49

² - Robert Devereau,"A Note on Middle Eastern Studies in the United States, " in Islamic Quarterly .pp:95-102.

³ -Edward said, Orientalism, (london :1980), p:19

الاتجاه المعرفي، " و هكذا فإن المستشرق- الأمريكي تحديدا- لا يبدأ بإتقان أسرار لغات الشرق، بل يبدأ كمتدرب في العلوم الاجتماعية ، و ينطلق لتطبيق علمه على الشرق أو أي مكان آخر وبدقة هذا هو الإسهام الأمريكي لتاريخ الإستشراق " ¹ .

نستطيع القول عن هذا الإسهام بأنه " تجديد إستراتيجي" في وسائل الإستشراق، و هذه الإستراتيجية الغرض منها تنوع و تغيير آليات الدراسة لجعل هذه الأخيرة تسير التطورات المعرفية من جهة و تثبت حضورها في المشاريع التي تتعلق بالقضايا الكبرى للمجتمعات.

ومن أهم المستشرقين الذين أدركوا هذه الحقيقة ، فانطلقوا في دراسة المجتمع الشرقي بكل دقة حيث اهتم بكل تفاصيل تكوين هذه المجتمعات من حيث العادات و الأفكار ، و المذاهب فكتب عن الجانب السياسي و الاجتماعي و العسكري في فترة الخلافة العثمانية ، كما ناقش إشكالية الدراويش و طريقة لباسهم و أكلهم ووصفها بأبشع الأوصاف و راح يبحث في حقيقة العلاقة بين (شيخ الجبل و أتباعه)، و انتصر مرة للفكر السلفي ، وأخرى (نامق كمال) إنه (لويس برنارد) " الذي اهتم بالمجتمع الإسلامي و نظرتة إلى التغريب ، و قضايا التحديث و كذلك الاهتمام بالفكر السياسي في الإسلام وربطه بالفكر السياسي الغربي " ².

إضافة إلى هؤلاء، يأتي المستشرق (وليام جوسف أولن: 1947) ³ وكذلك المستشرق (مانفرد هالبرن Manferd Halpern) عالم اجتماع ، كان عاملا في وزارة الخارجية لمدة عشر سنوات ، تحصل على رحلة علمية إلى الشرق الأوسط من مؤسسة (راند) و جامعة برنستون. ثم عيّن مستشارا لمؤسسة (راند) ⁴ .

المطلب السادس: إستراتيجية الجهد العربي و الإستشراق الأمريكي:

لم تكن تلك المراكز و الجمعيات التي أنشأتها الولايات المتحدة الأمريكية خارج أراضيها و خاصة في البلاد العربية جهدا عشوائيا و لا هذرا لأموال الشعب الأمريكي ، بل كانت مرحلة مهمة ضمن حركية الإستشراق العامة، فلقد كان الذين تمكنوا من الإنتظام إلى صفوفها كطلبة هم من سيشكل المشهد بعد سنوات عدة و لكن على الجغرافيا الأمريكية ، و يستغلون عن وعي أو غير وعي - بحجة تدريس التراث المشرقي لآخر (غربي) باستحضار المهام القديمة للإستشراق

¹ - Ibid, ,P : 290.

² - مطبقاني، مازن صلاح ، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي ، المرجع السابق ، ص 59.

³ - أولسن، وليام يوسف 1947 :مستشرق و باحث أمريكي مشارك في مركز الدراسات الإستراتيجية و الدراسات الدولية بجامعة بورج تاون ، محلل شؤون الشرق الأوسط في مكتبة الكونغرس عام 1982م ، أصبح كبير المحللين للأمن الإقليمي في معهد الدراسات

الإستراتيجية في كلية الحرب الأمريكية سنة 1983. US army war College.

Asef Hussain, Islamic fundamentalism and Islamic Radicalism, op.cit, p443.

⁴ Manfred Halpern,, The Politics of Social change in the Middle East and North Africa, (Princeton :3691), P.XVII.FF.

" لعل من أقدم هؤلاء فيليب حتى :¹ الذي تخرج من الجامعة الأمريكية في بيروت سنة 1908م ، و حصل على الدكتوراه من جامعة كولومبيا سنة 1915 م ² .

" إن مواقف بعض الباحثين العرب لا تتوقف عند إدانة الإستشراق والتحذير منه ، بل تمتد إلى توجيه النقد إلى أصحاب الفكر الحر من المثقفين العرب ، بحجة أن هؤلاء عملاء و جواسيس للغرب، حتى أحد الباحثين وصف المفكر و المؤرخ العربي (فيليب حتى) ³ . إلا أن المبالغة في الانتصار للموضوعية على حساب حقائق واقعية، و مشاريع يفتخر بها أصحابها علنا هو في حد ذاته يجافي العلمية، فمع التقدير و الاعتراف لما قدمه الأستاذ للثقافة العربية و الإنسانية، فإن وصفه (بالمؤرخ الصليبي) لا ينقص من قدره شيء ، فهو مؤرخ نحري و هذه ليست مذمة، وكونه صليبي فهي الحقيقة الدالة على عقيدته المسيحية ، إلا إذا كان المعترضون على هذا الوصف يرون فيه مؤرخا إسلاميا فكرا و عقيدة أما ما يرمز إليه هذا الوصف (مؤرخ صليبي) من خيانة و عمالة و تسخير فهي مجرد أقاويل تحتاج إلى أدلة و حجج علمية موثقة.

قد يكون أصحاب الطرح الراض للإدانة على صواب إن لم يفصلوا بين العقيدة و العرق أي بين الإسلام كدين، و بين العربية التي هي لغة الإسلام و غيره ، فيكون موقف المثقفين العرب في مجمله إيجابي، أما إذا حدّدنا اللغة بالإسلام و قصدنا ذلك ، فإن الأمر سيتغير و الشواهد من المستشرقين الغربيين المعتدلين دالة على ذلك.

الشخصية المحترمة التي تجلب انتباه رئيس أكبر دولة آنذاك و تستهويه ليتدخل في عملية انتقالها من موطنها إلى أمريكا " و قد جاء فيليب حتى - إلى برنستون بتأثير من الرئيس ويلسون و صديقه (بايارد دودج) رئيس الجامعة الأمريكية في بيروت و كذلك بتأثير جمعيات تنصيرية ، و قد تدرب على يديه كثير من المتخصصين في دراسات الشرق الأوسط في جامعة برنستون⁴ ، ستوجب عليها أن تقديم الكثير لأمتها، و (فيليب حتى) يرتبط بأميتين جمعتهما اللغة و فرقتهما العقيدة، فإذا قدم ما عليه لأتمته العقائدية فهل بنفس النسبة كان اهتمامه بالجزء الأكبر من

¹- حتى، فيليب خوري 1886-1978 م . Hatti, PH, Kh .

ولد في ' شمالن ' بلبنان بتاريخ 1886/06/24م، تخرج من الجامعة الأمريكية في بيروت سنة 1908م، حصل على الدكتوراه من جامعة كولومبيا سنة 1915م، عين معيدا في قسمها الشرقي من 1915/1919م، ثم أستاذ التاريخ العربي بالجامعة الأمريكية ببيروتمن 1919/1925م، قام بإدارة برامج ' دراسات الشرق الأوسط ' منذ 1947م، قاربت آثاره العلمية 25 مصنفا بالعربية والانجليزية: نجيب العقيقي، المستشرقون ج3، مرجع سابق ص 148، 149.

²- المرجع السابق، ص148، 151.

³- العجيلي، خميس غربي حسين ، صدمة الإستشراق وردة الفعل السلبية عند البطالين العرب ، موسوعة الاستشراق - معاودة نقد التمركز الغربي وكشف التحولات في الخطاب ما بعد الكولونيالي، مجموعة من الأكاديمين، اشراف والتحرير: د عامر عبد زيد الوائلي، و طالب محييس الوائلي الجزائر، دار ابن النديم للنشر والتوزيع، ط1، 2015. ، ص586.

⁴- A critical Analysis of Islamic studies at north American universities, OP,Cit.P :4.

عقيدته وهو أمته اللغوية التي يختلف هو نفسه معها، و على مرأى و مسمع منه يرفع أعداؤها رمز عقيدته هو (الصليب) في كل مواجهة .

لماذا نحمل الناس أكثر مما يطيقون، و نبرر مواقفهم الواقعية التي تنطلق من تفهمهم للواقع و حسن تعاملهم مع المعطيات، و اختبارهم لمنطق المشاركة لا المغالبة على أنه انتصار من أجل (الكل) العربي الذي لا يعيش نفس الشعور بالآلام و الآمال.

(فيليب حتى) غير جغرافيته المكانية سنة 1915م ، حتى تتسجم مع جغرافيته الروحية و الفكرية الوليدة بميلاده و هو أمر طبيعي جدا، لكن أن تشفع له عربيته التي تتقاسمها معه أنماط من العقائد المتباينة فيكون فوق النقد أو اللوم الذي يحمل ذوقا عربيا ففي ذلك أكثر من نظر.

يقول العقيقي عن البرنامج الذي تولاه (فيليب حتى) و عن مكانته و الظرف الذي جاء فيها و ما كانت تشهده الولايات المتحدة آنذاك مراسيم حفل قيادة العالم " وكان قد قام بإدارة برامج دراسات الشرق الأوسط منذ (1947م) عندما وضحت كمنطقة ذات فائدة حيوية للولايات المتحدة و عن طريق تقديم المناهج في الثقافة، و التاريخ ، ولغات المنطقة، كان البرنامج الأول من نوعه في التعليم الأمريكي، تناولت دراساته القضايا الاقتصادية و الاجتماعية و السياسية ، و في عام 1952م بدت ثماره بفضل جهود الدكتور (حتى) و اختياره مجموعة من المتخرجين اختيارا دقيقا و تدريبهم على مهام في الشرق الأوسط " ¹ .

ولعل تاريخ 1947 تاريخ مهم للأمة العربية- حتى لا نقول الإسلامية- تعلق به البرنامج الأول من نوعه في الولايات المتحدة يهتم بالشرق الأوسط تحديدا ثم يكون بعد سنة فقط أي 1948م تاريخ مؤلم اکتوت به أمة (فيليب حتى اللغوية)، ثم لا يكون له كمسرف على هذه الدراسات موقف أو أثر ، أو حتى لجهده في اختيار المتخرجين مع تحري الدقة في ذلك و في إسناد المهام لهم على جغرافية الشرق الأوسط، مما يدفع إلى البحث التاريخي المؤصل في العلاقة بين هذه المهام و ما حدث في فلسطين سنة 1948 م .

ونظرا لأن الاستعانة اقتصرت في العرب على المسيحيين في الغالب ،من أمثال : (جورج حوارني -1913م) الذي درس أولا في بريطانيا في جامعة أوكسفورد، و حصل على الدكتوراه من جامعة برنستون ، كما عمل في جامعة ميتشيجان مدة عشرين سنة ، كما عمل رئيسا لجمعية دراسات الشرق الأوسط².

ومن الملاحظ أيضا أن جامعة (برنستون) كانت تلعب دورا محورا في استقطاب المفكرين العرب و المرور بها أو الاستقرار بها يكاد يكون شرطا مهما في مسيرة المستعربين

¹ - العقيقي، نجيب ، المستشرقون ج3، مرجع سابق، ص، 148، 149.

² - A critical Analysis, ,Op.Cit.P :2-3.

العرب ، فهذا (شارل عيساوي (1916م) الذي بدأ حياته العلمية و العملية في مصر حيث عمل في وزارة المالية في مصر (1937-1938) ، ومن المناصب العلمية، عمل مديرا لمعهد الشرق الأوسط و الأدنى بجامعة كولومبيا (1962م-1964م)، ثم التحق بجامعة برنسون من عام 1974م حتى تقاعده عام 1986 م¹.

نوع الإستشراق الأمريكي من روافد معرفته و لم يقتصر على العرب ، فقد تعدد معرفة أسرار حضارات الشرق كالفارسية و العثمانية في ذوقها التركي، فهذا (حسين مدرسي) الذي درس في طهران، و حصل على الدكتوراه من جامعة أكسفورد في القانون الإسلامي، ودرس في معهد (قم) مدة عشر سنوات ، جاء إلى (برنستون) أستاذا زائرا عام 1982م-1983م و عُيِّن فيها رسميا عام 1986م².

كما ارتشف الإستشراق الأمريكي من معارف الدول المحورية كذلك، و خاصة التي حطت الإمبراطورية العثمانية رحالها في عاصمتها إستطنبول ، فكان لحضور (إيركا هجلسون) و هي تركيية لإعمال الرمزية التي يروجها الإستشراق الأمريكي، و الهدف الذي ينشده في إحكام القبضة على الإستشراق الغربي عموما" حيث درست في جامعة (هايدلبرج)، انتقلت إلى الولايات المتحدة لإكمال تعليمها في جامعة بنسلفانيا في مجال الدراسات التركية ، لها درايات حول اللغة التركية و استخدام الحروف العربية و غير ذلك من الدراسات³.

المطلب السابع: الإستشراق الأمريكي والقرصنة اليهودية:

الحديث عن اليهود ضمن المناخ الإستشراق الأمريكي تفرضه طبيعة العلاقة بين الإستشراق الأمريكي و جذوره الأوروبية البريطانية و ما لهذه الأخيرة من و شائج مع اليهود و مشروعه الصهيوني ، وكما سبقت الإشارة أن بريطانيا لما تبادلت الأدوار مع الولايات المتحدة لم تتنازل عن إنجازاتها التاريخية لصالح اليهود الذين عملوا و نشطوا في أوروبا كمواطنين غربيين لم يفكروا في تكوين مدرسة قائمة بذاتها، لأن ذلك لم يكن في صالحهم فآثروا السرية التي أكسبتهم حضورا آمن، ثم إن المناخ الأوروبي العريق في هذا النوع من العلوم لا يسمح بالتطفل عليه في عقر داره. و هكذا لم يرد اليهود أن يعلموا في داخل الحركة الإستشراقية بوصفهم مستشرقين يهود حتى لا يعزلوا أنفسهم ، و بالتالي يقلُّ تأثيرهم، و لهذا عملوا بوصفهم مستشرقين أوروبيين (أو أمريكيين) فكسبوا مرتين : كسبوا أولا بفرض أنفسهم على الحركة الإستشراقية كلها ، وكسبوا

¹ - المرجع السابق، ص 181.

² - Near Eastern Studies: A guide for perspective Graduate Studies, at Princeton university, p :21.

³ - Ibid ,p :27.

ثانية تحقيق أهدافهم في النيل من الإسلام ، و هي أهداف تلتقي مع غالبية المستشرقين المسيحيين " ¹ .

جاءت الفرصة الموعودة مع الأيام الأولى لتكوين دولة الولايات المتحدة- حديثة العهد هي الأخرى بالاستشراق- ليجد اليهود " مناخا مناسباً للعمل ضمن الإستشراق الأمريكي وذلك لعدم وجود ذكريات الإضطهاد لليهود في المجتمع الأمريكي، و ثانياً لأن اليهود و خاصة الصهاينة أدركوا² " أن مراكز البحوث و الجامعات الغربية- و خاصة الأمريكية- ذات نفوذ في صناعة القرار السياسي، لذلك عملوا على السيطرة على مراكز و معاهد الدراسات الإسلامية و العربية و الشرق أوسطية فوجهوا الوجهة التي تعين على تثبيت أقدام اليهود في فلسطين المحتلة³ .

و لأن اليهود يعرفون من أين تؤكل الكتف، فقد تطلعوا إلى " الهيمنة الصهيونية على ميدان الفكر الإستشراقي الغربي و ذلك بالسيطرة على ذلك بالسيطرة على وسائل الإعلام العالمي سواء أكان ذلك المرئي أو المسموع أو المقروء. فمعظم المؤسسات الإعلامية الكبيرة في العالم هي إما ملكية كاملة لليهود أو ملكية جزئية مؤثرة ومن هذه مثلا : مؤسسة (فرانكلين للطباعة)⁴ .

و أما النماذج الفكرية التي تولت هذا الاختطاف المعرفي يأتي (لويس برنارد) على رأس قائمتها لما أظهره من شدة اهتمام بهذا الموضوع و ما تركه من أثر في توجيه الرأي العام و الخاص الأمريكي من خلال نشاطه الاستشراقي الذي سيكون مضمون المبحث الموالي.

يأتي في المركز الثاني من حيث الفاعلية المستشرق (أبراهام يودوفتش) الذي يعمل حالياً رئيساً لقسم دراسات الشرق الأدنى بجامعة برنستون بولاية نيوجرزي، وقد درّس في جامعتي كولومبيا و بيل و هو روسي الأصل⁵ و قد مثل اليهود في لقائهم بالرئيس عرفات رحمه الله- في السويد سنة 1988⁶ .

من بين المستشرقين اليهود العاملين في الحقل الأمريكي، المستشرق (روزنتال Resenthal) جعل مشروعه المعرفي الاهتمام بكل ما هو إسلامي، فدرس المعارف الأندلسية ، والثقافة الإسلامية عموماً و التاريخ الإسلامي بالخصوص.

¹ - زرقوق، محمود حمدي ،الإسلام و الإستشراق، في الإسلام و المستشرقون، جدة 1985، 1405، ص 108.

² - مطبقاني، مازن صلاح ، الإستشراق ، المرجع السابق ، ص65.

³ - الثملة، على بن إبراهيم، الإستشراق في خدمة التصوير و اليهودية، في مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ج3، رجب 1410 هـ/ فبراير 1990م، ص، 237-273.

⁴ - الزيايدي، محمد فتح الله ، الإستشراق ، المرجع السابق ، ص 96.

⁵ - العقيلي، نجيب، المستشرقون ج 3، المرجع السابق، ص: 215 .

⁶ - عرفات يجتمع بيهود " أكريكين " في جريدة المدينة المنورة ، عدد 7886 ، 28 ربيع الآخر 1409، 8/ 12/ 1988.

ولم يكتف الاستشراق اليهودي أن يكون فاعلا داخل مراكز الولايات المتحدة فحسب ، بل وصل إلى شغل مراكز حساسة في الوطن العربي بوصاية أمريكية و هو ما يمثله المستشرق (سبيسر، 1902 E.A Speiser) الذي درس في جامعة بنسلفانيا، و عمل أستاذا مساعدا للغات السامية في نفس الجامعة ، كما عمل مديرا للمدرسة الأمريكية للأبحاث الشرقية في بغداد (1933م-1947م) ورئيسا لقسم الشرق الأدنى للأبحاث و التحاليل في مكتب التنظيمات العسكرية خلال الحرب¹ .

ويبدو أن مركز المستشرق اليهودي يتحدد بمدى علاقة تخصصه بالحالة العربية و الإسلامية و نشاطه في ذلك الاتجاه فالمستشرق (رفايل باتاي Raphael Patai) الذي قام بالتدريس في كل من جامعة : بنسلفانيا ، برنستون ، كولومبيا، كان عمل رئيسا لمشروع البحث حول سوريا و لبنان و الأردن في مكتب العلاقات الإنسانية الإقليمية في مدينة (نيوهافن) بولاية (كنتكت) ومن أهم كتاباته " العقل العربي" الذي حشد فيه كل ما يسيء إلى العرب و المسلمين ، يقول عنه رضوان السيد: " ادعى له الميدانية و العلمية ، و توصل فيه أن العرب بطبيعتهم أنانيون ، سوداويون يكرهون و الآخرين"².

ولا يقتصر الدور اليهودي في الإستشراق الأمريكي على من ذكروا- لأن ذلك كان على سبيل التمثيل و الاستدلال فقط- بل هناك جهود أخرى في نفس السياق لا يتسع المبحث لسردها لأن منها من ذكر تحت صفات أوروبية أخرى و يعمل بالتنسيق في هذا المشروع.

¹ - العقيقي، نجيب ، المنتشرون، المرجع السابق، ص 160.

² - علي، رضوان السيد، اليهودية و الصهيونية في الإستشراق في الفكر الإسلامي، ص 19، ع1 ، جمادي الأولى 1409 هـ كانون الثاني 1986 م، ص31، 36، 41.

المبحث الرابع:

الإستشراق و جذور

(مشروع الشرق الأوسط الجديد)

المطلب الأول : الشرق الأوسط بطبعته العتيقة

المطلب الثاني: الشرق و ذاتية الحضارة

المطلب الثالث: الشرق و الغرب ، العلاقة و التعبير

المبحث الرابع: الإستشراق و جذور " مشروع الشرق الأوسط الجديد "**المطلب الأول: الشرق الأوسط بطبعته العتيقة**

أبعاد الأرض الأربعة تدين لبعد واحد في جغرافيتها وتاريخها وتنوعها، وظل هذا البعد كذلك عبر العصور، إستوى في حبه واللهفة إلى رؤيته رموز الفكر الديني والشعراء والساسة والقادة العسكريون والمستكشفون.

الشمال و الغرب، و الجنوب يتطايرون شظى، تتحطم العروش ، تزحف الممالك، أهرب، أذهب هناك في الشرق لتستشوق هواء البطارقة و هناك، حيث النقاء ، و العدل أريد أن أنفذ حتى الأصل الأول للأجناس البشرية¹ هكذا ربط الشرق (الشرق كله) و شائج مع النفوس و الأفكار ، حتى يتعدى عتبة كونه جهة تكتمل بها أبعاد الكون الأربعة إلى مصدر إلهام لحقائق كبرى كونت تاريخ الإنسان و حضارته.

بتلك العبارات يتحدث " غوته" عن الشرق الذي برمجه في شعره دون أن يكون قد رآه أبدا ، إنه العودة إلى الأصول ، و الهرب نحو الوجه السليم لعالم متشخص، لم يندمج الشرق بهذه القوة في الخيال و في التفكير و في عالم الشعراء و الفلاسفة بوصفة أصلا و تكاملا في أي مكان من العالم كما حصل ذلك في ألمانيا².

لكن الشرق شرقان، شرق هو امتداد جغرافي إلى أقصى آسيا شرقا و هو ما يقابل الامتداد الغربي الشمالي ، وشرق كان اللحن الشجي الذي استلهمت منه الإنسانية حقيقتها و بدايتها ، " حيث كانت هذه الأجناس ما تزال تتلقى من الله المعتمد السماوي مكتوبا في لغات الأرض و تستغني عن التفكير مكيا"³.

إنه بلا شك الشرق الذي يهتم بالمعاني و القيم و يقدها، بل و يقدر زمن ومكان تألفها مع الروح، فيجعل منهما الحقيقة التاريخية الشاهدة.

¹ - غوته، الأعمال الكاملة، ترجمة: ج. بورش (هاشيت ، الديوان الشرقي للشاعر الغربي ، ج 1، 1871 ، كتب ((الديوان)) بين العامين 1814 م-1816م) ص531-532.

² - هنتش، تيبيري ، الشرق الخيالي ورؤية الآخر، صورة الشرق في الخيال الغربي، الرؤية السياسية الغربية للشرق الأوسط، ترجمة مي عبد الكريم محمود ، دمشق، دار المدى للثقافة والنشر، ط 1 ، 2006 ، ص272.

³ - غوته، الأعمال الكاملة، المرجع السابق، ص 571-532.

(إنه الشرق الإسلامي، و نقصد به بلاد الإمبراطورية البيزنطية ، كبلاد الشام و مصر ، ومن الجانب الغربي نحو بلاد إفريقية . أي بلاد تونس و ليبيا و القسم الشرقي من بلاد الجزائر ، وحتى بلاد المغرب ، أي بلاد البربر و إسبانيا و صقلية)¹.

فسحة جغرافية خالدة جمعت للطبيعة فيها لوحتها المفصلة ، و للفكر صفحاته الوهاجة ، و للعقائد أسسها الثابتة النقية ، كل هذه المعاني الراقية كان بها الشرق العربي الإسلامي مقلقا لآخر، هذا الشرق الذي أبت الحضارة "أن تتمركز منه في وادي النيل ، ووادي الفرات و دجلة اليمن ، و هذه المناطق الثلاث كانت أكثر من غيرها في الشرق في العطاء الحضاري و الاستمرارية"².

و لأن الحضارة بمفهومها الأوسع تأبى " التشيئ" الذي أراه لها الفكر العربي المادي، ليستعلي بها على الآخر ، فإن الجزء المذكور من الشرق (وادي النيل ، وادي الفرات و دجلة اليمن) مع ما يحمله من معاني الحضارة إلا أن الشق المادي منها هو الأبرز.

و لأن الحضارة هي صفة للناس و الجماعات، و ليست صيغة تبقى على الأرض (فقط) فالحضارة على هذا تزول بزوال الناس المتصفين بها بقيت لها وراءهم من آثار.

وحتى لا نوافق على تشيئ مفهوم الحضارة ، و نهمل جوانب مهمة منها ، فإن ميزان الحضارة يختل أحيانا و نحن نفتصر على هذه المناطق في تحديد الحضارة الشرقية القديمة ، فهناك حضارات أخرى وجدت في شمال إفريقيا و في فلسطين ، و لنقل الساحل الشامي الذي يضم اليوم : سوريا و لبنان و فلسطين)³.

بإضافة هذا الشق الهام اكتملت ملامح الحضارة الشرقية العربية القديمة ، وأصبحنا نتكلم عن الجانب الهام في الحضارة ألا وهو الجانب المعرفي الثقافي و الروحي.

تقاسمت جغرافية الشرق الأوسط عبء الحضارة ، فكان الشق الجغرافي الأول لوحة الحضارة المادية ترجمه عمران سورية و حصونها و مساجدها ، و كذا العراق و سدوده و ما كان من حضارة بين النهرين بالإضافة إلى مكتبته و حصونه ، و اليمن السعيد بأنهاره و حقوله ، و هذه سنة المعمارية المتميزة.

¹ - لومبارد، موريس، الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى، ترجمة : عبد الرحمان حميدة (بيروت ، دار الفكر المعاصر ، ط2 ، 1998) ص 19

² - الباش، حسن ، الشرق و العرب ، مركزية الحضارة و نظرية الإقصاء، من المجابهة إلى الحوار، أم من الحوار إلى المجابهة؟، دمشق، دار قتيبة للطباعة و النشر و التوزيع . ط1 ، 2012م، ص 39.

³ - الباش، حسن، الشرق و الغرب ، مركزية الحضارة و نظرية الإقصاء من المجابهة ، المرجع السابق ، ص39.

وحمل الشق الجغرافي الثاني الترجمة الحقيقية و التفسير الإيماني تملك اللوحة و السياق الصحيح الذي تشتهر فيه زوايا تلك اللوحة الخالدة، إنها " فلسطين " جغرافية بوابة السماء ((القدس الشريف)) .

هنا يتشكل معنى " الحضارة " في مفهوم مالك بنبي رحمة الله - بأنها: (ليست كل شكل من أشكال التنظيم للحياة البشرية في أي مجتمع كان، و لكنها شكل نوعي خاص بالمجتمعات النامية)¹.

هذه النوعية و تلك الخصوصية جعلتا من الحضارة العربية و الإسلامية نموذجاً محيراً و مستفزاً لباقي الحضارات التي تنقذ- في مجملها- إما إلى جانب الروحي و أثره على مادة الحضارة ، أو إلى ذاتية المادة الأولية لحضارة الغرب بالخصوص.

المطلب الثاني: الشرق و ذاتية الحضارة:

كثيراً منا يعمل الغرب على تضليل (الآخر) باعتداده في قياس حضارة ما ، أو حضارته بالخصوص على مدى التقدم في تكديس الصناعات و تنويع أشكالها و مجالاتها حيث يحكم الغرب على مدى تقدم أو تأخر مجتمع ما من خلال هذا المقياس ، رغم أن هذا المقياس هو في واقعه (استهلاك للحضارة) و ليس إمتلاك لها .

" فما نسميه أو يسميه الغربيون - الحضارة الغربية - لا يقوم على ماديته الذاتية فهي بشكل عام ضعيفة و لا تفي بالحاجة لذلك العالم ، فالذين يتبجحون بأن الغرب هو مركز الكون الحضاري يتناسون بل يتغافلون أن التقدم الصناعي الواسع في الغرب يقوم في أساسياته على ثروات الشرق العربي والإسلامي².

ولتأكيد هذا المعنى، لا ضيم أن نعود قروناً إلى الماضي للتأكد من هذه الحقيقة التي صاحبت الحضارة الغربية ، و شهدت بكل ما هو شرقي " فلقد كان صدر العصر الوسيط، أي منذ تأسيس القسطنطينية في القرن الرابع الميلادي حتى موجة الاندفاع الصليبي إبتداءً من القرن الحادي عشر ، كان حقبة شرقية في التاريخ ، شرقية في مجالاتها و في كل مظاهرها³ ذاتية في كل أسباب الحضارة و أبعادها ، لم يكن الشرق " مستهلكاً " لحضارة الآخر بقدر ما كان صانعاً لحضارته الذاتية، هذا عن حضارة الشرق عموماً.

¹ - بن نبي، مالك، مشكلات الحضارة: شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر كامل مستقاوي، تقديم: محمد همام، دار الكتاب المصري- دار الكتاب اللبناني، طبعة 2012، ص67.

² - الباش، حسن، الشرق والعرب، المرجع السابق، ص31.

³ - لومبارد، موريس، الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي، المرجع السابق ، ص13.

و لأن أقوى الوضعيات في عالم المادة و حتى الأفكار و المذاهب تكمن في المتوسط الذي يتعامل مع الأطراف على نفس المسافة، فإن الشرق قد أمده أوسطه (الشرق الأوسط) دفعا و زحما ، إستحوذ بهما عن جدارة في نسبة التاريخ له (الشرق) و يكون هذا صحيحا " حقبة شرقية في التاريخ" ، على الخصوص بالنسبة للقرون الثلاثة التي تبدأ من منتصف القرن الثامن حتى أواسط القرن الحادي عشر الميلادي ، و التي تنطبق على أوج الازدهار في العالم الإسلامي، ففي تلك الفترة كانت تستقر في الشرق الإسلامي المراكز الفعالة في الحياة الاقتصادية و الفكرية¹.

حتى السلام بين الحضارات و الديانات، و في أكثر الظروف توترا ، كانت منابر شرقية بامتياز ، بل شرقية روحية أكثر منها مادية " لأن العلاقة بين الشرق و الغرب زمن الحروب الصليبية لم تكن كلها عدائية أو سلبية ، إذا كانت مملكة " بيت المقدس " مكانا لالتقاء حضارتين ، و على أرضها تعلم الشرق من الغرب ، بل إن ما تعلمه الغرب من الشرق يزيد على ذلك بكثير².

هذا عندما كانت الحضارة تقاس بما تقدمه للإنسان من حقائق عن نفسه أولا ، وعن الكون و علاقته به ثانيا.

و لأن هذا التحديد لمعنى الحضارة لا يملك فيه الغرب إلا اسم الحضارة ، لأنه يتعارض مع حقيقة ما تقدمه الحضارة الغربية لمواطنيها و للعالم أجمع ، و بالإضافة أنه ينسف دعوى مركزية الحضارة الغربية ، قرر الغرب - و بتوجيه كشيء- الإغارة على هكذا حضارة.

المطلب الثالث: الشرق والغرب، العلاقة والتعابير:

كان لهذا التباين بين الشرق و الغرب بدافع الحتمية أن يعبر عن حقيقته بطريقته الخاصة ، ففي (القرن السابع للميلاد ، كان النصف الغربي للإمبراطورية الرومانية مع الثقافة التي يمثلها قد انهار منذ مئتي عام تحت ضربات الأقوام الجرمانية و بقي نصفها الشرقي قائما مع ثقافته التي اصطبغت بصبغة يونانية)³.

¹- المرجع السابق، ص 13

²- باركر، أرنست، الحروب الصليبية ، نقله إلى العربية : د السيد الباز العريني، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة و النشر، ط 1967م) ص13.

³- كاهن، كلود، تاريخ العرب و الشعوب الإسلامية ، من ظهور الإسلام حتى بداية الإمبراطورية العثمانية ، نقله للعربية : د بدر الدين القاسم ، بيروت ، دار الحقيقة للطباعة و النشر، ط 3، 1983م، ص 05.

بمعنى أن الغرب لم يكن مستقرا سياسيا و لا عسكريا ، بل كانت تنظيماته السياسية و الثقافية تعيش - كغيرها من التنظيمات صراعا للحفاظ على وجودها أو لغرض التمدد على حساب المجتمعات المجاورة لها جغرافيا.

(و لئن كان هذا حال الإمبراطورية الرومانية و حال ثقافتها مع العرق الجرمانى، فإن نصفها الشرقي كان أفضل حالا- إلى حين- حيث استطاع الروم الشرقيون الذين نسميهم البيزنطيين- إجلاء الفرس في نهاية الأمر من تلك السواحل)¹ أي سواحل سوريا و مصر.

عدسات الغرب في رؤيتها إلى الآخر (الشرق ككل) نمطية في عمومها ، من حيث النفعية و تضخم (الأنا)، إلا أنها برغماتية فيما يتعلق بالمصالح الداخلية لكل مجتمع و تنظيم.

" ففي الوقت الذي استخدمت الأنوار في فرنسا الشرق كنقطة استناد ، وكأداة تبرير سياسية (إشارة إلى الاستبداد) فإن الرومانتيكية الألمانية بحثت فيه [الشرق] عن توازن حلمي و إيديولوجي لعقلانيته، ومن ثم عن توازن لمذهب إنتاجية المجتمع الصناعي الصاعد"².

هذه الرؤية الإيجابية للشرق من طرف الألمان- آنذاك- أعادته أوروبا إلى العلاقة الطبيعية التي أفسدها الأوروبيون بتخميناتهم، فقد تطور منظور أوربا- من خلال الطرح الألماني للشرق حيث لم يكتف الألمان بأن يكون عاكسا للآخر " فالشرق لم يعد مجرد مرآة بل مكمل ضروريا لحضارة غربية تبحث من خلال إتحادها به عن كلية و امتلاء و عن تماسك و استمرارية في فلسفة للتاريخ يكون بموجبها العصر القديم ما قبل الهيليني- منخرطا تحت لواء الكونية الأوروبية"³.

لقد استفاد الألمان من تأسيس علاقة بناءة- ولو إلى حين ، مع الشرق لجهود الأب الروحي لهذه العلاقة " هيردر " التي كانت نقطة ارتكازها جغرافيا في الهند فأضفت هذه العلاقة تفوقا صناعيا ألمانيا حرك الغير الأوروبية في هذا المجال لكن بقيت العلاقة (شرق غرب) في عمومها توصف " باللا توافق " ، بل لم تستطع حتى المحافظة على صورتها هذه ، حيث غير المنحنى اتجاهه إلى العداوة ، و سرى في العقل الأوربي و حتى الشرقي ذوق النقيض.

" على مرّ التاريخ تكثر أمثال صناعة العدو ، فلقد عرفنا " الخطر الأصفر " ، أي الاختراع العبقري لغيوم الثاني (Guillaume II) بغية تبرير مشاركة ألمانيا في تقسيم الصين، و عرفنا"

¹ - المرجع السابق، ص:05.

² - هنتش تيبيري ، الشرق الخيالي، المرجع السابق، ص 273.

³ - جيرار، رينيه، الشرق و الفكر الرومانطقي الألماني، أطروحة مقدمة إلى كلية الآداب و العلوم الإنسانية في جامعة باريس، نانسي، مطبعة ج توماس، باريس، مارسيل ديديه ، 1963م ، (نقلا عن تيبيرهنش ، ص 273).

ألبيون الغدارة " و هو الوصف الذي أطلقته فرنسا على بريطانيا العظمى متهمة إياها بأنها منعتها من الاستعمار بطريقة هادئة ، و عرفنا " المؤامرة اليهودية - الماسونية " للبلوتوقراطيين (أي الأثرياء المتنفذين) .. و التي استخدمت لتبرير المحرقة النازية (الهولوكوست) ¹.

كل هذه المصطلحات والنوعت تستخدمها الدول وتبرر بها سلوكها اتجاه الآخر بل وحتى المنظمات والاتجاهات الفكرية والروحية، فالمصطلحات والنوعت هدفها تقديم مبررات إقناعية لتعديل

رؤية المجتمع لتلك التجاوزات في حق الآخر، ومنه يشحن التوجه الجمعي بسيل من الاتهامات، يضاف إلى ذلك بعض المواقف و السلوك الحادث كرد فعل طبيعي من جهة (الآخر) يشكلان فرض حقيقة مزيفة ومفتعلة بين الطرفين و هي " العداوة " الملاحظ على هذه المصطلحات الرامية إلى " عدونة " الآخر أغلبها كانت بين دول من نفس القارة تصطبغ نفس الملامح الإثنية الروحية ، لكن في العداوات المساعدة جغرافيا و ثقافيا فإن هذه المصطلحات لا تحافظ على منطوقها الاستعماري الاقتصادي و السياسي بل تقحم فيها مفاهيم و قيم أخلاقية وروحية دعما للعدوة و شحذا لهم طاقات المجتمع " لم تختف تماما هذه الآلية التي أنتجت هذه الأساطير و التي شرعنت للكثير من الحروب حيث يشكل خطاب الرئيس جورج بوش الابن في 29 جانفي 2002 حول حال إتحاد و الذي يشير بشكل أحادي إلى بلدان " محور الشر " الثلاث مثلا معاصرا للإنتاج المصطنع للأعداء قدمته أقوى ديمقراطية في العالم ².

يلفت انتباهنا دخول عنصر جديد على شكل عدوانية المصطلحات في العلاقة مع الآخر البعيد، و هو عنصر قيمي أخلاقي عالمي تجد فيه كل الاتجاهات مبرراتها.

ألا وهو مصطلح " الشر " الذي هو عالمي من حيث الوصف و الحكم عليه ، ولذلك يعتمد الإستراتيجيون اختيار ألفاظ تكتنز شبه توافق عليها من حيث المعاني بين جميع المجتمعات خدمة لمشاريعهم الخاصة كحقوق للإنسان و حقوق المرأة و التلوث البيئي و محاربة المجاعة و الإرهاب و غيرها مع أنها تستخدم لأغراض إستراتيجية ضيقة حتى أصبح العدو ضرورة حتمية لبعض الدول .

¹ - كونيسا، بيار ، صنع العدو ،أو كيف تقتل بضمير مرتاح ،ترجمة : نبيل عجلان، بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط 2015، ص13-14.

² - نفس المرجع، ص14.

استثمر الغرب عموماً و الولايات المتحدة خصوصاً كثيراً من العداوات و خاصة في الشرق الأوسط و عمل على استقدامها و إحياء أسبابها و خاصة العلاقة العربية الإسرائيلية و بعض العداوات الفرعية (العربية العربية)، حيث استثمر الأمريكيون في الصراع العربي الإسرائيلي.

لقد أطلق الرئيس (جورج واشنطن تحذيره للأمة الأمريكية في خطاب وداعه 1796م " لقد أراد في ذلك الخطاب أن ينصح الأمة الجديدة بأنها في سعيها إلى بناء علاقاتها الدولية ، عليها أن تبتعد عن إقامة علاقة(حميمية) مع أية أمة ، أو أن تحمل (كراهية مفرطة) ضد أية أمة أخرى ، وبدلاً من ذلك عليها أن ترعى قيام علاقات سلام و انسجام مع الجميع)¹ .

ازدادت حدة و تنوع مصطلحات العدوانية خلال مرحلة " ثنائية الأقطاب " التي قسمت العالم إلى معسكرين الأمر الذي نشط من أسباب العدوانية ووسع من دائرتها بين الدول.

حتى اكتشف العالم نفسه أمام حرب باردة لا معنى للعدائية فيها - في الظاهر على أقل تقدير، و خاصة حين كشفت الاستثمارات السياسية التي تنتهجها أمريكا من خلال العداوات المصطنعة حينها " لفظ الكسندر أرباتوف (Alexandre Arbatov) المستشار الدبلوماسي لمخائيل غورباتشوف (Gorbachev Mikhail) جملته الشهيرة ((سنقدم لكم أسوأ خدمة ، سنحرمكم من العدو)) فقد أثبت نظرية التقني للقطاع الإستراتيجي الغربي ، إذ لم يعد هناك وجود بعد الآن لتهديد قاتل بل لسلام حقيقي فحسب"² .

إذا كان الغرب " سلسا " في تقديم مهمة " القطبية " فيما بينه ، بين أوروبا العجوز الغائرة في ذوقها الاستعماري إلى أمريكا "الفتاة الهائمة في عشق الظهور و التألّق فإن الشرق عصي - إلى حد ما- في التسليم على هكذا علاقة فيما بين دولة و تنظيماتها السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية و الدينية .

¹ - دوغلاس جورج ، دوغلاس بول ، أمريكا إسرائيل " علاقة حميمية " التورط الأمريكي مع إسرائيل منذ عام 1947 حتى الآن ، ترجمة : ج/ محمد زكريا إسماعيل، بيروت، بيسان للنشر و التوزيع، ط 1 ، 1994، ص 13.

² - كونيسا، بيار، صنع العدو، أو كيف تقتل بضمير مرتاح ، المرجع السابق ، ص14.

المبحث الخامس:

التصورات والترتيبات "الشرق أوسطية الجديدة"

المطلب الأول: التصورات، الطرح الإعلامي لمشروع
الشرق الأوسط
المطلب الثاني: الطرح الرسمي

المبحث الخامس: التصورات والترتيبات "الشرق أوسطية الجديدة"

المطلب الأول: التصورات، الطرح الإعلامي، والمشروع الشرق الأوسط:

حتى وإن كان المسمى واحدا الشرق الأوسط الجديد أو الكبير فإن تصوره إعلاميا ليس هو نفسه عند النخب السياسية الغربية وخاصة الأمريكية الإسرائيلية منها، فإذا كان الإعلام يقدم تصورات لهذا المشروع بناء على معطيات وتصريحات الشاشة عبر المناسبات الإقليمية الدولية، فإن أصحاب القرار لهم تصور آخر تماما.

ما تقدمه وسائل الإعلام بمختلف أنواعها حول الشرق الأوسط هو محاولة التحكم في نمط التصور لحقيقة المشروع، وذلك من خلال نشر التنديد والاستهجان، وعرض صور الاحتجاجات، و الاشتباكات وتتبع البعثات والزيارات المكوكية، لكل من فلسطين و إسرائيل، وإيران، وكوريا الشمالية، والعراق وسوريا والصين، وباكستان، وأفغانستان، وذلك من أجل تشكيل تصور حسب الطلب بوسائل حديثة وطرق ديمقراطية تحترم حقوق الإنسان، وتضمن العدالة للجميع.

كما أن هذا التصور من خلال الطرح الإعلامي يعزز بمتابعة قانونية من طرف المنظمات الدولية كمجلس الأمن، ومنظمة الأمم المتحدة، والاتحاد الأوروبي وغيرها من المنظمات السياسية والقانونية.

المشروع إعلاميا، هو عملية حوار ونقاش لحل نزاعات عالقة منذ عشرات السنين، وهو كذلك رقابة على وقوع خرق لحقوق الإنسان والمرأة، وهو من جهة أخرى، عمل لحدوث الانسجام والتوافق في دول المنطقة مع ما يتلاءم والحدثة الغربية.

" إن وسائل الإعلام السائدة تلعب السياسة الأمريكية بشأن المنطقة العربية وتبيعها إلى الرأي العام الأمريكي بشكل عام .. كما أنها تلعب دورا حاسما في التنشئة الفكرية والسياسية للمواطنين"¹.

وبالمقابل لا نكاد نجد وسيلة إعلام واحدة في أوروبا وأمريكا، وحتى في الوطن العربي تمارس المهنة وقد انفلتت من قيد المال أو الايدولوجيا، بمعنى أن تكون غير موجهة لأغراض فكرية أو سياسية اقتصادية.

¹ - جرجس، فؤاد، السياسة الأمريكية تجاه العرب - كيف تصنع؟ ومن يصنعها؟ بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية، 2000، ص128.

ولذلك كان طرح مشروع " الشرق الأوسط الجديد" إعلاميا ضمن العمليات السياسية الأمريكية وبالتحديد تعسف الإعلام الغربي والأمريكي خصوصا في نقل وتصوير المجتمعات العربية والإسلامية والتي تعتبر حجر الزاوية الذي قصده المشروع الجديد الأمر الذي مهد لقبوله وفق العرض الإعلامي المزيف.

هذه التصورات الإعلامية الخاطئة لمحور الشرق الأوسط أثارت حفيظة النزهاء في المجال الإعلامي وحتى في المجال السياسي فعلى سبيل المثال ينتقد المساعد السابق لوزير الخارجية الأمريكية روبرت بولليتر التصوير السلبي للعالم الإسلامي من قبل وسائل الإعلام ولسوء الحظ فإن وسائل الإعلام الإخبارية يلاحظ بلليتر غالبا ما تشير إلى الإسلام والأصول الإسلامية في تقارير عن العنف السياسي والأعمال الإرهابية أو النزاع العرقي¹.

فالطرح الإعلامي يبرر ضرورة وأحقية التفكير في استحداث شرق أوسط على المقاس الغربي حتى لا يفسد على الغرب نشوة الحضارة ومتعة التكنولوجيا ولذلك سيبقى التلفزيون الغربي وبقية الوسائل الإعلامية تطبع في فكر متبعيها "صورة الرجل العربي على الشاشات أنه شخص ذي ثروة واسعة لم يجهد في كسبها وينفقها في وجوه استهلاكية مسرفة وفي مطاردة النساء أو أنه يظهر كإرهابي شرير أو كرجل أنيق الملبس مشوه الأخلاق يستعين بشهادته من إحدى الجامعات الأمريكية ليبتز كثيرا من المال مقابل النفط العربي من المستهلك الأمريكي"².

الغريب في الأمر أن هذه الصور التي يضرب بها العرب والمسلمون لا تتوافق ولا تتسجم من الناحية الواقعية وخاصة من حيث الثراء و العطالة والنفقة في الأوجه المذكورة أو حتى الأناقة الملوثة بسوء الخلق والشهادات المزورة من الجامعات الأمريكية والابتزاز للمستهلك الأمريكي سلاح النفط ، فالحقيقة بكل تفاصيلها لا تنطبق واقعا إلا على أصدقاء وحلفاء أمريكا في المنطقة وليس على الفرد اليمني أو التونسي أو المغربي عموما لأنه أبعد ما يكون مستثمرا لنفطه ، فضلا أن يكتفي ذاتيا ويجد ما يسرف في إنفاقه.

إذا العلاقة الحميمة بين أمريكا وبعض دول المنطقة شجعت وسائل الإعلام على الإغارة على بعض زعماء المنطقة وكشف أسرارهم وتتبع زلاتهم واستخدامها كدليل على تخلف شعوب المنطقة، وكتبرير لضرب وخنق أي نموذج عربي إسلامي يضرب الإعلام الغربي والأمريكي صفحا عن النماذج الشرق أوسطية العلمية الرائدة في مراكز البحوث العلمية والجامعات الأوروبية

¹ - المرجع السابق، ص126.

² - دوغلاس جورج ، دوغلاس بول ، أمريكا إسرائيل " علاقة حميمة "، المرجع السابق، ص258.

والأمريكية ولا يقدمها كنموذج عن الإنسان العربي والإسلامي للمشاهد الغربي عموماً لأنه يخشى أن يؤثر ذلك على مشروعه في المنطقة وعلى حلفائه الإستراتيجيين.

والغريب أن المجتمع الأمريكي لم يتساءل عن حقيقة سبعة ملايين عربي على أرضه وهم مواطنون أمريكيون وعلاقتهم بالمادة الإعلامية الأمريكية عن العرب، ذلك لأن "السبب الرئيسي يكمن في نقص اهتمام الجمهور الأمريكي أو الرأي العام الأمريكي ومعرفة في مجال الشؤون الخارجية حيث أظهرت الدراسة في استطلاع للرأي العام الأمريكي بشأن قضايا السياسة الخارجية في الأعوام " 1974 و 78 و 82 و 86 و 1990" فإن الأخبار المحلية كان لها أعلى مستويات الاهتمام بين 55 و 61 % على مدى سنوات بينها الأخبار العالمية كانت أدنى بكثير حوالي 41% في المعدل"¹.

لذلك لم يجد النظام الغربي عموماً والأمريكي خصوصاً حرجاً من مجتمعاتهم في طرح مشاريع استعمارية جديدة بحجة عدم ملائمة الطبعة العتيقة للشرق الأوسط لمتطلبات الحداثة ومصالح الحلفاء هناك.

المطلب الثاني: الطرح الرسمي

أما الطرح الرسمي لمشروع الشرق الأوسط الجديد فإنه قديم الجذور بل كان أول فكرة فرضت نفسها على الدول العظمى آنذاك بعد حدث تاريخي كبير وخطير "وهو الحرب العالمية الثانية حينها دارت كافة التصورات الخاصة بمستقبل المنطقة لدى القوى الدولية القائدة في النظام الدولي حينها حول مفهوم الشرق الأوسط بشكل أو بآخر بدءاً بمشروع قيادة الشرق الأوسط ومروراً بحلف بغداد ووصولاً إلى مشروع إيزنهاور"².

محاولات إقحام مفهوم العدالة لإسرائيل كان حاضراً في أغلب المحطات التاريخية التي عرفها العالم وخاصة ما تعلق منها بما له علاقة بالشرق الأوسط فقد بدأت المحاولة الأولى بعد الحرب العالمية الأولى مع انحصار النفوذ العثماني وإخضاع المنطقة للنفوذ الاستعماري الأوربي الذي حل محل الدولة العثمانية وما ارتبط بذلك من اتفاقات ومشاريع كاتفاقية سايكس بيكو

¹ - جرجس، فؤاد ، السياسة الأمريكية، المرجع السابق، ص129.

² - أحمد، أحمد يوسف وآخرون، التحديات الشرق أوسطية الجديدة والوطن العربي ، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط2، 2000، ص17.

1916 ومشروع الصهيوني الذي يهدف إلى اغتصاب فلسطين من أهلها وجاء وعد بلفور في 1917/11/11 لتكريس هذا المشروع¹.

إلا أن هذه المشاريع اصطدمت بالوضع الإيجابية نسبيا التي كانت عليها الدول العربية التي أقل ما يقال عليها أنها توصف بالوحدة على العموم ولكن أصحاب هذا المشروع ما لبثوا أن أحيوه مرة أخرى عندما عملوا على تغيير الحالة العربية حيث إعلانه من البوابة المصرية فقد ركز الغرب على إجتثاث مصر كنظام من الجسد العربي مستغلا بؤرة التوتر بين البلدين سيناء إضافة إلى الرغبة المصرية في ترقية العلاقة مع الولايات المتحدة.

هذه المرة كان الطرح جادا وإن يكن جزئيا بموجب السلام المصري الإسرائيلي الذي اكتملت أبعاده القانونية بتوقيع معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل في مارس 1979 إذ إنه طبقا لأسس هذا النظام أصبحت إسرائيل طرفا في علاقة أكيدة بدولة ذات دور قائد إن لم تكن صاحبة الدور القائد في النظام العربي².

ومع وضوح التركيز على إتمام الاتفاق الذي حمل عنوان السلام كشعار جذاب لدول المنطقة وأولها مصر التي لها حساباتها الخاصة. أفرز هذا الوضع تقدم مصر على سوريا في لعب هذا الدور مما أدى إلى انسلال مصر من الصف العربي بطريقة محرجة لباقي العرب عن القيام بأي موقف موحد ضد حليف السلام المصري الشقيق نتج عنه تباين واضح في التعاطي مع قضية فلسطين بين مصر والدول العربية.

وبرجوع سيناء إلى مصر دق بيغن آخر مسمار في أي جهد عربي منظم للتهديد بخيار عسكري فإن خروج مصر من منظومة البلدان العربية وتوقيعها معاهدة السلام مع تل أبيب قد مزق الوطن العربي أكثر ودعم الهيمنة الإسرائيلية على جيرانها العرب³.

كانت مصر "عبد الناصر" عصية إلى حد ما في القضايا العربية المصرية بل تشكل حرجا لبعض العلاقات الأمريكية الشرق أوسطية لكن وبدافع "مركزية القومية العربية" وتعدد المتهارشين على أحقيتها كان أسلوب السادات وصورته النفسية السياسية الديكتاتورية قد ساهما بشكل كبير في إضعاف الموقف المصري في "كامب ديفيد" لقد أراد السادات أن يجعل القاهرة تتنافس مع تل أبيب في كسب ود واشنطن بإعطاء مصر دور رصيد إستراتيجي أمريكي آخر في

¹ - الدويك، عبد الغفار عفيفي ، إسرائيل والشرق الأوسط ، مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، ط1، 2010، ص236.

² - أحمد، أحمد يوسف وآخرون، التحديات الشرق أوسطية الجديدة والوطن العربي ، المرجع السابق، ص 17.

³ - جرجس، فؤاد، السياسة الأمريكية تجاه العرب، المرجع السابق، ص138.

المنطقة¹ بمعنى تمثيل عربي للمصالح الأمريكية في المنطقة أو جهود بديلة للجهد الإسرائيلي أكثر قبولاً عند العرب لأنها بأيدي وعقول الأشقاء الذين رتعت في رحابها مركزية القومية العربية سنوات عديدة ولهم على الأشقاء الأيادي البيضاء معاهدة السلام كانت صفقة أكثر منها معاهدة بالنظر إلى مبررات السادات ونجاحات بيغن وتردداتها على الصف العربي وما يحمله من إشكالات قومية.

بعد ختام اتفاقيات كامب ديفيد رجع بيغن إلى واشنطن ووقع مع كارتر مذكرة تفاهم وبموجب هذه الاتفاقية فقد تعهدت الولايات المتحدة بمعارضة أي عمل تعتبره إسرائيل يهدد مصالحها بما في ذلك أي مقاطعة اقتصادية محتملة والإدانة من قبل الولايات المتحدة ورفض بيع السلاح لأية دولة أو طرف معارض².

بمعنى أن عملية السلام المصري الإسرائيلي لم تكن مجرد إجراء لإخماد فتيل الحرب بين جارتين حدوديتين من مصلحتهما أن ينعم مواطنيهما الحدوديين بالأمان بل كانت عملية السلام من الناحية الإستراتيجية الرد الإيجابي وبالموافقة المصرية على جواز إمكانية واقعية استكمال وتنشئة كيان الدولة اليهودية وذلك يتطلب عملية مسح طبوغرافي للأرض والتاريخ وفرض معطيات جديدة تضمن للدولة الجديدة إمكانية الحياة في المدى القريب ومؤهلة وفق عمل إستراتيجي للتفوق العسكري والاقتصادي والسياسي والاجتماعي على المدى البعيد نسبياً.

من أجل تعميم هذا السلام وتبريره اقتضت المصلحة بعد دراسات معمقة أن تطرح صيغة السلام مرة ثانية ولكن هذه المرة على تشكيلة جيوسياسية أوسع تأخذ في حساباتها عدة اعتبارات دلالية على فشل أو نجاح هذا المشروع الجديد.

الأرض والتاريخ دخلا مشرحة الغرب الحائز على مشروط تحدد مواضع عمله الصهيونية الناقمة على جغرافية الأرض والتاريخ حيث عمل مكتب دراسات العمارة والتاريخية على إعادة تهيئة المنطقة وفقاً لأهداف مسبقة الدراسة.

عبر عن هذه الحقيقة المختصرة وعن زيف كونها عملية إحلال سلام بين طرفين بل إجراء هندسي جديد لكنه كبير في إجراءاته وأهدافه، وتعسفي في إلغاء الآخر والتمركز حول الذات الغربية بقول شيمون بيريز: "أولا وقبل كل شيء هندسة معمارية ضخمة هندسة تاريخية لبناء

¹ - المرجع السابق، ص 139.

² - Camille Manssour , beyond Alliance, Israel in a foreign policy, translated by James A Cohen new york Colombia Unwersup , press,1994,p132.

شرق أوسط جديد متحرر من صراعات الماضي ومستعد لأخذ مكانه في العصر الجديد العصر الذي لا يطبق المتخلفين ولا يغفر للجهلة¹.

إعلامياً لم ترق حوارات السلام إلى هذا الوضوح في الفكرة بل تسوق شعاراته ويسكت عن كونه مجرد استعراضات للياقة السياسية أما المتفنون في مفاصل هذا المشروع فلا يهتمون لتلك الاستعراضات بل يعملون على إطالة أمدها للتدقيق في قوانين الهندسة ومعطيات التاريخ مخرجات المشروع حددت ملامح وليد العملية القيصرية بيومترياً فهو متحرر من ماض شكل وجوده لقرون حددته معاني ومعالم شرقية وهي بيت القصيد من هذا المشروع وهدفه الأول لكن منطوق القصد الصراعات التي ضمنت لتلك المعاني والمعالم صيرورتها.

أما المخرج الثاني فهو إحداث بيئة فكرية مستلبة فطرياً تنتكر لماضيها، وتفتح نقاط استقطابها لكل ما يقدم لها كنتاج واقعي لهندسة العمران والتاريخ الذي هو جوهر مشروع الشرق الأوسط الجديد.

إذا يهدف إلى تغيير قوانين ومبادئ التعامل مع الماضي والحاضر للذان هما بالطرح الشرقي تحت سلطة العقائد والأخلاق هذه السلطة في الغرب تتبناها هيئة مدانة بعنائها للعلم والفكر وبالهرطقة مع أنها تعتبر الداعم المعنوي والمعرض المقدس لمشروع الشرق الأوسط ونعني بها "الكنيسة".

إن توقيت وضع الرؤية في كتاب " شيمون بيريز " ونشرها في وقت مبكر عن المبادرات الأخرى في أوائل التسعينات من القرن الماضي يثير التساؤل حول من يرسم سياسات المنطقة ومن يتبع من في ذلك؟ حيث أن المشاريع التي طرحت من قبل الولايات المتحدة ودول المجموعة الأوربية كانت في معظمها صدى للأفكار والتصورات التي وضعت في هذا الكتاب².

هذا التناغم بين الطرح الغربي والرؤية الإسرائيلية يدل دلالة واضحة على وجود أهداف غير معلنة تتعلق بالكيان الصهيوني الذي يقدم نفسه للغرب كضحية للنسيج الشرق أوسطى بكل ملامحه الجغرافية والتاريخية والروحية وحتى الاقتصادية مما يستوجب خلق مناخ جديد في كل أبعاده يستجيب لكل متطلبات الكيان الضحية.

¹ - بيريز، شيمون ، عصر جديد لا يطبق المتخلفين ولا يغفر للجهلة، في ماذا بعد عاصفة الخليج؟ مجموعة من المؤلفين، القاهرة مركز الأهرام للترجمة والنشر، 1992 ص104.

² - الثوبك، عبد الغفار عفيفي ، إسرائيل والشرق الأوسط ، مرجع سابق، ص246.

يؤكد الكاتب " عادل صفتي " أن الحقيقة التي ترتبت عن خروج مصر من الصف العربي هي تمكين واشنطن من تأسيس نظام سياسي " شرق أوسطي " جديد مقابل النظام العربي.

إن اتفاقيات كامب ديفيد جاءت لتؤكد دور مصر الفاعل رفقة الدور الأمريكي والإسرائيلي في إستتساخ شرق أوسط جديد يكون الجهد العربي فيه ممثلاً في الدور المصري " إذ أن الهدف الأساسي لكامب ديفيد كان ضمان عدم وجود قوة داخل أو خارج المنطقة يمكنها أن تقف بوجه التعاون الإستراتيجي " الأمريكي - الإسرائيلي - المصري"¹.

¹ - Adel Safty, from Camp David to the golf, negotiations, language and propaganda and war Montreal, New york, black rose books, 1992,p98.

المبحث السادس:

البعد السياسي لمشروع الشرق الأوسط الجديد

المطلب الأول: الدور التوافقي بين الحقيقة الجغرافية والهدف السياسي.

المطلب الثاني: المصطلح ودلالاته عن هذا البعد.

المطلب الثالث : اللمسة السياسية الإسرائيلية في المصطلح.

المطلب الرابع: الأسس الفلسفية للسياسة الأمريكية.

المطلب الخامس : المشروع إسقاط ثان للتجربة الأمريكية وتكرار للذات.

المبحث السادس: البعد السياسي لمشروع الشرق الأوسط الجديد

المطلب الأول: الدور التوافقي بين الحقيقة الجغرافية والهدف السياسي

" إن مصطلح الشرق الأوسط الجديد مصطلح سياسي جغرافي جديد يرتبط بالمخططات الغربية تجاه المنطقة التي تهدف في الأساس إلي اقتسام النفوذ فيها والاستيلاء علي ثرواتها"¹.

من هذا التحديد للمنطقة تبين المنطق الذي يتعامل به الغرب معها لا علي أساس حيز جغرافي مهم من الممكن التعامل معه والاستفادة منه كبقية دول العالم الأخرى مع أحقيته في المحافظة علي كل مقوماته الروحية والثقافية والطاوية، بل كتركة لم تجد لها ورثة فتهاقت عليها المرتزة من كل حدب وصوب.

" لا ترتبط الإبعاد السياسية لمشروع الشرق الأوسط الكبير بمضمون المشروع ذاته ومحاوره المعلنة فقط ، بل الأهم بمستوي الأسباب الداعية لتبنيه والأهداف والنتائج المتحققة حال تطبيقه أوحى مجرد إعلانه، بل يؤثر هذا المستوي الأخير علي شكل صياغة المشروع وطرق تنفيذه ومحاور التركيز ونقاط التجاهل به "².

المدخل السياسي ودعوة الإصلاح في منظومته عربيا ، كان البوابة التي تحفظ ماء وجه الغرب وخاصة أمريكا وتخفي بشاعة نواياهم في منطقة الشرق الأوسط.

" كان النظام الدولي الجديد الذي وضع أسسه مؤتمر باريس عام 1919 يكرس هيمنة المنتصرين في الحرب ، خصوصا فرنسا وبريطانيا ،علي حساب المنهزمين : ألمانيا النمسا ، بلغاريا هنغاريا وتركيا ، وكونه نظاما مبنيا على منطق القوة وشريعة المنتصر ، فقد عملت الدول المنتصرة علي تكريس هيمنتها بمعاهدات أعطتها صفة الدولية والإلزام وجعلت منها احد مرتكزات النظام الجديد"³.

لقد تمت ترجمة الانتصار الذي وقع جغرافيا في أوروبا إلى تمدد تردداته شرقا وجنوبا تجاوزت تبعاته الدول المنهزمة عسكريا، حيث شهد العالم حينها قطبية استعمارية ثنائية بين فرنسا وبريطانيا اللتان اقتسما التركة الشرق أوسطية، فانفردت فرنسا بكل المغرب العربي ، وجزءا

¹ - الدويك، عبد الغفار عفيفي، إسرائيل والشرق الأوسط، المرجع السابق، ص 236 .

² - الشرفاوي، باكينام ، الأبعاد السياسية لمشروع الشرق الأوسط الكبير "الجديد"، عبد الرحمن عبد الرحمن النقيب، مشروع الشرق الأوسط الكبير وتداعياته السياسية والاقتصادية والتربوية ، مصر ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط 1، 2010، ص 129.

³ - أبراش، إبراهيم، حدود النظام وأزمة الشرعية في النظام الدولي الجديد، المستقبل العربي السنة 17 العدد 185 ، تموز- يوليو1994م، ص 4، 21.

من دول المشرق (سوريا ولبنان) ، واستبدت بريطانيا علي جزء كبير من دول المشرق العربي إما استعماراً أو حماية و انتداباً .

لقد استباح الغرب كل محصور لتحقيق أهدافه، ولم يفرق بين الوسائل المشروعة وغيرها، شرعاً وقانوناً وتاريخاً، حتى تأكد من رسوخ تلك الصيغ وظهر أنها لم تعد فاضحة لأهدافه.

ولقد كانت منطقة الشرق الأوسط الأكثر جاذبية من حيث المشاريع السياسية لما تمتلكه من مميزات إستراتيجية تؤهلها عن غيرها من الحدود الشرقية والجنوبية للقارة العجوز - وعموماً يسهل ويقلل تكلفة المشاريع - إضافة إلي اكتسابها لرصيد تاريخي تمتد جذوره إلي البدايات الأولى للفعل الإنساني ووجوده ، كما يصاحب هذا الفعل أول التجارب الروحية للإنسان من خلال مشاريع التوحيد التي كانت المنطقة الشرق أوسطية مسرحاً لها دون غيرها، وما ينسي الفكر المادي الغربي النفعي في كل هذه المميزات ، المواد الطاقوية المتنوعة التي تتحكم في الحضارة الغربية وجوداً وعدماً.

إضافة إلي هذه الأسباب وغيرها، مثل الدافع للحروب الصليبية - حينها - وهو جدلية بين المقدس والرغبة في أحكام القبض المسيحية من خلال الكنيسة علي المشروع الروحي الإيماني في العالم من خلال تسخير كل الإمكانيات المادية لتحقيق هذا الحلم "المقدس" فكان من الضروري اعتبار البعد السياسي في هذا المشروع من أهم الأبعاد.

الصراع العربي الإسرائيلي مثل جوهر البعد السياسي لمشروع الشرق الأوسط، حيث درست كل الخيارات، واقتترحت جميع الرؤى من زاوية ملاءمتها أو عدم ذلك للهدف المسطر والمتفق عليه وهو "تمكين الكيان العباء" من الحياة الطبيعية في مناخ غير طبيعي، حتى لو تطلب ذلك إحداث تغيير جذري تعسفي على الحقائق التاريخية والجغرافية والإنسانية وحتى البيئة وكل ما هو طبيعي في المنطقة.

المطلب الثاني: المصطلح ودلالته عن هذا البعد

يبدأ الانحياز إلي هذا الكيان "العباء" والانتصار له حتى من حيث المصطلحات التي أطلقت على هذه المنطقة فتعبير الشرق الأوسط تعبيري أجنبي يسمي به بعض الأجانب منطقتنا وهو تعبيري حديث ظهر في أعقاب الحرب العالمية الثانية كما انه تعبيري متحيز في دلالته لمن وضعه¹.

¹ - الدجاني، احمد صدقي، التحديات الشرق أوسطية الجديدة والوطن العربي، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز الدراسات الوحدة العربية، 1994، ص 60 .

إن الأكد أن هذه المصطلحات شأنها شأن المصطلحات الحديثة يبني (بعد دراسة جادة لكل أبعادها) مفهومها علي ما يقدمه المصطلح من خدمات وتبريرات توظيف في الوصول إلي هدف معين كما يحدث الآن مع مصطلح "الأصولية والإرهاب "

لذلك فان مصطلح "الشرق الأوسط بالدوق البريطاني في زمن السلوك الاستعماري كان يعبر عنه بدقة حيث كانت الدراسات البريطانية عن المنطقة إبان هيمنة بريطانيا تستخدم تعبير "الشرق الأدنى" والشرق في الحالين هو بالنسبة إلى واضع المصطلح¹.

عملت بريطانيا حينها على توفير الجو السياسي الملائم من خلال ربط علاقاتها مع الأنظمة الحاكمة وإشغال الأخيرة ببعض الخلافات لإضعاف اللحمة الإسلامية التي شكلتها الخلافة العثمانية ونفخت في بوق العروبة نفاقا فصدقها أكثر من حولها من العرب فشقوا عصا الطاعة في وجه الخلافة وتنادوا لخلافة عربية أساسها العرق واللغة برؤية بريطانية كانت تهدف إلي استئصال وفك الارتباط بين ما هو عربي وبين الإسلام فكان الجهد البريطاني مهما جدا في تغيير الخارطة السياسية بداية من فك هذا لارتباط وخاصة حول القضية المحورية "فلسطين".

وقد جرى استخدام وصف "الأوسط" في الدراسات الأمريكية ليتجاوز منطقة الوطن العربي إلي أجزاء من دائرة العالم الإسلامي وثيقة الارتباط بالدائرة العربية حيث يبرز الحرص علي استخدام مصطلح " الشرق الأوسط" ليكون بالإمكان إدخال الكيان الإسرائيلي الصهيوني ضمن المنطقة².

وحتى يتم "حقن" المنطقة بهذا "الوارد" عملت الولايات المتحدة على محاصرة النفوذ الأوروبي في المنطقة فدخلت حربا باردة غير معلنة مع التواجد الأوروبي كما فعلت مع الاتحاد السوفيتي أثناء ما يعرف بالحرب الباردة ولذلك عملت علي أن تكون اللاعب السياسي الوحيد في منطقة الشرق الأوسط ، بل بررت وجودها بهذا الزخم بفشل أوروبا في التحكم بزمام الأمور في المنطقة وفشلها في فرض أمر واقع بخصوص القضية الفلسطينية من جهة وانشغالها عن بعض دول المنطقة التي أصبحت تهدد امن المنطقة والمادة الحيوية بالنسبة لأمريكا أي بترول الخليج العربي الأمريكي.

¹ - المرجع السابق، ص 60.

² - الدجاني، احمد صدقي، المرجع السابق، ص 60-61.

المطلب الثالث: اللمة السياسية الإسرائيلية في المصطلح

" إن الغرب قد قسم العالم قسمة جغرافية ، سياسية فكرية ، إيديولوجية ومعرفية ، وهو يري الحضارات الأخرى بمنظاره المخدوش وغير الواضح.، فالغرب يضع نفسه بموقع السيد المتحكم المقرر، الأمر النهائي ، والطرف الآخر يرضى بموقع التابع والثانوي المنصاع " ¹.

لذلك عمد الغرب عموما و الولايات المتحدة بالخصوص على تعليب أنظمة الحكم في المنطقة وتعقيمها وتأهيلها وفرزها بما يتناسب ويتلاءم مع مراحل نمو هذا الكائن "العبء" وبقائه، بل وحتى ما يتناسب مع حالات تهوره فضلا عما قد يراه مطلبا حيويا في حالات رشده وتركيزه. وعليه كانت الإستراتيجية الأمريكية لترتيبات المنطقة "سياسيا" عبارة عن أملاءات إسرائيلية بالدرجة الأولى قبل كونها قرارات دولية هدفها رسم الحدود الجغرافية، أو حل لإشكالات عالقة بين إسرائيل وجيرانها.

" فالحدود الجديدة الإسرائيلية وفق هذا المنطق (ويعني منطق المشروع) لن تكون حدودا جغرافية ، بل ستكون أعماقا اقتصادية وسياسية تضرب بجذورها في بلدان المنطقة المستويات الحكومية والمهنية والشعبية كافة ، ذلك هو المفهوم الجديد "للأمن الإسرائيلي أمن الأعماق " عن طريق السيطرة على مجريات الأمور السياسية والاقتصادية في محيط بلدان الجوار..².

إذن اعتبرت إسرائيل وأمنها القومي الدافع والضابط في تشكيل أنماط الأنظمة السياسية والاجتماعية وحتى الاقتصادية في المنطقة، ولا يقبل الجانب الإسرائيلي بحدوث أي ممانعة تحدث على أي مستوى من مستويات دول الجوار، سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وحتى شعبيا لأمنه القومي المقدس الذي يفترض من الناحية النظرية الانصياع والتبعية الكاملة وتقديم الولاء لإسرائيل ، والاعتراف بأحقية تواجدها وصواب تصرفاتها مع جيرانها.

لو اقتصر تحديد مفهوم الأمن القومي عند حدود السياسة والجغرافيا وهي عادة كل الدول لكان مقبولا لكن أن يشمل حتى المستويات المهنية والشعبية فتلك جرأة سياسية وسابقة خطيرة في العلاقات الدولية، وضرب في الصميم لسيادة الشعب وحرية علي جغرافيته.

¹ - اصطيف، عبد النبي ، نقد (صراع الحضارات) نحن والعرب ، من صدام الحضارات إلي الشراكة المعرفية، بغداد، مطبعة الآداب ، 2000م، ص 5 .

² - عبد الفضيل، محمود ، العرب وتحديات النظام العالمي ، بيروت، ط1، أكتوبر 1999، ط2، 2004، سلسلة كتب المستقبل العربي (16)، ص 146.

" من المستحيل التفكير فقط في الدفاع عن الحدود، وإغفال ما يجري في الأماكن البعيدة من غير المعقول أن يصلنا صاروخ من بعد ألف كيلومتر، بينما نشغل أنفسنا برسم حدود علي بعد ثلاثين كيلومتر من مركز وجودنا"¹.

يفرض بيريز منطقاً آخر في صيغة الدفاع عن حدود الدولة عبر المشروع السياسي للشرق الأوسط الجديد ، فهو تعدى بطرحه الحدود الجغرافية الفاصلة بين الدول وتوافقه أمريكا على ذلك باعتبارها رافعة لهذا الشعار خدمة لمصالحها، حيث أصبحت الحدود الآمنة فعليا للأمن القومي هي أول نقطة - مهما تباعدت - يمكن أن ينطلق منها تهديد حتى وإن لم تكن حدودية ، بمعنى حدود الأمن القومي يحددها سقف تطور الأسلحة وليس الاشتراك الجغرافي الذي تقره الهيئات الدولية.

و للتمكن من تحقيق الأمن بهذا المفهوم ، وتأسيس فكرة هاجس إسرائيل ليس من جيرانها الجغرافيين حدوديا ، لأنها الأقوى بلا منازع عمدت إلى إشراك دول بعيدة جغرافيا لكن يشملها التعريف الأمريكي للشرق الأوسط علي إقحام هذه الدول في معادلة التغيير ، وقد لمح من خلال المسافة (1000 كلم) إلى هوية بعض هذه الدول ، لذلك ، طلب بيريز من منظري مشروع الشرق الأوسط الجديد (الكبير) بعدم الاكتفاء بتأمين الحدود ، بل التفكير في تأسيس "أبعاد" وأنماط جديدة تستخدم في الدفاع عن الأمن القومي عوض الجيوش والأسلحة على حدود الدولتين .

" فالمطلوب اليوم ليس حدودا قابلة للدفاع، بل "أبعاد" قابلة للدفاع، وبكلمات أخرى، علينا أن نبني شبكة من العلاقات السياسية يكون بمقدورها تغطية كل مواقع الخطر في شبكة العلاقات العسكرية المجردة"².

إعادة بناء شبكة العلاقات السياسية في منطقة الشرق الأوسط كان هدف الدول الاستعمارية الأوروبية ، وتطور هذا المفهوم تحت هيمنة الولايات المتحدة ، وخاصة بعد الاستقالة الأوروبية من الصراع العربي الإسرائيلي ، وتوسيع دائرة مفهوم الشرق الأوسط ليشمل دولاً أخرى مثل : إيران، أفغانستان ، كوريا الشمالية ، العراق ، وهو ما أطلق عليه "محو الشر".

حدد مشروع الشرق الأوسط الجديد مهمة ودور شبكة العلاقات السياسية في المنطقة وخاصة البعيدة منها عن "الكيان العباء"، حيث تقوم بدور الشرطي بالوكالة الذي له مهمة واحدة ومحددة في كل دول المنطقة وهي "تغطية مواقع الخطر" في هذه الدول، والإبلاغ المسبق عنه

¹ - بيريز، شيمون ، عصر جديد لا يطبق المتخلفين ولا يغفر للجهلة ، المرجع السابق، ص 108 .

² - كونييسا، بيار ، صنع العدو، أو كيف تقتل بضمير مرتاح ، المرجع السابق ص 16.

لدى الأنظمة المحلية والهيئات الدولية، ولدى الكيان "العبء"، والحرص على إفشال برامج تلك المخططات بقدرات وخيرات الموارد البشرية لشعوب المنطقة.

"يشكل تأسيس دولة إسرائيل بالنسبة إلي يهود دول العالم كله نهاية اضطهاد طويل بلغ ذروته في ألد "Shoah"، أي الإبادة التي ارتكبتها الأوروبيون، لكن ليس لها أي معني في البلدان الإسلامية التي أمنت بشكل واسع، وعلى مدى قرون عدة الحماية والأمن لليهود اللذين طردهم المسيحيون..¹.

تقدم الولايات المتحدة الأمريكية نفسها كبديل للقارة العجوز في المعضلة الإسرائيلية وتكمل ما قامت به بريطانيا من التعهد بدولة يهودية في فلسطين كاعتذار على كل جرائم أوربا في حق اليهود.

المطلب الرابع: الأسس الفلسفية للسياسة الأمريكية

" لقد احدث سقوط شاه إيران ارتباكا شديدا للسياسة الأمريكية الشرق الأوسطية، وخاصة في الخليج ، بسبب الخلل الخطير الذي أحدثه في ميزان القوى في المنطقة، لقد أصبحت هذه المنطقة من زاوية المصالح الأمريكية منطقة مكشوفة وغير مأمونة وسيصبح الخطر داهما إذا ما تم التقارب بين اكبر قوتين إقليميتين فيها، وهما : إيران و العراق"² .

تتخذ الولايات المتحدة من الفلسفة اليهودية في الفكر السياسي منهجا وقناعة، حيث تقرا كل خطوات الولايات المتحدة أثناء طرحها لمشروع الشرق الأوسط الجديد على وجه تفعيل لنظرية المفكر والفيلسوف اليهودي (ليون ستراوس) ولذلك " فان المحافظين الجدد عندما يطرحون مشروع الشرق الأوسط الكبير فإنهم يبحثون عن تغيير الأنظمة السياسية العربية الإسلامية وفق هذا المفهوم الفلسفي السياسي³ ، الذي يعني أن النظام في هذه الحالة ذاك الذي ينسحب بشموليته على كل مستويات الدولة والمجتمع وكل القواعد والقيم التي تتحكم في خصوصيات المجتمع ولا يعني به السلطة الحاكمة فقط.

وهذا يتوافق مع ما تقترحه بعض مراكز التفكير الأمريكية وخاصة المقربة من اللوبي اليهودي حيث يري (بروس هوفمان) نائب رئيس مؤسسة (راند) أن الرد" على الهجمات التي أدت إلى تفجير السفارتين بالعاصمتين الأفريقيتين كان بإطلاق حوالي مائة صاروخ ضد مخيمات

¹ - المرجع السابق، ص 16.

² - قنان، جمال ، نظام عالمي جديد ام سيطرة استعمارية جديدة ، بيروت،مركز دراسات الوحدة العربية ، ط1 ، 1999م، ص 134

³ - صايح، مصطفى، السياسة الأمريكية اتجاه الحركات الإسلامية ، الجزائر، دار قرطبة للنشر و التوزيع، ط1، 2010م، ص358.

أسامة بن لادن في أفغانستان ، كما تم تحطيم مصنع كيماوي بالسودان ، واقترح أن يكون الرد على أحداث 11/9 بحرب شاملة¹ .

يلمس المنتبع لسلوك الولايات المتحدة حقيقة في تعاملها مع الأحداث أنها لا تدافع عن أمنها القومي - كما تدعي - بل تبعث برسائل رعب وهيمنة من خلال توسيع دائرة انتقامها لتشمل أماكن وهيكل قاعدية لا علاقة له بالعمل الذي قام به الأعداء المحتملون، كاستهداف مصنع كيماوي بالسودان وهذا الفعل مؤسس على خلفية الاستعداد للآخر لتبرير مثل هذه التصرفات .

- قد يستوقف الدارس لطبيعة السياسة الأمريكية غرابة السياق الذي اعتمدته الولايات المتحدة في تعاملها مع الأحداث وخاصة الخارجية منها، وخاصة في نظرتها إلي الدول حيث أعطتها حق الصراع من أجل الوجود .

- لم تخرج السياسة الأمريكية منذ نشأة الدولة عن خيارين رئيسيين ،حيث "يتفق المختصون الكبار في السياسة الخارجية الأمريكية على ضرورة التمييز بين تيارين أساسيين: السياسة الواقعية التي يمثلها الرئيس الأمريكي (تيودور روزفلت 1901/1909) ، والسياسة المثالية للرئيس (وودرو ويلسون 1913/1921)² .

- وعليه فإن التقاليد التي تتحكم في توجيه السياسة الأمريكية إزاء الأحداث العالمية تطرح الدور الأمريكي كشرط جوهري له وحده حق تجديد الصيغ والأدوار، لا كشرط يؤخذ منه ويرد لأنه ينطلق من نقطة تسارع مشحونة ومشبعة بفكرة "المصير المحتوم" التي اعتنقها رئيس كان يؤمن "إن الظلم المزمع أو عدم القدرة الناتج عن التخلي العام عن قواعد المجتمع المتحضر، يتطلب داخل أمريكا أو خارجها ،تدخل امة متحضرة ، وفي إطار تبني الولايات المتحدة الأمريكية لمبدأ (مونرو) يستوجب منا في الحالات المذكورة ان نمارس سلطة البوليس الدولي"³ .

- إذا النزعة البوليسية للسياسة الأمريكية الخارجية نزعة قديمة قدم نشأة الدولة، إضافة إلى التبريرات التي تقدم بالتزام المعاهدات الدولية كمبدأ (مونرو) مثلا، فسلطة البوليس تعني شرعية استخدام القوة كفلسفة في حل بعض النزاعات، أو فرض واقع معين، يستساغ هنا منطلق القوة كونه صادر عن مجتمع متحضر - كما برر ذلك الرئيس روزفلت. وهو منطلق له خلفياته

¹ - المرجع السابق، ص 404.

² - صايح، مصطفى، السياسة الأمريكية اتجاه الحركات الإسلامية ، المرجع السابق ص 52 .

³ - المرجع السابق، ص 53 (رسالة الرئيس الأمريكي ت ، روزفلت إلى الكونغرس في 1904/12/06).

الإستعلانية التي مصدرها " التمرکز الغربي حول الأنا " وجدت العقلية الأمريكية السياسية في التوتر المزمّن في الشرق الأوسط الذي ورثته عن القارة العجوز مبررا لفرض فلسفتها السياسية التي وإن اختلفت صورها من الواقعية مع (روزفلت) ،إلى المثالية مع ويلسون ،إلا أنها تؤدي في الأخير إلى نفس النتيجة وهي الهيمنة الأمريكية .

تعمل الولايات المتحدة باختلاف رؤسائها على أدلجة واستثمار الخلافات الدولية، وخاصة تلك التي تفرض نفسها في الشرق الأوسط حيث توافقت هناك الأبعاد الثقافية والدينية والاقتصادية، ولذلك استثمرت الولايات المتحدة في هذا الواقع الذي يعز مثيله في منطقة أخرى . " تعد فترة رئاسية (و.ويلسون) الفترة الرئاسية الأكثر إيديولوجية في التاريخ السياسي الأمريكي " ¹.

المطلب الخامس: المشروع إسقاط ثان للتجربة الأمريكية وتكرار للذات:

تطمح الولايات المتحدة من خلال تبنيها لمشروع الشرق الأوسط الجديد إلى إعادة إنتاج نفسها في نموذج الكيان الصهيوني وإحداث مصداقية نهجها من خلال هذا المشروع لإحساسها بنشاز في كرونولوجيا نشأتها وتطورها عند نظرها في المرآة التاريخية التي تعكس الشروط والمراحل والإمكانات التي غالبا ما تسبق نشوء وظهور أي دولة ومجتمع طبيعي .

" إن أحدا لا ينكر أن نهاية المسيرة التي أدت إلى نهاية التاريخ بالمفهوم الأمريكي بدأ من عصر النهضة والحركة الإنسانية ، التي بدأت كما عبر جارودي (بميلاد حضارة الكم والعقل النفعي، وديانة الذرائع)² .وجعل هذه القيم الإنسانية الثلاث التي أخذت تنمو حتى بلغت غاية ترسخها في العقل الأمريكي البوصلة الأساسية الموجهة للحياة الأمريكية " ³.

بالنظر إلى التركيبة البشرية للمجتمع الأمريكي من الناحية الاثنية، فإنه لا يتمتع بجينات ذاتية ترسم كيانه وتميزه عن الآخر، كما هو الحال عند بقية الشعوب الأخرى، بل هو استمرار لجينات أوروبية (بريطانية خاصة) في جغرافيا جديدة أحس فيها بالغرابة الناتجة عن الاضطهاد في أوروبا حيث " من المعلوم أن نواة هذا المجتمع تكونت من مغامرين أوروبيين من القارة الأوروبية، كانوا خليطا من شعوب أنجلوسكسونية لاتينية، ربما كانوا أشناتا متباينين مختلفين

¹ - صايح، مصطفى، المرجع السابق، ص53.

² - جارودي، روجيه، أمريكا طليعة الانحطاط، تعريب : عمرو زهيري ، تقديم :كامل زهيري ، دار الشروق، 1420هـ -1999م، ص41.

³ - النقيب، عبد الرحمن عبد الرحمن ، مشروع الشرق الأوسط الكبير وتداعياته السياسية والاقتصادية والتربوية ، مصر، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط 1، 2010، ص17-18.

عندما كانوا بأوروبا، ولكنهم الآن صاروا مواطنين في وطن واحد، وأصحاب مصلحة واحدة، وكان واجبا عليهم أن يتفقوا على مبادئ أساسية تجمعهم" ¹ .

المشهد نفسه يتكرر مع الحالة الصهيونية اليهودية التي تشرف على رعايتها واحتضانها سياسيا وعسكريا وماديا الولايات المتحدة الأمريكية ، والتي تعتبر ظاهرة محيرة كما يراها الأستاذ مالك بن نبي - رحمه الله - حيث عندما " أذفت ساعة الشتات ، أي الخروج الثاني لهم خارج فلسطين ، توجه اليهود نحو أوروبا التي لا تزال حينها متوحشة ودون تجارة ، عوض التوجه نحو آسيا المتحضرة التي كانت تزدهر فيها التجارة² .

هذا الاختيار في حد ذاته دليل على عكس ما يدعونه ويرفعونه من شعارات، فالنموذج المتحضر الذي يحمل قيما ومبادئ ورصيد عقائدي روحي، يألف الحضارة ويوجه بوصلته في اتجاهها لا أن يختار التوحش بيئة للحياة، وهم من يزعمون أنهم شعب الفضيلة. ومن يحمل للإنسانية تمام السعادة والخلص، فقد كانت آسيا أرض الحضارة الإنسانية والقيم الروحية حينها ، فلو صدق اليهود فيما يدعونه من اختيار الهي و انتساب زائف إلى الله- سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا - ما كانت وجهتهم أوروبا. بل آسيا البيئة الأصلاح لمشروعهم حينها وما تتوفر عليه من تجارب في الفكر والعقائد ، وهو ما قد يعجل عودتهم - المزعومة- إلى الأرض المباركة ، فضلا عن أنها أقرب إلى آسيا من أوروبا بل جزء منها جغرافي.

لقد كان اختيار اليهود لأوروبا- التي لم تكن تمثل شيئا في قاموس العقائد والقيم -إعلانا رسميا منهم عن تخليهم عن الحق المزعوم في أرض فلسطين المباركة بكل المقاييس التاريخية والعقلية ، لأنهم يدركون صلابة مجتمعات القيم والمبادئ في آسيا واستماتة أصحاب الفكر والعقائد في الدفاع عن حقهم التاريخي ، ولذلك كانت السياحة اليهودية في أوروبا بمثابة مرحلة نسيان لهزائمهم التي ألحقت بهم من طرف المسلمين ، واختفائهم عن دوائر الضوء إلى حين.

ثم أنه يوجد تبرير آخر لاختيارهم له علاقة من جهة بالحالة العامة في أوروبا ، والروح الاستعلائية لليهود من جهة ثانية حيث " أحس اليهود غريزيا أن نفوذهم سيكون في أوروبا، أي في البلدان الوحيدة التي يمكن لهم أن يسيروا فيها الأفكار والرجال على هواهم" ³ .

¹ - النقيب، عبد الرحمن عبد الرحمن ، مشروع الشرق الأوسط الكبير وتداعياته السياسية والاقتصادية والتربوية المرجع السابق، ص18.

² -مذكرات مالك بن نبي ، "العفن " ج 1-1932-1940 ، ترجمة : نور الدين خندوري، الجزائر شركة الأمة للطباعة والنشر والتوزيع ، ط1-2007م، ص 79، 80 .

³ -مذكرات مالك بن نبي ، المرجع السابق، ص 80.

فلقد تأسس هذا الاهتمام بإعادة التجربة وإنتاج الذات تأكيدا على نجاح الطرح على رؤية دينية دافع عنها (جوزيف وايلد) في كتابه " القبائل المفقودة عام 1882م " حيث يرى: " أن الولايات المتحدة تقوم بدور قبيلة " منسى " الذي هو ابن يوسف بن يعقوب - عليهما السلام - من زوجته المصرية، وبالتالي فإنه يجب فهم النبوءات التوراتية وأحداث آخر الزمان وفقهما وأن نهاية التاريخ على وشك الحدوث مع عودة اليهود إلى فلسطين وإقامة دولتهم الأخيرة"¹.

هذا الولاء لتجسيد التجربة الأمريكية سياسيا في نموذج إسرائيلي يكشف حقيقة ومبررات حدث تاريخي مهم صنف ضمن أشهر وأكبر وأعظم الاكتشافات الذي كان على يد كريستوف كولومبس " في إطار ما عرف بالرحلات العلمية الاستكشافية" للأرض الجديدة .

ولقد صدق في اليهود تصور وحكم الأستاذ مالك بن نبي- رحمه الله - حينما وصفهم أنهم أصحاب إحساس غريزي بأنهم سيوفقون في تسيير الأفكار والرجال في القارة العجوز وفعلا فقد استغلوا أغلب النشاطات العلمية وسخروها لإدعاءاتهم الباطلة القائلة " يكون أساس هذا المفهوم هو الاعتقاد بوجود القبائل الإسرائيلية الإثني عشر من بني إسرائيل مختفين في أنحاء القارة الأمريكية ، وهو ما دعا بعض اليهود من تكليف " كريستوف كولومبس " بمهمة اكتشاف العالم الجديد والبحث عن تلك القبائل الإسرائيلية المفقودة " ²، إذا الرحلة العلمية التي طالما احتج بها الغرب على مدى تفانيه وشغفه للاكتشاف، واحتج بها مرات على برودة الشرقيين وعدم اهتمامهم بهذا الجانب ووصفهم بالسلبية حتى وإن توفرت شروط النظر والتأمل ، ليست بنفس الطرح الذي أثبتوه في المناهج التربوية ، والمقررات والوثائق التاريخية ذات الصلة بهذا الموضوع .

فالدواعي ليست علمية ، كما أن نعت هذه الرحلة بالاكتشاف الجديد وصف ترفضه الوقائع التي صاحبت وصول المغامرين إلى بلاد الهندو الحمر ، كون الأوروبيين ظنوا أنهم آخر إنسان يسكن غرب الكرة الأرضية ظن لا يعول عليه في إقرار أن ما وراء المحيط الهادي جغرافية خام لا توجد بها حياة إلا إذا كانت الحياة المعترف بها عند الأوروبيين هو الوجود الأوروبي تحديدا الناتج عن التمرکز حول الذات الأوروبية .

كيف تقبل تسمية هذه الرحلة بذوقها الإيديولوجي اليهودي بالاستكشاف وهي في الحقيقة هروب من الاضطهاد الأوروبي، أو بالأرض الجديدة وهي في واقع الأمر مكونة منذ مئات

¹- P . Jemssurier, the great pyramid. london.1977. p :181

نقلا عن منصور عبد الكريم، الإمبراطورية الأمريكية، البداية والنهاية، المرجع السابق، ص126

²- منصور، عبد الكريم، الإمبراطورية الأمريكية، البداية والنهاية، المرجع السابق، ص127.

السنين بمجتمع متواجد بكل مقومات المجتمع بالمفهوم المعاصر (أرض، سكان، عادات تقاليد ،
ديانة ، وسلطة).

إن تكرار هذه المصطلحات وتأسيس معارف في ضوءها هو عين الإجحاف للهنود الحمر،
وإسقاط لحقهم في الحياة على جغرافية كانوا السابقين في إعمارها وإضفاء معنى الحياة عليها وهو
حق طبيعي لا يحتاج إلى موافقة الأوروبيين عليه .

المبحث السابع:

البعد الاقتصادي لمشروع الشرق الأوسط الجديد

المطلب الأول: الرؤية الأمريكية لاقتصاديات هذا المشروع

المطلب الثاني: المنطق التجاري عند الشرقيين ودوره في المجتمع

المطلب الثالث: الرؤية الإسرائيلية الاقتصادية من خلال المشروع

الشرق الأوسط:

المطلب الرابع: جدول يمثل مؤشرات أساسية للاقتصاد الإسرائيلي

و اقتصاديات الدول العربية المجاورة لفلسطين والإجمالي العربي.

المبحث السابع: البعد الاقتصادي لمشروع الشرق الأوسط الجديد

المطلب الأول: الرؤية الأمريكية لاقتصاديات هذا المشروع

هو الحاضنة الحيوية للفكرة السياسية والضامن الفعلي لإمكانية تجسيدها في ارض الواقع، لان دراستها بمعزل عن الشق الاقتصادي يعتبر ضربا من الترف الفكري ، ولذلك كان مشروع الشرق الأوسط الجديد مرهون مند البداية ببعده الاقتصادي الذي يمثل قطب الرحى بالنسبة للدول الغربية عموما والاقتصاد الأمريكي وحاجته إلي التحكم في هكذا بعد بصفة خاصة.

هذا البعد يأخذ في اعتباره هدفين أساسيين يتوقف عليهما نجاح مشروع الشرق الأوسط الجديد أو فشله، وهما: اغتصاب ملكية دول الخليج العربي لنفطها وذلك لضمان عدم اهتزاز الاقتصاد الأمريكي وتعرضه للحرخ في الأسواق العالمية ، وأما الهدف الآخر فهو فك الخناق الاقتصادي علي الاقتصاد الإسرائيلي وتمكينه بل وتحميل دول الجوار المسؤولية الأخلاقية والقانونية والإنسانية في حال أزماته وإخفاقاته أو حتى عند تضخمه.

تعتمد هذه الرؤية على طرح نموذج جديد (غير نمطي) في المعاملات الاقتصادية، إذ تقدم الولايات المتحدة نفسها أنها راعية الفكر الرأسمالي في العالم كله الذي جعلت منه قارب النجاة لكل اقتصاديات العالم ورمز للحضارة الإنسانية وحجة علي كل الدول النامية في تدهور حالتها الاقتصادية وتخلف شعوبها دعم هذا التوجه الساسة والمفكرون الاقتصاديون وحتى المؤرخون والفنانون.

إن كل القوة تعمل جاهدة من اجل إحداث القناعة عند الآخر بحتمية وضرورة اعتناق الفكر الرأسمالي باعتباره الأصلح و الأنجح فضلا عن كونه قدرا محتوما لن تعرف الإنسانية بعده أي فكر آخر.

أخرجت الولايات المتحدة المعاملات الاقتصادية بين الدول من السياقات الكلاسيكية المعتمدة حسب ظروف وقوانين كل دولة ،إلي فضاء حر اقل قيودا أو أيسر معاملة، لكنه بالمقابل فرصة لاقتصاديات الدول الكبرى في بسط نفوذها ورهن القرار السياسي لبعض الدول النامية التي تجد نفسها مرغمة على ذلك مقابل رفع بعض القيود على صادراتها وتخفيض و إزالة العوائق الجمركية مع تلك الدول المشاركة في تلك الأسواق.

ولذلك عمدت إلي تأسيس فكرة "مناطق التجارة الحرة" التي تمثل مصيدة لأنظمة الدول النامية. "ومن المعروف أن الولايات المتحدة الأمريكية قد أقامت منطقة تجارية حرة مع كندا

والمكسيك (Nafta) ومن المعروف أنها بصدد توسيع هذه المنطقة لتشمل الأمريكيتين ،أي إقامة منطقة تجارية حرة تجمع بين أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية ، كما سعت أمريكا إلي الدخول مع دول آسيا والمحيط الهادي (الباسيفيكي) في تجمع اقتصادي كبير يطلق عليه (APEC)¹.

وكعادة الولايات المتحدة، فإنها ترى كل تجربة قامت بها هي في الحقيقة حجة على الآخر، بل وضرورة تكرارها في مناطق مختلفة من العالم، الأمر الذي أزعج بعض الأوربيين حيث "صرح الممثل السامي للاتحاد الأوروبي للشؤون الخارجية والأمن القومي والسكرتير العام لمجلس الاتحاد الأوروبي "خافييرسولانا" أن مقترح الرئيس الأمريكي بإقامة منطقة تجارة حرة في الشرق هو "مقترح فائض عن الحاجة" أي لا لزوم له ، لان مثل هذه المنطقة قد بدا الاتحاد الأوروبي في إقامتها فعلا منذ 1995 م²

والظاهر أن هناك تمسك بهذه الفكرة حتى من طرف الأوربيين، لكن النفوذ الأمريكي في الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الثانية والأدوار التي اغتصبها من الأوربيين جعلت من الفكرة الأمريكية حلا لكثير من المسائل العالقة إقليميا، أو ورقة ضغط تضع اقتصاديات المنطقة تحت رحمة هذه المناطق التجارية الحرة.

"إن مناطق التجارة الحرة التي تقيمها الولايات المتحدة ، أو اتفاقات الشراكة التي يعقدها الاتحاد الأوروبي مع أقطار قلب العالم الإسلامي، ليست مجرد اتفاقات اقتصادية أو تجارية خالصة، بل إنها جزء لا يتجزأ من مشروع (سياسي استراتيجي) لربط أقطار هذه المنطقة بهذه القوى الكبرى أو تلك"³.

وإذا سلمنا أن مفهوم التجارة وسلوكها لا يحملان مجرد تبادل سلع ومنافع مادية منذ القدم فان المفهوم الأمريكي والغربي عموما لها مغاير تماما لما هو عند الشرقيين، يري الغرب والولايات المتحدة تحديدا في السلوك التجاري وفوائده وسيلة للتحكم في مصير الآخر والتفرد بذلك، من غير السماح له أن يكون حلقة فاعلة في الدائرة التجارية، وان سمحت فهو الحلقة الأضعف وذلك من خلال ترتيبات تدخلها على سيرورة المناطق التجارية الحرة، وذلك لغرض بسط النفوذ والهيمنة على المتعاملين الذين هم من المفترض شركاء لا عمال في الدورة التجارية والاقتصادية للمنطقة.

¹ - النقيب، عبد الرحمن عبد الرحمن ، مشروع الشرق الأوسط الكبير وتداعياته السياسية والاقتصادية والتربوية ، مرجع سابق ص 194.

² - المرجع السابق، ص 194.

³ - المرجع السابق، ص 195.

المطلب الثاني: المنطق التجاري عند الشرقيين ودوره في المجتمع:

حدثنا التاريخ عن مفهوم التجارة من حيث الوسائل والأهداف عند الشرقيين عموماً، المسلمون والمسيحيون، فهي نشاط أنساني ارتبط حتى بالمعتقدات، ففي الإسلام سمي المولى عز وجل التزام المؤمن بأوامر ونواهي الشرع ووصفها "بالتجارة" التي ينتظر صاحبها الربح والفائدة، قال تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنقَضُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿١٢١﴾ لِيُؤَفِّيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿١٢٢﴾ ﴾، فاطر. وكذلك حفز نبي الإسلام (عليه الصلاة والسلام) على التجارة والصدق فيها وعدم جعلها وسيلة لغش الآخر والإضرار بهم المؤدي إلى استغلالهم، حدثنا هناد حدثنا قبيصة عن سفيان عن أبي سعيد عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: " التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين و الشهداء"¹ وكذلك الشأن عند المسيحية الحقّة.

كان الطرح الشرقي لمفهوم التجارة يقوم على الشراكة التي تحفظ حق الجميع حيث "كان التاجر الذي يتصرف برؤوس أموال ضخمة شخصية أو عائلية كان يتشارك مع آخرين لإقامة بيوتات تجارية قائمة على الإقراض بصورة يضمن فيها بعضهم بعضاً، ويتكامل فيها كل المشاركين ..."².

التجارة بالمفهوم الشرقي هي فرصة لمعرفة الآخر والتواصل معه وهذا يتطلب نسبة من الثقافة التي لها علاقة بالنشاط الذي يمارسه (إذ يمكننا تصور ذلك من خلال دفاتر حساباته (التاجر) ، ومن مراسلاته، ومن بطاقات قروضه ،فقد كانت توجد بالواقع مطولات تقنية ومراجع

¹ - الأحوذى، تحفة الأحوذى، شرح جامع الترمذى، دار الكتب العلمية، دون تاريخ، كتاب البيوع، باب ما جاء في التجار وتسمية النبي (ص) إياهم. الحديث [1209]. قال عنه الحاكم مرسل من مراسيل الحسن. عن ابن عمر يلفظ "التاجر الأمين الصدوق المسلم مع الشهداء يوم القيامة"، أخرجه ابن ماجه و الحاكم وقال صحيح: المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم ، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2002، ص 336. و سنن ابن ماجه، للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، حققه ووضع فهرسه محمد مصطفى الأعظمي، ط2، الرياض ك المحقق: 1984.

= الدارقطني، سنن الدارقطني، علي بن عمر أبو الحسن الدارقطني البغدادي، دار المعرفة - بيروت ، 1386 - 1966، تحقيق : السيد عبد الله هاشم يماني المدني، كتاب البيوع، حديث رقم 2848، ج 3، ص120.

² - لومبارد، موريس، الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى ، المرجع السابق، ص 197.

كانت معدة غالبا للموظفين ،والتي يشهد محتواها علي ثقافة عملية خاصة برجال الأعمال ومؤلفة لفائدتهم)¹.

لا يتعلق الأمر فقط بالثقافة ذات العلاقة بالنشاط التجاري التي تكون ضرورة تتطلبها حتمية العملية التجارية، بل لم يعرِد منطق المنفعة المادية والريح السريع علي مفهوم التجارة عند الشرقيين من جهة، ولم يدفعهم إلي اتخاذ التجارة وسيلة للهيمنة علي الآخر، بل جعلوا منها تخصصا يخدم القيم والمبادئ الإنسانية " كان التاجر الكبير يضيف في أغلب الأحيان من ناحية أخرى إلى هذا التعليم ثقافة حقيقية، فكان يقبل طواعية نحو التفقه بالدين والشعر، ففي بداية القرن الحادي عشر كان شقيق الشاعر (ابن اللبانة) في الأندلس يقرض الشعر أيضا، ولكنه لم يجعل من القريض مادة للكسب، لأنه كان تاجرا"².

المنطق التجاري الشرقي خدم القيم وأنتصر للذوق الجمالي في كل الفنون، ودعم البناء والعمران وكان وسيلة تواصل وتفاهم مع الآخرين حيث " كان التاجر الكبير يلعب دور حامي الفنون والآداب والعلوم إلى جانب دور المحسن بفضل صدقاته وعونه لفقراء طائفته، فكان يساهم بأمواله في تجميل دور العبادة من جوامع وكنس أو كنائس حسب ديانته"³.

التجارة حلقة وصل بين أتباع الأديان والمذاهب، ودعم رئيسي لمقومات الحضارة والمدنية ورخاء المجتمعات، و رافد مهم من روافد " تشيد المؤسسات الخيرية، وتشمل هذه العبارة في الإسلام الإنشاءات ذات الصالح العام كالمدارس أو سبل الشرب مثلا، فكان التاجر يؤمن المأوى والغذاء للطالب، والأساتذة، كما كان يوفر المأوى للحجاج المسافرين"⁴.

¹ - المرجع السابق، ص 188

² - المرجع السابق ، ص199.

³ - المرجع السابق، ص 199.

⁴ - لومبارد، موريس، الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى ، المرجع السابق ، ص199.

المطلب الثالث: الرؤية الإسرائيلية الاقتصادية من خلال المشروع الشرق الأوسط:

لا يختلف اثنان حول العلاقة الوثيقة التي ترتبط بين السلوك الأمريكي والمصلحة الإسرائيلية التي تأسست بشكل رسمي من خلال إعلان الرؤساء الأمريكيين عن قوة هذه العلاقة وأنها محددة لعلاقات الولايات المتحدة مع بقية الدول بل متحكمة في طبيعتها.

فبالإضافة إلى إستراتيجيتها حول النفط الخليجي وضرورة اغتصابه بأي طريقة، تعمل الولايات المتحدة لبسط الرؤية الإسرائيلية على كل خطوات مشروع الشرق الأوسط الجديد حيث أنها أولت اهتماما بالجانب الاقتصادي ودلالة ذلك على اقتصاد الدولة العبرية.

عملت إسرائيل على فك اللغز اللوبي العربي من خلال سلاح النفط الذي أحسن العرب استغلاله ذات مرة، " إذ أن البترول العربي لعب دورا في حرب 1973 م، ويلعب دور أخطرا في الوقت الراهن مع ارتفاع أسعار النفط، وتسعى إلى الحصول على احتياجاتها البترولية ومن الغاز الطبيعي من هذه المنطقة، وإسرائيل عندما تبدأ من الخليج تعود إلى المشروع الاقتصادي الأصلي لشميون بيريز حول الشرق الأوسط الجديد وفي إطار المشروع السياسي الأمريكي للشرق الأوسط الكبير"¹.

"إذا هناك تناغم بين المشروعين أو قل تكامل واضح بينهما، فقد اشترطت الولايات المتحدة الأمريكية إرضاء لإسرائيل شرطا إستراتيجيا على من يرغب في الانخراط في منطقة التجارة الحرة في المنطقة أن يكون مالك لصكوك القنوات الإسرائيلية حيث تضمنت الشروط التي أعلنت لإقامة منطقة التجارة الحرة بين أمريكا وأي دولة من الدول العربية (قلب الأمة الإسلامية) شرط إلغاء المقاطعة الاقتصادية الإسرائيلية والدول العربية"².

تعتمد الولايات المتحدة نيابة عن إسرائيل إلى فرض أمر واقع على دول المنطقة يهدد اقتصادياتها ويتحرض بسلمها الاجتماعي، وهي الخطوة الأولى لتفتيت صلابة المقاطعة وتجزئتها، ومعالجة كل جزء على حدة، وكذلك" أعمدت إلى إنشاء تجمعات اقتصادية جديدة ومشروعات ربط إقليمي (في مجالات الطاقة والسياحة والزراعة والبنية التحتية ومشاريع المياه، وقناة ما بين البحرين (الميت العقبة) وتحويل الجولان إلى منطقة صناعية، وإنشاء البنك الإقليمي للشرق الأوسط ، وتأسيس جامعة الشرق الأوسط"³.

¹ - الدويك، عبد الغفار عفيفي ، إسرائيل والشرق الأوسط، المرجع السابق، ص330.

² - النقيب، عبد الرحمن عبد الرحمن ، مشروع الشرق الأوسط الكبير وتداعياته السياسية والاقتصادية والتربوية، المرجع السابق، ص197.

³ - عبد الفضيل، محمود ، العرب وتحديات النظام العالمي، المرجع السابق، ص250.

إنها تهدف إلى خلق وضع إقليمي جديد للمولود الجديد (إسرائيل)، وتسخر من أجل هذا الهدف خيارات الآخر حيث تقوم هي بجهد التوظيف والتوجيه بين النفط واليد العاملة والمياه والعقول، وهذا ما صرح به شيمون بيريز في حديثه له عام 1991م، حيث قال: " إن المعادلة التي سوف تحكم الشرق الأوسط الجديد" سوف تكون عناصرها كما يلي: النفط السعودي + الأيدي العاملة المصرية + المياه التركية + العقول الإسرائيلية"¹.

بهذا الطرح يضع بيريز المنطقة وأنظمتها وشعوبها تحت إبطه، على مرأى ومسمع من الدول التي ذكرها في معادلته السابقة، ويعلن بصراحة عن قناعته بعدم قدرة دول المنطقة عن القيام بحل عسكري حيث يوجههم إلى حلول أخرى وتوجيه أمريكي وهذا ما عبر عنه كخيار ختمي لا ثاني له.

عبر شيمون بيريز بصراحة عن هذا المستقبل الذي ينتظر العرب في ظل الترتيبات الجديدة عندما صرح في كلمته أمام البرلمان الأوروبي في ستراسبورغ في 09 آذار/مارس 1993م على أن العرب يجب " أن يفاضلوا بين كابوسين: الكابوس الأول هو بقاء الوضع كما هو أي (استمرار احتلال إسرائيلي للأراضي العربية)، والكابوس الثاني هو السلام وما يتضمن من تنازلات وحلول وسط تشبه عملية بتر جراحية"².

جراًة الإسرائيليين في استعمال وتوجيه المصطلحات السياسية ناتجة عن الضوء الأخضر الأمريكي الوكيل الإسرائيلي في العالم كله إذ وصف بيريز مصطلح " السلام " الذي تتغنى به كل دول العالم وهو أحد رموز وشعارات المنظمات العالمية، كما هو محور كل الجهود الدولية منذ عقود "بالكابوس" وهذا التعبير يؤكد حقيقة إسرائيلية وهي اعترافهم وإقرارهم بأن وجودهم في قلب الأمة الإسلامية وجود غير طبيعي ولا تاريخي حتى في حال السلام، لأن السلام ليس معناه عدم الحرب فقط، بل يعني الانسجام والحياة وفق شروط تاريخية وحقوق طبيعية.

اعتمدت إسرائيل سياسة تقنيت الموقف العربي المقاطع للعلاقات معها بطرح مشاريع اقتصادية (بديلة) برعاية أمريكية حيث تبنت هذه الأخيرة كل الاقتراحات التي جاءت في مشروع بيريز " الشرق الأوسط الجديد" وخاصة منها ما له علاقة بالنفط والمال.

¹ - المرجع السابق، ص 250، نقلا عن جريدة (Le Monde ,03/09/1993, Expansion (October 1991)

² - المرجع السابق، ص144.

1 - في مجال الطاقة:

تعتبر سنة 1986م من زاوية تاريخ العلاقات الدولية سنة مرجعية لاعتبارات أساسية ثلاثة، ففي هذه السنة أشهرت الولايات المتحدة وحلفاؤها الغربيون حربا اقتصادية لمشروع الشرق الأوسط الكبير، حيث تصبح إسرائيل فيه محطة مهمة لمصادر الطاقة الغربية وبالتالي نقطة إستراتيجية للاقتصاد الغربي عموما الأمر الذي يستدعي حماية هذه المنطقة واعتبار أي تهديد لها يفسر تلقائيا تهديد لمصالح الغرب الحيوية إضافة إلى هذا الهدف ، يضاف هدف التطبيع الاقتصادي الذي تفرضه النظريات الاقتصادية وكما تقره العلاقات الاقتصادية الدولية ذات صلة بهذا الموضوع، وهو دمج قسري للاقتصاد الإسرائيلي الذي يشكو من تضيق عربي منذ عقود في اقتصاديات المنطقة.

الربط الإقليمي الذي تسعى إليه إسرائيل وفق ما دل عليه مشروع الشرق الأوسط الجديد يهيء كل الإمكانيات المادية واللوجستية الذي قد يتطلبها الهدف حتى وأن كانت غير شرعية (بمعنى قانونية) حيث يقوم النظام الاقتصادي الشرق أوسطي الجديد، على ربط شرايين الحياة الاقتصادية العربية، (المياه، النفط، السياحة، الثقافة) بالاقتصاد الإسرائيلي، وينهض المنطق الإستراتيجي الإسرائيلي بهذا الصدد على مقولة هامة، مؤداها أن تنمية شبكة واسعة ومتنامية من (التشابكات الاقتصادية" بين الاقتصاد الإسرائيلي والاقتصادات العربية، من شأنه أن يجعل كلفة الانفصال " La Dessoliation Cost"¹ عالية جدا بالنسبة للأطراف العربية التي تود الانسحاب (أو الفكك) من أسر تلك الترتيبات الإقليمية الجديدة"².

يدل هذا التحليل أن النية المبيتة لفرض الهيمنة من أجل إسرائيل من خلال هذا المشروع جاءت لتفسير لأنظمة الاقتصادية للمنطقة بخلق سوق شرق أوسطية موازية لأسواق الدول العربية المرغمة بإدارتها أو بفعل فاعل على الانصياع والنوبان في الطرح الشرق الأوسطي الجديد وإذا ما هي ما رفضت المشاركة في التشابكات الاقتصادية مع إسرائيل فإن تكلفة هذه المقاطعة والممانعة ستكون باهظة الثمن مما سيضعف ويستنزف قدراتها النفطية والمالية.

¹ - Ben-shahar (el al) Eds Economie cooperation and Middle East peace.

² - عبد الفضيل، محمود ، العرب وتحديات النظام العالمي، المرجع السابق، ص131.

إنه يعد محوري فعال في لب المشروع، تعود تردداته السلبية على أغلب مناحي حياة شعوب المنطقة.

وإذا كانت الشروط قد تحققت معظمها بين الدول الأوروبية، لإقامة السوق الأوروبية المشتركة والمتمثلة في التقارب اللغوي والتاريخي وحتى العقائدي. فما هي الشروط التي تشجع على تكرار الحدث الاقتصادي شرق أوسطيا من أجل إسرائيل؟.

استهدفت البلدان المنتجة للبترول لتتسع دائرتها فيما بعد لتشمل كل بلدان ما يسمى بالعالم الثالث، كما سجلت هذه السنة تطور الإستراتيجية الأمريكية منذ حرب الفيتنام في اتجاه التدخل المباشر فيما كان يسميه البيت الأبيض بالنزاعات الخفيفة الحدة¹.

وجدت إسرائيل في هذه الغطسة الأمريكية بيئة مناسبة لتتسلل بمشاريعها الاقتصادية تحت الغطاء الأمريكي مدعية مراعاة المصلحة الأوربية والأمريكية إذا قامت بدراسة تتعلق بتكلفة نقل النفط والغاز الخليجين إلى الغرب عبر الممرات العالية حيث ترى إسرائيل غلاء تلك الكلفة مما يسمح لها بتقديم بديل مريح للغرب من خلال اقتراح ممرات عبور جديدة تكن الأراضي المحتلة أحد محطاتها أو موانئها وهذا في إطار مشروع " التعاون في مجال تصدير الطاقة" .

يرى المسؤول العلمي في صندوق " أرموند هامر" في جامعة تل أبيب أن رسوم تصدير طن واحد من نفط الخليج العربي إلى غرب أوربا عن طريق قناة السويس تبلغ حوالي 18 دولارا أمريكيا، بينما إذا تم النقل بواسطة أنابيب تمر عبر شبه الجزيرة العربية وتصب في موانئ حيفا، أشدود وغزة فإن هذا الترتيب الجديد سوف تنتج منه وفورات في حدود 3 إلى 6 دولارات للطن الواحد².

الدافع لهذه الدراسة إستراتيجي أكثر منه علمي ولا حرصا على المصلحة الغربية لأن الإسرائيليين لا يقدمون المصلحة العامة على مصالحهم، بل ينظرون إلى نتائج هذا الاقتراح إن تحقق حيث تقم عملية التصدير عبر الأنابيب الشركات الإسرائيلية بالضرورة، وتدخل النشاط على الموانئ الإسرائيلية وهو وجه من أوجه التطبيع بين الدول العربية المعنية بالعملية سواء المنتجة أو التي ذكرتها الدراسة.

1- M.T. Klare , « la nouvelle doctrine d'intervention , Américaine, les conflits de faible intensité » le monde diplomatique, mars 1986.

² - عبد الفضيل، محمود ، التحديات الشرق أوسطية، المرجع السابق، ص132، نقلا عن مقال لجدهون فيشلزون في: عل همشمار، 1993/1/6.

هذه الحقيقة صرح بها هذا المسؤول حيث يرى أن مرور أنابيب النفط عبر حدود ثلاثة أو أربعة أقطار عربية سوف يؤدي إلى خلق مصالح وتشابكات مع الاقتصاد الإسرائيلي مما يعزز السلام في منطقة الشرق الأوسط¹.

هذه المشاريع الإسرائيلية من حيث الفكرة والدراسة تطرح بذوق إقليمي دولي في المحافل الدولية لتميرها، وحتى لا تواجه برفض عربي وإسلامي منذ البداية، كما أن أي جهة ترفضها تعتبر مارقة وضد استقرار المنطقة.

الإقرار الصادر عن المسؤول الإعلامي لصندوق " أرموند هامر " هو أحد أهم الأبعاد الاقتصادية. و يؤكد على أن تكون دول أي تكتل لها نمط معين من العلاقات لدول يربطها واقع إجتماعي وحضاري واحد، وتصور معين للمستقبل فإن إسرائيل من هذا كله² وحتى بمنطق الربح والخسارة وبمعزل عن كثير من المعطيات الواقعية والتاريخية القومية منها والدينية، فإن السوق الإسرائيلية لا تمثل بالنسبة للاقتصاد العربي عموماً والإسلامي الصفة الرابحة تجارياً.

يقول الدكتور فهمي هويدي " إن إسرائيل لا تمثل (من خلال هذا المشروع الشرق أوسطي) سوقاً كبيرة لكي تمتص جزءاً من الإنتاج الزراعي أو الصناعي العربي علاوة على أن البلدان العربية تمتلك الأراضي الواسعة والمصادر المائية والأيدي العاملة الرخيصة و"قوائض الأموال" والنفط، فماذا سوف يقدم إسرائيل للاقتصادات العربية في مقابل ذلك"³.

البعد الاقتصادي لمشروع الشرق الأوسط الكبير يعرض لإسرائيل ما لحق بها من فقر في الثروة المعدنية (النفط والغاز) بواسطة مشاريع قرارات تدرس إسرائيلياً وتطرح أوروبياً وأمريكياً في سياق دولي، ولذلك برز هذا التعويض من خلال الإعلان عن بعض المشاريع التي لا تكلف الكثير، مع مالها من دور مهم في تحقيق مشروع الشرق الأوسط فالمهم أن تكون إسرائيل حاضرة في كل سلوك اقتصادي يتعلق بالمنطقة.

¹ - المرجع السابق، ص 132.

² - الإمام، محمد محمود، السوق الشرق أوسطية: التطبيع أم السلام أولاً؟ جريدة اليسار، العدد 41 تموز، يوليو، 1993، ص15.

³ - هويدي، فهمي، السوق الشرق أوسطية: التطبيع أم السلام أولاً؟ جريدة الأهرام 1993/05/30.

2 - بنك الشرق الأوسط:

وكنموذج ثاني للربط الإقليمي في منطقة الشرق الأوسط، يسعى الجانب الإسرائيلي من خلال الاملاءات الأمريكية على دول الخليج بالذات للاتفاق على إنشاء هيئة مالية شرق أوسطية تكون مكملة لاقتصاد السلام كما يسموه، تضخ فيها أموال النفط الخليجي، والسلع الأوروبية ما يمكن الجانب الإسرائيلي من المشاركة في الدورة المالية في المنطقة.

وهذه الفكرة مصدرها صاحب مشروع الشرق الأوسط الجديد حيث: 'كرر وزير خارجية إسرائيل شيمون بيريز الدعوة مرارا إلى إنشاء ما يسمى البنك الإقليمي للشرق الأوسط لتدوير الأموال الخليجية والأوروبية لتمويل المشروعات الإقليمية المشتركة، باعتباره آلية تمويلية ضرورية للاقتصاد السياسي للسلام، ويهدف بيريز من هذا المقترح إلى استفادة إسرائيل من جانب من الأموال الخليجية لتمويل مشروعات تهم الاقتصاد الإسرائيلي في الإطار الشرق أوسطي الجديد'.¹

إسرائيل لا تدفع شيئا مقابل هذا المشروع الاستراتيجي الذي سبق وأن أعلنت وبكل صراحة عن الجهات التي ستشكله ومصادر الأموال التي ستفق من أجله.

الدور الذي لعبته إسرائيل في مشروع "الشرق الأوسط الكبير" هو دور المنظر وهو ما عبرت عنه "بالعقل الإسرائيلي" بل إنها لا تكتفي بمجرد التحريض علي إنشاء مشروعاتها برعاية دولية وأموال خليجية، إنما تطالب - في سياق توصيات و اقتراحات بأخذ مقابل مادي نظير الجهود العقلية التي أنتجت مثل هذا المشروع .

لحيائه، فإن بيريز لا يطلب من الدول ذات العلاقة بالنفط أن ترصد مبالغ هامة لإنشاء هذا البنك (أو الصندوق) الذي سيعطي فرصة للسلام في المنطقة فهذا غير وارد ولا يليق به، بل يوفر الجهد والوقت علي من توفرت لديه النية في هذا المشروع ويقدم له حلا بسيطا وسهلا يمكن من إنشاء هكذا مشروع .

"إن مثل هذا البنك (أو الصندوق) ممكن أن ينشأ إذ وافقت الدول المنتجة للنفط والدول المستهلكة علي تخصيص دولارا واحدا من سعر كل برميل نفط لأغراض تطوير منطقة الشرق الأوسط إذ ستوفر في هذا الصندوق ثمانية مليارات دولار سنويا، وسيكون هذا بمثابة مشروع مارشال " ذاتي لإنقاذ منطقة الشرق الأوسط من التدهور الاقتصادي"².

¹ - عبد الفضيل، محمود ، العرب وتحديات النظام العالمي ، المرجع السابق ص.135

² - بيريز، شيمون، عصر جديد لا يطبق المتخلفين، المرجع السابق، ص. 109.

بهذا الطرح الفج، يعمن الإسرائيليون في استنزاف أموال دول المنطقة التي يئن معظم شعوبها تحت وطأة الفقر إلا بعض الدول وذلك من أجل راحة الفرد الإسرائيلي ورفاهه و أمنه مع أن إسرائيل تعتبر صاحبة الاقتصاد القوي في المنطقة نظرا للدعم اليهودي الأمريكي إذ يعتبر الناتج القومي مؤشرا على ذلك ومع ذلك فهي تسعى لأن تكون شريكة في النفط الخليجي بقيمة دولار في كل برميل.

"وفقا لبيانات البنك الدولي فإن الناتج "القومي" الإجمالي الإسرائيلي بلغ نحو 128.7 مليار دولار عام 2006 ، مقارنة بنحو : 101.7 مليار دولار لمصر، ونحو 289.2 مليار دولار لسعودية ، ونحو 14.8 مليار دولار للأردن ، ونحو 30.07 مليار دولار لسوريا ، ونحو 22.2 مليار دولار للبنان ، ونحو 1300 مليار دولار للوطن العربي في مجمله...."¹.

المطلب الرابع: المؤشرات أساسية للاقتصاد الإسرائيلي و اقتصاديات الدول العربية المجاورة لفلسطين والإجمالي العربي.

جدول يمثل (عدد السكان + الدخل القومي الإجمالي + متوسط نمو السكان)².

¹ - الباقوري، عبد العال ، الإستراتيجية الإسرائيلية ، تجاه الوطن العربي، مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية، ط1 2009 ، ص78 .

2 - الجدول من المرجع السابق، ص79، 80.

الدول المؤشرات	إسرائيل	مصر	سورية	الأردن	لبنان	السعودية	إجمالي الوطن العربي
عدد السكان بالمليون نسمة عام 2006	07	75	19	06	04	24	322
متوسط نمو السكان من عام 2000 إلى 2006	%1.9	%1.9	%2.5	%2.4	%1.2	%2.3	..
الدخل القومي الإجمالي عام 2006 بالمليار دولار وفقا للسعر الصرف السائد	128.7	101.7	30.7	14.7	22.2	289.2	1300
متوسط نصيب الفرد من الدخل القومي بالدولار 2006	1858	1350	1570	2660	5490	12510	4037

كما يشهد المشروع " الشرق الأوسطي " نماذج أخرى تشكل أبعاد مختلفة من أجل جعله واقعا مقبولا، ومن أهم هذه النماذج تركز إسرائيل من خلال المشروع الأمريكي حيث تقدم نفسها عبر استشارات في مجال الزراعة الصحراوية، وتوفير بعض الصناعات الفلاحية، و القيام بدراسات علمية تهتم بالمزارع النموذجية وكذلك اهتمام الإسرائيليين من خلال مشروع الشرق الأوسط وذلك لجلب الانتباه عن السياحة العربية ومن بين هذه المشاريع " مقترحات تعاون إقليمي سياحي مشترك يتحدث عن التسويق السياحي المشترك في منطقة الشرق الأوسط، وفتح جسر بري بين العقبة و إيلات وتسيير خطوط ملاحية بين ميناء أشدود وميناء بور سعيد¹ و الغرض من ذلك استقطاب السياح الأوروبيين عن السياحة العربية.

¹ - مجلة هارتس، 20/07/1993م، نقلا عن مجلة القدس العربي 21/07/1992م.

المبحث الثامن:

البعد الثقافي مشروع الشرق الأوسط

المطلب الأول: التأسيس الأكاديمي لهذا البعد

المطلب الثاني: السؤال الثقافي ومصير المشروع الشرق
أوسطي

المطلب الثالث: من نماذج وصور الربط الثقافي للمشروع

المبحث الثامن: البعد الثقافي مشروع الشرق الأوسط

المطلب الأول: التأسيس الأكاديمي لهذا البعد:

معلوم أن طرح الأفكار السياسية تسبقه عملية تحفيز يكون لمراكز البحث فيها دور كبير، وإذا كان طرح النظام الشرق أوسطي قد جاء في أعقاب زلزال الخليج عام 1991 ، فإن كان التحضير له قد بدأ قبل ذلك بعدة سنوات إثر ولادة فكرية في الولايات المتحدة الأمريكية في أعقاب تحولات ما بعد حرب رمضان وإبرام معاهدة 1979م بين مصر وإسرائيل برعاية أمريكية¹.

تؤكد كل التسريبات التي تكشف عن حقيقة هذه الاتفاقية (كامب ديفيد 1979) عن طبيعة المفاهيم والبنود التي تضمنتها الاتفاقية على تجاوزها لمجرد اتفاقية أمنية (عسكريا بالدرجة الأولى) إلى أرضية مشروع متكامل الأبعاد السياسية والاقتصادية والثقافية بين دولتين وفي نفس الوقت أحد معالم الإستراتيجية الأمريكية في المنطقة .

تتأسس النظرة الأمريكية في علاقتها مع الآخر بالتحديد على ما أنتجته مراكز البحوث في جامعاتها وتوصلت إليه جهود المفكرين الإستراتيجيين في أمريكا والذين يمثلون رمز الإيديولوجيات وحمايتها في العالم من أمثال: فرانسيس فوكو ياما ، وصموئيل هنتغتون وغيرهما، وجلهم أساتذة جامعات في الفلسفة والتاريخ وعلم الاجتماع .

يستمد هؤلاء الإستراتيجيون ذوقهم الفكري من أحد النظريات الكلاسيكية في الفلسفة وعلم الاجتماع حيث أن "كلا الأطروحتين تمثلان منظومة فكرية وفلسفية وتفسيرية للتاريخ والعلاقات الدولية والصراعات بين البشر ، وحالاتها مختلفة عن الأخرى ، فهناك فارق كبير بينهما: فأطروحة فوكو ياما تتموضع في سكة التفكير الليبرالي الذي يمثل الفكر الكانطي.

أما أطروحة هنتغتون فتتموضع في سكة التفكير الهوبزي T. Hobbes² إلا أن الذوق الأغلب في السياسة الخارجية الأمريكية يميل لصالح هنتغتون صاحب الرؤية التي لا تؤمن بنهاية المد التاريخي الذي نادى به فوكوياما.

إلا أن هذا النفي لا يبقي سيرورة التاريخ على طبيعتها ووفق نواحيها ، بل يحدد لها نمطا تصارعيًا من الناحية الحضارية الثقافية وسمة بالاستمرارية والديمومة.

¹ - الدجاني، احمد صدقي، المرجع السابق ص 68 .

² - هاستر، بير، عما نويل كانط، تاريخ الفلسفة السياسية من جون لوك إلى هيدجر ، تحرير : ليوشتراس ، وجوزيف كرويسي ، ترجمة: محمود سيد أحمد، القاهرة، ج 2، المجلس الأعلى للثقافة، ط2005م، ص 169، 167.

"جعل هنتنغتون الحضارات هي القوى الجديدة والمحركة للتاريخ البشري، وبذلك تكون فلسفة التاريخ عند هنتنغتون مستمرة في مرحلة الصراع الأخير من تاريخ البشرية وهي صراع الحضارات الثقافي"¹.

إذا حدد هنتنغتون محور الصراع وشكله من خلال مخلفات الحرب الباردة من جهة ، والأخاديد الطبيعية في التركيبة البشرية بيولوجيا وثقافيا ، فهو يوافق بعدم وجود بدائل إيديولوجية بالرأسمالية الحالية ، لكن هذا لايعني (بالنسبة إليه) نهاية التاريخ ، فمازالت (حسب رؤيته) هناك عداوات باقية ، وخطوط الانقسام بين البشر ، الصراع الجيد سوف يكون ثقافيا "².

وحتى يدار الصراع بالكيفية الهادفة ويحسم لطرف معروف مسبقا ، سخرت الولايات المتحدة كل الإمكانيات لإتمام هكذا مشروع فالولايات المتحدة تعتبر الدولة الرائدة في العالم من حيث تسخير مراكز البحث وإنشائها والعناية بالفكر الإستراتيجي وتدعيمه والاعتماد عليه في تأطير الفكر السياسي والعلاقات الخارجية.

" المؤسسات البحثية في الولايات المتحدة الأمريكية والتي تسمى (مستودعات الأفكار - ThinkTanks) هي منظمات غير ربحية تعمل على المشاركة في بحوث السياسات العامة وتحليلها والدعوة إلى إيجاد الحلول للكثير من المشاكل التي تواجه السياسات الأمريكية في مختلف أنحاء العالم "³.

انتقل الصراع في المفهوم الأمريكي من صراع تجسده التكنات العسكرية إلى صراع تؤطره مراكز بحثية علمية تعطي له المبررات التاريخية والاقتصادية والثقافية وتؤجج رجاه، وتوجه دفة مرحله وفق دراسات مخبرية يشرف عليها أهل الاختصاص .

بما أن هذا الغطاء ضروري لاستكمال الهيمنة ، فإن الولايات المتحدة الأمريكية صاحبة المشروع اعتمدت الطرح الميكافيلي في التعامل مع ثقافة الآخر ، بل حتى التعسف وعدم المبالاة في فرض الثقافة"النموذج" التي جاءت على حساب كل أبعاد الآخر.

فلكي تتجح العملية يجب القفز على الخصوصيات القومية والثقافية وإعادة صياغة الذات الثقافية وفق الثقافة الأمريكية ،على هذا النحو يصبح أي شعب أو جماعة لا تتضبط لهذه

¹ - قاعود، يحي سعيد ، أطروحات فوكوياما وهنتنغتون والنظام العالمي الجديد - دراسة تحليلية مقارنة - ، الرياض ط1 ، 2015 ، ص317.

² - المرجع السابق، ص316.

³ - حسين، فوزي حسن، التخطيط الاستراتيجي للسياسة الخارجية وبرامج الأمن القومي للدول " الولايات المتحدة الأمريكية نموذجا"، المرجع السابق ص 403.

المعايير خارج التاريخ ما يستدعي العقاب، إذا ضمن مفهوم العولمة الأمريكية يتم تحديد المرجعية الفكرية والثقافية للبشرية التي ليس أمامها سوى الاستجابة والتكيف مهما كان الثمن¹.

لقد عمدت الولايات المتحدة وحلفاؤها في هذا المشروع إلى خلق البيئة الثقافية المناسبة لها لتسوية ممارساتها التصادية وتبريرها لدى المنظمات الدولية وعدم تحمل تبعاتها القانونية والتاريخية والإنسانية ، وذلك بتتويج السياقات " فالغزو الثقافي إن جاز التعبير يتحرك مستخدماً أدوات مركبة ومعقدة وتحت يافطات براقية وخادعة، إنه يأتي أحياناً تحت شعار تعزيز الديمقراطية في المجتمعات النامية ، أو محاربة التخلف أو تشجيع التنمية أو تعزيز الثقافة أو حوار الحضارات أو الأديان ، إنه يخلق أدواته على شكل مؤسسات اجتماعية ثقافية وتنموية ، ويؤسس المنتديات ويصدر الصحف وينشئ الروابط الثقافية².

المطلب الثاني: السؤال الثقافي ومصير المشروع الشرق أوسطي

ترفع الولايات المتحدة من سقف وعودها للبشرية من خلال مشروعها الليبرالي الذي أنتج على حساب مذابح ثقافة الآخر وهويته ومقدسه، مسدلة الستار على التاريخ بما شكلته من نموذج يعد الجميع بالرفاهة مع أن " حركة التاريخ لا توتي ثمارها وفعاليتها إلا في إطار نسقها العقدي والفكري الخاص بحضارتها ومسارها في خضم الديانات الحضارية ، أما اعتماد مجموعة من المرتكزات والمفاهيم المنشقة عن أنماط حضارية مغايرة فيحدث الخل والتناقض سواء في آليات الانتقاء الفكري بين المجتمعات أم في النتائج المزرية لوهم انتقال الأفكار وفق منهج الاستلاب لمصلحة الغرب³.

و رغم كل هذه المعطيات والأبجديات المعرفية عن العلاقة بالآخر كثقافة وهوية ، إلا أن مشروع الشرق الأوسط الكبير جعلت منه الولايات المتحدة الأمريكية " كاسحة ألغام ثقافة الآخر ، لأن السؤال الثقافي يبقى محرراً ومتحكماً في السؤالين الاقتصادي والسياسي للمشروع . " وفي ظل مناخ الغوائل الكونية والحضارية تتجدد سبل الهيمنة العالمية من خلال حلل جديدة ترتدي مسوح الحور الحضاري وتلاقي الثقافات وإنسانيتها، وما يترتب على ذلك من الرغبة في إحلال ونشر أفكار جديدة تمت صياغتها في دوائر صنع القرار الغربية من أجل الترويج لها ،

¹ - المرجع السابق، ص 212.

² - غليون، برهان ، سمير أمين : ثقافة العولمة ، وعولمة الثقافة ، دار الفكر المعاصر للطباعة والنشر والتوزيع ط 2000 .

³ - القش، سهيل ، في البدء كانت الممانعة ، بيروت ، دار الحداثة، ط 1980، ص 02.

وخاصة في منطقة الشرق الأوسط ، وبصفة أخص مع العالم الإسلامي وميراثه الحضاري والثقافي¹.

" تلعب الثقافة عادة دور متنفس للإنسان خاصة في الأزمات ، ففي الظروف الصعبة ظهرت أعمال أدبية أصبحت خالدة ، وما يلاحظ في عالم اليوم هو الفراغ الثقافي الذي يخترقه ، وإنهيار دور الثقافات الوطنية لحساب ثقافة النموذج في مظهرها الأخير أي ثقافة التسلية ، وهي كما هو معروف ثقافة استهلاكية وليست مبدعة ، ارتبطت في الماضي القريب بالامبرياليات ، وتلتحم اليوم بالنظام العالمي الجديد"².

" تظهر إشارات خطيرة الآخر في النطاق الديني والاجتماعي والثقافي كما في النطاق العسكري ، إن كان في أيرلندا الشمالية بين الكاثوليك والبروتستانت أو في آخر أيام يوغسلافيا ، بل حتى في قوالب دينية متماثلة ، فالحقد يغذيه الزعماء الدينيون ونرى أن خطابات (إيان بيزلي Ian Paisley) ، الزعيم البروتستانتي ضد الكاثوليك الأيرلنديين، هي من نوعية خطابات الواعظين الوهابيين ذاتها ضد الشيعة"³.

عمل الغرب والولايات المتحدة تحديدا على طرح بديل ثقافي للمنطقة من خلال تحميل ثقافة المنطقة الأصيلة كل تبعات التخلف الذي تعاني منه المنطقة حيث تحكم الغرب في وسائل صنع وتوجيه الثقافة في العالم كله ، وتمير النموذج الثقافي الاستهلاكي المادي دون غيره من المشاريع عبر هذه الوسائل والتي من بينها مؤسسات علمية وبحثية تصب في هذا الإطار وذلك بتسفيه كل ما يدخل كمكان في الهوية الثقافية أو الدينية من أجل إحداث هذا الانقلاب على الهوية الثقافية للمنطقة أوصى دعاة هذا المشروع بضرورة إنشاء مراكز وجامعات يوكل إليها رعاية ومتابعة هذا البعد في مشروع الشرق الأوسط .

¹ - الخطيب، سليمان ، الحوار مع الغرب: آلياته، أهدافه، دوافعه، تحرير: منى أبو الفضل وآخرون، دمشق، دار الفكر، ط1، 2008م، ص138.

² - قنان، جمال، نظام عالمي جديد أم سيطرة استعمارية جديدة ، المرجع السابق، ص151.

³ - كونييسا، بيار ، صنع العدو، أو كيف تقتل بضمير مرتاح ، المرجع السابق، ص44.

المطلب الثالث: من نماذج و صور الربط الثقافي للمشروع

" من بين مشروعات الربط الإقليمي ضمن الترتيبات الشرق أوسطية الجديدة إنشاء جامعة تسمى "جامعة الشرق الأوسط" يتم إنشاؤها في مصر لتكوين لجنة مهنية جديدة تلائم تطورات الرؤية الشرق أوسطية الجديدة، وهي جامعة خاصة ذات علاقة بجامعات أوربية وأمريكية حسب فروع التخصص"¹.

ظاهرا هذا المشروع قد يبدو بحثيا في التخصصات التي تعتمد عليها الجامعة ، لكن عند السؤال عن ضرورتها تتكشف الأبعاد والأهداف ، فهو (المشروع) سلوك استقطابي للكفاءات الشرق أوسطية التي تأمل في الانضمام إلى هكذا مؤسسة إقليمية تتاح لهم فرص البحث العلمي أكثر مما هو عليه الحال في جامعات دولهم .

ينخرط كثير من المنقذين العرب في هكذا مشروع، ويعتبره الفرصة التي يجب أن لا تهدر لاستكمال بحوثهم العلمية والفوز في النهاية بشهادات الدكتوراه، التي حيل بينهم وبينها في بلدانهم بواسطة العوائق والاشتراطات وطول مدة الدراسة.

ولكن في مقابل ذلك كله ، تجد هذه النخبة المهنية نفسها أداة من أدوات مشروع الشرق الأوسط الكبير العلمية ، حيث تستغل في تمرير كثير من الرؤى التي يصعب تمريرها مع غيرهم ، بل قد تسند لهم مناصب جد هامة في هذه المؤسسات مما يفهم فيه أن المشروع الثقافي الجديد للشرق الأوسط هو ذاتي من حيث الفكرة والتطبيق وبالتالي تدفع عنه تهمة تهديد المنطقة وقصد الهيمنة عليها .

وموازاة مع هكذا مشروع ، فإن الولايات المتحدة الأمريكية " لما خرجت من عزلتها إلى العالم ، اهتمت كبرى جامعاتها وعددها الآن 1300 بين حكومية وخاصة بحضارات وديانات آسيا وإفريقيا ، فأعدت جامعة كولومبيا بالاتفاق مع ثمانية عشر معهدا وجامعة منها شرقيا حديثا، لتدريس لغات الشرق الأوسط وآسيا وإفريقيا"².

هذه المناهج التي أدخلت عليها تعديلات جذرية ستقدم فيما بعد كبرامج رائدة تنفذ الشرق الأوسط من التخلف وتلحقه بركب المدنية الأوربية ، وكل ذلك يتم بطاقات شرق أوسطية استقطبت إلى الولايات المتحدة بطريقة انتقائية أظهرت الدراسات أنها تفي بالغرض نظرا

¹ - عبد الفضيل، محمود ، العرب وتحديات النظام العالمي، المرجع السابق، ص135.

² - العقيقي، نجيب ، المستشرقون، المرجع السابق، ج3، ص120.

لاستعدادها قبول مراكز مهمة في أبرز الجامعات الأمريكية وكذلك للذوق الروحي المساعد والمتقارب مذهبيا وفكريا مع دعاة المشروع الشرق أوسطي الكبير.

" أعدت برامج عن الشرق الأوسط درست في 21 جامعة وكلية (1962-1963) ثلثا أساتذتها أجانب بينهم لبنانيون ، كالدكتور (شارل مالك) ثم الدكتور (جورج مقدسي) في جامعة هارفارد ، والدكتور (منصور) في جامعة ويسكونسون، والدكتور (جورج حوراني) أساتذة العلوم الإسلامية بقسم دراسات الشرق الأدنى في جامعة ميتشيجان، والدكتور (شراييه) مصنف كتاب (حكومات الشرق الأوسط وسياسته في القرن العشرين 1962" ¹.

وعند دراسة هذه العينة من المثقفين العرب الذي تولوا مهمة تدريس اللغة والثقافة العربية والإسلامية في الجامعات الأمريكية وتعريف (الآخر) بهوية المجتمعات الشرق أوسطية، فإن المؤامرة تكشف عن نوايا أصحاب المشروع حيث أن معرفة (الآخر) لا تتم إلا من خلال مصادر وعقول وأفكار الطرف المراد معرفته ، لأنه الأقدر على التعريف بهويته وثقافته ، فكيف يقدم المسيحي ثقافة إسلامية بكل علمية وتجرد لا لشيئ إلا أنه عربي ، وتعتمد أرائه و تقريراته في الأدب والفكر والتاريخ والفقہ على أنها ثقافة إسلامية تؤسس عليها علاقة الغرب بالمسلمين.

" ومن الذين تجنسوا بالجنسية الأمريكية وهم كثير وفي طليعتهم الدكتور (فليب حيتي) في جامعتي كولومبيا وبرنستون، والدكتور (نوفل) المترجم الشرقي في البيت الأبيض ، والدكتور (عفيف طنوس) المدير المسؤول في وزارة الزراعة، والمحاضر عن الزراعة في بلدان الشرق الأوسط وشمال إفريقيا" ².

¹ - المرجع السابق، ص 121.

² - المرجع السابق، ص 121.

الفصل الثاني:

حياة برنارد لويس العلمية و منابعه الفكرية
و أثرها في علاقة الاستشراق بالعولمة

المبحث الأول: حياة برنارد لويس العلمية

المبحث الثاني: المنابع الفكرية للويس

المبحث الثالث: مؤلفات برنارد لويس ونشاطه الفكري

المبحث الرابع: كرونولوجيا فكرة العولمة "علاقة عفوية أم

إستراتيجية مخبرية

المبحث الخامس: بداية تكون الشرق في الوعي الغربي

المبحث السادس : عولمة الاستشراق والهيمنة على مدارس

المبحث الأول:

حياة برنارد لويس العلمية

المطلب الأول: نشأته

المطلب الثاني: لويس برنارد ورحلة التحول

المطلب الثالث: المكانة الاعتبارية للويس

المبحث الأول: حياة برنارد لويس العلمية

المطلب الأول: نشأته

" ولد برنارد لويس Bernard Lewis في 31 مايو (أيار) 1919 م وتلقى تعليمه الأول في كلية (ولسون) ، والمدرسة المهنية حيث أكمل دراسته الثانوية¹.

بالنسبة لمشواره الجامعي ، أظهر لويس اهتمامه الكبير بالمعرفة، وخاصة معرفة (الآخر) بل كان شغوفاً لذلك.

" نقف لنقارن بين معلومتين متناقضتين، أولاهما للمتخصص في تراجم المستشرقين وهو (نجيب العقيقي)، والأخرى لتلميذ (لويس) الدكتور (عبد الحق ناجي)، فالعقيقي يقول أن لويس حصل على الدكتوراه من جامعة لندن سنة 1939 " ² بينما يذكر ناجي أنه نالها في الأربعينيات من جامعة السوربون في باريس ، وكانت أطروحته عن الأصول الإسماعيلية³.

مهما يكن هذا الخلاف حول الجهة التي نال منها درجة الدكتوراه ، فإن ما يهم هو موضوعه الذي اختار البحث فيه، وهو مؤثر على أنه باحث غير عادي، لخصوصية وحساسية الموضوع باعتبار أن الفرقة "الإسماعيلية" لها وقعها الخاص في سيرورة التاريخ الإسلامي عموماً.

ما يشد الانتباه أيضاً لهذا المفكر أنه يجتهد لمعرفة لغة "الآخر" المقصود بالدراسة، حيث لا يكتفي على مجرد ما ترجم عن الآخر " بل يبحث عن ثقافة وهوية الآخر من خلال لغة هذا الآخر، حيث تشير المصادر أن لويس " يتكلم الانجليزية والعربية و العبرية و الآرامية والفارسية والتركية و اللاتينية " ⁴.

الملاحظ أن لويس اهتم باللغات التي شهدت مجتمعاتها حضارات ، أو التي لها علاقة بانتمائه العقائدي والفكري ، فالفارسية والعربية والتركية هي لغات محورية في الثقافة الإنسانية ولها ارتباط بأهم حضارة تقبع في مركز فكر واهتمام برنارد لويس .

1 - C.E. Boswrt et al (the Islamic world from Classical Modera Times (Princeton 1989) PP IX-X, also in who's in the USA 1989.

² - العقيقي، نجيب، المستشرقون، المرجع سابق، ص 144 .

³ - عبد الجبار، ناجي، التشيع والاستشراق، المراكز الأكاديمية للأبحاث ، 2011 ص 246.

⁴ - عيسى، حسن عبيد ، برنارد لويس ، جهود وأهداف ، موسوعة الاستشراق - معاودة نقد التمرکز الغربي وكشف التحولات في الخطاب ما بعد الكولونيالي، مجموعة من الأكاديمين، اشراف والتحرير: د/ عامر عبد زيد الوائلي، و طالب محيبس الوائلي (الجزائر، دار ابن النديم للنشر والتوزيع، ط1، 2015، ص 689.

فقد استقطبت بداياته كمتخصص في الدراسات الكلاسيكية عن "الأخر" وخاصة الشرق بمكونة الإسلامي والمسيحي اهتمام بعض الباحثين الذين اعتبروه نسخة متجددة للمستشرق الفرنسي (لويس ماسنيون)، ووصف بالتوازن في طرح القضايا التاريخية بكل علمية واقتدار حتى انه " يتساءل عن سر الاختلاف بين المسلمين والمسيحيين في موقفهم من معرفة كل منهما الآخر، وقد أشار إلى أن الإسلام أكثر تسامحا لأسباب دنية وتاريخية وعلمية ، كما لم يكن مرده الأخذ عن المسلمين لأن هذه الضرورة انتقت منذ الصليبيين"¹.

" ولد لويس من أسرة يهودية [اشكنازية] من الطبقة الوسطى في لندن ، اجتذبت اللغات والتاريخ منذ سن مبكرة ، اكتشف عندما كان شابا اهتمامه باللغة العربية ثم انتقل إلى دراسة الآرامية والعربية ثم بعد ذلك اللاتينية واليونانية والفارسية والتركية"².

بعد أن قطع شوطا مهما في دراسة الشرق الأدنى والأوسط ، حاول ان ينوع من ثقافته فأتجه إلى دراسة القانون، إلا أن الطبع يغلب التطبع فقد عاد لدراسة اللغة العبرية والتاريخ اليهودي " وهذا من طبيعة الأقليات اليهودية التي تعلم أبناءها اللغة العبرية [لغة المعتقد] والفكر اليهودي في دروس خاصة ، ومما يشير إلى اهتمامه باليهودية تاريخا وعقيدة ما كتبه من بحوث متعددة حول علاقة اليهود بالإسلام والمسلمين في مراحل التاريخ الإسلامي المختلفة ، بل و إفراده كتابا لهذا الشأن"³ فيما بعد.

ومما يعرف عن أهل كل تخصص أنهم يهتمون بمجال تخصصهم إلى أن يصلوا فيه أعلى المراكز ويضيفون شيئا من المعارف التي تخدم تخصصهم ' " إلا أن برنارد لويس الذي حاول أن يبدو على شكل مؤسسة غزيرة الإنتاج، متعددة الاهتمامات، قوية التأثير حيثما اتجهت سهام أبحاثه التي كانت تماشى مع (اهتماماته التي توسعت وتنوعت)"⁴.

لم يكن لويس برنارد يتخير في التاريخ باعتباره مادة علمية ، فقد درس التاريخ العام ولم يبد عليه ميل ونزوع إلى التخصص في تاريخ محدد.

¹ - الطاهر، لبيب، صورة الآخر (الجامعة التونسية، نشر مركز الأبحاث الدراسات الوحدة العربية، والجمعية العربية لعلم الاجتماع (بيروت) بحث: (الأخر في الثقافة العربية)، ص 197.

² - الجورجي، عادل ، سياق الشرق الأوسط (برنارد لويس) ومهندس سايكس بيكو 2، المرجع السابق، ص 20.

³ - مطبقاني مازن صلاح ، الاستشراق والاتجاهات الفكرية، المرجع السابق، ص 69.

⁴ - عبد الجبار، ناجي، التشيع والاستشراق، المرجع السابق، ص 246.

الفصل الثاني : حياة برنارد لويس العلمية ومنابعه الفكرية و أثره في علاقة الاستشراق بالعلمة

إلا أنه أثناء دراسته العادية للتاريخ الروماني، نصحه أحد أساتذته بدراسة التاريخ اليوناني والروماني، مشيراً إلى أن احد أساتذته في المرحلة الجامعية نصحه بدراسة كتاب " الثورة الرومانية" لمؤلفه / رونالد سايم Ronald Syme من أجل فهم الثورة العباسية¹ .

كانت هذه المرحلة نقطة تحول وتخصص في آن واحد جعلته يكتف ويدقق في جهوده وبحسب خطواته ويفكر في التقرب من بعض من سبقوه في دراسة التاريخ الإسلامي كحالة مهمة رأى فيها مادة دسمة، " ففي سنة 1937 م نال دبلوم الدراسات السامية ، وفي هذه المرحلة توجهت اهتماماته إلى دراسة الفرق الإسلامية حيث كان بحثه للدكتوراه حول الإسماعيلية وكان ذلك عام 1939 م² .

كان لظهور ماسنيون - الذي يصفه ادوارد سعيد "بالعقري الاستشراقي" - الأثر الكبير، ما جعل البعض يقدمون التلميذ على الأستاذ وحكموا" بتفوقه على ماسنيون وتنوعه ، خصوصاً وأنه بلغ سنا لم يبلغه أستاذه ، ناهيك أنه صاحب قضية [فيما بعد] يرى أنه يقوم بواجبه في خدمتها عن طريق تخصصه كمستشرق ، لقد كان ينتقي القضايا التي يخضعها للبحث بعناية كونها تؤدي إلى خدمة تلك القضية³ .

صادف هذا التحول في خيارات لويس برنارد المعرفية (العلمية) حدث تاريخي مهم ألا وهو الحرب العالمية الثانية وما سبقته من أحداث وتراكمات وما فرضته من موافق وجهود بحثية على المستويين (السياسي والعسكري).

لم يمض وقت طويل حتى وقعت الحرب العالمية الثانية فاستدعي [لويس] لأداء الخدمة العسكرية في الجيش البريطاني 1940 - 1941 م وفي عام 1941 ارتبط بوزارة الخارجية البريطانية حتى عام 1945 م حيث عاد بعدها إلى مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية لتدريس التاريخ وأصبح أستاذ التاريخ الشرق الأدنى و الأوسط عام 1949م⁴.

بدأت معالم سيرته الذاتية العلمية والفكرية تأخذ شكلها الرسمي لتعطي معومات هذه الفترة إجابات على أهم لأسئلة التي تطرح حول المؤثرات والأهداف التي يحب أن تفسر بما يوافقه فيما بعد.

¹ - مطبقاني، مازن صلاح ، الاستشراق والاتجاهات الفكرية، المرجع السابق ، ص 70.

² - لقاء الباحث (صلاح مازن مطبقاني) مع لويس برنارد في 21/10/1988م، مرجع سابق، ص70.

³ - عيسى، حسن عبيد ، لويس برنارد، جهود وأهداف، المرجع السابق ص 688.

⁴ - Annual Report of S.O.A.A Governing Body 1949 .

فقد أنهى الخدمة العسكرية في 1941 وكان بوسعه [لو كان مواطنا عاديا] أن يعود إلى بيته والى وظيفته كأستاذ جامعي , إلا انه اندمج في سياق الحرب من خلال ارتباطه بوزارة الخارجية لمدة أربع سنوات مستفيدا [كمؤرخ] من قربه من مصدر القرارات التي تتخذ و كذلك من مصدر ودقة الأخبار التي تصل الحرب وهذا ما يتمناه أي مؤرخ أثناء حدث هام بحجم الحرب العالمية الثانية.

" فبعد ثماني سنوات من التدريس عين رئيسا لقسم التاريخ ابتداء من 01 أكتوبر 1957 " ¹ وظل يرأس هذا القسم حتى غادر لندن نهائيا للعمل في جامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية أستاذًا للتاريخ الإسلامي في قسم دراسات الشرق الأوسط ابتداءً من سبتمبر 1974م.

عند هذه المرحلة, نجد أنفسنا نتكلم عن مستشرق جديد بملامح متطورة جدا, بل غريبة عن صورته الأم كمؤرخ وموسوعة من المعارف , في صيغة استشراقية جديدة لتؤكد أن الاستشراق لم ينته ولم يمت ' وان التعريف الكلاسيكي للاستشراق أصبح لا يعبر عن الحقيقة العلمية له.

المطلب الثاني: لويس برنارد ورحلة التحول:

"لقد ظل البعض ممن ظن متوهما أن الاستشراق (خطاب ، أو إنشاء) ولقد تكرم البعض بإضافة اهتمام عليه عندما حسبه (موضوع معرفة)" ² ولو أن (ادوارد سعيد) صحح ذلك، عندما قال : (أنا نفسي أو من أن الاستشراق أكثر قيمة بشكل خاص كعلاقة على القوة الأوروبية - الأطلسية بآراء الشرق منه كإنشاء حقيقي عن الشرق" ³ ارتحل لويس إلى الأرض الجديدة التي يخطط لها أن تكون أرض الميعاد حسب المفاهيم اليهودية المسيحية وبرؤية وتبريرات دينية, كما ارتحلت معه قيم أوروبية استشراقية إلى جغرافية الأخر (الهنود الحمر) ، سيقضي لويس ثماني سنوات ليصبح مواطنا يتمتع بكامل الحقوق المدنية, والسياسية التي سيقدم مقابلها حقوقا تاريخية وزادا معرفيا إيديولوجيا مهما.

أصبح [لويس] مواطنا أمريكيا بعد حصوله على الجنسية الأمريكية عام 1982م وبعد وصوله سن التقاعد عام 1986 عين مديرا لمعهد (أنتبرج) للدراسات اليهودية ودراسات الشرق الأدنى , وهو معهد يهودي مخصص لدراسات ما بعد الدكتوراه في مدينة (فيلا ديليفيا) لولاية (بنسلفانيا) الأمريكية" ⁴.

¹ - Annual Report of S.O.A.A Governing Body 1949 .

² - سالم، يقوت ، حفريات الاستشراق ، بيروت ، المركز الثقافي العربي، 1989، ص 08.

³ - سعيد ادوارد، الاستشراق، المرجع السابق، ص 41.

⁴ - Annenberg Research Institute for Judaic and Near Eastern studies, statement « of purpose ». in the Jewish Quarterly. Vol LXXVII,N° 01 , 1986.

الملفت للانتباه أن لويس في الوطن الجديد ، وطن المشروع المعرفي والإيديولوجي ، حاصره التقاعد في مدرجات الجامعات الأمريكية ، إلا أنه وجد في مرحلة التقاعد ما لم يجده غيره في مرحلة وسن العمل والوظيفة قبل التقاعد.

" قد لا نبالغ إذا قلنا: ان (برنارد لويس) حظي في أمريكا بما لم يحظ به باحث ولا مستشرق قبله ، حتى صار الأب الروحي و العراب لأكبر واطخر اتجاه فكري في أمريكا ألا و هو تيار المحافظين الجدد ذي التأثير الخطير على مجريات الأحداث في العالم"¹.

لقد وجد المحافظون الجدد من يبرر لهم تعسفهم من الوجهة التاريخية ويعطي لهم الذرائع السياسية والإيديولوجية لتزييف الأدلة وتسفيه الحقائق والقفز فوق المسلمات ، وكل ذلك عند لويس وبطريقة ذكية يصعب التنبه لها.

نقطة اللقاء بين الطرفين هو تجريم الآخر والعمل على سحقه لا على اقناعه وحواره وهذه النظرة اجتمع حولها مفكرون قلة في الولايات المتحدة باستغلال توجه المحافظين نحوها و لأنه (يصطف مع فريق من المستشرقين الذين يرون الإسلام " تركيبا ثقافيا موحدًا"².

وهو يشير إلى أن هذا النص يعود إلى (ب.م. هولت) "³ ولعل هذا التشخيص هو مجرد الأساس لصراع الحضارات الذي كان (برنارد لويس) هو الساعي إليه والموحي به، وان كان المعروف أن مؤسسه هو (صموئيل هنتغتون)"⁴.

المطلب الثالث: المكانة الاعتبارية للويس:

عرف لويس كيف يستقطب الساسة الأمريكيين على مختلف انتماءاتهم الحزبية وخاصة منهم الجمهوريين، فقد اجتهد للوصول إلى من يقرأ له ويسمع إلى قناعاته عبر وسائل الإعلام المقروءة والمكتوبة ومن خلال مؤلفاته ومحاضراته فقد أسس لقاعدة خطيرة هو التسليم بان كل المسلمين يكرهون الغرب ، لذا رأى أن يضع هذا الذي زعم انه حقيقة مسلم بها وراء الظهر، طالبا باستخدام القوة مع المسلمين لإذلالهم وتحطيمهم، وكان قد نجح في تسخير الإدارة الأمريكية المحافظة المسحورة به وبأطروحاته"⁵.

¹ - عيسي، حسن عبيد، لويس برنارد ، جهود وأهداف، المرجع السابق ص 689.

² -ادوارد سعيد، الاستشراق، المرجع السابق، ص 128.

³ - المرجع السابق، ص128.

⁴ - عيسي، حسن عبيد ، لويس برنارد ، جهود وأهداف، المرجع السابق، ص 699.

⁵ - المرجع السابق، ص690.

الفصل الثاني : حياة برنارد لويس العلمية ومنابعه الفكرية و أثره في علاقة الاستشراق بالعوالمة

ولذلك نراه دغدغ الشعور الغربي من ناحية امتلاكه للحضارة التي تعلم لويس أنها تحتل في نفوس الفرنسيين مكانة مرموقة فاقت حتى مكانة العقائد والتاريخ ، ولذلك صور المسلمين بأنهم أعداء الحضارة الغربية وحذر في كثير من المواقف من خطر (البرابرة) أو (الكفار) كما يسميهم .

ولذلك وجد ضالته حيث طرح مفهوما جزئيا عن حقيقة العلاقة كما يريد أن تكون بين المسلمين والغرب بقوله " ليس مفيدا التساؤل لماذا يكرهنا المسلمون ، بل المفيد إعادة صياغة السؤال بحيث يكون: لماذا يخافنا المسلمون؟ ، ولقد برر ذلك بان كراهية المسلمين غير مهمة في حد ذاتها بل المهم هو: أنهم لا يخافون الغرب ؟ على أساس هذه النظرية وضع مخطط غزو كلا من افغانستان والعراق، وهو مخطط لا يستهدف إقناع المسلمين بعدم كراهية الغرب ، ولكنه كان يستهدف وبشكل واضح تخويف العالم الإسلامي من الغرب"¹.

هذا الطرح اتسق مع بعض الرؤى لدى المحافظين بإمكانية تحقق المعركة المزعومة " هرمجدون" وعودة المسيح الأمر الذي يستبشرون من اجله كل محذور، حتى وان كان استباحة حقوق الآخر (الدينية والقومية والثقافية) وهو ما يتطلب تأسيس علاقة دائمة ومتجددة محورها " الحقوق مع الغرب".

" لقد كان زعماء هذا التيار يتسابقون في تكريمه واحتضانه، ففي 2006/05/01 ألقى (ديك تشيني) نائب) ، حيث ذكر (تشيني) أن (لويس) قد جاء إلى واشنطن ليكون مستشارا لوزير الدفاع لشؤون الشرق الأوسط"².

ما افتقده المحافظون الجدد كتبرير لمشروعهم للتحكم في العلاقات الدولية و إحداث تغييرات جذرية في التاريخ والجغرافيا وجدوا عند (لويس) ما لم يتوقعوا وجوده، وذلك بتحريف وتزييف التاريخ، والقفز فوق الحقائق، والذكاء في طرح المعلومة، و قراءة نفسية الآخر، وترصد و اختيار الهفوات.

بهذا الجهد الدؤوب، والجرأة المتناهية " أصبح برنارد لويس- المرشد العام للمحافظين الجدد - وفق تعبير (اوليفر مايلز) المستغرب البريطاني في الملحق الأسبوعي (الجارديان) البريطانية:

¹ - السماك، حميد ، دراسة بعنوان : الاستشراق في خدمة السياسة الأمريكية، منشور في جريدة المستقبل اللبنانية ، العدد 3726 الجمعة 30 تموز 2010.

² - عيسي، حسن عبيد ، لويس برنارد ، جهود وأهداف، المرجع السابق ص 690.

الفصل الثاني : حياة برنارد لويس العلمية ومنابعه الفكرية و أثره في علاقة الاستشراق بالعلمة

2004/07/17 , وتكالب عليه المسؤولون والسياسيون فضلا عن الصحف والمجلات ودعاه (كارل روف) المستشار السياسي السياسي لويس, ليتحدث في البيت الأبيض¹.

أضحى لويس رقما صعبا في النظام السياسي الاستراتيجي , حيث تتغير الأشخاص في البيت الأبيض والبننتاغون، ولا تتأثر مكانة لويس في القرار الأمريكي ، فقد ترك أفكاره تستعبد كبار المسؤولين.

بالإضافة إلى هذه العلاقة المتقدمة مع صناع القرار العالمي التي أتاحت له أن يجرب أفكاره ومواقفه من التاريخ, فقد حاز لويس على التكريم الأكاديمي في أشهر الجامعات والمعاهد الأمريكية والأوروبية بعد تقاعده باعتباره الحجة الغربية في كل ما يتعلق بالشرق الإسلامي , ومن هذه المعاهد التي رأت في انتسابه تشريفا علميا لها مايلي:

- 1 -جامعة كاليفورنيا (لوس أنجلس) عام 1955 م - 1956 م .
- 2 -جامعة كولومبيا Colomba - بنيويورك عام 1960م.
- 3 -جامعة إنديانا عام 1963 م.
- 4 -جامعة برنستون عام 1964.
- 5 -عضو زائر في معهد برنستون للدراسات المتقدمة عام 1969 م.
- 6 -عضو دائم في معهد برنستون للدراسات المتقدمة من عام 1974 م حتى 1986 م.
- 7 -جامعة ياشيفا yashiva عام 1974 م.

أما الجمعيات والمؤسسات العلمية التي منحت (لويس) عضويتها فمنها:

- أ - عضو مراسل لمعهد مصر بالقاهرة عام 1969م.
- ب -عضو شرف بجمعية التاريخ التركية عام 1973م.
- ت -عضو سابق بجمعية الفلسفة الأمريكية عام 1973م.
- ث -عضو في الأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم عام 1983.

كما نال لويس العديد من الجوائز والدرجات الفخرية من العديد من الجامعات منها:

- 1 -درجة الدكتوراه الفخرية من الجامعة العبرية بالقدس عام 1974م.
- 2 -الدكتوراه الفخرية من جامعة تل أبيب عام 1979م.

¹- الجوجري، عادل، برنارد لويس سياف الشرق الأوسط، المرجع السابق، ص23.

3 -شهادة تقدير لخدماته للثقافة التركية مقدمة من الحكومة التركية عام 1973 م

ومن بين التكريمات التي حضي بها حيث " احتفل مركز (موشية ديان) لدراسات الشرق"¹ الأوسط وشمال أفريقيا بندوة دامت يومين عند بلوغه الثمانين , وقد أوصى بان تعطى مكتبته الخاصة لمركز موشية ديان بعد وفاته , ويقضي لويس شهرين سنويا في تل أبيب"².

¹ - مطبقاني، مازن صلاح ، الاستشراق والاتجاهات الفكرية ، المرجع السابق ص 71.
² -الجوجري، عادل ، سيف الشرق الأوسط (برنارد لويس) ومهندس سايكس بيكو 2، المرجع السابق، ص 23.

المبحث الثاني:

المنابع الفكرية للويس

المطلب الأول: الثقافة اليهودية الصهيونية

المطلب الثاني: الزخم الاستشراقي الأوروبي

المطلب الثالث: الاستشراق الأمريكي

المطلب الرابع: الأحداث المعاصرة للنشأة و الظروف السياسية

العالمية

المبحث الثاني: المنابع الفكرية للويس

مع ما وصل إليه من التألق، و أظهره من إصرار وديمومة الجهد المعرفي وتنوعه رغم تقدم سنه الذي شارف العشرة عقود ، فان لويس كان نموذجاً واعياً للاستشراق المعاصر الذي لا يعمل على تكديس المعرفة (بالآخر) بل تفعيلها والتعامل معها (كعملة) يجب أن تدفع مقابل فعل حضاري يغير من واقع الآخر بأي طريقة كانت .

ومن بين المنتج المعرفي للويس الذي نستطيع من خلاله أن نحدد أهم منابعه الفكرية و مركزاته الإيديولوجية ، كتابه " أوربا و الإسلام" حيث عمل من خلال هذا الكتاب على تأكيد وجود فاصل تاريخي وعقائدي بين تاريخ وجغرافية وعقيدة أوربا من جهة و الإسلام كدين ومبادئ وعقيدة وقيم من جهة ثانية' فهذه الثنائية عمل على تأسيسها وتأصيلها في جميع مؤلفاته.

"لقد ركز في هذا الكتاب المرجعي على أن (العالم المرجعي الإسلامي يشهد تحولاً نوعياً في تاريخه لا يقل أهمية عن سقوط روما واكتشاف أمريكا) "1.

يعمل لويس على تحريض الغرب وتجييش أنظمتهم ضد الإسلام والمسلمين ، ويعتمد على تصوير الحراك العلمي أو الديموغرافي أو الفكري بمثابة الأحداث الاستثنائية في تاريخ الغرب وتشبيههما - رغم الفارق - بتلك الأحداث، وذلك لغرض استفزاز وشحن همّة الغرب واستعداده لمواجهة ورفض كل ما هو إسلامي، بمعنى أنه يستحضر في الفرد الغربي تلك النفسية التي صاحبت تلك الأحداث لتفعيل المواقف والقرارات.

" الشاهد أن لويس اهتم في بداياته العلمية بالتاريخ الإسلامي ككل، كنوع من القراءة الأفقية ، لكنه عاد وتبنى المنهج الدراسي من حيث التوسع في معرفة تاريخية الفرق الإسلامية وخاصة الإسماعيلية -موضوع بحثه في الدكتوراه - ومن ثم عاد ودرس التاريخ العثماني والتركي الحديث "2.

بعضها نظريات ورؤى لمستشرقين سبقوه أو درسوا له ، وبعضها في انتماءات عقديّة وإيديولوجية لا علاقة لها للبحوث العلمية أطلاقاً ، و من أهم هذه المنابع ارتحل بها من لندن إلى الولايات المتحدة حيث وجد النصير والحليف الذي يشترك معه في أغلبها مايلي:

¹ - ولد أباه، السيد، مقالة بعنوان (برنارد لويس وعلمنة الإسلام) منشور في جريدة الشرق الأوسط العدد 10678، الجمعة 22 شباط 2008.

² - الجوجري، عادل، برنارد لويس، سيف الشرق الأوسط ومهندس سايكس بيكو 2، المرجع السابق، ص 24.

المطلب الأول: الثقافة اليهودية الصهيونية:

لا يملك لويس برنارد من اليهودية في بداية مشواره إلا الانتماء كغيره من معظم اليهود ، ولم يتفاعل معها كمتعقد بثقافة التاريخية (لا تذكر المراجع شيئاً عن تلقيه أي تعليم ديني خاص، بل أن يهوديته لا تكاد تعرف إلا من خلال عمق ارتباطه بالحركة الصهيونية والذي ظهر بوضوح بعد الحرب 1967م¹.

والواقع إن أحياء الذوق اليهودي في طرح لويس و اعتباره كأحد المنابع المغذية لفعله الثقافي قد دفعت إليه عوامل حضارية وسياسية تزامنت مع نهاية الحرب الباردة وبزوغ نجم التغريدة الأمريكية على العلاقات الدولية وخاصة في مسائل الشرق الأوسط وبالتحديد في الصراع العربي الإسرائيلي الذي أيقض في اللاشعور عند لويس مشروعاً غير مكتمل أحسن بمسؤوليته في تشكيل وتهيئة المناخ المناسب له وقناعة بأنه يملك وسائل ذلك.

"أدى خلق دولة إسرائيل في فلسطين إلى الاهتمام بإثبات دعوى اليهود في ارض الميعاد ، وهناك من المستشرقين من اشد الراغبين لقيام دولة إسرائيل ووقف مع إسرائيل في الادعاءات الصهيونية مثل برنارد لويس الذي يتخرج على يديه العديد من الطلبة العرب واليهود وهو حامل لواء الحق اليهودي" في فلسطين وتكريسها لتحقيق أهداف سياسة لا علاقة لها بالبحث العلمي الموضوعي².

إن الإقدام على مشروع غرس شعب في غير تربته أمر تاريخي يستوجب الكثير من الجهد وخاصة التبريرات التاريخية التي تحتاجها المحافظون الجدد والتي لا يوجد أفضل من المستشرقين على صياغتها والدفاع عنها وأشهرهم على الإطلاق برنارد لويس³.

وبما أن المشروع - إقامة دولة إسرائيل - صهيوني الطبعة ، فإن دعاته لا يتخرجون من انتسابهم لهذه لحركة (الصهيونية) وهذا ما أكده محمد بن عبودة عند قوله " أن بعض المستشرقين اليهود قد اعلون انتمائهم الصهيوني بصراحة مثل ما فعل ذلك لويس برنارد"³.

ولعل ابرز موافقة الإيديولوجية الداعمة والمدافعة عن الصهيونية في المحافل الدولية دفاعه العنيف ضد قرار الأمم المتحدة عام 1976م باعتبار الصهيونية حركة عنصرية⁴.

¹ - مطبقاني، مازن صلاح ، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، المرجع السابق ص 69.

² - الحاج، ساسي، الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية، المرجع السابق ص 179.

3- Mohammed Ben Aboud, Orientalism and the Arabe Elite . "in Islamic Quarterly .Vol 26 No 1. Jan March 1982, .PP 3-15. (p 13).

⁴ - مطبقاني، مازن صلاح ، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، المرجع السابق، ص 73.

الفصل الثاني : حياة برنارد لويس العلمية ومنابعه الفكرية و أثره في علاقة الاستشراق بالعلمة

أخذ لويس برنارد على عاتقه مهمة تاريخية شاقة لها علاقة بأسباب العداء الذي يضره العرب والمسلمون - كما يدعي- لليهود والسامية بالتحديد من أجل اكتشاف أسباب مبنية مسبقا واتخاذها مطية ضد العرب والمسلمين في كل المحافل الدولية أو الأحداث الإقليمية .

وليواصل هذه المفاهيم، يكلف لويس نفسه مشروعا معرفيا يتمثل في تأليفه لكتاب عنوانه " الساميون والعداء للسامية" 1986 ، يبحث في جذور العداء العربي الإسلامي للسامية ، فيزعم أن الأقليات اليهودية عوملت معاملة سيئة ، وان لم تصل لدرجة المعاداة للسامية التي عرفتھا المجتمعات الغربية¹.

ومع ما أقره في الكتاب بأن العداء للسامية في الغرب سابق عنه في الشرق الأوسط وأنه انتقل من أوروبا إلى العالم الإسلامي في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ، وإقراره كذلك أن الصراع الإسرائيلي قد ساهم بشكل واضح في تبرير العداء الإسلامي للسامية ، فإنه قد عرف يسوق لهذه الفكرة في المحافل الدولية والمنظمات الإقليمية إلى أن أصبحت جريمة يعاقب عليها القانون، و محرار يقاس به الولاءات للغرب عموما والولايات المتحدة تحديدا. لا يقتصر ولاءه لليهود باعتباره يهوديا فحسب ، بل يسمح لنفسه بتقييم الساسة اليهود ويرتبهم على حسب قدرتهم على (صنع التاريخ) كما يري ، فحينها سئل عن (شمعون بيريز) قال: هو صديقي وأنا معجب به ، وهو رجل المرحلة ، وخسارة ألا يكون له دور سياسي، ففي التاريخ اليهودي إقحام المسؤول ليصبح ملكا، وهذه عظمة إسرائيل ، غير أن ما تحيط بالسياسة من شكوك يجعل السياسيين لا يحظون بالاحترام والنماذج على ذلك هي ، داود وسليمان ، لقد لوثا عندما تحملا أعباء السياسية².

صناعة التاريخ عند لويس لا تكون وفق نواميس إنسانية، تحفظ بها القيم وتحترم الحريات السياسية الذي لا يقيم لحرمة الدماء والأعراض والمقدسات وزنا هو عند لويس (صانع التاريخ) ويستنتج هذا من وجهة نظرة سفاح صبرا وشتيلا، إذ رآه (من الزعماء القلة يفضلون صنع التاريخ على الاحتفاظ بالائتلاف الحكومي ، إن شارون احد صناع التاريخ ، أما نتتياهو فإنني لا أرى بأنه كفؤ للقيام بتلك المهمة " ³.

¹ - مطبقاني، مازن صلاح ، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، المرجع السابق، ص 73.

² - الجوجري، عادل، برنارد لويس سياف الشرق الأوسط ومهندس سايكس بيكو 2، المرجع السابق ص 30.

³ - المرجع السابق، ص 29.

"لقد كان الجذر اليهودي للويس فاعلا في عموما انجازاته الفكرية ، و إذا ما كان الرجل وهو في انجلترا مكتفيا بالهوية الدينية اليهودية، فإنه صار يتباهى بعقيدته الصهيونية وهو في بلاد التأثير الأقوى ،عقب استقراره في الولايات المتحدة الأمريكية"¹.

إن النّقل الذي يحظى به لويس في صنع القرار الأمريكي والإسرائيلي يفوق في كل الأحوال مجموع الأحزاب الإسرائيلية في إسرائيل، وهو يتنافى مع الزعم الديمقراطي لإسرائيل الذي ينعق به وأكدّه في خطابه عندما " شارك في مؤتمر نظّمته السفارة الفرنسية (هارتس) بعنوان (التحديات الديمقراطية) أكد فيه على ضرورة الديمقراطية الإسرائيلية كإطار لهزيمة العرب ، وإنها نموذج ديمقراطي عظيم ، وهي من اقوي ديمقراطيات العالم"².

ألا يقضي تدخل لويس كل مرة في الشأن الإسرائيلي الداخلي والصراع العربي وذلك بتسفيه موافق الأحزاب والحكومات ، الإسرائيلية فيما تتخذ من موافق وقرارات حتى وان كانت شكلية على زعم ديمقراطية دولة إسرائيل ؟ !.

وما يعني " انتقاده محاولات الحل السلمي، وانتقاده المدبر للانسحاب الإسرائيلي من جنوب لبنان الذي وصفه في حينه بأنه عمل متسرع ولا مبرر له"³ أو استنباقه الأحداث الرامية لتسوية الصراع العربي الإسرائيلي ، واللعب على وتر التقليل وتخفيض سقف توقعات الطامحين للسلام عندما دعت أمريكا عام 2007م إلى مؤتمر (أنا بوليس) للسلام كتب يقول في صحيفة (وول ستريت) : " يجب ألا ننظر إلى هذا المؤتمر ونتائجه إلا باعتباره مجرد تكتيك موقوت ،غايته تعزيزات التحالف ضد الخطر الإيراني ، وتسهيل تفكيك الدول العربية والإسلامية ، و دفع الأتراك والأكراد والعرب و الفلسطينيين والإيرانيين ليقاثل بعضهم بعضا كما فعلت أمريكا مع الهنود الحمر من قبل"⁴.

ومع أن الغايات التي ذكرها حقيقة ، وتدخل ضمن الأهداف الإستراتيجية الأمريكية ،فإن الوجه الآخر للتصريح يعني انتفاء الحلول السلمية للصراع العربي الإسرائيلي وهو طرح يردده حماة العهد من المدرسة الحرفية اليهودية ، وفقا لبعض المعتقدات التوراتية.

¹ - عيسى، حسن عبّيد. برنارد لويس ، جهود وأهداف ، موسوعة الاستشراق، المرجع السابق، ص706.

² - الجوجري، عادل برنارد لويس سياف الشرق الأوسط ومهندس سايكس بيكو 2 ، المرجع السابق، ص 29.

³ - عيسى، حسن عبّيد. برنارد لويس ، جهود وأهداف ، موسوعة الاستشراق، المرجع السابق، ص706.

⁴ - المرجع السابق، ص706.

المطلب الثاني: الزخم الاستشراقي الأوروبي:

من الناحية الموضوعية ، فان المشرف برنارد لويس وليد تراكم معرفي أوروبي عريق وخاصة ما تعلق بالحضارة الإسلامية وتاريخها وثقافتها ، فالتقاليد المعرفية الأوروبية التي أسسها أباطرة الاستشراق في دراسة (ثقافة الآخر) تفرض نفسها وتترك أثرها بحكم التأثير، أو بحكم المسابرة للتوجه السائد حيث انتقاء المكائد والتحرش الأكاديمي ليس من السهل تغيير الخط العام الذي اعتمدته المدارس الاستشراقية والأوروبية في دراستها للظاهرة المعرفية في الإسلام وبحكم المولد والخطوات الأولى في هذا التخصص.

"لاشك في أن مدة تعليمه في مدارس الاستشراق الانجليزي والفرنسي قد أوصلت لويس إلى صقل ذوقه الاستشراقي الأوروبي التقليدي، فقد تلقى تعليمه الاستشراقي الأساسي على يد عدد من كبار المستشرقين في إنجلترا وفرنسا [أشهر واطخر المدارس الاستشراقية الأوروبية] ومن أهمهم: هاملتون حب ، توماس ارنولد ،مرجليوث ، جروتيام ، وماسنيسون وغيرهم"¹.

وهذا الصقل التقليدي هو حالة طبيعة منتظرة لكنها قابلة للنقاش والمراجعة لأننا مع حالة معرفية تقبل الدراسة والنظر.

تجسد التأثير الاستشراقي بالزخم الاستشراقي الأوربي وترجم من خلال العلاقة البحثية التي أسسها مع اغلب أعمدة الاستشراق البريطاني والفرنسي ،حيث اعتمد لويس في قراءاته للتاريخ والمذاهب الإسلامية على المستشرق (هاملتون جب 1895م-1971م) وكدليل منه على تأثره به انه رأى إشراف هاملتون على رسالته في الدكتوراه تشريفا علميا يضاف إلى الكم العلمي الموثق في صفحاتها.

اعتنق لويس أدق واعقد الأفكار والأحكام التي نادى بها (هاملتون جب) وأقر بها وتعامل مع الثقافة الإسلامية على أساسها حيث " نقل لويس عنه بعض الأفكار مثل خاصية " الذرية" في التفكير عند المسلمين ،وبعض القضايا في الأدب العربي، كما رجع لويس إلى أستاذه في تأليف كتاب الشرق الأوسط والغرب"² بمعنى أن هاملتون جب حاضر بدقة في تأليف لويس برنارد.

بل إن لويس كان وفيًا لهاملتون حيث لم يكتف بالعودة إلى جب في كتابه (العرب في التاريخ) ولكن عرض عليه مخطوطة الكتاب ليراجعها متى يشاء.

¹ - مطبقاني، مازن صلاح ، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، المرجع السابق ص 74.

² - المرجع السابق، ص 75.

من جهة أخرى، كان لويس مروجاً لأفكار وموافق المستشرق (السير توماس ارنولد 1864م - 1930م) حول الخلافة الإسلامية وكان كتاب ارنولد (الخلافة) مرجعاً أساسياً لكثير من الأحكام التي تتحدر من خطأ دراسة الإسلام وتاريخه بنكهة مسيحية توراتية قوله " لا يعرف الإسلام منصب القس، وليس فيه هيئة من الرجال منفصلة عن بقية المؤمنين لممارسة الشعائر الإيمانية التي لا يصح لبقية المؤمنين أن يمارسوها"¹. مما يترتب على هذا الطرح كثير من الأخطاء والتعسف في حق الإسلام وتاريخه.

و كصورة إضافية لتأثير الاستشراق الأوربي، الأثر الذي تركه المستشرق (لويس ماسنيون) 1883م -1962م) في كتابات لويس، حيث أعاد إحياء النقاش حول التصوف ومباحثه وفرقه، كما اهتم كأستاذه بالفرق والمذاهب.

إلا إن هذا التأثير جاء بعده ما يجعله تأثيراً معرفياً مباحاً بين عامة المفكرين ، وهو شائع في اغلب التخصصات ، لكن ما أضافه لويس في علاقته بـماسنيون انه أخذاً حذوه في تسخير الاستشراق كعلم للأهداف الاستعمارية ، " فقد كان ماسنيون مستشاراً للخارجية الفرنسية، وعمل لويس العمل نفسه في سنوات الحرب العالمية الثانية ، وظل على اتصال بالحكومات الغربية فيما بعد حيث كان مستشاري (لهنري جاكسون) رئيس لجنة الشؤون الخارجية بالكونغرس الأمريكي"².

ما سبقت الإشارة إليه كدليل على التغير في مفهوم الاستشراق المعاصر في نظر المفكر سعيد ادوارد. ما يميز لويس عن غيره من المقتبسين أو المتأثرين ، انه مفكر بارع وذكي وله وسائله وآلياته في التعامل مع أفكار الآخرين، فهو يضيف عليها لمسات وتعديلات ، بل ويهيئ لها مقدمات استثنائية حتى يتمكن من الاستفادة منها حسب طلبه وهدفه فهو لا يبقي النص المقتبس دون أن يدخل تعديلات على سياقه مما قد يبدو للقارئ أن الفكرة في عمومها من بنات فكره .

"ولكن بعد إمعان النظر في كثير مما كتبه لويس في قضايا الفكر الإسلامي، يلاحظ أن لويس لم يكن أصيلاً ، وهو أيضاً عالة على غيره في القضايا المعاصرة مع إضفاء صبغة ظاهرية من الموضوعية العلمية"³. الدور الذي قام به لويس هو بمثابة "عصرنة" وإضفاء لمسة إحدائية على آراء و أحكام كلاسيكية قام عليها الاستشراق التقليدي ، وذلك بإمدادها وتعليقها وفسح المجال لها في أروقة المراكز الإستراتيجية المعاصرة بعد أن كانت في بطون الكتب العتيقة ورفوف المكتبات القديمة .

¹ - Thomas Arnold, (The Caliphate). Lahore. Karachi , oxford University,1966, p 15

² - مطبقاني، مازن صلاح ، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، المرجع السابق ص 75.

³ - المرجع السابق، ص 76.

تأثر لويس بكثير من المستشرقين الذين سبقوه من أمثال : جولد تسيهر ، ولامانس وكا يتاني ، ونولدكه ، بارتولد ، وما رمليون ، وفون جرو نيام ، حيث أكثر من شهاداتهم واقتراءاتهم على الإسلام ، ولما كان لويس صاحب أسلوب مميز في الكتابة أضفى طابعه الشخصي على هذه الاقتراءات فجاءت وكأنها من فكره الخاص¹.

نستطيع القول أن نموذج لويس هو عبارة عن مكون معرفي تنادى فكره من مجموعة معارف الاستشراق الأوربي الكامن وراء كل ما كتبه المستشرقون الحاقدون على كل ما هو إسلامي ولكن بعقلية برنارد لويس الذي أراد أن يثبت أوربيته من تاريخها الأول فكان مما تأثر به التاريخ الروحاني ، حيث اسقط نفس التقسيم السائد آنذاك وخاصة العهد الوسيط على المجتمع الإسلامي فجعل منه الطبقة الارستقراطية وقد اختص عثمان بن عفان (رضي الله عنه) من هذه الطبقة وأوائل الصحابة (رضي الله عنهم) ورتب على ذلك أحكاما غير موضوعية ولا علمية ، والطبقة الثانية هي عامة الشعب ، والطبقة الأخيرة طبقة العبيد التي يريد من خلالها الطعن في الإسلام واتهامه بأنه دين يؤصل الفوارق الاجتماعية ويهين كرامة الإنسان ، بل يجعل من تجارة العبيد الركيزة الأساسية في النشاط الاقتصادي في الإسلام.

المطلب الثالث: الاستشراق الأمريكي:

من الناحية الواقعية لا يعتبر الاستشراق الأمريكي من حيث المضمون احد المنابع الفكرية للويس لسبب وجيه وهو انه احد واضحي ومنظري هذه المدرسة وبرز أعلامها الفاعلين ،ولكن قد يثبت هذا التأثير (التقني) في أعمال لويس المعاصرة كما سبق ذكره عند الحديث عن المدرسة الاستشراقية الأمريكية في المباحث السابقة أنها ارتبطت بعلم الاجتماع وجعلت منه احد أهم الوسائل ، كما أوضح المفكر (حسين آصف) أن دور علوم الاجتماع (تفويض) التركيبية الاجتماعية والبنية الفكرية للأمة العربية والإسلامية وإحلال بنية فكرية وثقافية غربية تقبل الآراء الاستشراقية المدروسة الأهداف سلفا.

ولذلك ، كان لويس برنارد سباقا لهذه (التقنية) رفقه المستشرق (وليام جوسف اولسن 1947 ما حدا بالمفكر (ادوارد سعيد) " بعدم التفريق في دراسته للاستشراق الأمريكي بين علماء الاجتماع والمستشرقين رغم أنهم لا يوافقون على هذا الدمج"².

¹ - مطبقاني، مازن صلاح ، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، المرجع السابق، ص76

² - ادوارد سعيد، الاستشراق ، المرجع السابق ص 19.

الفصل الثاني : حياة برنارد لويس العلمية ومنابعه الفكرية و أثره في علاقة الاستشراق بالعوالم

فقد اهتم لويس بجوانب اجتماعية كثيرة في المجتمعات الإسلامية وجعل منها مدخلا مهما لدراسة التاريخ الإسلامي ، حيث ركز على مسالة الرق والمرأة ، والطبقية ، والنقابات وغيرها معتمدا على أسس ومناهج علم الاجتماع الغربي.

الأمر الثاني الذي ظهر كأثر للاستشراق الأمريكي على فكر وإنتاج لويس برنارد هو إهماله شبه التام للدراسات اللغوية التي كانت في الاستشراق الأوروبي لدراسة الحالة الإسلامية ككل، واعتماده على مناهج علم الاجتماع لما رأى فيه نتائج فورية وفاعلة.

وجد لويس في اهتمامه بعلم الاجتماع الفرصة التي تقربه من المجتمع الأمريكي لان هذا الأخير كان أكثر قربا واهتماما بهذا العلم منه للاستشراق الذي يبقى في نظره (المجتمع الأمريكي) أوروبيا بامتياز ، إضافة إلى ما يقدمه الاهتمام بعلم الاجتماع من فرص الظهور والمشاركة في الحياة العامة.

لقد لعب لويس الدور الاستراتيجي باعتناقه مناهج علم الاجتماع في تعزيز وتقديم رؤاه اليهودية الاستشراقية حيث " نقل تلك الأهداف الصهيونية إلى مصدر القرار الأمريكي كي يجعل منها استراتيجية أمريكية دائمة الاهتمام مضمونة النتائج لا تكلف الصهاينة شيئا سوى المتابعة عن بعد.

ملح آخر في سيرته الذاتية تمثل في تراجعه عن دراسة المواضيع الفكرية التي تضيف للمكتبات معارف ومصادر موثقة وملزمة بالقواعد العلمية والأكاديمية وانحرافه مع الثقافة الاستهلاكية التي تعالجها وسائل الإعلام اليومية عبر اللقاءات والندوات المتزاحمة بحيث يقضي بعضها على بعض لأنها تتسارع وفق الأحداث اليومية.

تحول من مستشرق أوروبي تقليدي ، إلى خبير في شؤون الشرق الأوسط ، مستشار للهيئات والمؤسسات الرسمية فيما يخص الشرق الأوسط¹ و ذلك تناغما أو خضوعا واستسلاما للمشروع الأمريكي الذي اعتمد تحت شعار " دراسات المناطق Area studies الذي حدد أبعاده وأهدافه و وسائله المستشرق الأمريكي (مورو بيرجر) عام 1967 في دراسة قدمها لرابطة دراسات الشرق الأوسط².

فبعد أن كان مقصد الطلاب في المعاهد والجامعات، ومشرفا على الرسائل الجامعية يتزاحم الباحثون على مكتبه أملا في موافقته على قبول الإشراف، أضحي لويس مفتي الرؤساء

¹ - مطبقاني، مازن صلاح ، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، المرجع السابق، ص 77 .

² - Moroe Berger, Middle Eastern and North African Studies, .OP .Cit p 45

والحكومات ، وقائد الجوق لبعض المراكز والجمعيات ذات الخلفيات الإيديولوجية التي لا تراعي الحقائق التاريخية ، ولا تعطي للقيم والفضيلة أي وزن .

امتلك لويس رغبة جامحة وقناعة راسخة في ضرورة تغيير المفاهيم حول التاريخ وثقافة المجتمع العربي الإسلامي بما امتلكه من ثروة كبيرة من المفاهيم حول التاريخ على أنه (الآخر) الذي لا يرتقي أن يكون طرفا يتعايش مع الغرب (المتحضر) ، بل الطرف الذي تقتضي ضرورة ديمومة الحضارة الغربية حتمية إقصائه و تفكيك تركيبته بما يحقق الضرورة العربية ويخدمها .

المطلب الرابع: الأحداث المعاصرة للنشأة و الظروف السياسية العالمية:

قد يكون لويس واحدا من الذين تناسبت ولادتهم ونشأتهم مع أحداث تاريخية سواء على المستوى الإقليمي أو الدولي ، لكنه قد يكون من القلائل الذين أعطوا لهذه الخاصية اهتمامهم ، قد يكون المثل الذي استثمرها وأسس عليها مجمل إبداعاته ، وكان له دور كبير في تقريرها من الناحية التاريخية ، ولم تقتصر علاقته بها على مجرد اكتشافها عند الآخرين .

كان أهم حدث استنهض لويس استرعى انتباهه بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى التي تعني الكثير بالنسبة لبريطانيا (البلد الأم) لويس كان سقوط 'الخلافة الإسلامية' وما يعنيه هذا الحدث بالنسبة لمؤرخ مثل (برنارد لويس) ، انه الحدث الذي سيغير كثيرا من الحقائق ويقلب كثيرا من الموازين العالمية ، ويفسح المجال لدراسة حقبة الخلافة على أنها الحقائق من الماضي الذي يمكن تشريحه ونقده وتتبع عثراته وكل تردداتها كان الحدث، الذي اعتمد فيه لويس على ما كتبه (السير توماس ارنولد 1864-1930م) مهم بالنسبة إليه فهو يعني عودة عقارب ساعة التاريخ إلى ما قبل 1453 م .

حيث قضى السلطان محمد الثاني (الفتح) أخيرا على الإمبراطورية البيزنطية ذات الألف عام بالاستيلاء على القسطنطينية ، التي جعلها عاصمة الإمبراطورية العثمانية ، وأصبحت لاحقا تعرف باسم (اسطنبول) أو الأستانة، وكان سقوط القسطنطينية صدمة نفسية للمسيحيين الغربيين ، فالقسطنطينية مهما بلغ انكماش الإمبراطورية البيزنطية وعجزها ، ظلت في الشعور المسيحي الشعبي حصنا حصينا للإيمان¹ .

إن شرط سقوط الخلافة الإسلامية ورمزها في ذلك الوقت " الأستانة" الأوروبية (جغرافيا) يعني الكثير بالنسبة للويس لان جغرافية الأستانة كانت تمثل تحدي حضاري واقعي للفكر السياسي الغربي عموما والاستشراقي على الخصوص يصعب إنكاره أو تجاوزه.

¹ - زاكاري، لويمان ، تاريخ الاستشراق وسياسته، المرجع السابق، ص92.

" اكتسب لويس شهرة واسعة على الخصوص على انه متخصص في الخلافة العثمانية ، وبعد مراجعة ما كتبه حول هذه الخلافة اكتشف [الباحث مازن صلاح مطبقاتي] انه لم يكتب كتابة تفصيلية عن تاريخ الخلافة العثمانية وحضارتها وأن ما كتبه عبارة عن مجموعة بحوث حول محتويات الأرشيفات العثمانية ، وترجمة لبعض هذه الوثائق"¹.

لقد تحين لويس في دراساته للخلافة العثمانية لحظة وصمها " بالرجل المريض واخذ يرصد جراحاتها ومواطن ضعفها ، ويشهر بتهالكها رادا أسباب ذلك إلى الدين الذي تمثله ألا وهو الإسلام الذي يعتبر في غير جغرافيته الطبيعية ، حيث " لم يكتب لويس كتابة التاريخ عن الدولة العثمانية من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في فترة عظمتها وازدهارها ، بل تركز اهتمامه على فترة تراجع الخلافة العثمانية وانحسارها ونقلها من الحضارة الإسلامية إلى الحضارة الغربية"².

تأثر لويس بموضوع " القومية التركية " وتباكي على الأتراك الذين لم يكونوا أوفياء لهويتهم تحت الخلافة الإسلامية تاركا ثقاب فتنة باعترافه للعرب والفرس بنسبة من الوعي حيث يرى " ان مجموعات الأتراك الحاكمين والمتفقين ، مع ذلك لم يحافظوا كما فعل العرب والفرس على درجة متساوية من الوعي بهويتهم منفصلة عرقيا وثقافيا ضمن الإسلام"³.

اندمج لويس في السياق العام الغربي المتهافت على اقتسام تركة " الرجل المريض" المؤدية بسقوط الإمبراطورية العثمانية ، لكن اندماجه كان بطريقته الخاصة وفق إستراتيجية بعيدة المدى، حيث قام بقراءة بأثر رجعي في أسباب قيام الخلافة في جزء أوربي بدلا من الجغرافيا العربية والحيلولة دون إعادة التجربة ، كما اخذ بالتحليل أسباب سقوطها وعمل على ديمومة ترددات تلك الأسباب في الوعي العربي والإسلامي ، طبعا مع تبرئة الغرب والسكوت على مؤامراته ضد الخلافة العثمانية.

فرضت الحرب العالمية الثانية معطيات من أهمها خيار الدور الأوربي على الساحة والذي كانت تمثله بريطانيا وفرنسا بسلوكهما الاستعماري ، وظهور قوة أوروبية جديدة بإيديولوجية لم تألفها أوربا سابقا وهي الاتحاد السوفيتي الشيوعي الذي مثل الموقف الأوربي بدون تفويض من أوربا أمام الظاهرة الجديدة (الولايات المتحدة).

¹ - مطبقاتي، مازن صلاح ، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، المرجع السابق ص 331.

² - المرجع السابق، ص 331.

³ - Bernard Lewis, The Emergence of Modern Turkey. Oxford 1968 2ed edition, p2-3

كانت تركيا رأس حربة في مواجهة الدب الروسي الجزء الأقرب أوربيا من الاتحاد السوفيتي حيث عمد الاستشراق إلى التركيز عليها وخاصة وهي في مراحل تكوينها الأولى مع تجربة العلمانية ، حيث شعر الأوروبيون بخطر الشيوعية التي تخلف وتعوض الخلافة الإسلامية ، أو عودة الصمود الإسلامي في الشرق الأوسط و هو ما ينذر بإحياء مطلب الخلافة من جديد .

كان مطلب الغرب أن تعتق تركيا ما بعد الخلافة الإسلامية المذهب العلماني الذي لا يتناسب عقائديا مع الإسلام ، وإيديولوجيا مع الشيوعية في بعض توجهاتها، ولذلك عهد لويس إلى ضخ مفاهيم عن تركيا من خلال مجموعة بحوث تتناول بعض ما احتواه الأرشيف العثماني وترجمته، جعل تجربتها المقال الذي لا يتكرر إلا مرة واحدة وذلك عن طريق الكيد والمكر - وأطر هذا الجهد المغشوش بتأليف كتابه بحث عنوان (قيام تركيا الحديثة 1968)، حيث عمد على عطاء تجربة التحول عن الإسلام إلى العلمانية (كنظام حكم) كل صفات العقلانية والحدائثة والمدنية والتحضر ، كما قلد رموزها أوسمة باسم التاريخ - وهو منهم براء - من أمثال مصطفى أتاتورك، ونامق وغيرهم.

بعد سقوط الشيوعية ، افتقد الغرب عدوا - وهو لا يقوى على ذلك - بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية ، فلم يجد من يشبهه غير الإسلام كتاريخ وثقافة وعقيدة وإنسان ، وهنا يدخل لويس مرحلة الخدمات الإيديولوجية بصفة رسمية وعلنية من خلال تجيش الغرب ضد الإسلام ، وهذا إمعان ركب لويس موجته حيث ألقى محاضرة في مكتبة الكونغرس حول موقف الإسلام من الغرب ، وهذا إمعان من لويس في الكيد للإسلام بزعمه أن المسلمين وبخاصة من يسميهم "الأصوليون" يكرهون الغرب ولا بد من أن يواجه الغرب - وعلى رأسه أمريكا - هذه الموجة من الكراهية والعداء من جانب الإسلام حسب زعمه¹.

¹ - مطبقاني، مازن صلاح ، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، المرجع السابق، ص78.

المبحث الثالث:

مؤلفات برنارد لويس ونشاطه الفكري

المطلب الأول: الفرق والعقيدة الإسلامية

المطلب الثاني: التاريخ العربي الإسلامي

المطلب الثالث: الفكر السياسي الإسلامي

والحركات الإسلامية المعاصرة

المبحث الثالث: مؤلفات برنارد لويس و نشاطه الفكري

دعى برنارد لويس في أغلب إنتاجه إلى ضرورة الحرص على كسب المعركة مع الإسلام لأنها آخر وأخطر المعارك التي ستواجهها الحضارة الغربية، وأستدعى المبرر - المنتهي الصلاحية - من التراث الأوربي وهو " الأصولية " وألحقها قسرا بالإسلام، وهو السلوك الذي تفرضه حتمية التوافق مع المحافظين الجدد في الولايات المتحدة الأمريكية، إذ أصبحت مؤلفاته وآراؤه " وحيا " مقدسا لا يناقش في كل ما تعلق بالإسلام.

لم يخطئ من حكم على هذا المستشرق بأنه " مؤسسة غزيرة الإنتاج " بالنظر إلى ما ألف، فقد تعددت جهوده العلمية بين التأليف والتدريس والإشراف على الرسائل الجامعية وإلقاء المحاضرات والإشراف على الندوات وإلقاء المحاضرات، وحضور الملتقيات واللقاءات العلمية والتحليلات الإستراتيجية، والاستشارات السياسية في أهم الأحداث الدولية.

يكاد ينعدم مجال واحد من مجالات الدراسات التي تتعلق بالعرب والمسلمين لم يسجل برنارد لويس حضوره فيه، ولأن إشكالية الموضوع ليست الجانب الكمي لإنتاجه، وإنما لدوره الاستراتيجي الذي لا يغيب أثره في أغلب ما كتب، فإن الإشارة ستقتصر على أهم مؤلفاته التي بوأته هذه المكانة في الحقل المعرفي الغربي وخاصة ما تعلق منها بالجانب التاريخي .

كان التاريخ أكثر الجوانب حضورا لتخصص المستشرق فيه، وهو من أهم الموضوعات التي نفذ من خلالها المؤلف إلى بقية التخصصات ذات الصلة بالحضارة الإسلامية، كالفرق الإسلامية والمجتمعات والحركات الإسلامية المعاصرة، والفكر السياسي والإمبراطورية العثمانية في نموذج الخلافة، والحالة الفلسطينية وغيرها.

لأجل ذلك، كان هذا المبحث جزئية اقتضتها ضرورة الموضوع من الناحية النظرية، فإن الإشارة إلى بعض تأليفه حسب المواضيع تفي بالغرض، مع الوقوف عند الحاجة في المباحث الموالية عند بعض المؤلفات الأخرى.

المطلب الأول: الفرق والعقيدة الإسلامية:

- "أصول الإسماعيلية"، كمبردج، 1940،

وقد نقل إلى العربية و ترجمه : خليل أحمد طلو، وجاسم محمد الرجب، بغداد، مكتبة
المتى 1954م، وهو كتاب نفيس يصنف الشيعة إلى شيع معتدلة ومغالية¹.

كشف هذا الكتاب عن أول اتصال أكاديمي رسمي بين هذا المستشرق والفكر الإسلامي، ومثل
بداية مشروع فكري سيستمر معه المؤلف إلى أخريات أيامه، ودلت على ذلك مؤشرات توجي
بذلك.

هذا الكتاب " هو رسالة دكتوراه التي أشرف عليها (جب هاملتون) بمدرسة الدراسات
الشرقية والإفريقية 1939م قسم فيها المصادر إلى شيعية وسنية، قلل من أهمية المصادر السنية،
واتهم السنة بجهلهم لمصادر ومراجع الشيعة، وعاد في أكثر مصادره إلى ما كتبه المستشرقون في
هذا الموضوع " ².

وأتبع برنارد لويس رسالته ببحوث في نفس الموضوع وعبر فترات زمنية متباعدة نذكر منها
ما يلي:

- تفسير اسماعيلي لخروج آدم من الجنة : 1937-1939م، مدرسة الدراسات الشرقية
والإفريقية، وقد يكون هذا الموضوع من المحفزات التي شجعت على موضوع الدكتوراه بموافقة
(هاملتون)، لأنه ظهر متزامنا مع الأطروحة.

- مذكرات إسماعيلية 1948م، مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية.

- صلاح الدين والحشاشين 1953م، مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية.

- مصادر تاريخ الحشاشين في سوريا .

-The Sources Of History Of The SyrianAssassins, In Specukum 17
(1952).

- الحشاشون في سوريا والاسماعليون في فارس.

¹ - العقيلي، نجيب، المستشرقون، المرجع السابق، ص144.

² - مطبقاني، مازن صلاح ، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي ، المرجع السابق، ص77.

-Assassins Of Syria and Ismailis In Persia, In La Persiand Medioevo (Rome : 1971).

- The Assassins : Aradical Sect in Islam (London : 1967), New York : 1968.

- الكتاب الأخير قام بترجمته الأستاذ سهيل زكار، وهو أحد طلبه لويس حيث قام بنشره تحت عنوان : " الحشيشية في دمشق 1971م " ، كما نال فضول الأستاذ: محمد العزب موسى ، قام بترجمته سنة 1986م بالقاهرة، " والكتاب في مجمله بالإضافة للتأريخ لهذه الفرقة المتطرفة، محاولة من لويس كي يرسم صورة جميلة لهذه الفرقة، زاعما أنها ذات فكر سياسي واقتصادي، وأنها قامت ضد فساد الحكومات"¹.

كما جعل من " شيخ الجبل " زعيم الحشاشين، القائد المثالي، في الوقت الذي يحرض فيه على قيادات الحركات التحررية والإصلاحية في العالم الإسلامي، والحركات الجهادية في فلسطين والشرق الأوسط، ويشحن الأنظمة العربية والغربية ضدها.

المطلب الثاني: التاريخ العربي الإسلامي:

التاريخ هو الحبل السري المعرفي بين برنارد لويس والحضارة الإسلامية، عقيدة وثقافة ومجتمعاً، وهو البوابة التي تسلل منها والجلباب الذي تجلبب به، وكانت أول محاولة عبارة عن " مؤقعت" العرب ضمن السلسلة البشرية عبر التاريخ من خلال كتابه:

- The Arabs In History, (London : 1950),Sth Edition. 1970 Reprints in 1975.

العرب في التاريخ، ترجمه: نبيه أمين فارس، و محمود يوسف زايد (بيروت، دار الملايين، 1954م.)، كما ترجم الى العبرية والفرنسية والاسبانية واليابانية والسريوكرواتية، والمالوية².

في هذا الكتاب، غمر برنارد لويس قراءه بسيل من الأفكار والآراء إلي اعتمد فيها على كتب المستشرقين الكلاسيكيين حول العرب، حيث أظهر أنه لا ضرورة للتفريق بين مصطلحي: العرب والإسلام، إضافة أنه يبرر لعمل خطير وغير علمي، بدعوى أن ما جاء فيه هو تغذية

¹- مطبقاني، مازن صلاح ، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي ، المرجع السابق 88.

²- العقيقي، نجيب، المستشرقون، المرجع السابق، ص 144.

بسيطة لعامة الناس، وعليه فانه يجد نفسه غير مضطر لتوثيق ما جاء فيه من آراء وأحكام تتعلق بالعرب الذين هم في نفس الوقت " الإسلام" بمعنى آخر.

وقد ذكر المؤلف " أن الكتاب صدر ضمن سلسلة موجهة للقارئ العادي الذي لا تهمة الإحالات و الحواشي"¹.

فقد أباح لنفسه تمرير آرائه وأحكامه عن " الآخر" تحت أعدار مفضوحة، مما يتيح له حرية التصرف في سرد الأحداث التاريخية وفق ما يشتهي مخططه، ولكن يبقى السؤال الذي يطرح نفسه، عن مدى علمية وأكاديمية ما طرحه من أحكام وأحداث في هذا الكتاب ؟ أم أنها علمية بمجرد صدورها عن مؤرخ عريق هو برنارد لويس، وهو منطوق لا تعترف به البحوث العلمية.

-تاريخ الإسلام: كمبريدج، بمعاونة غيره (دار النشر جامعة كمبريدج 1970م)².

" وهو عبارة عن مجموعة من البحوث تتكون من أربعة أجزاء، قدم لويس في هذه السلسلة مقالتين أحدهما : مصر وسوريا، وأما الثانية فهي بعنوان : الحكومة والمجتمع والحياة الاقتصادية تحت الحكم العباسي والفاطمي " ³.

-الإسلام في التاريخ: " وهذا الكتاب عبارة عن مجموعة من البحوث والدراسات التي كان لويس قد نشرها سابقا أو شارك بها في مؤتمرات وندوات مختلفة [وهي عادته في تكرار وإعادة ما نشره ولكن في ثوب مغاير]، وهو كتاب يفتقد إلى الانسجام بين موضوعاته أو المنهجية في التأليف"⁴.

لأنه يشمل مواضيع مختلفة لا يضبطها سياق واحد أو منهج محدد، تنوعت بين الفكر والعقائد والتاريخ، مما أرغم المهتمين بمؤلفات برنارد لويس بوصف هذا العنوان " بأنه خادع، إذا تأملنا محتوياته غير المتجانسة التي تفتقر إلى هذا الترابط الموضوعي"⁵.

¹ - Bernard Lewis, The Arabs in History, London: Hutchinson &co.1950, 5th edition 1970, reprinted, New York: Harper, Row, 1975, pp : 6.

² - ، العقيقي، نجيب، المرجع السابق، ص144.

³ - مطبقاني، مازن صلاح ، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي ، المرجع السابق، ص 82.

⁴ - المرجع السابق، ص 82.

⁵ - طيباوي، عبد اللطيف ، المستشرقون الناطقون بالانجليزية، المرجع السابق، ص131.

-اكتشاف المسلمين لأوروبا 1982-

The Muslim Discovery Of Europe, New york : w.w.Norton, 1982.

" وأصل هذا الكتاب بحث نشر في مجلة الدراسات الشرقية والإفريقية عام 1957م " ¹ . وهي " اللازمة" في تأليف برنارد لويس، حيث يكرر إنتاجه ولو بعد مدة زمنية تقدر بـ 25 سنة، دون مراعاة للسياق الزمني والنفسي بين الطرفين لمن يقصده بالقراءة، ومع ذلك فإنه يعد بالجديد قراءه في معالجة مثل هذه القضايا، حيث أشار فيه إلى اهتمام المؤرخين عادة باكتشاف أوروبا للعالم الإسلامي وموقفها منه، ولكنه أراد أن يبحث موقف العالم الإسلامي من أوروبا، وكيف تطور هذا الموقف من تجاهل تام إلى الخضوع والتغريب " ² ، وبذلك يكون برنارد لويس قد أحدث الجديد فعلا عند معالجته هكذا قضايا واستطاع أن يكشف عن هذا التحول الذي لم ينتبه إليه غيره من المؤرخين من موقف التجاهل المؤسس على بعض المعطيات التي ستأتي في المباحث القادمة، إلى حالة مناقضة تماما وهي الخضوع والتغريب.

-الإمبراطورية العثمانية وحضارة الخلافة :

لا يختلف الدارسون في العلاقة الوثيقة بين مسار برنارد لويس و تاريخ تركيا من العهد البيزنطي مرورا بالخلافة العثمانية الى التاريخ الحديث لتركيا، حتى يكاد يكون مصدرها الأوثق وأوروبا بالنظر الى الجهد الذي أولاه لتاريخها، من تحقيق لمخطوطاتها ودراسة لحقها التاريخية، ومعرفة بمجموع الفرمانات الصادرة عن سلطاتها ، إلى علاقاتها بالرعايا المتواجدين بأراضيها والقوانين التي كانت تحكمهم، الى التخصص في إصدار الأحكام في أحداث سقوط العاصمة " القسطنطينية " وتقديم قراءة فريدة عن المواقع العسكرية والمرافق التاريخية والثقافية والدينية لحظة السقوط.

بدأ لويس اهتمامه بالتاريخ العثماني و تركيا الحديثة مبكرا حيث أصدر أول كتاب عن تركيا عام 1950م بعنوان " ملاحظات ووثائق من الأرشيف التركي " وقامت بنشر الكتاب ' جمعية الاستشراق الإسرائيلية

¹ -مطبقي، مازن صلاح ، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، المرجع السابق، ص 83.

² - المرجع السابق، ص 83.

Notes and Document From The Turkish Archives,Jerusalem :Israel
Oriental Society : 1952.¹

سارع برنارد لويس الى تسجيل الحدث الأهم أوربيا حينها، الذي رآه وتعامل معه على أساس إعادة كرامة وهيبة أوربا بعودة تركيا إلى وضعها الطبيعي الأوربي وتخليها عن " الموقف النشاز " وتجسدت تلك الآمال، فسجل ذلك الحدث بتأليفه كتابه الثاني عن تركيا ولكن هذه المرة بكل حميمية أوربية تحت عنوان: ' ظهور تركيا الحديثة '

- Emergence Of Modern Turkey, (London and New York 1961)."

وأعيد طبعه وبشيء من التعديل عام : 1968م، ثم عام 1986، و 1987م² .

هذا الكتاب من الأهمية التي تجعله الوثيقة الدالة على آليات التفكير عند برنارد لويس لذلك ستكون المواضيع الواردة فيه متضمنة في بعض المباحث الموالية، لما أصدر فيه من أحكام عن الخلافة، كما أثبت فيه بعض التبريرات التاريخية والسياسية الواهية تتعلق بأسباب سقوط الإمبراطورية العثمانية، كما قلد المتسببين في ذلك الزعامة والوطنية ووصفهم ب' الحداثيين '.

في عام 1963م عاد برنارد لويس ليستحضر ألق العاصمة' استنبول ' ضمن مشهد حضارة الإمبراطورية العثمانية، حيث ألف كتابه بعنوان : استانبول وحضارة الإمبراطورية العثمانية 1963م،

- Istanbul and The Civilization Of The Othman Empire (Norman :
University Of Oklahoma Press :1963).

" ظهرت الترجمة الأولى عام 1974م، ثم الطبعة الثانية عام 1982م، ترجمه الأستاذ : سيد رضوان علي ولكن بعنوان هو الأدل على مضمون الكتاب حيث اختار له مترجمه عنوان : ' استانبول وحضارة الخلافة الإسلامية '، الأمر الذي قد يكون سببا في غضب لويس على المترجم، ومناقشته في بعض أرائه التي كانت عبارة عن طعن في الفكر السياسي الإسلامي،

¹ - مطبقاني، مازن صلاح ، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي ، المرجع السابق، ص91.

² - المرجع السابق، ص 91.

ومكانة العلماء في الإسلام، والسخرية والتهمك ببعض العبادات والشعائر الإسلامية، كما ذكر المترجم في مقدمة الطبعة الثانية " 1 .

" وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية واليونانية والعبرية واليابانية، وله دراسات في الإسلام والعثمانيين من القرن السابع إلى السادس عشر (عدة طبعات - آخرها -لندن 1976م، واشترك في وضع تاريخ الإسلام (كمبريدج 1970)، وفي تحرير دائرة المعارف الإسلامية " 2 .

لم يقتصر اهتمام برنارد لويس بالإمبراطورية العثمانية من خلال كتبه فقط، بل كان لا يضيع أي فرصة تستوجب موقفا من خلال مقالاته التي تعتبر المادة الأولية لمواضيع كتبه، وهذه أهم مقالاته التي اهتمت بالموضوع ' الإمبراطورية العثمانية ، وقيام تركيا الحديثة '، دون التوقف عند مضامينها .

1 - " الأرشيف العثماني كمصدر لتاريخ البلاد العربية " ، 1951م، في الجمعية الملكية الآسيوية، ص 139/155.

2 - " التطورات الأخيرة في تركيا " 1951م، في مجلة ' تاريخ العالم ' ص 313/320.

3 - " أثر الثورة الفرنسية في تركيا " 1952م، في مجلة ' تاريخ العالم ' ص 105/125.

4 - " الإحياء الإسلامي في تركيا " جانفي 1952م، في مجلة ' شؤون دولية ' مجلد 18، ص 48/38 .

5 - " القسطنطينية والعرب " 29 ماي 1955م، ضمن ندوة سقوط القسطنطينية، ونشر ضمن بحوث الندوة عن مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية.

6 - " بعض الانعكاسات حول تدهور الإمبراطورية العثمانية " 1958م .

7 - " تركيا التغريب"، ضمن كتاب : ' الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية ' 1956م، بالولايات المتحدة

8 - " ماذا فعلنا لها ؟ تركيا تتجه بعيدا " في: ' الجمهورية الجديدة ' 18/02/1978م 3 .

من الضروري التأكيد على أن هناك أنشطة متعددة ، ومتنوعة من حيث الوسائل والمواضيع، وهي لا تقل أهمية عن مؤلفات برنارد لويس ، مما يحسن الوقوف عندها وبيان الدور

¹ - لويس، برنارد، استانبول وحضارة الخلافة الإسلامية، ترجمة: سيد رضوان علي، المرجع السابق، المقدمة.

² - نجيب العقيلي، المستشرقون، المرجع السابق، ص 144، 145.

³ - مطبقاني، مازن صلاح ، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي ، المرجع السابق، ص 92، 94.

الاستراتيجي لها من حيث التوقيت والمواضيع التي تناولتها، من أجل تفعيل عنوان الرسالة وانسجاما مع مكوناته.

وجملة تلك الآثار نتلخص في المواضيع العلمية التي تشمل (المساهمات في دائرة المعارف، والمحاضرات والندوات والمؤتمرات، والإشراف على الرسائل الجامعية).

أما المحور الثاني الذي كان له الأثر البالغ فهو نشاطه الإعلامي، وتحليلاته، وأحاديثه الإذاعية التي تتناول موقفه من بعض الأحداث المعاصرة، وخاصة ما تعلق منها بالعلاقة مع الآخر، وهو ما سيأتي ضمن نماذج استراتيجياته في الفصل الأخير.

المطلب الثالث: الفكر السياسي الإسلامي والحركات الإسلامية المعاصرة:

من المواضيع التي تتعلق بالفكر السياسي الذي كان سائدا في الخمسينيات، المفهوم الشيوعي لنظام الحكم الذي جاء كرد فعل للحكم الأرسقراطي والنظام الرأسمالي آنذاك، وما تمخض عن ذلك من صراع دام، ألحقت كل نتائجه بالشيوعية، فان هذه الأخيرة تصلح أن تقارن بالعدو الأوربي الذي هو الإسلام .

ولأن برنارد لويس عادة ما ترتقي مقالاته ومحاضراته إلى مرتبة كتاب، فان كتابه المعنون ب: الشيوعية والإسلام ، ينحدر من مقال في مجلة " شؤون دولية " نشر في 1954م، بل لا يتوقف الأمر هنا فحسب إذ أن أصل الموضوع محاضرة ألقى في (تشاتام هاوس Chatham House) في 6 أكتوبر 1953م، الجديد في هذا الكتاب أن الكاتب حاول جاهدا أن يحدث التقارب بين الإسلام والشيوعية.

الدولة والفرد في المجتمع الإسلامي 1982، مقال ألقاه برنارد لويس في أحد المؤتمرات العلمية التي نظمتها منظمة اليونسكو بباريس في أكتوبر من نفس السنة، وذلك لإثراء ومناقشة موضوع هام يتعلق ب (الرؤية الأخلاقية والسياسية للإسلام)¹ كعادته أعاد برنارد لويس الاتهامات التي أطلقها في كتابه (الشيوعية والإسلام)، إلا أنه أضاف الجديد - حسب تقديره - إلى الموضوع، ويتمثل في معلومة مفادها طغيان الإذعان والخضوع للسلطة والخنوع للحاكم دون تقديم تبريرات على ما يقول، أو من خلال تعسف في فهم بعض النصوص.

¹ - نشر هذا البحث مترجما في : مجلة الثقافة (الجزائر)، العدد 9، ربيع الأول 1406 / نوفمبر - ديسمبر 1985م ، ص 87/71، وقد تم نشره مختصرا في دورية الدراسات الشرقية والأفريقية عام 1986م تحت عنوان :
On The Quitist and Activist Traditions in Islamic Political and writing- Vol : 49 (1986) pp :141-47.

هذا المقال الذي ألقى كمحاضرة حضرها أحد المفكرين المعاصرين الشرق أوسطيين، لمس إيجابياتها العلمية وشاد بها إنصافا لما وقف عليه حيث " نجد في هذا النص مزايا وملامح أستاذ جامعة برنستون الكبير، نجد روحا وذكاء حادا، ومعلومات واسعة لا يعترتها النقص، وسيطرة رائعة على فن الكتابة وتقديم الأفكار، ومسارا وثقا من نفسه لا يضيع مطلقا وسط التبحر العلمي الثقيل والتفكير المجرد أو الانحراف المنهجي"¹.

هكذا يعترف المفكر محمد أركون [الذي كان مشاركا في هذا المؤتمر]، حيث تابع برنارد لويس وهو يستعرض أفكاره ومفاهيمه ، وجاء تقييمه بكل دقة على كل الجوانب التي تفترض في التقييم العلمي لأي موضوع ولأي باحث من خلال الفكرة وصاحبها، لكن أركون لم يتوقف عند هذا الوصف ، ولم ينحرف مع الهواة، بل إستم مع هذه المزايا وأفتقد ما أفسد عليه نشوة الفكرة، ولذلك نجده يقدم تقييم مفكر وناقد عالم بحقل الأفكار ودهاليزه، لا تقييم مستمع ومشاهد .

" كما ونجد استعراضا ماكرا يختبئ وراء رصانة الأستاذ، إن أولئك الذين يقدرون مزايا اللغة الانجليزية وبلاغتها يعترفون معي بأن قراءة برنارد لويس أو الاستماع إليه يمثل متعة حقيقية، لكن فكره لا يذهب بعيدا في الشوط لكي يستنفد كل إمكاناته"² ، يقدم أركون ملاحظات جد عميقة ومهمة، تمكن القارئ من استكشاف المكر المعرفي القابع بين تلك الرصانة وذاك الثبات في تسلسل الأفكار وسعتها، ويعيب على فكر برنارد لويس أنه " يظل فكر المراقب الدقيق أو النبيه، أي مجرد مشاهد لمسرح اجتماعي وتاريخي يمتنع عن الدخول فيه لكي يشاطر أهله الصعوبات والمسؤوليات والإكراهات والصراعات والآمال والانفعالات التي يعيشونها، انه باختصار يرفض أن يشاركهم قدرهم الجماعي - التاريخي"³ .

¹- أركون، محمد ، تاريخية الفكر العربي الاسلامي، تر: هاشم صالح، بيروت، مركز الانماء القومي، المركز الثقافي العربي، ط3،

1998م، ص 254.

²- المرجع، السابق، ص254.

³- المرجع السابق، ص 254.

المبحث الرابع:

كرونولوجيا فكرة العولمة

" علاقة عفوية أم إستراتيجية مخبرية "

المطلب الأول: استمدادات الفكرة تاريخيا

المطلب الثاني: الطرح الجديد للفكرة المتجددة

المبحث الرابع: كرونولوجيا فكرة العولمة¹

المطلب الأول: استمدادات الفكرة تاخيا

يمكن تلمس فكرة المجتمع البشري ذات الصفة أو المظاهر العالمية في الفكر الرواقي في القرن الثالث قبل الميلاد عبر زعماء هذه المدرسة الذين دعوا إلى مدينة عالمية يكون فيها جميع البشر متساوون² ولكن هذه الفكرة كانت عسوية على التطبيق لأنها كانت مجرد ردة فعل لشرح أصاب حيزا جغرافيا معينيا في ظرف زمني محدد، أضف إلى ذلك أن النموذج الذي استثار أصحاب هذه الفكرة كان " نمطيا" بمعنى موحدًا من حيث التوجه الروحي والسلوك الاجتماعي، ووحدة العرق واللسان ألا وهو المجتمع اليوناني، الذي مزقته اختلاف وتعدد بل وتعارض الأنظمة والقوانين التي توالى على تسيير شؤونه.

إن التاريخ العالمي مليء بالأحداث الجسام التي ذهب ضحيتها الكثير من الأبرياء، وذلك نتيجة للأحلام التوسعية لبعض زعماء العالم أو من يتصورون أنفسهم زعماء العالم، كنبليون الذي يعتبر من أوائل من حاولوا السيطرة على العالم في العصور الحديثة³.

" إن النظام العالمي الجديد مصمم أمريكيا كي يعكس التجربة المحلية الأمريكية حيث تقف الطبيعة التعددية لكل من المجتمع الأمريكي ونظامه السياسي"⁴.

وإذا كانت الثورة الفرنسية التي استمدت شعاراتها من جوهر الفكر الرواقي ونادت بالأخوة والمساواة والعدالة، فقد كان نابليون يجسد على أراضي مستعمراته نقيض ما يرفعه من شعارات إذ " توضحت طموحات نابليون بعد أن نصب نفسه إمبراطورا مدى الحياة على فرنسا في عام 1802م، وبدأ حملته التوسعية للسيطرة على أوروبا والعالم بحجة نشر مبادئ الثورة الفرنسية، وخاض من أجل ذلك العديد من الحروب التي انتهت بخسارته وأسرته ونفيه إلى جزيرة (سانت هيلانة) حيث توفي في عام 1821م⁵.

¹ - بحري، محمد ، " العولمة والاستشراق: علاقة عفوية أم إستراتيجية مخبرية الهيمنة على العالم، مقال منشور في مجلة الحقيقة، العدد39 ديسمبر 2016، جامعة أحمد دراية- أدرار، الجزائر. ISSN 1112-4210-2003/363.

² - حسن، خليل ، النظام الدولي، المفاهيم والأسس، الثوابت والمتغيرات، بيروت، لبنان، منشورات الطلي الحوقية، ط 3، 2013م، ص 08.

³ - الجميلي، صدام مرير ، الاتحاد الأوربي ودوره في النظام العالمي الجديد، لبنان، دار المنهل اللبناني، ط1، 2009م، ص 198.

⁴ - بريجنسكي، زيغنيو، رقعة الشطرنج الكبرى" الأولوية الأمريكية ومتطلباتها الجيوستراتيجية " عمان، الدار الأهلية للنشر، 2007م، ص 39.

⁵ -صدام مرير الجميلي، الاتحاد الأوربي ودوره في النظام العالمي الجديد ، المرجع السابق، ص 198.

إن محاولة تصوير هذه الأفكار من قبل أصحابها على أنها عالمية، لهو في الواقع غير ذلك، فمجمال الأفكار والمشاريع التي ظهرت كانت بمجمالها بعيدة كل البعد عن العالمية، وكانت نتاجا للجغرافيا والتاريخ الذين انطلقنا منه.¹، ثم جاءت بعدها محاولة كرد فعل انتقامي لما حل ولحق بألمانيا من ظلم من طرف امتدادها الجغرافي والتاريخي الأوروبي، ورغم ما أحرزته هذه المحاولة من نجاحات " فقد باءت في النهاية محاولات هتلر للسيطرة على مقدرات أوروبا، ومن خلالها على العالم بالفشل، أمام التحالف العالمي حيث انتهى به الأمر في الأخير عام 1945 إلى الهزيمة وتقسيم ألمانيا إلى دولتين²، حيث كانت عقيدة النازيين آنذاك في حروبهم لتركيع العالم هي نظرية التفوق العرقي للدم الجرمانى، حرصت على ذلك العقوبات التي فرضت على ألمانيا من طرف أخواتها لأبوة التاريخ والجغرافية الأوروبية، وجميع تلك الأسباب والمبررات لا تصلح لتأسيس شيء مشترك ومفهوم موحد للحياة.

إن السيطرة على المقدرات العالمية من قبل طرف واحد هي حالة غير قابلة للاستمرار، وتبدو نهايتها حتمية، فهذه هي قواعد الصراع الدولي³، لأن المنتبغ لعلاقة الغرب بمشاريعه وما يطرحه لا يجد كبير عناء في كشف التعارض بين قيم المشروع نظريا، وممارسات هذه الدول لأنها " لم تنتج نظاما دوليا إلا وبدأت هي نفسها في الاتجاه الذي سيلغيه مجددا، وهذا ما كان، حيث كانت ظروف وخصومات الحرب العالمية الأولى تتحضر بوتيرة متسارعة، وهكذا لم يأت منتصف العقد الثاني من (ق 20) إلا وكانت الحرب قد اشتعلت لتغير مفاهيم وقيم وأنظمة بنتائجها⁴.

بمعنى أن مفهوم أحادية القطب بعيد المنال واقعيًا، وان روج له إعلاميا لأننا " نلاحظ أن هيكل النظام الدولي بعد الحرب الباردة لا يمكن وصفه بنظام القطب الواحد، إنه هيكل يتسم بتعدد القوى، ويرتكز على نمط توزيع عناصر القوة والقدرة على التأثير في الوحدات الدولية الكبرى⁵.

المطلب الثاني: الطرح الجديد للفكرة المتجددة:

كان لا بد أن يكون هناك تغير ما يخدم الفكرة مع الحفاظ على جوهرها، ويتخلى عن تلك الوسائل القديمة -لأنها أصبحت لا تتلاءم مع ما وصلت إليه المدنية، " ولأن الولايات المتحدة كانت الطرف الذي ظل بعافيته من بين كل الأطراف المتحاربة فقد وافقتها الظروف لكي تكون

¹ - حسن، خليل، النظام الدولي، المفاهيم والأسس، الثوابت والمتغيرات، المرجع السابق، ص 11.

² - الجميلي، صدام مرير، الاتحاد الأوربي ودوره في النظام العالمي الجديد، المرجع السابق، ص 199.

³ - المرجع السابق، ص 200.

⁴ - حسن، خليل، النظام الدولي، المفاهيم والأسس، الثوابت والمتغيرات، المرجع السابق، ص 15.

⁵ - الجميلي، صدام مرير، الاتحاد الأوربي ودوره في النظام العالمي الجديد، المرجع السابق، ص 205.

الطرف الأقوى؛ لأنه بجانب قوتها التي ظلت تحتفظ بها، كانت الطرف الأكثر تغيرا والأغنى والأكثر إنتاجا في مصانع الحرب والسلم على السواء، وعلى هذا الأساس، امتلكت أمريكا حق رعاية هذا المشروع وتوجيهه¹ حيث حددت أطره ومفاهيمه وأهدافه، واستعملت "الآخر" كأداة طيبة للوصول بهذا المشروع إلى منتهاه.

لقد رصدت الولايات المتحدة من الطاقات المادية والمعرفية كما هائلا لتحقيق الهيمنة على العالم من خلال هذا الطرح، بل راحت تعالج المسألة من جذورها حيث عملت على "التبني القسري" للقيم والأحاسيس الإنسانية العالمية، وفوضت نفسها - دون وكالة - راعية لكل الشعارات الإنسانية والقيم والمبادئ، مستولية بعد ذلك على تفسيرها وتشكيلها حسب رغباتها، واصمة الآخر بأبشع النعوت التي تبرر تعسفها، واتضح ذلك في الربط الفج بين ضرورة أمن (و.م.أ) والأمن الحضاري العالمي، الأمر الذي يستدعي قيادتها للعالم، وهذا ما لخصه الخطاب السياسي من خلال مجلس أمنها القومي 1968م، حيث أعلنت: "أن الصراع بين قوى النور وقوى الظلام لا يهدد دولتنا (و.م.أ) فقط، لكن يهدد أيضا الحضارة ذاتها، والهجمة على مؤسسات العالم الحر أصبحت عالمية، وتفرض علينا - باعتراضها لمصالحنا الخاصة - مسؤولية ممارسة القيادة العالمية"².

ولأن الولايات المتحدة -العالم الجديد- لا تمتلك ذلك الزخم العريق في تكوين حضارة أو إمبراطورية كما كان الحال بالنسبة للقارة العجوز أو الشرق عموما، لذلك عملت على تجاوز هذا الإخفاق أمام "الآخر"، من خلال دراسات وبحوث طوعتها لتجاوز هذا النقص المخل، ولأنها رمز الخير، تجسد الشر في إمبراطوريتين تتوسطها إمبراطورية الخير وفق الذوق الأمريكي (طبعا إسرائيل).

كما أنها لا تقوى على إثبات الذات الثقافية و الايديولوجية إلا من خلال وجود طرف - متخلف وغير متحضر -يؤدي دور المرأة ليعكس تقدمها وعلو كعبها في شتى المجالات "بدأت الولايات المتحدة تبحث عن تنصيبه ليقوم بدور إمبراطورية الشر الثانية، فكان العالم الإسلامي، بل الإسلام نفسه، خاصة أنه يفتقد لوجود حقوق الإنسان حسب رؤيتها، مما يبرر لها الحق في التدخل الإنساني لحماية حقوق المظلومين"³.

¹ - النقيب، عبد الرحمن عبد الرحمن ، مشروع الشرق الأوسط الكبير وتدابيره السياسية والاقتصادية والتربوية المجمع السابق، ص 23.

² - المرجع السابق، ص 24.

³ - المرجع السابق، ص 26.

والإسلام تاريخا وجغرافيا، هو بالنسبة (للولايات.م.أ) ذاك الشرق الأوسط بحضارته وتراكماته، الذي حاز استقطابا روحيا عبر العصور. " أنه الشرق الأكثر قربا والأكثر ألفة، ومع أنه لم يتم فهمه بالقدر الكافي، فقد ساهم أكثر من أي منطقة في العالم، في تغذية هذا المقابل الذي من خلاله عرف الغرب نفسه لمرات عدة، وإن تم هذا التعارف بالذات عن طريق الاجتياز على الماضي أو التقابل مع المستقبل¹. فان ثبوت الشرق على الاستقطاب يقلل من نكهة الولايات المتحدة في قيادتها للعالم، بل يطعن في هذا المفهوم أصلا، وبما أنه شرق الوحي وبوصلة حضارة الروح، ووجهة عقائد إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد - عليهم السلام-، فإن الشر يغلب على كمال اسمه من حيث الرسم والحقيقة، وهو ما يوحي بتعارض بينه وبين الغرب.

لم يكتف الشرق بهذا السبق حتى أصبح يستحق أن ترد إليه أفضال ما وصل إليه الغرب، بل أبى إلا أن يحدد ملامح شرقيته بالوسطية المتوسطة " فقد خدم الشرق - وتحديد الشرق المتوسطي- الوعي الغربي، بأن قدم له أحد مراجعه، إنه مرجع متغير في لونه وشكله، ومتناقض في نعوته، ومتغير وفق الظروف، بيد أنه ثابت في وظيفته الاستقطابية"².

ومع أن "خارطة العالم المحرفة التي رسمها (جيراردوس مركاتور) عام 1569م وسعت الغرب على حساب الشرق، والشمال على حساب الجنوب، كان جيراردوس مركاتور عالما يطبق أساليب رياضية جديدة لعلم رسم الخرائط Cartography، ولكن خارطته تبدو أنها وضعت الغرب في (مركز) العالم لم تكن بالتأكيد خارجة عن المألوف في عصر التوسع الأوربي"³، فان ذلك لم يغير من حقيقة الاستقطاب ومن محورية الشرق، فلم يزد التوسع الجغرافي الغربي إلا تنوعا استقطابيا في رصيد الشرق.

"وعبر التاريخ مثل الألوان التي تخرج عبر بلورة منشورية تتغير بتحريك البلورة كان الغرب: خرافيا تاريخيا، متخيلا تمدنيا، متدينا عاطفيا، علمانيا وامبرياليا سياسيا، وكانت أوربا البذرة المحلية الغربية التي طلعت منها فروع الغرب في الكرة الأرضية"⁴.

1 - هنتش، تيبيري، الشرق الخيالي ورؤية الآخر، المرجع السابق، ص 115.

2 - المرجع السابق، ص 115.

3 - سولت، جيرمي، تفشيت الشرق الأوسط، تاريخ الاضطرابات التي يثيرها الغرب في العالم العربي، ترجمة د رجح/ نبيل صبحي الطويل، دمشق، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، 2011 ص 24.

4 - المرجع السابق، ص 23.

المبحث الخامس:

بداية تكون الشرق في الوعي الغربي

المطلب الأول: احداثيات الشرق في المخيال الغربي

المطلب الثاني: الطبعة الأخيرة، الأطر والمفاهيم

المبحث الخامس: بداية تكون الشرق في الوعي الغربي

المطلب الأول: احداثيات الشرق في المخيال الغربي

"إن الرؤية الأوربية التمركزية للتاريخ التي تعود بهذا التعارض الثقافي أو (الحضاري) إلى عصر الحروب الصليبية، بل وحتى إلى العهد الإغريقي القديم، هي إسقاط مغالط لثنائية ظهرت بعد هذا التاريخ بوقت طويل ولم يظهر هذا التعارض قبل العصر الذي أصطلح على تسميته بالعصر الوسيط"¹.

إن محاولة تأصيل شرح معرفي وحضاري تاريخيا بين الشرق الأوسط والغرب "وبعض النظر عن جميع العوائق الموروثة، أدى الخيلاء الأوربي الوسواسي (في أنهم أكثر تفوقا من الأمم الأخرى) إلى بحث مضمّن عن المزيد من المعارف حول الأمم الشرقية، كما قاد ذلك من جهة أخرى إلى بحث مثابر عن المصادر الثقافية والتراثية الأصيلة، وإلى الحاجة لأسلوب جديد لتشكيل أفكار أوربا عن العرب والإسلام"².

التعارض (المفتعل) ربطه الغرب تارة بالتخلف الذي ساد الشرق الأوسط، وتارة بسبب عقيدة الإسلام، وأخرى مردها إلى التفوق العرقي للفرد الأوربي، وعلى هذا الأساس كان من المهم أن تدرس جهودهم الفكرية تجاه العرب والمسلمين بشيء من الحذر، " لهذا السبب لا يمكن دراسة هذه التواريخ والكتابات حول العرب وحضارتهم في التاريخ دون وضعها إزاء خلفيتها الفكرية ومتطلباتها المعاصرة الهاجسية والقابضة في قعر العقل الأوربي الذي كان يسجل التاريخ العربي بطريقته الخاصة ليقدمه للقارئ الغربي كي يقبله بشيء من التعامي اللانقدي"³.

لقد أفرز هذا السلوك المتعالي أفكارا تطورت فيما بعد وبمرور الزمن إلى قواعد ثابتة ومسلمات راسخة في دينامية العقل الأوربي، كما حصل مع أحدهم الذي توصل أن "الله أمسك علوم الإبحار عن الفرس والمغول والعباسيين والصينيين والتتار والترك، حتى تسطع شمس الحق والحقيقة من غربنا لتضيء الشرق"⁴. أو ما تصوره أحد علماء الاجتماع الفرنسي (آرثر دي جو بينو) حين يعتقد أن "الجنس البشري يمثل هرما، قاعدته العريضة هي الجنس الأسود، ثم يليه

¹ - هنتش، تيبيري، الشرق الخيالي ورؤية الآخر، المرجع السابق، ص 116.

² - الدّعمي، محمد، الاستشراق، الاستجابة الثقافية الغربية للتاريخ العربي الإسلامي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1، 2006، ص 54.

³ - نفس المرجع السابق، ص 63.

⁴ - سولت، جيرمي، تفتيت الشرق الأوسط، تاريخ الاضطرابات التي يثيرها الغرب في العالم العربي، ترجمة نبيل صبحي الطويل، دمشق، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، 2011، ص 23-24.

الملونون وفقا لدرجة لونهم، وأما قمة الهرم فهي الجنس النقي الأبيض، وهو الجدير بالسيادة وقيادة العالم"¹.

رغم دعوى العلمية والانتصار لمبدأ الطبيعة في كل أبحاثهم، إلا أنهم عطلوه هذه المرة، مع أن " طبيعة العلاقة البشرية تقتضي وجود الأمم والشعوب والقبائل، لا وجود لشعب واحد وأمة واحدة، وهذا الوجود خلق ليكون هناك تلاحق في الثقافة بشتى أنواعها الفلسفية والأدبية، وفي العلوم بشتى مناحيها الطبية والفلكية والرياضية وغيرها، وهناك تجاذب في المفاهيم والأفكار"².

المطلب الثاني: الطبعة الأخيرة، الأطر والمفاهيم:

في مطلع الستينات وبداية السبعينات، حصل تطوير خطير للفكرة الاستعمارية الأساسية (فرق تسد) فبعد إشعال حروب بين الأنظمة العربية التقدمية والتقليدية في الخمسينيات وما بعدها، وبعد أن استغلت الصراعات العدائية بين القوى الوطنية والقومية واليسارية وعمقت في تلك الفترة أيضا، جاء دور الفتن الطائفية"³.

لقد اختار دعاة الطبعة الأخيرة لمشروعهم وسائل جديدة بعد أن ضعفت الاستجابة لدى المجتمعات للدوافع الكلاسيكية للحروب، وكان خيارهم مؤسس على دراسات تاريخية لعلاقة الأديان بعضها ببعض، وخلصوا إلى ضرورة اعتماد هذه العلاقة -وخاصة المراحل المتوتر منها- " كبديل فكري إيديولوجي الذي يملك جاذبية قوية توازي جاذبية الماركسية أو تتفوق عليها، وزجه في صراع الشيوعية بدلا من الفكر البورجوازي المهزوم والمأزوم، والبديل الذي يستطيع إلحاق الهزيمة بالشيوعية هو الأصولية الدينية في كل الأديان"⁴.

"منذ أن قضى المسلمون الأوائل على دولة الفرس وأنشئوا دولتهم الأولى، انقسم العالم إلى شرق مسلم وغرب مسحي، والعداء بين الشرق والغرب عداء تقليدي قديم زادته حدة الانقسام الديني، والحروب الدينية تكون عادة أقسى الحروب، لاعتقاد كل فرق بأنه ينفذ إرادة الله على الأرض ويؤدي واجبا مقدسا"⁵.

¹ - الباش، حسن ، الشرق والغرب، مركزية الحضارة ونظرية الإقصاء، مرجع سابق ص114.

² - المرجع السابق، ص 114.

³ - عبد الله، محمد يوسف، رأس الأفعى بريجينسكي وشيطنة سياسات أمريكا في الشرق الأوسط، دار الكتاب، القاهرة، ط 1، 2013م، ص 51.

⁴ - المرجع السابق، ص 51.

⁵ - أبو زيدون، وديع ، تاريخ الإمبراطورية العثمانية، من التأسيس إلى السقوط، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، ط 2، 2011م، ص 16.

إلا أنه يجب أن نثبت أن دور الدين واستثماره في الحروب لا بد وأن نقرأه في سياقه الصحيح، فتوسع طرف على آخر، وأثر ذلك على الآخر تلك القراءة تمكننا من " أن نفرق تفرقة واضحة بين الدولة الإسلامية والعقيدة الإسلامية بالنسبة لموضوع العلاقات مع المسيحية، إذ أن الدولة الإسلامية قد توسعت على حساب الأقاليم المسيحية، وقد اتخذت الدولة من السياسات ما ساعد وجودها في الأقاليم على الاستقرار، أما بالنسبة للعقيدة الإسلامية فإن الوضع مختلف، فقد كانت هذه العقيدة تتوسع بأسلوب آخر بعيدا كل البعد عن العنف والإكراه¹.

إذا كانت الحروب الكلاسيكية من اختصاص الدوائر العسكرية من حيث (النظرية والتطبيق)، فإن الحروب الحديثة المعاصرة يأتي دور العسكري فيها في آخر المراحل، والدور القيادي فيها يوكل إلى المفكرين والاستراتيجيين الذين تخصصوا في تراث وفكر وتاريخ تلك المناطق وأقدرهم على ذلك المستشرقون، الذين يوظفون الآلة العسكرية من أجل تغيير حقيقة تاريخية أو مجموعة قيم ومبادئ، أو خدمة هدف محدد.

كان الغزو العسكري هو دين الغرب ويرجع ذلك لقناعتهم أن أي أسلوب آخر لا يجدي " يوم كانت عقول المسلمين وأفكارهم ونفوسهم لا تسمح لعوامل التنصير أن تؤثر فيها، يوم كانت العواصم الإسلامية في العالم تعيش في خيرات مجد خلفه المد الإسلامي في العلم والحضارة والتقدم في مختلف مجالات المعرفة الإنسانية المادية والنظرية، بالإضافة إلى ألوان المعارف الروحية الدينية والكمالات الأخلاقية"².

ولذلك نشطت مخالب الفكر الهدام، ومعاول الفساد الروحي، ودور الرصد والاستشراق، فكانت البعثات التبشيرية، واللجان الاستشراقية والفكرية تحط رحالها في قلب الدول العربية تحت مسميات مختلفة، والتهيؤ للزحف العسكري حتى يصل أهدافه بأقل الخسائر وأيسر الطرق وأسرع الأوقات.

لقد وفر الغرب لبدلاء الجنرالات كل الوسائل الضرورية (المادية والمعنوية) من أجل القيام بمهامه على أحسن وجه، فقد أتاحوا لهم قيادة العالم بشكل أو بآخر حيث تحكّموا في مفاصل المعرفة إذ تخصص المستشرقون في مجالات الأنشطة المعرفية والتوجيهية العليا منها: التعليم الجامعي، والمؤسسة العالمية لتوجيه التعليم والتثقيف، والوظائف الاستشارية العليا للدول الغربية،

¹ - أبو سعيد، حامد غنيم ، الجبهة الإسلامية في مواجهة المخططات الصليبية، جبهة الشام وفلسطين ومصر، القاهرة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط 1، 2007م، ص 84/83.

² - الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة ، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها ، المرجع السابق، ص 21.

الفصل الثاني : حياة برنارد لويس العلمية ومنابعه الفكرية و أثره في علاقة الاستشراق بالعلمة

وتأليف وإصدار الكتب والموسوعات العلمية، وإصدار المجلات الثقافية، وعقد المؤتمرات، وإلقاء المحاضرات العلمية وعقد الندوات الدورية.

المبحث السادس:

عولمة الاستشراق والهيمنة

على مدارسه

المطلب الأول: العولمة بين الشمولية والاستجابة

المطلب الثاني: مفاهيم استشراقية مؤسسة للعولمة ودالة على

العلاقة

المبحث السادس: عولمة الاستشراق والهيمنة على مدارسه

المطلب الأول: العولمة بين الشمولية والاستجابة

مع أن الاستشراق في بدايته كان نتيجة لانبهار المجتمعات الغربية بأخلاق وتطور الأمة الإسلامية مما أدى إلى "قناعة الكنيسة بأن تتولى رعاية كل الجهود الرامية إلى تعلم العربية وفهم الدين الإسلامي، وهي الجهود التي تطورت بعد ذلك لتكون حركة الاستشراق"¹، إلا أن هذا الانبهار لم يحافظ على جوهره وهو الاعتراف للآخر، بل تفاعل مع معطيات جديدة تختلف من حيث الوسائل، وتتفق من ناحية الهدف، وإنما نركز على حركة الاستشراق المعاصر (البريطاني والأمريكي) بالتحديد لما له من دور رائد في تجسيد الفكرة، وما أتيح له من إمكانات هائلة داخل الدول الغربية وأمريكا على الخصوص، التي لم يكن فيها سبق، ولا ملامح استشراقية أمريكية المنشأ، وإنما كان عملية "تبني" للاستشراق الأوروبي وخاصة الانجليزي منه بنكهة جديدة تحمل توجهات سياسية وادبولوجية حول الشرق الأوسط تحديدا والعالم بصفة عامة.

بعد الحرب العالمية الثانية (1941-1946 م) وما أفرزته من نتائج وما فرضته من وقائع على العالم ككل والشرق الأوسط بالخصوص، مر الاستشراق بمرحلة تنظيم و تأطير لم يسبق له أن مر بها، فقد كان في بداية نشأته عبارة عن جهود فردية أغلبها تبحث عن بعض الحقائق لغرض علمي ولكن ما فتئت هذه الجهود العفوية (كما عرفها د/ محمد فتح الله الزيايدي) أن يفرض عليها التنظيم و التأطير من جهات مختلفة، لها مشاريع وأهداف إيديولوجية كانت الكنيسة واجهة لها فقط بما تقدمه هذه الأخيرة من عون مادي وغطاء روحي.

" تعتبر هذه المرحلة من أهم المراحل في تاريخ الاستشراق، ذلك أنها شهدت تحولا في مسيرة الاهتمام الغربي بالشرق، فبعد أن كان الاستشراق فيها في أحضان الكنيسة دفعا ودعما وتخطيطا، دخل الاستعمار الأوروبي بديلا للكنيسة في رعاية جهود المستشرقين والتخطيط لها"²، اقتصر دور الكنيسة بعد ذلك على التبشير، ورعاية المسيحية داخل أوربا، وترك أمر الاستعمار والحروب إلى الدوائر الفكرية الاستشراقية التي أصبحت جزءا مهما من دوائر الاستشارات التاريخية الإستراتيجية في العلاقة مع "الآخر" وخاصة إذا كان شرقا أوسطيا.

¹ - الزيايدي، محمد فتح الله، الاستشراق...، المرجع السابق، ص 25.

² - المرجع السابق، ص 28.

وبما أن ظاهرة "التبني" في حق الاستشراق الأوروبي عموماً أصبح واضحاً فقد كان الزحف نحو العالم الجديد ظاهرة تستدعي الانتباه، مما أسفر على فقدان ملامح الاستشراق الأوروبي في شخوص من رحلوا من المستشرقين إلى العالم الجديد، ومنه حدث تحول مهم جداً في حقيقة الاستشراق عموماً، لأن الأرض الجديدة تفتقر إلى العراقة في هذا التخصص، ولذلك عملت على استثمار الجهد الأوربي وتبنيه.

" لم يلاحظ نشاطه الفعلي -الاستشراق الأمريكي- إلا في فترات قريبة جداً أو بشكل مثير في القرن العشرين، بحيث صارت أهم مراكز الاستشراق و أبرز أعلامه يتخذون من أمريكا مقراً، ومن جامعتها وإمكاناتها وسيلة للحركة والفاعلية"¹. كما يجب أن نتذكر أنه في " القرن السادس عشر الميلادي ظهرت حركة الإصلاح الديني في أوروبا وعادت أفكار قديمة للظهور، وظهرت فكرة البعث اليهودي للمسيحية وهم أتباع المسيحيين الذين آمنوا بالمسيح من بني إسرائيل، والذين ناصبوا "بولس الرسول وأتباعه العداة"² ومنه ظهر ما يعرف الآن بالمذهب البروتستانتي بزعامة أحد أكبر الكهنة في الغرب وهو "مارتن لوثر"³،

هذا المذهب الذي توسع في الأرض الجديدة حيث لم يجد من يزاخمه على اكتساح فكر وعقائد غالبية سكان الأرض الجديدة، وساعده على ذلك أن معظم الوافدين من المفكرين والمستشرقين الأوربيين كانت لهم خلفية "لوثر" فتأسس المجتمع الأمريكي من بدايته على الطرح البروتستانتي الذي يعرف بتوجهاته العقائدية (المسيحية الصهيونية)⁴ .

عاد العهد القديم بأسفاره التاريخية والتنبؤية إلى السيطرة على أفكار أتباع مارتن لوثر، وهم البروتستانتي أو الأصوليون المسيحيون الذين يمثلون الأغلبية في المجتمع الأمريكي، والمذهب اللوثيري المشكل من الذوق اليهودي (الجديد) والدعم المسيحي المتطرف يرتكز على التراث الشاذ في المذهبيين، وحقيقته " إعادة تفسير النصوص الدينية بطريقة تحض بشكل مباشر على إبادة الآخر، وفي الغرب أدى هذا إلى تشكيل "ضمير ديني" يسمح بإبادة الشعوب على نحو كامل،

¹ -الزيادي، محمد فتح الله، الاستشراق...المرجع السابق المرجع، ص 101.

² - أبو زيدون، وديع، الإمبراطورية العثمانية من التأسيس إلى السقوط، المرجع السابق، ص 132.

³ (*) لوثر، مارتن 1483م قائد حركة الإصلاح في ألمانيا وأوروبا، صارع ضد البابا، رفض صكوك الغفران، والملك الحرفي، والشعب المختار: رقية العلواني، كريستيان فانسين، تحرير: منى أبو الفضل، نادية محمود مصطفى، مفهوم الآخر في اليهودية والمسيحية، دمشق، دار الفكر، ط1، 2008، ص 161/162.

⁴ (*) المسيحية الصهيونية: حركة نشأت في أمريكا الغرض منها تعضيد دولة إسرائيل، ذات طابع ديني، تبنتها عدة هيئات منها السفارة المسيحية، المرجع السابق، ص160.

ويمهد إلى حدوث المجزرة البشرية الهائلة والمتوقعة والمتمثلة في معركة " هرمجدون"¹، من أجل هذه المعركة المزعومة التي سيكون وقودها "الآخر"² وهو بالطبع (الإسلام).

ولأن الغرب لا يملك لغة الإقناع في حوارات القيم والمبادئ، " تبني دعاة المشروع الإلغاء والعنف، ولأن هذا الأخير ثبتت جاذبيته في سلوكهم، لأنه يبدو طريقاً مختصراً وسريعاً لترجمة مشاعر الغضب والاستياء إلى إجراءات فورية وإلى معالجة المرء مشاكله بنفسه والنظر إلى العدو على أنه شرير يستحق ما يناله من عواقب"³. وقد استحوذ دعاة هذا الطرح على ثقة الجهات الفاعلة في الغرب عموماً (والولايات. م.أ) خصوصاً، من إعلام ومنظمات دولية، وأنظمة دول بحكم تخصصاتهم الدقيقة، حيث استولدوا للغرب عدواً جديداً تحققت فيه جميع شروط العداء.

هذا التيار الفكري الذي يرعاه ويؤطره ويتبناه من الناحية المعرفية داخل الولايات المتحدة وخارجها المستشرقان: " برنارد لويس وصموئيل هنتغتون اللذان يعدان (الآخر) عدواً، إذ بعد سقوط الاتحاد السوفيتي أصبح يرى "الآخر" هو الإسلام، وظهر أنه لا مهرب عن الاصطدام بهذا الآخر (العدو)"⁴، وهذا التيار هو المقرب غربياً من صناع القرار.

هذا الطرح نابع من إحدى مدارس تفسير الكتاب المقدس في الفكر الغربي وهي "مدرسة التفسير التاريخي الروحي الملتزم بالنص" أي ما يقابل المذهب الظاهري في الفكر والفقهاء الإسلامي، أو حرفية النص " إذ يؤمن أصحاب المدرسة الحرفية أنه لكي يأتي المسيح ثانية لا بد أن تقوم معركة تدعى "هرمجدون" بين إسرائيل من جانب، وجميع دول العالم من الجانب الآخر، وعندما تبدو هزيمة إسرائيل في الأفق يتدخل المسيح بالقوى الطبيعية (زلازل، براكين، سيول، إلخ...) وينتصر لإسرائيل"⁵.

مع أن الحضارة الغربية تعتبر التجاوب مع النص الديني جريمة في حق مخرجات الديمقراطية والحرية الفردية وكل أوجه الحداثة، إلا أن هذه الجريمة يسقط فعل الجرم ووصفه، و تنتهي صلاحيته في حق نص الكتاب المقدس، "وهناك جماعة من المسيحيين يتبنون التفسير

¹ - (*) هرمجدون : معركة نووية يعتقد الانجليون المتهودون أنها ستقع في سهل "مجدو" بين القدس وعكا، يظهر المسيح (عليه السلام) فوقها مباشرة، وسيرفع إليه بالجسد المؤمنين به ليحكم العالم من القدس مدة ألف عام، تقوم بعدها القيامة : هشام آل قطيط، أسطورة هرمجدون والصهيونية المسيحية، دار النمير للطباعة والنشر والتوزيع ط1، 2004، ص 128.

² - كامل، مجدي، المسيحية الصهيونية، التطرف الإسلامي والسيناريو الكارثي، دمشق، دار الكتاب العربي، ط1، 2007م، ص 15.

³ - اليسوعي، توماس ميشيل، بناء ثقافة الحوار، ترجمة: ناصر محمد يحيى ضميرية، دمشق، دار الفكر، ط1، 2010م، ص 126.

⁴ - العلواني، رقية، كريستيان فانسين، تحرير: أ د، منى أبو الفضل، أ د، نادية محمود مصطفى، مفهوم الآخر في اليهودية مرجع سابق ص 155.

⁵ - المرجع السابق، ص 170.

الحرفي للكتاب المقدس عن ملك المسيح حرفيا ألف عام في فلسطين، كما أن المحافظين الجدد الذين يريدون أن يهيمنوا على العالم ينادون بالتفسير نفسه " ¹.

المطلب الثاني: مفاهيم استشراقية مؤسسة للعلومة ودالة على العلاقة:

اعتمد منظور المشروع الكوني على زعزعت مفاهيم قيمة كانت سائدة تحظى بمكانة وثقة في أوساط المجتمعات الأوربية والشرق أوسطية، فقد عملوا على تشيئ المبادئ والقيم والجرأة على العقائد والأعراف، بل بلغ بهم الأمر إلى التشكيك في المسلمات، وطرح أفكار خطيرة وجريئة لم يسبقهم أحد إليها، حتى يقضوا على كل الحواجز النفسية والأخلاقية، وحتى الوقائع التاريخية.

ولأن التاريخ هو وعاء أمين للأحداث، ولأن الغرب ومن ورائه أمريكا وإسرائيل يعيشان حالة صراع مع كل ما هو معرفي حضاري ديني، فإن دعاة هذا المشروع قد أجمعوا على الانتقام من هذا التاريخ، واتهام الأقدار التي حرمت أوروبا بغربها الجديد أن تحوز وسام الشاهد على علو كعب الإنسانية في سلم القيم والمثل العليا والعقائد، وأخرتها من الناحية التراتبية، ولذلك وجب الطعن فيه (التاريخ) وفي كل ما أفرزته فصوله منذ احتكاكه بحركية الإنسان (المادية والعقائدية والفكرية)، وتسفيه كل الأحداث والأشخاص الذين تلون التاريخ بمادتهم المعرفية وآثارهم الروحية وانجازاتهم التاريخية، ولهذه الأسباب وجب شله والإسراع بنهايته، وحرمانه من كل صلاحياته وقداسته، وإدخاله بيت الطاعة حتى يعرف ما سيحل من أحداث ومآثر.

انه التاريخ الذي سجل للإسلام والعروبة وللعقل العربي ولشعوب آسيا حضارات وشهادات تقدير فأنتجت "عالمنا عربيا يتسم بقدر من الترابط وبشكل من أشكال الوحدة يعني أنه يشكل ثقلا استراتيجيا واقتصاديا وعسكريا، وبشكل عائقا أمام الأطماع الاستعمارية الغربية"².

ومنه التزم المستشرقون - الذين تتناسب أذواق معظمهم مع هذا الطرح من خلال دراساتهم اللاهوتية والتاريخية - أن يجعلوا لهذا المتمرد "التاريخ" نهاية حسب الطلب، لا على ما تقتضيه السنن التاريخية، ولذلك ركزوا على نصيحة حولها إلى مسلمة لا تناقش مفادها: " أنه ليس للبشرية سوى طريق واحد للتقدم هو ذاته الطريق الرأسمالي، وبالتالي فإن البحث عن طريق آخر هو مضيعة للوقت، وتبديد للطاقات والثروات، هذه الرؤية التي عبر عنها "فوكوياما" تحمل بعدا

¹ - العلواني، رقية ، كريستيان فانسين، تحرير: أ د، منى أبو الفضل، أ د، نادية محمود مصطفى، مفهوم الآخر في اليهودية... المرجع السابق، ص 171.

² - الدويك، عبد الغفار عفيفي ، إسرائيل والشرق الأوسط، المرجع السابق ، ص 208.

عنصرياً، إنها تعني أن أرقى ما وصلت إليه البشرية هو التجربة الرأسمالية الغربية، وبخاصة النموذج الأمريكي¹.

عمل الغرب في هذا الطرح - وهو الذي يسمى الشرق بالعالم القديم- أنه يعمل على " تسليب " البعد الزمني للشرق الموعول في القدم، وما يكتنزه من عبق وشرف السبق، الذي يتباهون به في عالم الماديات مقارنة بتأخر العالم العربي والإسلامي في مجاله، بل لم يكتف وراح يأخذ بالأحوط في نصائحه وتهديداته، لأنه ملك زمام التاريخ ومصيره وحدد صفحته الأخيرة، وأعتبر أن كل ما محاولة لأحداث صفحة جديدة هو عدوان على حق أوربا، وانقلاب على المركزية الغربية يجيز لهم الهجوم والتعسف في حق الآخر، إذ أنه القوة الكونية القادرة على قيادة العالم والتفكير عنه - كما يخيل إليهم،- وكل محاولة من الآخر للبحث عن بديل يجب أن تفسر تبديدا لثروات البشرية، ومن حق القوة القائدة رده وإجباره بالتزام الطريق المقرر.

لقد عمل الغرب على تسليب كل ما هو ايجابي في الآخر، بحيث يرد الغرب شرور الآخر وعبوبه إلى كل ما هو " قيمي " فيه، ويؤسس ايجابيته وبراعته بمقدار تخليه عن مبادئه وقيمه وثقافته، " إن المسلمين أوغاد بطبعهم، يكرهون الآخر، ويريدون إفناء الغرب واليهود، انتقاما لعجزهم وتخلفهم، وان الدين الإسلامي جعل الجهاد فريضة على كل مسلم، وأن الجهاد يعني القضاء على غير المسلمين لأنهم كفار"².

تأهيل وتدريب العقل العربي على تقبل كل ما هو غربي بدون مناقشة من أهم أولويات المفكرين الغربيين، ولذلك دأبوا حتى على تبرير الاستبداد في المفهوم والفكر الغربي " إن كل ما يحدث للمسلمين على أنهم دمويون بطبيعة تكوينهم العقدي فكل عدوان منهم على غيرهم بحسب رأي " لويس " حرب مقدسة Holly War "³.

هذا الاكتشاف لتركيبة المجتمع الإسلامي، والوقوف على فاعلية الأصولية الدينية في جميع الأديان، ومدى قابلية وإستراتيجية الدور الطائفي والمذهبي الذي يعيش حالة ركود وخمول منذ قرون، لا يقدر على استكشافه إلا الدارسون لتاريخ تلك الطوائف والمذاهب، وهم المستشرقون في

¹ - الدويك، عبد الغفار عفيفي ، إسرائيل والشرق الأوسط، المرجع السابق، ص 212.

² - لويس، برنارد، الإسلام وأزمة العصر، حرب مقدسة وإرهاب غير مقدس، تقديم: رؤوف عباس، تعريب: أحمد هيكل، مكتبة الأسرة، 2004م، ص 15.

³ - النقيب، عبد الرحمن عبد الرحمن ، مشروع الشرق الأوسط الكبير وتداعياته السياسية والاقتصادية والتربوية، مرجع سابق، ص 29.

التاريخ وعلم الاجتماع من أمثال برنارد لويس الذي كانت له دراسات أكاديمية معمقة عن أكثر الطوائف غرابة وجدلا في التاريخ الإسلامي وهي " طائفة الإسماعيلية " الشيعية، وما أسسه على تلك الدراسة من أحكام في حق كل المذاهب الأخرى بل والإسلام، وما نلمسه اليوم من موقف دعاة العولمة من الإسلام الشيعي في الحالتين: العراقية والسورية، كما تخصص في تاريخ الإمبراطورية العثمانية، حيث أصبح مرجعا لأوروبا وأمريكا في كل ما تعلق بالمنطقة، مما جعله يتبوأ مكانة جعلت من استشاراته مشاريع قرارات وقوانين في البيت الأبيض وأروقة المنظمات العالمية.

كما يصر دعاة العولمة على فرض مشروعهم اعتمادا على ما أصدرته مراكز الاستشراق من أحكام مؤدجة تتعلق بعقائد وفكر وثقافة المسلمين ، أو تبريرهم لفرض نظامهم الرأسمالي بعد سقوط الشيوعية، وهو ملخص ما توصل إليه المستشرق " فرانسيس فوكو ياما " الفائت بنهاية التاريخ.

عمل المستشرق " فرانسيس فوكوياما " بتفان على إقناع الآخر بأن تطور الفكر البشري وصل إلى نهايته وأن أمريكا تولت " وضع السياج المعرفي الذي يجعل النظام الرأسمالي مقبولا من سائر المواطنين في الداخل أولا، قبل تعليبه وتغليفه بصفات يقال إنها (إنسانية) ثم تصديره للخارج"¹ حيث يعمد فوكوياما إلى أسلوب التخويف ويحذر من رفض الديمقراطية لأنها أرقى ما وصل إليه الفكر البشري: " إن الديمقراطية الحرة تشكل نقطة النهاية في التطور الايديولوجي للإنسانية، والصورة النهائية لنظام الحكم البشري وبالتالي فهي تمثل نهاية التاريخ "² ومع أن فوكوياما، يعتبر الإسلام خاصة، والمجتمعات المتدينة عموما هي أخطر تهديد للديمقراطية، مع ذلك فإنه يعمل على فرضها " الديمقراطية الرأسمالية " بالقوة داخل هذه المجتمعات، بل يعطي لها الشرعية في الدفاع عن نفسها حتى داخل حصون ومعازل المجتمعات المتدينة وهو ما يتنافى مع السلوك الذي تأمله الديمقراطية الحرة .

" سيكون للديمقراطية مصلحة في حماية نفسها من الأخطار الخارجية، وفي نشر الديمقراطية في الدول التي لا توجد فيها نظم ديمقراطية وستطبق الوسائل الواقعية في تعاملها مع

¹ - فوكوياما، فرانسيس ، نهاية التاريخ والرجل الأخير، ترجمة: حسن أحمد أمين، القاهرة، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ط 1993م، ص 31.

² - المرجع السابق، ص 31.

هذه الدول، وسيظل استخدام القوة الحكم النهائي في العلاقات بينها¹ فالواقعية في نظر (فوكو ياما) أن يعتقد الأفراد والمجتمعات الأفكار والمناهج بقوة الحديد والنار، لا بقوة المنطق والإقناع، وهو تصريح سياسي من شخصية علمية متخصصة في العلاقة مع الآخر، يبني عليه الساسة مواقف تحريضية، اقتصادية وسياسية وعسكرية، وهو نموذج للعلاقة القائمة بين العولمة والاستشراق.

وبما أن " أساس اختلاف الحضارات هو التاريخ واللغة والتقاليد، ولكن أهم العناصر أثرا هو "الدين" ، ولذا فالصراع بين الحضارات سيأخذ شكل صراع ديني على حسب هنتغنتون² " مع أن الاختلاف المقروء هنا ليس بمعنى "التضاد" الإقصائي، بل بمعنى التميز والخصوصية، إلا أن الغرب اعتمد وفعل المعنى الأول، الأمر الذي حرض وعجل بضرورة التحرك نحو "الآخر" برؤية عدوانية.

" إعلان فوكوباما نهاية التاريخ، هو إعلان نهاية الإنسان وانتصار الطبيعة المادة أي الموضوع (اللائساني) على الذات الإنسانية، ومعناه تحول العالم بأسره إلى كيان خاضع للقوانين الواحدية المادية (التي تجسدها الحضارة الغربية) والتي لا تفرق بين الإنسان والأشياء والحيوان، والتي تحول العالم بأسره إلى مادة استعماله"³.

فهناك مشروع واضح متكامل يتقاسمه هذان المستشرقان بدعم فكري دقيق من برنارد لويس الذي يقدم لهما الرؤية التاريخية والتبرير العلمي - حسب رأيهم - لقبول أطروحاتهم، فقد أعاد (فوكو ياما) تذكيرهم بالرؤية الماركسية والهيكلية التي مؤداها " أن التطور المطرد للمجتمعات البشرية لا يسير إلى ما لانهاية، وإنما هو محكوم بتوصل الإنسان إلى شكل محدد لمجتمعه يرضي احتياجاته الأساسية، وعندما يتوصل إليها يتوقف التطور أو يتوقف التاريخ"⁴.

صور لويس الحالة الراهنة - آنذاك- بقوله: " نحن نواجه حالا وحركة تفوق مستوى القضايا والسياسات والحكومة التي تنتجها، وهذا لا يختلف عن صدام الحضارات، وربما كان رد الفعل غير منطقي، ولكنه بالتأكيد الفعل التاريخي ضد تراثنا المسيحي - اليهودي ووجودنا الدنيوي"⁵.

¹ - فوكوياما، فرانسيس ، نهاية التاريخ والرجل الأخير، المرجع السابق، ص 244.

² - المسيري، عبد الوهاب، العلمانية والحداثة والعولمة، المرجع السابق، ص 182.

³ - المرجع السابق، ص 181.

⁴ - فوكوياما، فرانسيس، المرجع السابق، ص 16.

⁵ - لويس، برنارد ، جذور الغضب الإسلامي، مجلة الأطلنطي، العدد 266، أيلول 1990 ص 60.

الفصل الثاني : حياة برنارد لويس العلمية ومنابعه الفكرية و أثره في علاقة الاستشراق بالعولمة

وليس غريبا أن يهتم برنارد لويس بمستوى بعض الحالات السياسية و حركيتها، ويعترف في سياق تشكيكي بوحشية (ولا منطقية) الرد، ولكن الغريب أن يتعذر بتاريخية السلوك، وواجب الانتصار للقيم الروحية والوجودية، الفعل الذي ينكره في سلوك المسلمين خصوصا والآخر عموما.

الحالة والحركة اللتان تتبه إليهما (لويس) في الأصل أنهما نتيجة مجتمعية طبيعية، ولكن ما يقلق لويس كونهما خارجتان عن نطاق تحكم وسيطرة الحكومات، التي يدعي أنها كانت سببا في وجودهما بأخطائهما، أو لعدم التقيد بدفتر الشروط الحاصل بين هذه الحكومات والغرب، لأن هذه الحكومات في الواقع صنبة الغرب، وهو نموذج إضافي لتلك العلاقة بين المستشرق والسياسي الهادف إلى (حكومة العالم الخفية).

كل هذه المعطيات - وغيرها- تؤكد وبوضوح مدى العلاقة الإستراتيجية المخبرية المبيتة التي تتجاوز الحقائق التاريخية، وتتعسف في حق الآخر عقيدة وفكرا وتاريخا، بين دعاة العولمة وأكثر العاملين في الحقل الاستشراقي.

الفصل الثالث:

برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي

"المصطلحات-التحريض-التجيش- روح الاستعلاء"

المبحث الأول: إستراتيجية استخدام المصطلحات

المبحث الثاني: إستراتيجية التحريض والتجيش

المبحث الثالث: إستراتيجية الروح الاستعلانية والتمركز حول الأنا الغربي

المبحث الأول:

إستراتيجية استخدام المصطلحات

المطلب الأول: لديمقراطية حقنة إجبارية رغم انتهاء الصلاحية

المطلب الثاني: العلمانية حرب على القداسة

المطلب الثالث: الحداثة و إستراتيجية الانسلاخ القيمي

المطلب الرابع: الأصولية، المرجعية والاستخدام

المطلب الخامس: دار الحرب و دار الإسلام (بين المسيحية والإسلام)

المبحث الأول: إستراتيجية استخدام المصطلحات

المطلب الأول: الديمقراطية حقنة إجبارية رغم انتهاء الصلّاحية

دأب الغرب المسيحي- اليهودي على استباحة الفكر والثّقافة والهويّة ' العربية و الإسلامية'، ورفض كل وثبة حضارية ذات صلة بالموروث العربي الإسلامي، داعيا إلى قطيعة فوريّة معه كرمزية لاستحقاق الانتماء إلى نادي الحداثيين المتتورين، ويرفض من هذه الخلفية أي نمط من أنماط التّنظيم السّياسي والاجتماعي والاقتصادي المؤسس على الموروث العقائدي والتّاريخي عند الآخر.

بل يذهب البعض إلى تضمين الفطرة الإنسانية بعض أنماط الحضارة الغربية في بعض مخرجاتها، كما هو الشأن مع الديمقراطية الغربية التي حلت بكلّ قداسة في المفهوم الغربي محل اللّاهوت المعاصر، مع عدم وجود إجماع حقيقي في الغرب على نموذجها الأسمى.

" هناك توهم، ومن الغريب أنّه واسع الانتشار في العالم حاليا، بأنّص الديمقراطية هي الحالة الفطرية للجنس البشري وأنّ أيّ انحراف عن الديمقراطية إما أن يكون جريمة تستحق العقاب أو مرضا يحتاج إلى علاج، وكان هذا التّوهم سببا في أنّه في أجزاء كثيرة جدا في العالم، وتحديدًا في الخمسين عاما الأخيرة أو نحو ذلك، ظلّ هناك تقييد وتحويل ان جاز التّعبير، لمصطلحي (ديمقراطية) Democracy، و (ديمقراطي) Democratic، ليتوافقا مع نطاق كامل لأنظمة حكم مختلفة " ¹.

مع هذا الإقرار بوصف هذا الطّرح أنّه مجرد توهم، فإنّ الغرب وبتحريض من المؤرّخين والمستشرقين أخذ على عاتقه فرض أنماطه في الحكم والسياسة على الآخر، كما أعطى لنفسه حقّ النّفرد بخاصيّة جواز اعتماد المرجعية الدّينية كأساس للأنماط المنظّمة للحياة، وتأكيد كحق غربي لا يُنازعه أو يشاركه فيه أحد.

سمّى برنارد لويس - في سياق إخباري مقصود ومدرّوس - أي تمرد على ذلك التّوهم بـ ' الانحراف '، وهو ما يستوجب إحدى التّهمتين : ' جريمة تستحق العقاب ' أو ' مرض يحتاج إلى علاج '، وهو سياق عوّد عليه برنارد لويس قرآناه للتّدليس عليهم على حقيقة موقفه من أي قضية،

¹- لويس، برنارد، الإيمان والقوة، المرجع السابق، ص، 153.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

فهو غير مولع بتبني الآراء التي تتهم الآخر، بقدر ما يهّمه إثبات تلك التّهم بغض النّظر عن مصدرها.

ولقد أثبت برنارد لويس أكثر من مرّة الاستخفاف بالآخر على خلفية رفض الآخر للمشاريع الغربية، واستغنائها عنها بما يمتلكه من بدائل ذاتية، فقد دعا إلى ضرورة إعادة استعمار المجتمعات العربية الإسلامية لأنّها انحرفت على الخيار الغربي الديمقراطي، ومرّضة بوصف فيه احتقار حينما صوّر الآخر طفلاً مدللاً لم يرشُد بعدُ يستوجب التّعامل معه عدم الانشغال بكل تصرفاته، هذه التّوجيهات تصبُّ كلّها في نفس مُخرجات ما سمّاه ' توهُماً '، ومن المؤكّد أنّها السّنَد الفكري والعلمي لذلك التّوهم.

" أما مناصرو الديمقراطية فيقدّمون برنامجاً ولغة غير شائعين وغير مفهومين بالنّسبة إلى الكثيرين، ويعاني هؤلاء من وضع غير مؤاتٍ إضافي، فكلمة ديمقراطية وأسماء أحزاب والبرلمانات التي تعمل على تطبيقها، تلتطّخت في أعين الكثير من المسلمين بسبب الأنظمة الفاسدة وغير الكفّوة، التي استخدمت هذه الأسماء في الماضي القريب"¹.

أما عندما ترك التّوهم جانبا وبدأ بذوقه كمؤرخ في استقصاء السّلالة الفكرية والعقائدية التي انحدرت منها الديمقراطية فقد أوضح بكل جرأة - ودون أن يقدر تكاليف تلك الجرأة - أنّ " الديمقراطية الليبرالية مُنتج غربي في أصولها، وتشكّلت عبر ألف عام من تاريخ أوربا، وفوق ذلك التّراث الأوربي المزوج: الدّيانة والأخلاق اليهودية- المسيحية، وفنّ الحكم والقانون الإغريقي - الرّوماني، ولم ينشأ أي نظام كهذا في أي تقليد ثقافي آخر، وعلينا أن ننتظر لئرى ما إذا كان يمكن لنظام كهذا، تم ازديادُه ومُواءمته في ثقافة أخرى أن يبقى"².

وبالنّظر إلى ما أقرّه برنارد لويس من حقيقة الدّوق الذي تشكّلت منه الديمقراطية الغربية ' التّاريخ الأوربي المزوج للدّينتين اليهودية والمسيحية وأخلاقهما '، ومدّة التّشكّل (ألف عام)، فإنّ هذه المعلومة تقضي على حقيقة تسويق الطّرح الغربي للديمقراطية في العالم العربي والإسلامي، الذي يصير على إبعاد كل ما له علاقة بالألهوت في موضوع الحكم والسياسة من حيث المصدرية، ويحدّر بكل قوّة السياسيّين والمفكرين الدّاعين إلى هكذا تجربة.

ومع أنّها مُنتج غربي في أصولها وتشكّلها، إلا أنّ هذا لم يجعلها مقنعة - كما يروّج لها الغرب عند الآخر - حتى مع من يُقاسمها التاريخ والتّراث بل الدّيانة نفسها.

¹- لويس، برنارد، لغة السياسة في الإسلام، المرجع السابق، ص 29.

²- لويس، برنارد، الإيمان والقوّة، المرجع السابق، ص 84.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

" إنَّ عولمة القيم الديمقراطية، أي تعميمها على مختلف شعوب الأرض، يفترض مسبقاً الانضمام القاطع وغير المشروط لهذه الشعوب إلى الفلسفة الحديثة، كما يفترض تجسيد هذه الفلسفة عملياً في قانون دولي مناسب وفي هيئة تنفيذية عُليا لا اعتراض عليها، هذا هو الشرط الأساسي لتعميم القيم الديمقراطية الهادفة إلى تحرير الوضع البشري في جميع أبعاده، وفي كل الدول وليس فقط في أوروبا أو الغرب " ¹.

وبالعودة إلى سياق التّوهم، يرفض برنارد لويس شكلاً آخر من مُخرجات ذاك التّوهم الذي مضمونه تفرد الديمقراطية وأحقّيتها دون سائر النُّظم الأخرى بالتّطبيق على المجتمعات، وهو رفض يُدينه ويحمّله المسؤولية التاريخية أمام الآخر، لأنّه من النّاحية الفعلية، ومن خلال استشاراته السياسية ونشاطه الفكري والإعلامي كرّس مخرجات توهم ثان.

" وكنت قد تحدّثت عن التّوهم بأنّ الديمقراطية هي الحالة البشرية الفطريّة، وهناك توهم ثانٍ أودّ أن ألفت إليه: التّوهم بأنّ جميع الأشكال غير الديمقراطية للحكم، وجميع أشكال الحكم بخلاف الديمقراطية ذات الطّابع الغربي، متشابهة وسيّئة، وهذا غير صحيح تماماً، فيما يتعلق بكلّتا المسألتين " ².

يكيل برنارد لويس بمكيالين في آن واحد في حقّ الديمقراطية، فهي غير قاضية ولا حاكمة بفساد الأنظمة التي تُخالفها، ما دامت هذه الأنظمة غير الديمقراطية غريبة الطّابع، مما يسمح لها بعقوق الطّرح الديمقراطي ورفض تردّداته السياسية والاجتماعية والاقتصادية، مع الوضع في الحسبان وحدة التّراث التّاريخي والتّوجّهات العفائية بين مصطلح الديمقراطية و الأنظمة الأوربية المارقة عن الدّوق الديمقراطي.

أما إذا تعلّق الأمر بتفعيل الديمقراطيّة في الأنظمة الشّرق أوسطية، فهذا غير صحيح كذلك، ولكن ليس تماماً كسابقه، " فهناك تنوّع هائل بين الأشكال المختلفة للحكم التي ازدهرت في الماضي والقائمة حالياً في أجزاء مختلفة من الشّرق الأوسط، وفي أماكن أخرى كثيرة من العالم، وجميعها ليس سيّئاً أو ضارّاً بأيّة حال، برغم الصّعوبات المتزايدة لتأكيد الفرضية في الوقت الحالي " ³.

¹ - أركون، محمد، قضايا في نقد العقل الديني، المرجع السابق، ص 158.

² - لويس، برنارد، الإيمان والقوّة، المرجع السابق، ص 156.

³ - المرجع السابق، ص 156.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

ومع كون هذه الأشكال المختلفة للحكم في الشرق الأوسط الذي يمثل العروبة والإسلام في عمومها، وأماكن أخرى – غير أوربية – جميعها من المنظور الغربي ليس سيئا من الناحية الشكلية، ولا ضارا من الناحية الفعلية، فإن هناك حاجة ماسة لاستدعاء الديمقراطية، أو حتى فرضها بالقوة في هذه المجتمعات.

وأعجب ما قاله برنارد لويس عن سلوك وموقف الديمقراطيين في العالم العربي والإسلامي، وعلاقتهم بالحركات الإسلامية، حيث صورهم أئمة ونماذج في ممارسة الديمقراطية.

" وفي الصراع بين الديمقراطية والأصولية على السلطة في الدول الإسلامية، يعاني الديمقراطيون من وضع غير مؤات خطير جداً؛ فالديمقراطيون – لإيمانهم بالديمقراطية – مضطرون لمنح الأصوليين فرصة مساوية لتلك التي يملكونها هم للدعاية لأفكارهم وللتنافس على السلطة " ¹.

في تقدير برنارد لويس، توجد صعوبات وعوائق أمام إمكانية تأكيد هذه الفرضية وحصول القناعة بذلك في المفهوم الغربي، مع الأخذ في الاعتبار الفروق الجوهرية بين الميراث الذي تأسست عليه الديمقراطية، وهوية وتراث وعقائد شعوب الشرق الأوسط، وأما ما كان بين الميراثين من احتكاكات مؤلمة عبر التاريخ فهذا غير مهم ولا يمنع – من الناحية العملية أو العلمية – من التمكن للديمقراطية في ربوع تلك المجتمعات.

وأعجب من ذلك كله أن يُثبت تعاون الأنظمة العربية مع الحركات الإسلامية – التي أقر برنارد لويس أنها العدو الأول لهذه الأنظمة إذا كانت الانتخابات ديمقراطية فعلا، ويصور هذا التعاون في مسرحية إلغاء التنظيمات الأخرى لفسح المجال أمام الإسلاميين.

مع أن الواقع العربي أثبت عكس ما يقوله برنارد لويس تماما، فقد تأمرت الأنظمة العربية مع الفئات السياسية الديمقراطية ذات الصلة بالدوائر الغربية لإلغاء الاختيارات الشعبية تحت ذريعة حماية الديمقراطية 'المنتج الغربي' في أكثر من دولة عربية بقوة الحديد والنار.

" وتساعد الحكومات المتسلطة معارضيها الأصوليين عندما تُلغي الآخرين المنافسين لهؤلاء 'كالسياسيين الليبراليين الديمقراطيين' " ².

¹ – لويس، برنارد، الإيمان والقوة، المرجع السابق، ص 35.

² – المرجع السابق، ص 29.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

أو لضرورة التبعيّة التي يستوجبها الاستعلاء الغربي، لأنّ السوء أو الضّرر الموجبان لرفض تلك الأنماط من أنظمة الحكم، ليسا بالضرورة ما تفرزه تلك الأنماط من نتائج على حياة مجتمعاتها، بل يكفيها سوء وضررا أنّها لم تستأذن الغرب، وزاحمته في حكم تلك المجتمعات.

من عيوبه العلمية أنه لا يستثمر النتائج الصحيحة ويبني عليها موقفه من الحادثة، بل يكتفي بذكرها فقط ويلجأ إلى تكهّنات وأوهام فيطيل الحديث في تحليلها وتتبع أبعادها، فهو يقرّ بأنّه " قد تمّ تجربة هذه الأشكال المميّزة للديمقراطية في أجزاء أخرى، ولكن، فلنكن صادقين بهذا الشأن، فحتّى إذا نظرنا إلى أوروبا التي تفخر بكونها في طليعة التطور الديمقراطي، فالسجل مختلف ألوانه على أقلّ تقدير " ¹.

برنارد لويس لا يعمل على تفعيل هذه النتائج الصحيحة والصادقة – كما أقرّ بذلك – في الوسط الفكري والسياسي الغربي من أجل إحداث توازن طبيعي ومنطقي في العلاقة مع الآخر، بل يقوم بتغريب هذه النتائج الصحيحة في كمّ هائل من التّحليلات والاحتمالات، وتعويم النقاش وتحويله عن هدفه الأساسي.

" وهناك كثيرون ممن يزعمون أنّ قضيتهم الوحيدة – دينهم، طائفتهم، حزبهم، أيديولوجيتهم – هي الديمقراطية الحقيقية فقط، وكل ما عداها كاذب، ومن المؤكّد أنّ كل هذه المزاعم صحيحة بشرط قبول المرء لتعريف من يدعي الديمقراطية، وأنا لا أقبل ذلك، ولذا فمثل هذه المزاعم لا صلة لها بمناقشتي الحالية " ².

والمقصود بهذا الزعم هم الشّرق أوسطيين لا غير، الذين يراد منهم التّسبيح بحمد الديمقراطية حتّى لو خالفوا دينهم وتتكروا لطوائفهم وسمحوا أن تسعّر بها حروب بينيّة تذهب ريحهم وتفشل عزيמתهم، مع أنّ تفسير الديمقراطية بهذه المعاني هو في حدّ ذاته زعم مفترى، فقد تعمّد برنارد لويس ذكره في هذا السّياق دون وجود ضرورة إلى ذكره كون الاعتبارات التي يدعّم بها موقف الديمقراطية الغربية غير كافية.

" وإذا ما اعتبرنا استمرار المؤسسات الديمقراطية في العمل بسلاسة ودون توقّف طوال المائة عام الأخيرة وحتّى الآن، على أنّه بمثابة اختبار للديمقراطية، وأن كافيّة الاحتمالات قائمة

¹ – المرجع السابق، ص154.

² – المرجع السابق، ص 133.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

لاستمرارها في العمل بسلاسة مستقبلا، دعونا إذا نتساءل: كم عدد دول أوروبا القارية التي يمكننا أن نقول عنها ذلك؟ من المتوقع أن تكون القائمة قصيرة¹.

الحكم بقصر القائمة دليل إدانة لتصرف الغرب، وانتهاكه لخصوصيات الآخر، وعجزه عن تقديم مفهوم ناضج للديمقراطية ونموذج واقعي قادر على استيعاب كل المجتمعات الغربية، كما يفضح الموقف السلبي لدعاة الديمقراطية من المؤرخين والمفكرين الغربيين تجاه الرّفص المجتمعي الغربي لها من بعض الدول الأوروبية، وتمرير موقفها في صمت، بلا تعنيف ولا اتهام بالرجعية والبربرية ورفض الحضارة الغربية.

ولتسويق هذا المشروع بين المجتمع الدولي، هيا له لويس شعارا برّاقا تتغنّى به المنظّمات العالمية الحقوقية والقانونية والطّبقة السياسية، و يمّون من المنظّمات الاقتصادية، وتتحرّك من أجل نُصرتة الأحلاف العسكرية، وتسقط قداسة الأديان إذا تعارضت مع تطبيقاته، هذا الشّعار يتلخّص في مهمّة هي: (تدريب شعوب المنطقة على الحياة الديمقراطية).

ومن المؤسف أنّ رأي لويس في العرب والمسلمين يتنافى مع جوهر هذه المهمّة، فالتدريب المُعلن عنه يشترط لنجاحه وجود قابلية عند الطّرف المُدرّب، وقد سبق لويس أن أعلن بأنّ: (العرب والمسلمون.... لا يمكن تحضّهم..)، باعتبار أنّ الديمقراطية من أهم أوجه التحضّر عند لويس.

من هنا، يظهر استحالة الجمع بين المقولتين وإسنادهما إلى مصدر واحد، وضرورة تكذيب أو ردّ إحداهما.

ولكن بالعودة إلى التاريخ بحثا عن سند نستصعبه، واجهنا سؤال محرج لعقولنا هو: كيف نصل إلى تعليم وتعلّم الديمقراطية بوسيلة غير ديمقراطية؟ وهي فرض السيادة بالقوّة، ولن تكتمل السيادة إذا ألغيت الحرّيات، وصُودرت الحقوق الفردية والجماعية، وتمركزت القرارات، وغاب الحوار بين السيّد والمسود.

إنّ مناخ الوضع تحت السيادة ذوق استعماري يتنافى مع جوهر مشروع تأسيس الديمقراطية، بل المنطق يفرض أنّه الشرارة الأولى للمواجهة، ولم يحدثنا التاريخ – ولويس أستاذ فذّ فيه- أنّ حالة بشرية كهذه أنتجت فضاءً ديمقراطيا، وحياة حرّة .

¹ - لويس، برنارد، الإيمان والقوّة، المرجع السّابق، ص 154.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

بعد كل ما أباحه مشروع دقرطت المجتمعات الشرق أوسطية لبعض المؤرخين والمفكرين الغربيين من تعسف في حق الآخر، وبكل بساطة غير مبالية بالمجازر المعرفية والثقافية والعقائدية التي ترتبت على فرض الديمقراطية في العالم العربي والإسلامي، ها هو برنارد لويس يفوض نفسه ويؤهلها لمهمة تحديد التعريف المثالي للديمقراطية، ولا يزعم حق تأليفه وتحديده، ويتغافل عن إمكانية تأسيس واستبقاء تلك الأنظمة التي وصفها بأنها غير سيئة ولا ضارة، دون أن يقدم المبرر لضرورة فرض الديمقراطية.

" لقد أصبح استخدام المصطلح أكثر تقييداً نوعاً ما في هذه الآونة، وأعتقد أن أفضل تعريف يمكنني تقديمه لكم هو تعريف لا يستند إلى العلوم السياسية أو التاريخ، وهو التعريف الذي قدمه (سام هنتغتون-Sam Huntington)، الذي اشتهر بكتابه (صدام الحضارات Clash Of Civilization)، ودون أن أُلزم نفسي بالحديث في ذلك الموضوع، يعجبني حقاً تعريفه للديمقراطية " ¹ .

يتخلّى المؤرخ الفذ عن السلوك العلمي الأكاديمي، ويتحرر من الضوابط العلمية في تحديد مفهوم وتعريف الديمقراطية، ويسئط مصطلحا مثيراً للجدل من سياقه وحاضنته العلمية (العلوم السياسية والتاريخ)، ليؤطره تحت ضغط أيديولوجي لصاحب التعريف (سام هنتغتون-Sam Huntington)، ربيب المؤرخ إيديولوجيا، الذي اختطف منه في وضح النهار مفهوم عنوان الكتاب ' صدام الحضارات ' الذي هو قناعة برنارد لويس، ممّا جعله يغلق النقاش في هذا الموضوع بقوله : " ودون أن أُلزم نفسي بالحديث في ذلك الموضوع ' ويتبني توصيفا يبدو مغايراً بعض الشيء لـ ' الجدل الكبير ' عند الحديث عن صدام الحضارات وهو مصطلح زميله الانجليزي ' جيبون-Gibbon ' .

" يقول هنتغتون: أنه بإمكانك تسمية بلد ما بأنه ديمقراطي متى قام بتغيير حكومته مرتين عن طريق الانتخابات، وهذا تعريف كاف تماماً " ² .

بهذا الشرط التبسيطي لحقيقة الديمقراطية – التي استباحوا من أجلها كل مقدّسات الآخر – وإسقاطهم لكثير من مكونات التعريفات التي روجوها في العالم العربي والإسلامي، فإن الغرب –

¹- لويس، برنارد، الإيمان والقوة، المرجع السابق، ص 153/154.

²- المرجع السابق، ص 154.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

وفق هذا التعريف – قد أجرم في حق كثير من الأنظمة الشرقي أوسطية، لأن هذه الأخيرة تحقق فيها شرط هنتنغتون حتى توصف بـ ' الديمقراطية ' وهو إمكانية تغيير الحكومات مرتين.

ما يرفضه دعاة الديمقراطية في الغرب أن تكون مستندة على المرجعية الدينية – غير المسيحية أو اليهودية – وهو الطرح الذي يروجه هؤلاء في المجتمعات والجغرافيا العربية والإسلامية، أما خارج هذا الحيز المجتمعي الجغرافي، فأى نظام سياسي أو ديني يمكن أن يتأخر مع الديمقراطية الغربية، وبفلت من لعنة العقوبة التي توجه للشرق أوسطيين، حتى وإن لم يتم اختبار هذه الديمقراطيات البريئة.

" ويوجد الآن عدد كبير من الديمقراطيات في أوروبا وأماكن أخرى، ذات أسماء مختلفة، وتتطور بطرق مختلفة، وقليل منها الذي تمّ اختباره حقاً وقت الشدة حتى الآن " ¹ .

يعتمد برنارد لويس سرعة إصدار الأحكام إذا تعلّق الأمر بأعداء الديمقراطية كما سبق ذكره، أمّا إذا تعلّق الأمر بالأنظمة التي استجابت – عن غير قناعة – للديمقراطية، فإنّ الحالة تستحق التدقيق والتبصر.

" وبدأ تأثير التحديث بادئ الأمر، على أنه باتجاه ديمقراطية أكبر، وقام حكّام الشرق الأوسط في مصر ، وتركيا وإيران في وقت لاحق بإنشاء البرلمانات، وأجروا الانتخابات، وأنشؤوا الهيئات التشريعية، ونقلوا السلطة إلى البلديات والمجالس، وهلمّ جرّ " ² ، وهي إجراءات شكلية، استرضائية للغرب، تتجاوز اشتراطات هنتنغتون، بل قد تكون واقية لمن سمحوا بها من أي اتهام بمعاداة الديمقراطية، ومدلّسة على أية رقابة ومتابعة.

" إنّه يمكن للمرء – للوهلة الأولى – القول بأنّ إصلاحات القرن التاسع عشر أنت بقدر أكبر من الديمقراطية، أو تحرك باتجاه الدقطة على أيّ حال، ولسوء الحظّ، فقد حدث العكس تماماً، وكان للآلية الجديدة، والجهاز الحكومي الجديد، ووسائل الاتصال، وحالة الحرب، وغيرها ممّا أتى به القرن التاسع عشر تأثيران رئيسيان : وكان أحدهما إلغاء القوى الوسيطة ' تأميم العلماء '... والثاني: ' توطيد دعائم السلطة السيادية بشكل كبير ' ³ .

¹ - لويس، برنارد، الإيمان والقوة، المرجع السابق ، ص 154.

² - المرجع السابق، ص 161.

³ - المرجع السابق، ص: 161.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

إنها ضريبة المشاريع القسرية، التي تتغول على الخصوصيات وترفض الانسجام أو التناغم معها، وتمتد أبعادها إلى مجالات أوسع من مجرد ' تغيير الحكومة مرتين عن طريق الانتخابات ' ، لتبعث بتبعات أخرى إلى مجالات عملية أوسع مما حدده دعاة الدقراطية.

" لم يكن التحديث في السياسة بأفضل حال ، بل ربّما كان أسوأ منه في أساليب الحرب وفي الاقتصاد ، فقد جرّبت كثير من البلدان الإسلامية نوعا آخر من المؤسسات الديمقراطية التي أدخلها في بعض هذه البلدان إصلاحيون مجدّدون من أهل البلاد كما هو الحال في تركيا وإيران، وأنشأها في بعضها الآخر الامبرياليون المغادرون ثم خلفوها وراءهم ، كما هو الحال في عدد من البلدان العربية ، وباستثناء تركيا، فإن السّجل حافل بالفشل " ¹ .

التوقف عند مجرد الاعتراف بالفشل موقف منقوص من النّاحية العلمية والمسؤولية تجاه الآخر، لأنّ الفشل لم يقتصر على الجانب النظري فقط، بل توغّل وبتحدّة في الإجراءات العملية مما يتطلّب بالمقابل إجراء عملياً يصحّ هذا التّوغل والتّغول، وذلك بالتراجع مؤسساتيا خطوات مهمّة على المستوى النظري والعملي عن إلزامية الطّبعة الديمقراطية بالطرح الغربي المؤدّج.

" فالأصوليون حينما يتكلمون في بلادهم، لا يدعون أي التزام بالخيار الديمقراطي، ويوضحون أنّهم لدى وصولهم إلى السّلطة، لن يكونوا مستعدين تحت أيّ ظرف من الظروف للعودة أدرجهم على الطّريق التي أوصلتهم إلى السّلطة " ² .

المطلب الثاني: العلمانية حرب على القداسة:

" إذا كانت فكرة فصل الدّين عن السّياسة جديدة نسبيا- إذ ترجع إلى ما قبل ثلاثمائة عام فحسب - فإنّ فكرة كونها متمايزين ترقى إلى بدايات المسيحيّة تقريبا، فقد أمر المسيحيون في كتابهم المقدّس أن أعط ما لقيصر لقيصر، وما لله لله " ³ .

لا يطرح الغرب مقارنة صحيحة مع الشّرق الأوسط في عرضه للعلمانية، كمنهج حياة واختيار سياسي، إذ يهمل المفكّرون والمستشرقون الغربيون معطيات علمية مهمّة جدّا يفرضها التّسق التّاريخي والمبّرر الواقعي الذي أحوجهم إلى العلمانية.

¹ - لويس، برنارد، الإيمان والقوة، المرجع السابق، ص 137.

² - لويس، برنارد ، لغة السياسة في الإسلام، المرجع السابق، ص 37.

³ - لويس، برنارد ، ادوارد سعيد، الإسلام الأصولي في وسائل الإعلام الغربية من وجهة نظر أمريكية، المرجع السابق، ص 09.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

لقد كانت " العلمانية في العالم المسيحي تمثل محاولة لفضّ النزاع الطويل والمدمر بين الكنيسة والدولة، وكان انفصالهما- الذي أخذت به الثورتان الأمريكية والفرنسية وبدأ تطبيقه في أماكن أخرى بعد ذلك - يهدف إلى الحيلولة دون أمرين: الأول ، هو استغلال الدولة للدّين في تدعيم سلطتها، و كما بيّنت التجارب التاريخية للأمم والشعوب (والمقصود هنا الغرب) و توسيع نطاقها، والثاني، هو استخدام رجال الدّين للدولة في فرض تعاليمهم وقواعدهم"¹.

إذ لا علاقة للعلمانية من حيث المبدأ، بتقدّم الشعوب أو تأخرها، فهي مجرد مسكّنات جُربت في نزاع خاص ومحدّد من حيث طبيعته المجتمع، وأطره السياسي والدينية التي مثّلت هذا النزاع، الذي هو أساس قبول الطرفين لهذا الطّرح.

" لقد تشكّلت مقاومات من مؤسّسة الكنيسة، كانت تسعى من أجل الحفاظ على الله (بالتعبير المسيحي طبعاً)، باعتباره مبدأ المبادئ، وتكافح ضدّ العقل واللّوغوس، إلا أن الطّابع الحجاجي والدّفاع، والاحتكام إلى الإلغاء الجسمي للمفكرين المناهضين من دون اقتحام الحياة والتّشريع لها، أو هو بعبارة أبلغ: تخلّي المسيحية عن تدبير شؤون الحياة، هو من أسهم في تعالي أصوات العلمنة وهيمنتها المتتالية على الحياة، أو بتحليل منهجي: آخر تغريب للمسيحية، وإفراغها من مضامينها الرّوحية"².

" وفي القرن التّاسع عشر، ظهر " نيتشه " : ابن داروين، وشقيق بسمارك، (على حد قول جون ديوي) الذي أنجز للفلسفة الغربية ما عجز عنه السّابقون ، والذي طوّر رؤية معرفية علمانية امبريالية لا ينقصها سوى الجيوش والدّبابات"³.

استندت بعض النّظريات الفلسفية الغربية في سياق تسفيه دور الكنيسة المسيحية من أجل التّبرير للتّحوّل المنشود نحو عصر الأنوار، والثّار للتّعسف الذي تعرّض له العقل في العصور الوسطى الأوربيّة، على اجتياح المقدّس والجراة عليه فقد " أسس ' نيتشه' انطلاقا من كثير من المقولات الكامنة العدسيّة للرؤية المادّية، وأطلق عبارته الشّهيرة : " لقد مات الإله "، ثم بذل قصارى جهده في أن يطهّر العالم من أي ظلال سيكون قد تركه الإله على الأرض بعد موته"⁴.

¹- لويس، برنارد ، أين الخطأ ، التأثير الغربي واستجابة المسلمين ، المرجع السابق، ص 178.

²- بلعقروز، عبد الرزاق ، قوّة القداسة: تصدع الدنيوية واستعادة الديني لدوره، منتدى المعارف، بيروت، ط 1، 2014، ص206.

³- المسيري، عبد الوهاب ، فيلسوف العلمانية الأكبر، مجلة أوراق فلسفية، العدد 1، 2000، ص 97.

⁴- المرجع السابق، ص97.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

" هذه المنظومة من المشكلات الناتجة عن العلاقات بين هاتين المؤسستين، والحلول الممكنة لهذه المشكلات، انبثقت من المبادئ والخبرات المسيحية، ولكن لم يكن ذلك على المستوى العالمي، إذ أن هناك عقائد دينية أخرى توجد فيها السياسة والدين بشكل مغاير عما كان في المسيحية"¹.

إنّ تحرير هذا المصطلح من السياق التاريخي لظهوره، والبيئة الفكرية والدينية التي طرحته، وإخراجه من الخصوصية المجتمعية والعقائدية التي تبنت ميلاده، ومحاولة تعميمه وأنسنته بطرق مختلفة، وطرحه كأسلوب حياة حيث لا يتطلب الأمر استدعاءه، لغياب المبررات الواقعية الدافعة لذلك، يفسّر ذلك كله على أنه تعسف فكري وأخلاقي غربي مفضوح.

" وبما أنّهما اثنتان فمن الممكن إتحداهما وانفصالهما، خضوع إحداها للأخرى أو استقلالها عنها، وربما احتدمت الصراعات بينهما حول قضايا تعيين حدود ونطاق سلطات كل منهما "².

يريد برنارد أن يوصل إلى التمايز القديم بين الدين والسياسة مما يجعل تدخلهما من حيث الممارسة مُستهجن من الناحية العلمية والعملية، وبهذا التعليل يهدف إلى قطع الطريق أمام الحركات الإسلامية الطامحة إلى تجربة توافقية بين الدين والسياسة في نموذج حكومات ودول، وتقديم المبرر للحكومات المعادية لهذا المشروع وللتصدي له من خلفية تاريخية وعلمية بكلّ الوسائل المتاحة.

" بينما يفتتح كتاب العهد القديم، منذ السطر الأول في سفر التكوين، على عالم الظواهر المادية، ويفتح كتاب العهد الجديد في إنجيل يوحنا على عملية التجسيد، يفتح القرآن على الجانب العقلي، اقرأ باسم ربك..."³ فإذا كانت العلمنة هي استرضاء لشغف العقل ومباحثه، فقد كان كتاب الإسلام في توافق تام مع ذلك الشغف، مع ما يعرفه العقل من تشريف وتكريم تؤكد النصوص القرآنية، بالإضافة إلى فهم علماء الإسلام لهذه الحقيقة الشرعية وثباتهم عليها علما وعملا.

¹ - لويس، برنارد و إدوارد سعيد، الإسلام الأصولي، المرجع السابق، ص 10

² - المرجع السابق، ص 10.

³ - بن نبي، مالك ، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، المرجع السابق، ص 32.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

" لقد حاولت المسيحية مقاومة العلمنة، ولكنها أخفقت، ومكّمت الخطورة أنّها عندما أخفقت في احتواء تيار العلمنة، بدأ رجال الدين المؤثرين من أصحاب الاتجاه التّحديثي (Moderniste) يستجئون المسيحيين للانضمام إلى هذا التيار"¹.

التزاما بما أقر به برنارد لويس بعدم التعسف في حق مصطلحين متميّزين، فإنّه من الواقعية أن لا تُعمّم تجربة فاشلة للتوافق بين السياسة والدين، وتعتمد نتائجها كسبب نهائي في فشل أي تجربة أخرى، هذا إذا افترضنا المحاولة مع نفس العقيدة، فمن باب أولى أن لا تصلح تلك النتائج مانعا لمشروع جديد لاتّحاد السياسة ونجاحها مع دين آخر..

التوجهات التاريخية والاستشراقية الغربية لا تلتزم في دراساتنا نحو الآخر بالتقيد بنفس الضوابط والمعطيات العلمية التي تفرض الأمانة العلمية وضعها في الاعتبار " إنّها تنقل هذه الوقائع بنفس اللغة الباردة، الجافة، المفرغة من أيّة ثقافة أو معرفة حقيقية بالمجتمعات الإسلامية، عربية كانت أم غير عربية، إنّهم لا يُموضعون الأمور ضمن سياقها التاريخي لكي تُفهم على حقيقتها، ولذا فإنّ الرّأي العام الأوربي والغربي يستنتج أنّ الإسلام دين عنف بشكل محض، وأنّ المسلمين متوحّشون بطبيعتهم، وهنا تكمن خطورة وسائل الإعلام والطابع الاختزالي السريع لما تقوله أو تنقله للناس، إنّها تساهم في تشويه الصورة بدلا من تصحيحها"².

أمّا التّبريرات التي قدّمها برنارد لويس للإقناع بحتمية التّعلمن، فهي غير مقنعة على أقلّ تقدير، ويكذبها الواقع الاجتماعي والسياسي الأوربي الذي يؤكّد دعم الديني للسياسي الأيديولوجي، وحضور الذوق الديني في أغلب مشاريع السياسي الاقتصادية والعسكرية، بل هي تبريرات لزعزعة المقدّس من حياة وواقع المسلمين، واستباحته تحت وطأة المادّية والغائية.

" النّهضة الحضارية لمجتمع من المجتمعات مرهون بأمرين : الفصل بين المقدّس والديني من جهة، ثم الانتصار للديني والعقل الإنساني من جهة أخرى، وتقليص دور حدود المقدّس في حياة المجتمع وفي معتقداته"³.

¹ - العطاس، سيد محمد ، مداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية، تر : محمد طاهر الميساوي، كوالا لامبور، ماليزيا، دار الفجر، عمان : دار النفائس، 2000، ص49.

² - أركون، محمد ، نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية، دار الساقى، بيروت، ط 2، 2012، ص 118.

³ - وطفة، علي أسعد ، البنية الرمزية والأسطورة للمقدس : حضور المقدس وانحساره في الثقافة العربية المعاصرة، اضاءات، المجلة العربية لعلم الاجتماع، العدد 08، خريف 2009، ص 51.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

" لقد منح الإسلام الرّاحة والطّمأنينة لملايين لا تُحصى من الرّجال والنّساء، فقد أعطى كرامة ومعنى للحياة التي كانت رتيبة، تعيسة، وبائسة، كما أنّه علّم شعوبا من عروق مختلفة أن يعيشوا حياة أخويّة " ¹.

" كما أنّه ألهم حضارة عظيمة عاش فيها المسلمون وغيرهم معًا حياة خلّاقة ومفيدة، وهذه الحضارة أغنت العالم بأسره بما حقّفته من إنجازات " ².

قدّم برنارد لويس صورة متكاملة لمظاهرٍ تتحكّم فيها السّياسة بنصيب أوفر من الدّين، وحتّى وإن كان الدّافع إليها دينيا، فإنّ النّاطم والمراقب والقائم على انسجامها في الواقع، والمتنبّع لتردّداتها، والفاعل في استثمارها هو السّياسي بالدرجة الأولى، لأنّه هو المسؤول أمام رعيته وأمام الدّول المجاورة، وهذه واحدة من التّجارب التي تثبت أنّ تجربة الكنيسة مع السّياسة هي تجربة منعزلة تتوقّف نتائجها على الحيّز الجغرافي والزّماني والعقائدي الذي حدثت فيه ولا تتعدّاه إلى تجارب أخرى.

" وإذا تخلّصت النّفافة الأوربية من الحقائق الدّينية التّجاوزية تعلّمت واتّخذت من الطّبيعة أساسا لها، إنّها بالطبع إرث يوناني، لكنّها تدرج في مساحة هندسية لا متناهية ولم تعدّ (كما عند أرسطو) غائيّة ونوعيّة " ³.

إن الإشكالية الحقيقية للغرب مع ذاته تتلخّص في عداوته للمقدّس الذي له بعد ديني لاهوتي، يرتبط المؤمنون به روحيا، متجاوزون من خلاله عالم المادّيات الذي هو عين الحقيقة في الطّرح الغربي، وهذا انسجاما مع تغليب عالم الشّهادة على عالم الغيب حتّى في معتقداتهم.

" ولكن ذلك لا ينطبق على الدّين فقط، فالجمهوريات العلمانية الحديثة (كالجمهورية الفرنسية مثلا) لها أيضا حكاياتها التأسيسية التي تخلع المشروعية عليها (هي هنا الثورة الفرنسية بدلا من الوحي المسيحي بالنسبة إلى النّظام القديم). نعم، إن للجمهورية رموزها السّياسية المقدّسة وذاكرتها الوطنية التي شكّلتها كتب التاريخ ورسّختها في أذهان التّلاميذ منذ المرحلة الابتدائية " ⁴.

¹ - لويس، برنارد و إدوارد سعيد، الإسلام الأصولي، المرجع السابق ص10.

² - المرجع السابق، ص10.

³ - روس، جاكلين ، مغامرة الفكر الأوربي، قصة الأفكار الغربية، تر: أمل ديبو، مراجعة: زهيدة درويش، أبو ظبي : دار كلمة، 2011م، ص22.

⁴ - أركون، محمد ، قضايا في نقد العقل الديني، المرجع السابق، ص165.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

بل إنَّ الغرب نفسه استخدم المقدَّس لفرض واقع سياسي وعسكري في حقِّ الآخر، ولم يُعتبر ذلك السُّلوك خيانة للعلمانية، فنكسة المسلمين في الأندلس صورة لخيانة الغرب لمبدأ العلمانية، " وبذلك أحكم الحصار على مسلمي الأندلس الذين أُجبروا على التَّصير، ولم يبق لديهم سوى موقف قراصنة البحر الجزائريين في غرب البحر المتوسط، الذين انتقموا لمصير مسلمي الأندلس انتقاماً شديداً، وأسدل الستار على هذه المأساة التي كانت نتيجة لمخطط البابا لحماية الدَّولة الكاثوليكية النَّاشئة في إسبانيا، وكان جديراً بهذا المستشرق أن يشير إلى هذه النَّكسة التي أصابت المسلمين في المغرب بسبب تحالف المسلمين مع الدَّولة العثمانية"¹.

" وفي هذه الرُّموز الجماعية التي قدَّسها مرور الزَّمن تنغرس الهوية الوطنية كما يحصل بالنسبة للوعي الديني فيما يخصُّ المقدَّسات، وهكذا يمجدون القِيم الحماسية والأناشيد الوطنية التي تتغنى بالانتصارات التاريخية للأُمَّة وأبطالها الكبار، وبالتالي فإنَّ التَّقديس قد انتقل من النَّاحية الدِّينية إلى النَّاحية العلمانية على الرَّغم من اختلاف الأسماء والمسمَّيات، وهذا يعني أنَّ النَّاس لا يستطيعون أن يعيشوا بدون ذرَّة عُليا يقدِّسونها، سواء أكانت هذه الذرَّة الدِّين أم الوطن"².

لكن برنارد لويس يُبقي على نموذج - غربي فكريا، شرق أوسطي جغرافيا- ، يمثِّل الاستثناء للقاعدة العامَّة المُسلَّطة على الآخر من غير الغربيين، يحق له أن يجمع بين القداسة الدِّينية والمُخرجات الغربية في السياسة والاجتماع والاقتصاد وغيرها، بل وتزدُّ كل الانجازات التي وصل إليها في جميع المجالات، إلى العقيدة التي يدين بها، وأطرَّ على نسقها الحياة الغربية التي تبنَّاها.

" واليهودية - أو الطَّابع اليهودي بصفة عامَّة - دين بكل معاني الكلمة، أي مذهب من مذاهب العقيدة والعبادة، وشرعة أخلاقية وأسلوب حياة، أي مجموعة مركَّبة من القِيم والعادات الاجتماعية والثقافية، ولكن اليهود لم يكونوا ينهضون بأيِّ دور سياسي حتَّى وقت قريب نسبياً"³.

في تعريفه لليهودية كدين، أثبت لويس قدرة ما هو ديني على احتضان وطبع جميع ما له علاقة بالفرد بما يتلاءم ويستجيب للمآلات التي يتبنَّاها ويهدف إلى تفعيلها في واقع المؤمنين بتلك العقيدة الدِّينية، مما يجعل الفرد داخل المجتمع مُلزماً بترجمة ذلك الانتماء من خلال مسارات علاقاته وتصرفاته.

¹- لويس، برنارد ، لغة السياسة في الإسلام، المرجع السابق، ص 11/10.

²- أركون، محمد ، قضايا في نقد العقل الديني، مرجع سابق ، ص 166/165.

³- لويس، برنارد ، أين الخطأ، المرجع السابق، ص 242.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

أثبت برنارد لويس هذه الاعترافات – التي التزم فيها الواقعية – والتي لا تفصل بين الدّيني والدّنيوي فحسب، بل تجعل من الدّيني سرعة أخلاقية، وأسلوب حياة وتآلف اجتماعي وثقافي، فقد جعل بكل واقعيةً وبعيدا عن الخيال، من (اللّامجتمع بمواصفات علم الاجتماع)، كيانا متقرّداً في الشّرق الأوسط في الدّيمقراطية والحداثة.

" وقد يكون من المفيد أن ننظر إلى ما يسمى بالمكوّن اليهودي نظرة تقوم على الواقع لا على الخيال، فدولة إسرائيل الحديثة، والمجتمع الإسرائيلي الحديث قد أنشأها يهود قديموا من ديار المسيحية وديار الإسلام، أي من أوربا والأمريكيتين من ناحية، ومن الشّرق الأوسط وشمال إفريقيا من ناحية أخرى"¹.

يجب التنبّه إلى ما أشار إليه برنارد لويس واعترف به في سياق التميّز اليهودي عن الواقع المجتمعي الإسلامي، أنّه برغم اختلاف جغرافية الوافدين من ' أوربا والأمريكيتين و الشّرق الأوسط '، فإنّ اليهود استطاعوا بوحدهم العقائدية أن يؤسسوا دولة، بمعنى أنّ المقدّس الدّيني عنصر فاعل وحيوي في بناء الدّول والمجتمعات، وأنّ العمل على إقصائه في المجتمعات الإسلامية، والإشادة به في المجتمعات الغربية تعسّف في حقّ الآخر الذي كان سباقا لإثبات هذه الحقيقة منذ قرون.

" ولما كانت الدّولة الإسلامية أداة الإسلام، بل وأنشأها مؤسسها بهذه الصّفة، لم تكن هناك حاجة إلى أيّ مؤسّسة دينية منفصلة، فالدّولة هي الكنيسة، والكنيسة هي الدّولة " ²، مع كامل التحفّظ على مصطلح ' الكنيسة ' في هذا السّياق .

يمتلك الفكر الغربي عداوة متجذّرة للمقدّس الدّيني بأيّ ذوق كان، وتحت حتمية وجودها شكّل الفكر الغربي نموذجا آخر يجيب به على الحتمية، لكن بذوق غلبت عليه الواقعية والمادية اللّتين كانتا سائدتين آنذاك، بل وحائزتين على كثير من المصداقية حينها.

" وهكذا انتقلنا، أو قلّ انتقل الفكر الغربي من لحظة الإعلان عن موت الله والدّين بكل فرح وتهليل في القرن التّاسع عشر، إلى لحظة الإعلان عن موت الدّات الإنسانية على يد (فوكو) في القرن العشرين " ³.

¹ - لويس، برنارد، أين الخطأ، المرجع السابق، ص 242.

² - المرجع السابق، ص 153.

³ - محمد أركون، نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية، المرجع السابق، ص 108.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

هذا التحوّل وجد تبريراته حتّى في بعض التخصصات العلمية التي كانت سائدة وتحوز على اهتمامات البحوث العلمية في أوروبا، فعلى سبيل المثال لا الحصر، هناك نظريات أكاديمية غربية تُبيح التّوسع في معنى المقدّس.

فمن " وجهة نظر الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، فإنّه لا يمكننا أن نحصر مفهوم المقدّس في الدائرة الدّينية وحدها، فهي موجودة في الدائرة العلمانية ، ولكنهم يتوهّمون أنّهم يتحاشون التّلوينات الدّينية إذ يغيّرون المصطلح فيتحدّثون عن الحرب العادلة أو الشّرعية بدلا من الحرب المقدّسة أو الجهاد"¹.

إن الهدف في إلغاء المقدّس الدّيني من واقع المجتمعات هو قطع الصّلة بكل ما له علاقة بالوحي، وذلك من خلال الدّعوى إلى الواقعية و البُعد عن المثالية التي لا تخضع إلى مراقبة الحواس، أو تُجيب على التّساؤلات بشكل مادّي، ولذلك تبقى المثالية عانقا أمام المقدّس الدّيني من المنظور الغربي المُفعم بالواقعية والمادّية.

" وإقامة التّعارضات بين إرادة الله وإرادة الإنسان، إذ يتوهّم (العلماني) أنّه متى استجاب لإرادة الله، ضاقت حرّيته وسلّبت إرادته، ومتى ركن إلى إرادة الإنسان اتّسعت الأفاق التّشريعية من حوله، وأورث هذا التّصور أيضا قطع الصّلة بين عالم الغيب وعالم الشهادة، وإقامة الفصل بين عالم الدّين وعالم السّياسة ، حيث لا يتدخّل الدّين في الشّأن العام، ولا تتدخّل السّياسة في الشّأن الخاص"².

مع أنّ الاستشراق – في أغلبه – أثناء مناقشته لموثوقية النّصوص الشّرعية انتصر للطّرح والتّبرير الذي اعتمده الرؤية الجاهلية الرّافضة لمصدرية النّص الإلهي، الذي كان يؤطّر حياة الأنبياء وعلاقاتهم مع أتباعهم وخصوم مشروعهم، فتجسّدت واقعية المثل المقدّسة في سلّم الأنبياء وحروبهم ومعاهداتهم، وأساليب دعوتهم، وارتحلت هذه الواقعية إلى أتباع دعوتهم ثمّ إلى العلماء.

" النّماذج الحيّة إنّها الشّواهد المُثلى التي تجسّد هذه الاعتقادات والقيّم والقواعد، وهذا صرفاً للدّين عن شبهة المثالية، وتجديد الثّقة بقدرة الإنسان على تقبّل الأوامر الإلهية وتنزيلها في مجرى الحياة، ويُعدّ الأنبياء شواهد مُثلى على هذه النّماذج الحيّة"³.

¹ - محمد أركون، نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية، المرجع السابق، ص 164/165.

² - بلعقروز عبد الرزاق ، قوّة القداسة، المرجع السابق، ص 52.

³ - عبد الرحمن، طه ، سؤال العمل: بحث عن أصول العملية في الفكر والعلم ، الدار البيضاء، بيروت:المركز الثقافي العربي،2012، ص 230.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

" إنَّ الأرض من اليوم تهتُّرُ تحت أقدام الذين ظنُّوا أنَّهم يقفون على الأرض من دون أن يحتاجوا إلى السَّماء، لذلك فإنَّ (أعناقاً) كثيرة اليوم تشرَّبُ إلى السَّماء، وهذا ردُّ طبيعي، إنَّ كثرة أوثان الجهل لهذا العصر الجديد تقدِّم للدين فرصة ذهبية كي يظهر من جديد"¹.

فبعد أن صال وجال، مردداً لحن " العلمانية تارة، والحادثة تارة أخرى"، وبعد أن أعياه وأفجعتُه ملامح المجتمع المدني القادم، ها هو يصرِّح بهزلية هذه الجهود، وعبثية القائمين بها حيث يقول:

" ولطالما اتَّجه الرأْي إلى أنَّ هذه المشكلة " فصل الدين عن الدولة " ذات طابع مسيحي محض، ولا علاقة لها بالمسلمين أو حتَّى باليهود وهم الذين بدؤوا يواجهون مشكلة مماثلة في إسرائيل، ومن ينظر إلى حالة الشَّرْق الأوسط المعاصرة بما فيه من مسلمين ويهود لا بدَّ أن يسأل إذا كان ذلك ما زال صحيحاً، أو إذا ما كان المسلمون واليهود قد أُصيبوا بمرض مسيحي ويجوز لهم – من ثمَّ – أن ينظروا في اتِّخاذ علاج مسيحي له"².

لقد استجمع الغرب مبررات وتفسيرات أثناء رفضه للمقدَّس، ودلَّ على واقعيتها ببعض التَّجاوزات لرجال الدين المسيحي، وفي قَمَّة تلك التَّجاوزات، إلغاء العقل، واعتماد الرّهينة والطُّفوس المضلِّلة له.

"إنَّ الفكر الأوربي وما أنتج من حضارة استندت في أصولها على اليونان والرُّومان، أمَّا الدين المُمثَّل بالمسيحية فهي شريقيَّة في جذورها، وقد ظلَّ هذا الفاصل بين الواقع الأوروبي العلماني المُعاش والمسيحية واضحاً، ظهرت معالمه في التَّاريخ الأوروبي حيث الصِّراع بين الكنيسة والدولة ومحاولات الفصل بين الدين والدولة، وشؤون العقيدة وشؤون الحياة"³.

ولأنَّ تلك التَّبيرات والتَّفسيرات لا تجد القبول لها في المجتمعات الشَّرْق أوسطية، كما أنَّ العقل في هذه الضَّاحية يعرف أزهى أيام إشراقه، فقد عاش مشروع العلمنة عُربة حقيقية في أروقة علاقات المجتمع الشَّرْق أوسطي المؤطَّرة في أغلبها بنفحات المقدَّس، بعد أن توقَّع أصحابه لهفة العرب والمسلمين إلى هذا المولود الجديد على حساب مقدَّسهم.

¹ - نصر، سيد حسين ، لقاء أجراه منير عكاشة، تر: أميرة الزين، مجلة " أديان "، مركز الدوحة الدولي لحوار الأديان، العدد : صفر، حريف 2009 ، انظر عبد الرزاق بلعقروز، قوة القداسة، مرجع سابق، ص 23.

² - لويس، برنارد، أين الخطأ، المرجع السابق، ص 177.

³ - Watt, M. Muhammad , The Prophet and Stateman, Oxford and New york, 1961., pp :13.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

على مشارف هذه النتيجة المحبطة، اختار دعاة هذا المشروع خيار منطق القوة لا قوة المنطق في التمكين لهذا المشروع، واستبدلوا منابر النقاش والحوار وإقناع الآخر بمصادر صناعة القرار السياسي والعسكري في الأنظمة العربية، ولذلك كان " مشروع العلمنة الذي اجترأ هو أيضا على السعي إلى علمنة المجتمعات العربية، فقد فشل وأستحال إلى نموذج من النماذج التي تتحالف مع قوى الاستبداد من أجل فرض مشروعها على الأمة العربية والإسلامية، فقيمة الفصل بين السياسة والدين، أو بين العبادة والتدبير هذا ما أدى إلى تمزق قانون وحدة الحياة الذي يؤمن به الإنسان العربي إيمانا يقينياً"¹.

هذا التشنج الذي أحدثته العلمنة في الحياة الإسلامية المؤسسة على رؤى تتغذى في أغلبها من قيم ومبادئ دينية، أحدث ضبابية في فاعلية ووجود النموذج الإسلامي الذي لم يقطع من الناحية الروحية والنظرية عن موروته الديني والثقافي .

" إضعاف إنبؤاد الإنسان بالعالم المرئي بقطع أسباب وجوده بالعالم الغيبي، جاعلة وجوده ضيقاً حرَجاً، إذ اضطرَّ إلى أن يُجزئ ذاته أجزاء شتى ويحصر إيمانه في داخله، ويأتي عبادته بغير طريقته ، ويتخلَّى عن روحه في تدبير الشأن العام، بل أضطرَّ على أن يتعبَّد لأنظمة الحكم القائمة بما وضعت من أديان مدنية وسياسية تُثْرله إلى حضيض الوجود النَّفسي، بديلا من دينه المنزَّل الذي كان يرتقي به إلى ذروة الوجود الروحي"².

ولذلك أحسَّ الإنسان بخيانة بعض الجهود العلمية - التي كانت مقدَّسة هي الأخرى - عندما أجازت تقمُّص أدوار إستراتيجية هدفها إعطاء تعريفات جديدة له ككائن نموذجي بكلِّ المعايير، واختزاله في جانب ضيق منه، وبذلك تنبَّه الإنسان الطبيعي إلى خطورة الاستتساخ بواسطة العلمنة مما جعله ينظر ويحكم " أنَّ العلم بعناوينه الكبرى وقواليه المطاطة داخل في مؤامرة مع الأيديولوجية الغربية لسحق الإنسان وإبقاء هيمنة الغرب المطلقة على العالم الثالث "³

¹- بلعقروز، عبد الرزاق ، قوة القداسة، المرجع السابق، ص51.

²- المرجع السابق، ص52.

³- محفوظ، محمد ، الإسلام والغرب وحوار المستقبل، المركز الثقافي العربي ، بيروت لبنان، دار البيضاء المغرب، ط 1، 1998، ص143.

المطلب الثالث: الحداثة و إستراتيجية الانسلاخ القيمي

يعتمد الغرب في استقطاب المجتمعات الشّرق أوسطية ودفعها إلى التَّنكُّر لقيمتها ومبادئها على طرح مشاريع متنوّعة، تلبس لبّوس العلمية والعقلانية والمعاصرة، لأنّ الإنسان بطبعه ينشدُ الجِدَّة في حياته، ويتطلّع إلى مواكبة ما أُستحدث في عالمه.

" مع مطلع القرن العشرين، كان معظم العالم الإسلامي قد أُدمج في الإمبراطوريات الأوروبية الأربعة الكبرى: الروسية، والهولندية، والبريطانية، والفرنسية، حتّى تركيا وإيران، الإمبراطوريتين الإسلاميتين اللّتين تمكّنتا من التّشبث باستقلال متزعزع في عصر النّهضة الأوروبية، تمّ اختراقهما بشدّة من قِبَل المصالح والمؤسّسات والأفكار الأوروبية، على كافّة مستويات حياتهما العامّة تقريبا وحياتهما الخاصّة على نحو متزايد " ¹.

إلا أنّ الغرب استثمر في حقّ الآخر في تحقيق ذلك، وقَدّم تجربته الخاصّة التي كانت نتيجة صراع بين الكنيسة والعلم، أدّى إلى استقالة الطّرح الأصيل للمسيحية، وترسيخ قناعة جديدة تبشّر بإمكانية وجود مصادر أخرى للحقيقة المطلقة التي ينشدّها الإنسان.

" إذا كانت الحداثة قد فتحت إمكانية ظهور أنظمة أخرى للحقيقة غير النّظام الدّيني، إلا أنّها كانت أحيانا تُعرض نفسها وكأنّها نظام الحقيقة الوحيد والمطلق في هذا العالم، إنّها تُعرض نفسها على أساس أنّها النّظام الوحيد الموثوق والمتفوّق على كل أنظمة الحقيقة السّابقة، إنّها تقدّم نفسها على أساس أنّها نظام الحقيقة المؤسّس للقيم والمشروعية المعرفية والسّياسية والقانونية التّشريعية والأخلاقية ذات الطّموح الكوني " ².

من حيث التّأسيس فإنّ "الحداثة هي النّمط الحضاري الذي نشأ منذ النّهضة الأوروبية، نشأ في الغرب ثم أصبح كونيّا " ³ بمنطق القوّة التكنولوجية التي امتلكها الغرب، لا من قاعدة ما تحتاجه المجتمعات الشّرق أوسطية لإصلاح وضعها الاجتماعي والسّياسي، وإنّما في سياق وصفة شاملة غير قابلة للنّقاش في أيّ جزئية من جزئياتها، ولذلك كان التّعريف الواقعي لها في

¹ - لويس برنارد ، الإيمان والقوة، المرجع السابق، ص 31.

² - أركون، محمد ، نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية، المرجع السابق، ص 176.

³ - الشّرفي، عبد المجيد ، الثورة والحداثة و الإسلام، دار الجنوب، 2011 دون طبعة، تونس، ص 108.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

حقَّ الشَّرْقَ أوسطيينَ أنَّها " النَّمَطَ الحضاري الذي نعيشه نحن الآن أو الذي تُنخرط فيه راغبين في ذلك أو مُكرهين، لأننا لا نستطيع فعل غير ذلك وإلاَّ عشنا في الماضي " ¹.

إنَّ الحداثة بالمفهوم الغربي لها تَوَسُّسٌ إلى حالة إحداثٍ واقع من المستحيل قبوله في المجتمعات الشَّرْقَ أوسطية، وهو واقع القطيعة مع الماضي، فإذا كان الماضي بالنسبة للغرب يمثل الاضطهاد واستبداد الكنيسة وقتل العقل وترسيخ الطَّبَقية وغيرها من دواعي القطيعة معه، فإنَّ الماضي في السِّياق الإسلامي مختلف تماما على هذا التَّوصيف.

يبدأ ماضي حاضِرنا الإسلامي من بعثته - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وما أثمرته من أحكام اعتقادية وتشريعية وممارساتٍ إنسانية وأخلاقية غاية في النَّقاء والكمال الإنساني، إلى نهاية الوحي، ثم عصر الخلافة الراشدة الذي نعتبره مرحلة اختبارٍ لأحقيَّة هذا الدِّين بالبقاء والخلود من خلال وفاء الصَّحابة - رضي الله عنهم - لقيمه ومبادئه ومن جاء بعدهم من أهل العلم والعمل.

لا حديث في ماضي الأمَّة عن عداوة بين الدِّين والعقل، ولا رهبانية وطلاسم تُغييب الحقيقة وتحمي الكذب، ولا وجود لفئة " رجال الدِّين " يُكسبهم سلطات على حساب بقية المجتمع، فمسؤولية الانضباط واحترام والغيرة على أحكام الدِّين واجب على كل أفراد المجتمع.

بناءً على ذلك، فإنَّ الحداثة بمعنى القطيعة مع كل الماضي، وقبول واحتضان كل الحاضر والمستقبل هي تسفيه للجهود الإنسانية السابقة، ووأد للمشاريع العقائدية، وانحياز مفضوح للمادية التي أفسدت الحاضر والمستقبل.

" إنَّ أحد عوامل هذه الرِّدة ضدَّ الحداثة هي الحداثة نفسها، فالحداثة لم تَعِ في مشروعها في العالم العربي أنَّ التَّوجه نحو العودة إلى أصول الدِّين والرَّغبة في ذلك هما أمر متجنِّر وعميق في النَّفسية الإسلامية، وما السَّعي إلى إزاحة المقدَّس وتلازم هذا مع عودة الدِّيني إلى الحياة إلاَّ مؤشِّر خطير على أنَّ مشاريع التَّحديث قد وصلت إلى منبع القوَّة ومصدر المعنى الذي يأخذ منه النَّاس تفسيرهم للعالم وتنظيمهم للحياة" ²، بمعنى أنَّ الحداثة كذلك لم تُميِّز بين الثَّابت والمتغيِّر في أجندة المجتمعات وخاصةً الإسلامية منها.

" ولكن إذا كانت الحداثة مشروعاً لم يكتمل، مشروعاً يتمتَّل في السيطرة على الطَّبِيعَة ومعرفتها واستغلالها بشكلٍ تكنولوجي، بمرغماتي، عملياتي، فإنَّها لا يمكن أن تُؤدِّي إلاَّ إلى

¹- المرجع السابق، ص 109.

²- بلعقروز عبد الرزاق، قوَّة القداسة، المرجع السابق، ص 51.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

العولمة كما نشهدها الآن ونعيشها، إذا تغلب الجانب التكنولوجي النفعي في الحادثة على الجانب الروحي الإنساني، فإن النتيجة لا يمكن أن تكون شيئاً آخر¹.

إن الخراب القيمي الذي تسببت فيه الحادثة في الغرب جريمة مسكوت عنها عن قصد، لغياب المرصد الفعلية التي تكشف ذلك نظراً لطغيان المادية النفعية، تلك المرصد التي عادة ما يكون سندها ديني أخلاقي، بل كان للإسهال الذي عرفته الحادثة في جانبها التكنولوجي الأثر البالغ.

وإذا كانت بعض الأفكار التي استطاعت أن تنتبه إلى آثار الحادثة المدمرة على جميع المستويات، فقد عبرت على ذلك بأسلوب هزلي ساخر هروباً من محاكم التفتيش المعاصرة لظهور الحادثة – لأن هذا النوع من المحاكم ليس مقصوراً على القرون الوسطى فقط – حيث " يوجز" كرين برينتون " قصة الحادثة في أسلوب قصصي مبدع فيقول: يحكى أنه كان في سالف الأزمان توأمين شقراوين اسمهما النهضة والإصلاح ، واجها العديد من المظالم والاضطهاد، فانقأ ضد زوجة أبيهما العجوز المتهاكمة الكنيسة الكاثوليكية في العصور الوسطى"².

وأما الصرخات الغربية الواعية التي اجترأت على تحديد أركان جريمة الحادثة في المجتمع الغربي، فقد اشتركت مع الطرح الإنساني والإسلامي في ذلك، حيث لم تنتكّر لإيجابيات الحادثة ولكن مع مراعاة تردّات الطرح الكلي للحادثة.

" لقد أسكرنا التقدّم في الكشف والاختراع الذي غمر هذا العصر، فنسينا أن نهتمّ بتقدّم الإنسان في الشؤون اللامادية، وانزلقنا - دون تفكير ولا وعي- إلى تشاؤم الإيمان بكل أنواع التقدّم، دون الإيمان بالتقدّم الروحي للفرد وللإنسانية"³.

" لقد داهمت الحادثة وقيمتها المجتمع الغربي وأمتد تأثيرها وفعاليتها على المجتمعات الأخرى بفضل الفتوحات العلمية التي جاءت بها ودفعت بالإنسانية قدماً، وبتضافر عوامل كثيرة إلى رؤية وفهم جديدين للإنسان في علاقته بالطبيعة والله والإنسان وإلغاء المبادئ الخالدة وفصل القيم عن المبادئ والأفكار"⁴.

¹ - أركون محمد ، قضايا في نقد العقل الديني، المرجع السابق، ص 160.

² - برينتون، كرين ، تشكيل العقل الحديث، تر: شوقي جلال ، مراجعة صدقي خطاب، سلسلة عالم المعرفة 1989، ص31.

³ - أشفيستر، ألبرت ، فلسفة الحضارة، تر: عبد المؤمن بدوي، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 3، 1983، ص412.

⁴ - خرشي، عبد الرحمن ، فلسفة الاستشراق وأثرها في الصّراع الحضاري، دار هومه للنشر، 2013، دون طبعة، الجزائر، ص128.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

" فالبعد الروحي العالي المستوى غاب عن أفق الحداثة التكنولوجية التي أخذت تُعامل الإنسان وكأنه شيء من جملة أشياء أخرى، هنا تكمن إحدى نواقص الحداثة الأساسية، نلاحظ بهذا الصدد أنّ عقل التنوير الذي أسس الحداثة قد فتح أفاقاً رائعة ثم هجرها وتخلّى عنها أو لم يستكشفها بالقدر اللازم، ولهذا السبب فإنّ العقل اللاهوتي يحاول في الغرب الآن أن ينتقم لنفسه وأن يسترجع بعض مواقع الضائعة التي أفقدها إياها عقل التنوير منذ مائتي سنة¹ .

لم يتحمّل الغرب المسؤولية التاريخية لنتائج تبنّيه لمشروع التحديث في العالم الثالث، وخاصةً الإسلامي العربي منه، بل ألحق تبعاتها بضحايا الحداثة وهو تعسف إضافي في حقّ الآخر.

" إنّ النّقد العلمي الذي حقّقه ' الغرب ' لم يرافقه تقدّم أخلاقي بنفس المستوى، ينبغي العلم بهذا الصّدّد بأنّ العلوم الإنسانية والفلسفية لم تعطِ حتّى الآن أجوبة كافية مطمئنّة من أجل جعل البحث العلمي متضامناً مع هموم الإنسان وقيم الحقّ والعدل، ولو فعلت ذلك لتخلّصت من تهمة ' الاختزالية ' من جهة، وتهمة ' الظلامية '، و ' التّعصب الأعمى '، و ' عدم التسامح '، و ' الأصولية '، و ' البربرية '، من جهة أخرى " ² .

الغرب برغماتي إلى أبعد الحدود، فهو متأكد أنّ مُنتجات الحداثة من الأسلحة والتكنولوجيا لا يحتاج إلى جهد من أجل ترويجها، فهي سلعة ذات تسعيرة لا تحتاج إلى من يروّج لها، وتخضع لقانون العرض والطلب، بعكس القيم والعقائد والأفكار فهي مُنتج تختلف حوله الآراء ويخضع لمبدأ الإقناع، لذلك يختلف موقفه من الآخر في علاقته مع مُنتجات الحداثة بنوعيّها.

" كان لتحديث القوّات المسلحة – الأسلحة ووسائل الانتقال والاتّصال – تأثير ثانٍ أيضاً، وفي الوقت الذي قاموا فيه [الحكام العثمانيين] بإلغاء القوى الوسيطة [طبقة العلماء]، عملوا على توطيد دعائم السُلطة السيادية بشكل كبير، حتّى إنّ أحد حكام القرن التّاسع عشر المتأخّرين، مثل السُلطان العثماني عبد الحميد الثّاني، استطاع ممارسة قدر من السُلطة لم يتّح لأحد من سلاطين الماضي العظام³ .

وحتى إذا ما قبل الآخر منتجات التحديث، بل واشتراها بأموال الأُمَّة ، فإنّ هذا القبول في حدّ ذاته لا يسلم من الطّعن المفضوح، وغير المؤسّس، ولا يمنحه تأشيرة المرور إلى الإنسان

¹ - أركون، محمد ، قضايا في نقد العقل الديني، المرجع السابق، ص 169.

² - أركون، محمد، نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية ، المرجع السابق، ص 167.

³ - لويس، برنارد ، الإيمان والقوّة، المرجع السابق، ص: 162.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

الحدائي ما لم يُقبل بالشقِّ الثَّاني من حادثة القِيمِ والعيادات والتقاليد وحتَّى العقائد، وهو بيت القصيد في مشروع الحادثة.

يفصح برنارد لويس عن هذه الحقيقة وهي - أن الحادثة حسب الطَّلب الغربي - ليست في تكديس ركام تكنولوجي متنوع عند الآخر، بقدر ما هي حادثة فكر وثقافة وعقائد، إذ كيف يُفسَّر استثمار وسائل الاتِّصال والنَّقل كالتلغراف والقطار وغيرها بالاستبداد، وهي في الأصل وسائل تُستثمر في حالات السَّلم أكثر من حالات الحرب، فإنَّ وصفها - وهي بأيدي الشَّرقيين - كوسيلة للاستبداد وصف مغرض دالٌّ على تلك القناعة.

" وكان بمقدوره [السُّلطان عبد الحميد الثَّاني رحمه الله] الاتِّصال بحكَّامه المحليين تلغرافياً، وإرسال قوَّات ذات تسليح ثقيل بواسطة القطار، ولم يكن بمقدور سليمان القانوني القيام بأيِّ من ذلك، وهكذا فقد تجلَّى أثر التَّحديث في معظم هذه البلدان في القرن الثَّاسع عشر، ومطلع القرن العشرين، في إيجاد مستوى من الاستبدادية أكبر بكثير ممَّا كان قائماً في أيِّ وقت سابق من الماضي الأسطوري، وأستمر الحال هكذا مع أنظمة الحكم الحديثة"¹.

ورغم أن الغرب يعترف ببعض نتائج التَّحديث في المجتمعات الشَّرقيَّة أوسطية، سواء على المستوى العسكري أو التكنولوجي، فإنَّه لا يُرجع تلك النتائج المؤسفة إلى عُربة جينات الحادثة الغربية عن الواقع العربي الإسلامي، وإنَّما إلى سوء استخدام هذه المنتجات من طرف الآخر، ففي كلِّ الحالات فإنَّ الحادثة بريئة من تلك النَّائج، والدَّليل أنَّها أثبتت في الغرب واقعا مغايراً للواقع الذي أفرزته في الشَّرقيَّة.

" تحولات المعنى في عصر الحادثة قطعت الإنسان عن كلِّ تعالٍ أو تجذُّر أنطولوجي أو ميتافيزيقي، وأصبح الإنسان يعيش شرطه الوضعي المادِّي البحت بشكل كامل، ولكن هناك بعداً روحياً للإنسان، وهذا البعد أهمل كثيراً من قِبَل الحادثة التي كانت مشغولة بإشباع البعد المادِّي الاستهلاكي، والآن تعود الحاجة الرُّوحية إلى مجتمعات الحادثة من جديد وتريد إشباعاً"².

وإذا كان هذا مصير التَّحديث في مجال الاتِّصال والأسلحة والتكنولوجيا، المجال الذي قد يشترط خبرة ومهارة، وقد يُبَرَّر فشل التَّحديث بسوء استخدام هذه المنتجات، فإنَّ التَّحديث في مجالات أخرى يعترف بعض المستشرقين بفشلِهِ هو الآخر، لكن لا يُقرُّون بأسبابه الموضوعية ومبرراته الحقيقية.

¹- لويس، برنارد، الإيمان والقوَّة، المرجع السابق، ص162.

²- أركون، محمد، قضايا في نقد العقل الديني، المرجع السابق، ص194.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

" إنَّ التَّنْظِيمَات [كمنتج للحادثة] أخذت من الشَّعبِ الحقوق التي كَفَلَتْها له الشَّرِيعَةُ الإسلاميَّة ولم تعطِه شيئاً من الحقوق التي تكفَّلها نُظْمُ الحكم الأوروبيَّة، وأنَّ ساسة التَّنْظِيمَات فتحوا البلاد للتَّدخُل الأجنبي وأضافوا إلى الاستبداد الدَّاخلي الاستغلال الخارجي"¹ .

إنَّ طرق المفكرين والمستشرقين على الخصوص في الدِّفاع عن الحادثة بهذه الوسائل المعرفية المشوَّهة لن يُغيِّر من حقيقة تعسُّف الحادثة، وذلك راجع إلى " أنَّ الباحثين يستخدمون مفهوم الحادثة غالباً بشكل غير نقدي أو غير تاريخي، فهم لا يميِّزون فيه بين مراحل الحادثة المتتالية والمسلمات الضَّمْنية التي هيمنت على كل مرحلة..."².

يعمل الغرب على طمس بعض الحقائق العلمية التي قد تنتقد الحادثة مما أوقعها فيه الاستعمال الإيديولوجي لبعض السَّاسة والمفكرين، مع أنَّها " استطاعت بنقدها لذاتها أن تبيِّن أن ما يحرك الإنسان ليس فقط عقله، بل كذلك عواطفه وغرائزه ورغباته ومخزونه النَّقَافِي وهذا كلُّه يغدِّي الحادثة ولا يتجاوزها"³، لأنَّ منتجها لا يتعارض بالضرورة مع كل ما هو مقدَّس، بل قد يكمله ويدعِّمه ويؤيِّده، فليس هناك تعارض من حيث المبدأ مع تحديث الواقع وترقيته في ما تفرضه السُّنن الطبيعيَّة والالاهية تحديثه، وتحكُّم بتجديده مراعاة لمصلحة الفرد، فلا وجود لهذا التَّعارض في أي ثقافة أو دين، باستثناء الطَّرح الكنسي في القرون الوسطى.

كما أنَّ هذا القبول للحادثة بهذا التَّحديد لا يعني " أنَّ النَّمط الحضاري الذي تمثَّله الحضارة الحداثية خالٍ من النَّقائص ومن العيوب، فإنَّ المجتمعات الحديثة تعيش فعلاً أزمات لم تعرفها المجتمعات القديمة التي كانت المؤسَّسات فيها مُشرَّعة شرَّعة دينية ، ومبرِّرة بوسائل دينية ، كان النَّاس في هذه المجتمعات مطمئنِّين خانعين ولا يشعرون بالقلق الذي يشعر به من يعيش الحادثة"⁴ .

الحادثة من خلال الدَّعم التكنولوجي والشَّحن الإيديولوجي اللذان تزوجت معهما قسراً، تسير بخطى ثابتة نحو تأسيس عداوة صارخة مع الإنسان ، الذي هو من أهم موضوعاتها، كما أنَّه في أمسِّ الحاجة إلى كثير من إيجابياتها.

" إنَّ نزع صفة القداسة عن مكونات العالم- المقدَّسة منها - يؤدِّي إلى ظهور نزعة الامبريالية لدى الإنسان، فهو ينظر إلى العالم باعتباره مادَّة نافعة له يمكنه توظيفها لحسابه

¹ - Bernard Lewis. The Emergence of Modern Turkey, op.cit, p p.172/170

² - أركون، محمد، قضايا في نقد العقل الديني، المرجع السابق، ص 99.

³ - عبد المجيد الشرفي، الثورة و الحداثة والإسلام، المرجع السابق، ص 109.

⁴ - المرجع السابق، ص 111.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

ويصبح الهدف من المعرفة هو زيادة التَّحَكُّم، وحيث لا توجد قداسة أو حُرَمَات أو مرجعيات أخلاقية، فلا حدود لعملية الغزو " ¹.

لذلك " ينبغي على الحداثة كمشروع إنساني أن تصحَّح إرادة المعرفة الهادفة إلى السيطرة والاستغلال والهيمنة، ولكن كيف ؟ عن طريق الإدخال الفعلي ، أي الفلسفي والقانوني، لحقوق الرُّوح في حقوق الإنسان ، فقد تحوَّلت هذه الأخيرة إلى مصطلح مؤدج أكثر من اللزوم، بل ومستهلَّك وفاقد لروحه، فالغرب يرفعه كشعار أيديولوجي للضَّغَط على الآخرين أكثر مما يتقيَّد به عندما يتعامل مع الآخرين " ².

" على الحداثة أن تتقدَّ ذاتها وتخفَّف من غلوَّاتها، فليس كل ما أتت به صحيحا أو مقبولا، نقول ذلك ونحن نفكر خصوصا بمسألة الأخلاق، فمجتمعات الحداثة تشعر بحاجة ماسة إلى بلورة مبادئ أخلاقية تنظِّم هذه الفوضى الشَّاملة – أو الحرِّيَّة الشَّاملة – التي تسبَّح فيها الحداثة، إنَّها بحاجة إليها من أجل تنظيم الانقلابات الكبيرة وتهدئة القلق والمخاوف التي أثارها علوم الحياة أو البيولوجيا " ³.

إنَّ من بين أخطاء الغرب تضمين كل مُخرجات الحداثة غنَّها وسمينها في مفهوم الحضارة، واعتبار كل من يرفض بعض مُخرجات الحداثة لاعتبارات ثقافية أو دينية ، معادٍ للحضارة نفسها يستحقُّ كل أنواع العقوبات الدبلوماسية والاقتصادية، وكل أنواع الحصار.

إنَّ الحكم على أيِّ مجتمع بالتَّحضر لا يكون صحيحا إلا إذا استجمع كل شروط التَّحضر، لأنَّ الحضارة أو التَّقَدُّم كلُّ لا يتجزأ، تتناغم فيه قيمه وأخلاقه ومعتقداته، مع ما أنتج من وسائل تمسُّ مختلف جوانب حياته، وقد روعيت في هذه الوسائل اعتبارات ذات صلة بتلك القيم والعادات والعقائد بذلك المجتمع، ممَّا يجعل نقل تلك الوسائل إلى مجتمعات أخرى ناقل بالضرورة لتلك الاعتبارات ، ممَّا يحدث تعسُّفا في حق قيم وثقافة وعقائد المجتمع المستقبلي للحداثة .

" فما زاد الأُمَّة ذلك الإصلاح الصُّوري إلا ضروبا من الفساد، وأنَّ ما تمَّ لم يكن علاجا لهذه الأُمَّة وإن كان أكثره ضروريا، فالأُمَّة بعد هذه المعالجات لم تزد إلا مرضا وذلاً وفقرا وضعفا وفسادا وإسرافا في الانفاق، وكان ما أُدخل فيها من علوم الأمم القويَّة وقوانينها وآدابها

¹ - المسيري، عبد الوهاب، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية : نموذج تفسيري جديد ، القاهرة ، دار الشروق ، 1999، ج 4، ص 259.

² - أركون، محمد، قضايا في نقد العقل الديني، المرجع السابق، ص 160.

³ - المرجع السابق، ص 168.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

كالجسم الغريب الذي يدخل البنية فيفسد مزاجها لأنه لم يكن على حسب استعدادها وحاجاتها بل تقليداً صورياً أو عارضاً صورياً¹.

لذلك يصل كل متتبع لأسباب رفض بعض جوانب الحداثة في المجتمعات الشرق أوسطية، وخاصةً من النخب المثقفة والمنتدبة الإصلاحية إلى مبررات علمية مقنعة ومنصفة لموقف الآخر من الحداثة الغربية الكلية، ولا يتوقف عند الأسباب المعلنة غريباً.

إذا أردت الحداثة أن يُفسح لها المجال في فكر وجغرافية الشرقيين، فعليها أن لا تطرح نفسها كبديل عن كل شيء (الثابت والمتغير)، بل كوجه من الأوجه المتعددة والمتنوعة للحضارة، الأمر الذي سيساعد على " بلورة فكر جديد في أرض الإسلام، فكر قادر على هضم المكتسبات الايجابية للحداثة دون التنكّر للمكتسبات الايجابية للتراث خصوصاً في فترة الإبداعية والايجابية، وعندما أقول التراث، فإني أقصد بالمعنى الشامل والكامل والتعددي، أي بكل خطوته واتجاهاته، وليس فقط من خلال خط واحد يبئّر كل ما عداه"².

"ولكن على الرغم من ذلك، فلا يمكننا القول بأن المعرفة التاريخية في هذه المجتمعات متحررة من الضغوط التي تمارسها آليات التصفية والانتخاب والحذف في الدول القومية الحديثة، كما أنها ليست متحررة تماماً من ضغوط الكنيسة، والمدارس الفكرية المختلفة، و إكراهات التخصص الضيق ، والممارسات الزبائنية والتبعية التي تمارسها جماعات الباحثين، والرؤيتين البيروقراطي في الجامعات والسياسات الدولية"³.

" فالمؤلف لا يقوم بأي تقييم نقدي لنمط الحداثة المصدرة إلى العالم الإسلامي، ولا يدرس أبداً البيئات الاجتماعية والثقافية التي كانت تستعد لاستقباله، ولا يبيّن لنا نمط المعرفة السائدة في هذه البيئات عندما اصطدمت بالحداثة الأوروبية لأول مرة"⁴.

" والمعتقد قد يكون أحياناً من القوة بحيث لا يقوم في وجهه شيء، وأن المرء الذي استحوذ عليه إيمانه يصبح رسولا مستعداً للنضحية بمنافعه وسعادته وحياته، في سبيل نصره، وحقاً إن للعقائد الدينية قوة عجيبة في تغلبها على الأفكار، وفي أنها لا تتبدل بتبدل الأزمان"⁵.

¹ - مجلة المنار، ج 1 م 17 ، 28 ديسمبر 1913، ص 4،3

² - أركون، محمد ، قضايا في نقد العقل الديني، المرجع السابق، ص 194.

³ - المرجع السابق، ص 140.

⁴ - المرجع السابق، ص 99، 100 .

⁵ - لوبون، غوستاف، روح الثورات والثورة الفرنسية، نقله إلى العربية: محمد عادل زعيتر، القاهرة: المطبعة العصرية، 1934، ص

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجبيش-روح الاستعلاء"

" والدلائل الأكثر تَمْظُهُرًا هنا، وأمام هذه الثورات العربية أنها كانت مُحكَّمًا عمليًا لاختيار مشاريع التَّحديث وقيِّم العلمانية في العالم العربي، لقد تهاوت أمام مَعول الدِّين وطاقة المقدَّس الذي انبجس من جديد، من أجل أن تكون له الكلمة الأقوى رغم الجهود التي بذلت من أجل إزاحته وتقليل دوره، هذه الجهود تعاضدت فيها قوى الدَّولة بشكْلِئِها: دولة الاحتلال ودولة الاستقلال " ¹ .

المطلب الرابع: الأصوليَّة، المرجعيَّة والاستخدام:

مع الفارق الشَّاسع بين الظُّروف التي تسبَّبت في ميلاد هذا المصطلح، فإن الغرب يبقى مصرِّبًا على استعمال أسوأ ما في سلَّة المصطلحات الغربية الجاهزة، دون أن يجهد نفسه في اختبار ملاءمتها من النَّاحية التَّاريخية والعلمية مع الواقع الجديد الذي سنُفَعِّل فيه وتدُلُّ عليه.

تعرِّف الغرب في توصيف السُّلوك الشَّرقي أوسطي وخصوصا - العربي الإسلامي منه - الذي ظهر كتعبير واحتجاج من بعض النُّخب الأصليَّة في الأُمَّة على عدم اكتمال استقلال شعوبها رغم رحيل الغزاة المعتدين، لذلك لم يلتزم المفكِّرون في الغرب - وخاصةً المستشرقون - بحقيقة تكوُّن المصطلح وشروط دلالاته على الحدث وضوابط استعماله.

" فقد يحصلُ مثلا أن يتم استدعاء المفهوم بدلالة تاريخية ترتبط بلحظة من لحظات تشكُّله، أي يرتبط بلحظة تاريخية لا علاقة لها بالدلالات ولا بالمدلولات الرَّاهنة التي يفترض أنَّ المفهوم أصبح يحملها في سياقات بنائه وإعادة بنائه، فتصبح أمام جدل غير متكافئ نظريا ، جدل لا يشير إلى معطيات محدَّدة واقعيًا وتاريخيًا"².

هذا الجدل سيبقى يحاصر السُّلوك الغربي في توصيف احتجاج الحركات الإسلامية، وسيُثبت ما أقرَّ به بعض المفكِّرين المعتدلين الرَّافضين لهذا الإسقاط الجزافي لمصطلح ' الأصولية ' على الحركات الإسلامية.

¹ - بلعقروز، عبد الرزاق، قوَّة القداسة، المرجع السابق، ص53.

² - الخطيب، سليمان، الحوار مع الغرب " أنماط انتقال الأفكار وآلياتها بين التفاعل والاستيلاء، الحوار مع الغرب: آلياته، أهدافه، دوافعه، تحرير: منى أبو الفضل وآخرون، دمشق، دار الفكر، ط1، 2008م، ص130.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجبيش-روح الاستعلاء"

" إنَّ عجزنا الإجمالي عن تفسير أو تأويل الحركات الإسلامية اليوم، إنَّما يعود إلى حد بعيد إلى استخدامنا هذه النظَّارات القديمة التي نضعها على أعيننا، لأنَّنا لا نجد في عجالة أمرنا خيرا منها، يمكن القول أنَّ ما تقوم به هو زيادة التَّشويش في إدراكنا"¹.

" تناول المستشرقون والمختصون في الشُّؤون العربية والإسلامية هذه الحركات من حيث مبادئها الأساسية، وما تدعو إليه، وموقفها من الغرب، والتَّحديث، وموقفها من الأقليات غير الإسلامية في العالم العربي والإسلامي، وقد حرص المستشرقون في هذه الكتابات على إثارة الغرب ضدَّ هذه الحركات"².

لا يلتزم أكثر الباحثين الغربيين بما يقرُّون به من حقائق تاريخية أو علمية عند مناقشتهم للحالة العربية والإسلامية، حيث تظهر أحكامهم مجافية لقناعاتهم العلمية ويزداد الجدل كلَّما أمعنوا في الاستهلاك الاصطلاحي دون وازع علمي، أو ضابط أخلاقي، وكأنَّهم غير معنيين أو ملزمين بما توصَّلوا إليه.

" أُستخدم مصطلح الأصولية Fundamentalism لأول مرة في أمريكا، ثمَّ في بلدان أخرى بروتستانتية في الغالب للدَّلالة على جماعات معيَّنة تختلف عن الكنائس السَّائدة، واستخدام المصطلح للدَّلالة على حركات إسلامية تشبَّيه غير دقيق على الأرجح، ويمكن أن يكون مضلَّاً تماماً، وفي الماضي، كان اللاهوت الإصلاحية قضية بين المسلمين من حين لآخر، وهو ليس كذلك الآن، وهو بعيد كلَّ البُعد عن الاهتمامات الأساسية لأولئك الذين يطلق عليهم أصوليون إسلاميون"³.

" ولعدَّة أسباب، فمُسمى الأصولية Fundamentalism غير مناسب ومضللُّ أيضاً، وقد دخل حيِّز الاستخدام في الولايات المتَّحدة للدَّلالة على كنائس بروتستانتية معيَّنة تختلف عن البروتستانتية السَّائدة، وكانت هناك نقطتان أساسيتان للاختلاف وهما: اللاهوت الليبرالي والنَّقْد الإنجيلي، وكلاهما تمَّ رفضه، وكان من بين العقائد الأصولية الأساسية الإلوهية الحرفية للنَّص الإنجيلي وعصمته"⁴.

ومع قوَّة ووضوح التَّبَريرات التي تجعل من قبول إسقاط هذا المصطلح على الحركات الإسلامية أمر سخيف ، فإنَّ برنارد لويس يصرُّ على مخالفة ما تمليه عليه هذه الاعترافات،

¹ - كليل، جيل ، يوم الله : الحركات الأصولية المعاصرة في الأديان الثلاثة، تر : نصير مروة، قبرص، 1992م، ص 11.

² - مطبقاني، مازن صلاح ، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي ، المرجع السابق، ص 527.

³ - لويس، برنارد ، الإيمان والقوَّة، المرجع السابق، ص 79.

⁴ - المرجع السابق، ص 136.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

وذلك من خلال مؤلفاته الحديثة حيث يستعمل نفس المصطلح للدلالة على الحركات الإسلامية، وخاصة إذا أُتحت له فرص توجيه وضبط القرارات السياسية، فإنه ينتصر إلى ذوقه الأيديولوجي على حساب مكانته كمؤرخ عريق.

فقد " كتب لويس حول هذا التيار في البلاد العربية الإسلامية، كما تناوله في ما يخص إيران وحدها، ولم يكن لويس أصيلا في استخدام هذا المصطلح أو مبتدعا، فقد عقد الكونغرس الأمريكي جلسات ثلاث جمع فيها عددا كبيرا من الباحثين الغربيين، ونشر هذه الدراسة بعنوان ' الأصولية الإسلامية والتطرف الإسلامي ' في أيام 24 يونية و 15 يولية و 30 سبتمبر 1985م¹.

ويزداد الطرح بُعدا عن العلمية، واحتقارا لعقل القارئ عندما تُقدّم التبريرات المعتمدة في تأخير بعض المصطلحات وتقديم أخرى بناءً على الانتماء الجغرافي لهذه المصطلحات دفعا لشبهة الانتقاء التي قد تطعن في حجية الاستدلال بها.

" ومما يعدُّ مرادفا لمصطلح ' الأصولية ' مصطلح ' الإحياء ' أو ' الصّحة ' وأنّ هذه المصطلحات لا توضح حقيقة الحركات الإسلامية، لأنّها - هذه المصطلحات - ذات أصل أوربي، ولها معان واضحة ومحدّدة"².

إنّ هذا التبرير الفاسد شكلا ومضمونا في اعتماد المصطلحات المضلّة- على حدّ تعبير برنارد لويس - يمثّل النموذج التطبيقي والمثالي لما سبق وأنّ حذر منه، كما يُبرز الدافع الأيديولوجي في توظيف المصطلحات، حيث يتمّ استبعاد وإقصاء المصطلحات الايجابية التي قد تتلاءم مع سلوك الحركات الإسلامية مثل الإحياء والصّحة، وهو ما أثبتته للإسلام في بعض مؤلفاته عند بداية اهتمامه بالظاهرة الإسلامية، بحجّة أن هذه المصطلحات غير قادرة على ترجمة حقيقة الإسلام لما تتضمنه من فاعلية وإيجابية، إضافة إلى كونها غريبة الأصل عن الشّرق الإسلامي، فلا يجوز التعسّف بها على الآخر، فضلا عن محدودية ووضوح معانيها التي لا تسمح بالتّعسف المراد.

لكن في المقابل، فإنّ مصطلح الأصولية قادر على التعريف بالإسلام والمسلمين، ولا يقدر فيه كونه غربي - على عكس المصطلحات الأخرى - حسب تبرير لويس في عدم اعتمادها في حقّ الاسلام، إضافة إلى أنّه مصطلح مفعّم ومشحون غريبا بكلّ المعاني السلبية التي عرفها

¹ - مطبقاني، مازن صلاح، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، المرجع السابق، ص 528.

² - Lewis, Bernard, The Revolt Of Islam. In New York Review Of Books. June 30th, 1983. pp : 35-38.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

الصِّراع المذهبي المسيحي ، ولذلك أُنتخب هذا المصطلح غربيا من طرف المفكرين والمستشرقين، للدلالة على سلوك الحركة الإسلامية، ومن خلالها على الإسلام وحضارته.

وممّا يؤكِّد هذا الخط المتعمد والتشويه المقصود في المفاهيم ما أثبتته المفكر ' جون اسبوريتو ' حيث يرى أن " الطرح الانتقائي والتحليلات المتعلقة بالإسلام وتطورات الأحداث في العالم الإسلامي بواسطة كبار الأكاديميين والمحللين والمعلقين السياسيين في أنها : تفشل في توضيح القصة بأكملها، وفي أن تُعطي الصورة المتكاملة للتوجهات الإسلامية، ونتيجة لذلك فإنَّ الإسلام وحركة التجديد يتمُّ تبسيطُهما بسهولة في تلك القوالب البسيطة والفجة التي تصوِّر الإسلام بأنَّه ضدَّ الغرب، بأنَّه صراع الإسلام مع النِّقْد، أو الغضبة الإسلامية، والتَّطْرُف، والتَّشُدُّد، والإرهاب " ¹.

" وتأتي أهمية تناول كتابات لويس حول الحركات الإسلامية التي يطلق عليها ' الأصولية ' للمكانة العلمية البارزة التي حقَّها لويس كمؤرِّخ مختص في التاريخ الإسلامي، وكخبير في شؤون العالم الإسلامي والشرق الأوسط، وتصل كتاباته إلى أعلى المستويات في مصادر صنع القرار السياسي في الغرب " ²

لكن برنارد لويس المؤرِّخ الفذ الذي يُنظر منه تصحيح المفاهيم، وضبط استعمال المصطلحات، ها هو يُغيَّب تركيز القارئ بطرح الأفكار التافهة، ويغيَّب على الحركات الإسلامية استفادتها من إيجابيات الحضارة الغربية في أسلوب هزلي، يصوِّر من خلاله الموقف المتناقض للحركات الإسلامية.

" ومع ذلك، ففي معارضتهم للتَّغريب، يتبنَّى الأصوليون الكثير ممَّا هو غربي: التكنولوجيا الغربية، لاسيما الأسلحة، ووسائل الاتِّصال الغربية، وتوجد الابتكارات الغربية ، كالدُّستور المكتوب والبرلمان المنتخَب، حتَّى في إيران، ويوجد الاثنان لدى الجمهورية الإيرانية الإسلامية على الرِّغم من أنَّ أيًّا منهما ليس له سابقة في التاريخ الإسلامي أو العقيدة الإسلامية " ³.

بل ويجعل من العادة التي كرَّسها هو وأمثاله تعسفا، حجة علمية ودليلا على صواب تعسفهم، رغم إصراره على عدم ملائمة هذا المصطلح لاعتبارات موضوعية مختلفة، لا تتوفَّر

¹ - اسبوريتو، جون، التهديد الإسلامي، تر واعداد ' المؤسسة المتحدة للدراسات والبحوث في واشنطن '، الحلقة الثانية، في مجلة ' المجتمع '، الكويت، ع 1034، 26 رجب 1413هـ، 19 يناير 1993م، ص 38-41.

² - مطبقاني، مازن صلاح ، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي ، المرجع السابق، ص 528.

³ - لويس، برنارد ، الإيمان والقوة ، المرجع السابق، ص 139.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

إطلاقاً في الحالة الإسلامية، إلا أن العادة عنده قاضية على أي اعتبار ما دامت في حق الحضارة الإسلامية.

" وقد أصبح من المعتاد الآن وصف هذه الحركات بأنها أصولية، وهذا المصطلح غير ملائم لأسباب عديدة ، فقد كان في الأصل مصطلحاً بروتستانتياً أمريكياً يقصد به: كنائس بروتستانتية معينة تختلف من بعض الجوانب عن الكنائس التي تنتمي للاتجاه العام، ووجه الاختلاف الأساسيين هما : التحرر الديني ، ونقد الأنجيل، وكلاهما كان يُعتبر موضعاً للاعتراض"¹.

كما ينوع برنارد لويس من حججه على صدقية تعسفه في استعمال المصطلحات الفجة، من خلال شيوخ استعمال هذا المصطلح ، بغض النظر عن أسباب هذا الشيوخ وتوافقها مع الطرح العلمي ، أو ترجمة هذه المصطلحات إلى لغات المجتمعات الشرقية .

"ومؤخراً، دخلت الترجمات الحرفية للكلمة الانجليزية ' أصولي Fundamentalist ' حيز الاستخدام في اللغات العربية والفارسية والتركية، وكذلك اللغات الأخرى التي يستخدمها المسلمون، والآن غالباً ما تُستخدم كلمة ' أصولية Fundamentalism ' للحديث عن المسلمين أكثر من البروتستانت الأمريكيين، وينطبق خطر سوء الفهم على الأخير أكثر مما ينطبق على الأول"² .

" وبذلك يكون مصطلح الأصولية مداناً حقاً بوصفه غير صحيح لأنه أمريكي وبروتستانتية، ومن ثم لا صلة له بالإسلام، وهو غير دقيق لأنه يشير إلى قضايا مذهبية مختلفة تماماً عن تلك التي تهتم المسلمون، كما انتقده البعض أيضاً بوصفه ازدراخي، لكونه مصطلح يحكم مسبقاً على الحركات والأفكار والأفراد الذين يزعم الدلالة عليهم ويدينهم"³ .

المطلب الخامس: دار الحرب و دار الإسلام (بين المسيحية والإسلام)

كثيراً ما استغلّ المستشرقون بعضاً من المصطلحات في الفقه والفكر الإسلامي بغرض تشويه الإسلام في رؤية الغرب، وتأسيس العداء بين الغرب والآخر ، ومن ذلك استثمارهم لهذا المصطلح في تقسيم العالم من منظور إسلامي إلى دار سلم ودار حرب، مما يستوجب بقاء خطاب العداء، وجواز الرد الاستباقي بكافة الوسائل على جميع المستويات.

¹ - لويس، برنارد، الإسلام وأزمة العصر، المرجع السابق، ص 146.

² - لويس، الإيمان والقوة، مرجع سابق، ص 137.

³ - المرجع السابق، ص 136.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

" وفي الحقيقة، أنَّ المسلمين أقرُّوا الأهمية المحدودة للنَّسِيمات بين غير المؤمنين، وكان أحد هذه النَّسِيمات يتمثَّل في التَّفريق بين هؤلاء الذين لهم ديانة سماوية وأولئك الذين ليس لهم ديانة سماوية، وكان هذا الاختيار للمحمَّدين والمشركين، فإمَّا الإسلام وإمَّا الموت " ¹.

" في الإسلام اتَّخذت النَّزعة إلى تقسيم على المستوى العالمي صيغة النَّسِيم العالم إلى دار الإسلام ودار الحرب، أمَّا دار الإسلام فتلك التي تحكمها قيِّم ومبادئ مشتركة وولاء للإله صاحب السِّيادة الأعظم، وداخل عالم الإسلام أصبحت قواعد العلاقات المجتمعية روابط للامَّة {الإسلامية}، فكان المُفترض أن يشكِّل المسلمون في أنحاء العالم كآفة أمَّة واحدة، وهكذا أصبحت ثقافة الإسلام رابطة عامَّة للمسلمين" ².

في علم الاجتماع، تظهر حتمية اعتماد أسس ما لتشكُّيل طائفة أو مجتمع أو حتى أمَّة بمفهومها الواسع، هذه الحتمية هي التي تبرِّر من النَّاحية الواقعية ملامح هذا الشَّكل من الكيانات، وقد تنوَّعت الأسس التي عرفها الإنسان من أسس دينيَّة أو ثقافية أو عرقية، تُحدِّث علاقات مجتمعيَّة خاصَّة ومتميِّزة عن غيرها.

" وأمَّا بالنسبة لليهود والمسيحيين الذين كان لديهم ما يُثبت أنَّهم أصحاب ديانة سماوية تعتمد على كتب مقدَّسة، فإنَّ مجال الاختيار اتَّسع فشمَل عنصرا ثالثا: فإمَّا الإسلام وإمَّا الموت، وإمَّا الامتثال لدفع الجزية التي اشترطها الإسلام مقابل سيادة الإسلام عليها والنَّكفُّل بحمايتها " ³.

" وترجع هذه الفكرة في الأصل إلى مجيء الإسلام وقدرة المسلمين على الملاحظة والتَّعرُّف على الدِّيانتين المميَّزتين اللَّتَيْن سبقتا الإسلام، واختلافهما عن شكل ديانتهم السَّماوية والسِّياسية والخاصَّة بهم، هذا الإدراك لم يكن موجودا عند المسيحيين أو اليهود القدماء، أو عند أيِّ عبادة من العبادات في العالم القديم" ⁴.

" يبني لويس على مفهومه للجihad- باعتباره عدوانا مسلَّحا على كل من يعتنق دينا غير الإسلام- الطَّريقة التي قدَّم بها لقارئه مصطلح (دار الإسلام، و دار الحرب)، فَيُدخل في روع قارئه أنَّ المسلمين يسعون دائما إلى أسلمة العالم كلُّه بالقوَّة، وهو بذلك يضرب على أكثر من

¹- لويس، برنارد ، اكتشاف المسلمين لأوروبا، المرجع السابق، ص74.

²- مزروعى، علي الأمين ، القوى الثقافية في السياسة العالمية، ترجمة: أحمد حسن المعيني، منتدى العلاقات العربية والدولية، ط 1 2017م ، ص 37.

³- لويس، برنارد ، اكتشاف المسلمين، المرجع السابق ص 74/75.

⁴- المرجع السابق، ص76

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

وتر حسّاس، فهو يستعدي الغرب على من يهدّده، ويبرّر ما تفعله إسرائيل بالعرب باعتباره حقّ دفاع شرعي عن النّفس¹ .

" وبناء على هذا فإنّ الخطوط العريضة للتقسيم من الممكن رؤيتها؛ فالنّصنيف الرئيسي كان عن طريق الدّين، وكان يُنظر لليهود والمسيحيين على أنّهم جاليات دينيّة وسياسيّة مثل الإسلام نفسه، ولكن بدرجة أقلّ، والحقيقة أنّه تمّ مناقشة الفكرة العامّة عن الدّين باعتباره طبقة أو فئة منها اليهودية والمسيحية والإسلام كأمثلة فرديّة² .

ويؤسّس لويس على هذا المفهوم مشروعاً معرفياً يستثمره في عدّة أحداث، مع أنّ الغرب – كما يعلم لويس – في سلوكه عندما تبنّى قسراً حقّ إقرار وفرض سياق عالمي، قد تبنّى نفس القاعدة، بل وكان بشكل رسمي ومُلزم لكلّ الأطراف، وتحت قبة دينيّة مقدّسة.

" ففي وقت من الأوقات جرى تعريف الأُمّة في أوروبا لا بمجرد القيم والثّقافة المشتركة، بل أيضاً بالسلطة الأعلى للبابا والإمبراطور الفلاني أو غيره في جزء كبير من أوربياً، وبعبارة أخرى فإنّ الرّوابط التي ربطت الأُمّة اشتملت على سلطة سياسية ودينيّة، تعود في جزء منها إلى اعتناق الإمبراطور الرّوماني (قسطنطين الكبير) للمسيحيّة في القرن الرّابع الميلادي³ .

فقد " تتبّع (رولنج) أصول التّقسيم القانوني بين المسيحيين و (الكفرة – المسلمين –)، فيرُدّه إلى مَجْمع (لاتزان) الكنسي الذي انعقد عام 1139م، حين حرّم هذا المجمع أن يستخدم الفرسان المسيحيون القوس المُستعرض ضدّ المسيحيين، هكذا أصبح مقبولاً ألاّ تطبّق المعايير المسيحية على الكفرة والمُهرطقين⁴ .

لا يعترض الغرب على اعتماد كثير من الأسس في تحديد ملامح مجتمع ما كالأسس العرقية أو اللّغوية أو الجغرافية، بقدر ما يشنّط في رفض الأسس الرّوحية لتأطير البنية الفكرية والعلاقات المُجتمعية لأيّ مجتمع، ويكون أكثر عداءً لهكذا بنية اجتماعية إذا كانت الأسس مصدرها الإسلام.

" كانت المسيحية المصدر الذي تستقي منه معاييرها، وبالإضافة إلى ذلك فقد حدّدت كلّ منها الدّائرة التي ينبغي أن يسود فيها القانون: فاعتبرت أنّ ما يصلح للعلاقات مع الكفرة –

¹ - لويس، برنارد، الإسلام وأزمة العصر، المرجع السابق، ص 23.

² - لويس برنارد، اكتشاف المسلمين لأوروبا، مرجع سابق، ص 76.

³ - مزروعى، علي الأمين، القوى الثقافيّة في السياسة العالميّة، المرجع السابق، ص 38.

⁴ - George Clark, War and Society in the 17 Century (Cambridge: Cambridge University Press, 1958). P: 18

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

المسلمون – قانون مختلف أو لا قانون على الإطلاق، وفي الأخير، غدت المسيحية المسوّغ للهيمنة على الشعوب الأخرى¹.

ولم يُعتبر ذلك عداء دينياً، ولا تحيزاً ضدّ الإسلام، بل حلولا تفرضها مصلحة المجتمعات الغربية، ومنه لا يُقبل توصيفها بالسلوك العنصري المعادي للديانات، ولا إقصاء وتقسيم على أساس ديني، رغم أنّ هويّة بقيّة المجتمعات المتديّنة الأخرى – باستثناء الهويّة اليهودية – مقصاة بشكل رسمي وفاضح من ملامح القانون الدولي حينها.

بالإضافة إلى عنصر مهمّ يضاف إلى هذا الإجراء مما يجعله يشكّل خطورة حقيقيّة على كلّ مقوّمات (الأخر)، يتمثّل في تمركز وسائل القوّة – بكلّ أنواعها – في نفس الجهة الدّاعية إلى ذلك، أي الغرب المسيحي.

كما لم يكن للانخراط غير المباشر تحت مسمّيات مختلفة للديانة الأمّ للمسيحية (اليهودية)، والدعم المادّي والفكري – الدّيني – أيّ مبرّر كاف على كشف وفضح النّوايا التأميرية للديانتين ضدّ بقيّة المجتمعات الدّينية الأخرى التي تدين بالإسلام.

" كان التأثير المباشر لليهودية على النّظام العالمي القائم أقلّ من تأثير المسيحية والإسلام، أمّا التأثيرات اليهودية غير المباشرة فهي متنوّعة، تتراوح ما بين تأثير الفقهاء القانونيين، والمفكرين اليهود على القانون الدولي إلى الانعكاسات التي خلّفها إنشاء دولة إسرائيل² .

لقد أثبت الغرب في مراحل تاريخية متقدّمة تبنّيه لتقسيم ما على أساس ديني، تغطّيها عناوين مختلفة وحديثة، حتّى أنّ بعض المفكرين الغربيين يعتبر فرض قوانين وأعراف ذات نمط واحد على مجتمعات مختلفة يُعتبر من السّداجة السياسية التي لا يُعتدّ بها.

" من الخطأ الفادح افتراض أنّ الأعراف الدّولية نفسها وقوانين الأخلاق الدّولية ذاتها يمكن تطبيقها بين أمة متحضّرة وأخرى وبين أمم متحضّرة وبرابرة، وهو خطأ لا يمكن أن يقع فيه رجل دولة، حتّى وإنّ واجه رجال الدّولة انتقادات من أشخاص ليسوا في موضع المسؤولية، وحينما يصف شخص ما أيّ تصرّف تجاه الشعوب البربريّة على أنّه انتهاك لقانون الأمم، فلا يعني ذلك إلاّ أنّه لم يفكر في الموضوع إطلاقاً³ .

¹ - B,V,A, Roling, International Law in an Expanded World , Amesterdam : Djambatan, 1960 , pp : 17.

² - مزروعى، علي الأمين، القوى الثقافية في السياسة العالمية، المرجع السابق، ص 37.

³ - John Stuart Mill, A Few Words on Non-intervention, in Dissertations and Discussions, Vo: 3K (London, 1867), pp,153/158.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

إنَّ الغرب يرفض وصف التّعسف في حقِّ الآخر كونه خرق وانتهاك لقانون الأمم، تماهيا مع التّصنيف الخطأ المُعتمد من طرف الدّول الغربية التّراثيَّة المجتمعات، وهو ما يعبر عنه الوضع الدّولي القائم حاليا على التّنادي الأوربي بعد الحريين العالميتين.

يقول برنارد فيكتور ألويسوس رولنج: " صدرت تلك الدّول المسيحية عن الوحدة الرّوحية التي انتشرت في غرب أوربا قبل عهد الإصلاح الدّيني، وبعد الإطاحة بسلطة البابا والإمبراطور، وقبول مفهوم السّيادة القوميّة، استمرّ ملوك أوربا في اعتبار أنفسهم خاضعين لأوامر الله وقانون الطّبيعة، واعتبرت الدّول المسيحية نفسها ملتزمة بالقانون المسيحي"¹.

" فقد ظهر لهذه النّزعة التّقسيميّة في القانون الدّولي الإسلامي مكافئ في القانون الدّولي الغربي، وحرّي بنا أن نندكّر أنّ أصول النّظام الدّولي الحالي بما فيه القانون الدّولي المعاصر يعود تاريخياً إلى أوربا وثقافتها، ففي الأصل كان التّرتيب الطّبقي الاستقطابي للعالم في جزء منه ترتيباً دينياً، إذ أنّ النّظام العالمي كان يُنظر إليه لبعض الوقت على أنّه نظام من العقيدة المسيحيّة"².

" ينبغي العلم أنّ التّوترات الصّراعية التي تقبم التّضاد بين العقل والإيمان هي عبارة عن موضوع قديم متكرّر طالما جيش طلاقات اللاهوتيين والفلاسفة منذ العصور الوسطى وحتى اليوم، ثم عاد هذا الموضوع إلى ساحة الاهتمام من جديد بعد أن شهدنا عودة الدّين التي راحت تفرض نفسها على الصّعيد العالمي وتدخل ساحة العلاقات الدّبلوماسية"³.

" وبالمثل فقد افترض مفهوم دار الحرب في الإسلام، أنّ الأراضي التي لا تحكمها مبادئ مشتركة ولا تعترف بولاء مشترك لإله واحد، هي ميادين محتملة للحرب، حاول الفقهاء الإسلاميون لاحقاً التّعديل في هذا التّقسيم الحادّ في القانون الدّولي الإسلامي بين دار الحرب ودار الإسلام"⁴.

" في قلب هذا كلّه نجد تقسيماً ضمناً بين دار المسيحيّة ودار الحرب، وهو صورة متطابقة لمفهوم دار الإسلام ودار الحرب، ونجد أنّ هذه الثّنائية تنطوي أيضاً على تعريف الأمّة مبني على قيم وعقيدة مشتركة، وفي مسرحية شكسبير هنري السّادس (ج 1) يقول دوق جلوستر: إنّ السّلام مع فرنسا هو السّبيل الوحيد لإيقاف سفك دمنا المسيحي"⁵.

¹ - B, V, A, Roling, International Law in an Expanded World, op.cit, pp : 17/18.

² - مزروعى، علي الأمين، القوى الثقافية في السياسات العالمية، المرجع السابق، ص 38.

³ - أركون، محمد، نحو تاريخ مقارن للاديان التوحيدية، المرجع السابق، ص 101.

⁴ - مزروعى، علي الأمين، القوى الثقافية في السياسات العالمية، المرجع السابق، ص 38.

⁵ - مزروعى، علي الأمين، المرجع السابق، ص 39.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

يستعمل لويس مصطلح (القوّات العربية) في حال النّصر حيث يقول: " ففي عام 846م قامت حملة بحريّة من صقلية فدخلت نهر (التّابير " تيفيري") في ايطاليا واكتسحت القوّات العربية " أوستيا، روما".

في المقابل، يستعمل مصطلح (المسلمين) على الجيوش العربية الإسلامية في حال الهزيمة حيث يقول: " وفي أوربًا، حققت الأسلحة المسيحيّة نجاحًا أكبر، فما أن انتهى القرن الحادي عشر حتّى كان المسلمون قد تركوا صقلية " مع نسبة الأسلحة للمسيحيّة كدين.

يعتمد لويس على إلحاق تهمّة الاعتداء بالإسلام من خلال مصطلح الهجوم، بالمقابل يسمّي دخول الأتراك للأناضول " فتحًا"، وينعت دخول الأتراك للقسطنطينية " استيلاء " رغم أنّها تركية جغرافيا، كما قدّم القسطنطينية بكنهة عقائديّة (مسيحيّة عريقة). حيث يقول: (... وفي الوقت نفسه " أواخر القرن الخامس عشر" كانت موجة ثالثة من الهجمات الإسلامية قد بدأت، ألا وهي موجة الأتراك العثمانيين الذين فتحوا الأناضول، ثم استولوا على مدينة القسطنطينية، وهي المدينة المسيحيّة العريقة، ثم غزوا واستعمروا شبه جزيرة البلقان، وهددوا قلب أوربًا نفسه، فوصلوا في أعماقها إلى فينا نفسها مرّتين...)¹.

إنّ الحدود الثقافيّة للقانون الدولي الغربي كانت في حقيقة الأمر تتحرّك وتُعيد تعريف الفجوة الطبقيّة، فبدلاً من أن يكون القانون الدولي قانوناً للأمة المسيحيّة، أصبح لفترة من الزمن قانوناً للأمة المتحضّرة، وهذا أحد التكاليف التي نتجت عن علمنة النّظام العالمي " ².

" ويمكن القول أنّ الوعي العرقي الحديث (Modern Race Consciousness) له جذوره في تدهور الدّين في أوربًا... والتّأزّات الدّينية في أوربًا بين الكاثوليكيّة والبروتستانت وصلت ذروتها أولاً في معاهدة (أوجسبرج عام 1555م)، وكان هناك دمج للدّين مع السّيادة في هذه المعاهدة، إذ أُعتبر دين الأمير دين إمارته، وأصبح مُعتقد الملك مُعتقد المملكة، وقد أفصح عن هذا المبدأ بالعبارة التّالية:(Cuius Regio Eius Religio) " في منطقتِه يكون دينه" ³.

" مرّت أوربا بتباريح حرب التّلاثين عاما، ومنّ هذه الحرب ظهر صلح وستفاليا عام 1648م الذي وضع أساسات نظام الدّولة الحديثة، ومبادئ التّصوّرات الحديثة للسّيادة، وقد قادت

¹ - لويس، برنارد ، 'مقدمة الكتاب "أين الخطأ، مرجع سابق.

² - مزروعى، علي الأمين، المرجع السابق، ص40.

³ - المرجع السابق، ص 40، 41.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

علمنة الولاء (للدولة بدلا من أن يكون عبر الكنيسة) التي جاءت مع معاهدة ' وستفاليا ' إلى علمنة الهوية، وأصبحت الأمم والأعراق بارزة أكثر من الجماعات الدينية " ¹.

" بعد أن اعتنق الإمبراطور قسطنطين الأول المسيحية في القرن الرابع الميلادي، أصبحت المسيحية ديانة إمبراطورية أكثر منها ديانة مستضعفين، وفي ظل قسطنطين ومن جاء بعده نُظر إلى الرب باعتباره الأعلى في الأرض كما في السماء، وأصبحت هذه سنوات التيوقراطية المسيحية التي امتدت من القرن الرابع عشر إلى القرن السادس عشر " ².

" يعاني العالم الإسلامي كله تقريبا من الفقر والاستبداد، وتُعزى كل من هاتين المشكلتين لاسيما عند أولئك الذين لهم مصلحة في إبعاد الشبهات عن أنفسهم إلى أمريكا: الأولى بسبب السيطرة والاستغلال الاقتصاديين من جانب أمريكا وهما اللذان تُغلفهما اليوم غُلالة رقيقة يُطلق عليها " العولمة " والثانية ، بسبب مساندة أمريكا لمن يُسمون بالحكام المسلمين المستبدين الكثيرين الذين يخدمون أغراضها" ³.

" لم تكن عصورًا مظلمة تلك التي احتشدت فيها المسيحية بأجمعها لتحقيق غرض عام، وحملت لواء عقيدتها إلى قبر مخلصها ومنقذها، كما أنه لا يسعنا إلا أن نُرجي الشكر لذكراه، لأنّ الديانة عندنا ليست إلا من روحه، وكانت بيت المقدس في قلب كل إنسان يؤمن بالمسيح " ⁴.

" هكذا نجد أنه في قلب الغرب، حيث تتواصل منذ قرون ثورات علمية هائلة لا مثيل لها، يبُلُورون بشكل متواز رؤيا ثنوية منوية تتمثل في القطبين التالينين: محور الخير ضدّ محور الشر، الغرب كلّه خير ولا يعاني من أي خلل أو نقص، وعالم الإسلام كلّه خطأ في خطأ أو شر في شر، من يستطيع أن يصدّق صورة تبسيطية كهذه ؟" ⁵.

" هل يعلمون بأنّ (تيرتوليان) * والقديس (أوغسطينوس) قد بلّورا هذا المفهوم من أجل حماية (الدين الحق) ضد مخاطر وتهديدات الوثنية التي كانت تمثل دين الأغلبية آنذاك...فالألاهوت

¹ - مزروعى، علي الأمين، القوى الثقافية في السياسات العالمية، المرجع السابق، ص 41.

² - المرجع السابق ، ص 66.

³ - لويس، برنارد، الإسلام وأزمة العصر، المرجع السابق، ص 133.

⁴ - باركر، أرنست، الحروب الصليبية، نقله إلى العربية : الدكتور السيد الباز، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1967، ص 152.

⁵ - أركون، محمد ، نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية ، المرجع السابق، ص116-117.

* - تيرتوليان: (Tertullien) ولد في قرطاجة بتونس بين عامي 150 و160م، وتوفي في المدينة نفسها بين عامي 230 و240م، من عائلة وثنية ثم اعتنق المسيحية في نهاية القرن الثاني للميلاد، وأصبح أحد آباء الكنيسة الكبار، وهو من أشهر علماء اللاهوت في عصره. نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية، محمد أركون، نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية ، مرجع سابق ، ه ص 117.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

والسياسي واحد من هذه الناحية سواء في ما يخص الإسلام أو في ما يخص المسيحية، هذا هو منظور القرون الوسطى الذي التقينا به أكثر من مرة¹.

¹أركون، محمد، نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية، المرجع السابق، ص117.

المبحث الثاني:

إستراتيجية التحريض والتجيش

المطلب الأول: السلبية أمام الأقوال الفجة وعدم الردّ
عليها

المطلب الثاني: إستراتيجية انتقاء (محطّات) من العلاقة
الدينية

المطلب الثالث: نصائح في شكل جرعات إجبارية

المطلب الرابع: إستراتيجية اعتماد علم (الإسلاميات)
القروسط

المبحث الثاني: إستراتيجية التحريض والتجيش

المطلب الأول: السلبية أمام الأقوال الفجة وعدم الردّ عليها:

بما أنّ التّاريخ هو السّجل الشّاهد الذي تُفترض فيه الموثوقية في رصد حركة الأحداث المُجتمعية، فقد اعتمد برنارد لويس على هذه الحقيقة لكن وفق إستراتيجية مبيّنة، لتمرير فكرة خاطئة للقارئ خدمة لأغراض إيديولوجية .

"خلال الفترة التي يعتبرها المؤرّخون الأوروبيون فاصلاً مظلماً بين انهيار الحضارة القديمة – الإغريقية والرومانية – وقيام الحضارة الحديثة في أوربا، كان الإسلام هو الحضارة الرائدة في العالم التي تميّزت بممالكها الكبيرة والقوية، وصناعاتها وتجارها الغنيّة والمتنوّعة، وعلومها وآدابها المُبتكرة والخلاقة"¹.

الخطأ المنهجي الذي يتعمده لويس ويغضّ عنه الطّرف عن قصد ، هو سكوته عن توجيه التّهمة إليهم أنّهم مؤرّخون ذاتيون، يعيشون في حدود جغرافيتهم الثّراوية والفكرية والعقائدية، ويختصرون الكلّ في أناسهم، لأنّ في وصفهم لتلك المرحلة " بالمظلمة " دليل على تلك القوقعة التي جعلتهم لا يعترفون بالسّنن التّاريخية ولا الكونية التي تقبل التّداول أو التّدافع، هذه السّنن هي التي تفتح للمؤرّخ من أمثال لويس وغيره فرصة كتابة صفحة تاريخية لا تشبه سابقتها، وبدونها كان ما يُكتب من تاريخ عبارة عن تكرار لأحداث تُكتب فصولها تحت اشتراطات تفرض عليها ذوقاً معيناً أكثر منه تسجيلاً ودراسة.

والأكثر خطأً وبعداً عن المسؤولية العلمية، هو عدم تحديده لموقفه ممّا اعتبروه "ظلمة" والاكتماء بنسبته إليهم، وكأنّ الموضوع " تاريخ الحضارات " غريب عنه وبعيد عن تخصّصه، مع أنّنا نراه في غير تخصّصه إذا تعلق الأمر بمسألة خلافية دقيقة بين المسلمين يدلو بدلوه و يتمّظهر بالعلمية والدقّة. ولا يفسّر هذا إلا بالتّهرب من المسؤولية العلمية، ويُفترض منه المناقشة حتّى وإن توصل إلى اعتماد وتأييد ما اعتبره المؤرّخون الأوروبيون بالظلمة.

كما يحدث التّعريب بالقارئ حينما ينجح لويس في ترسّب مفهوم في فكر القارئ مؤداه أنّ هذا التّوصيف يتحمّله المؤرّخون الأوروبيون وحدهم، وأنّ لويس ما هو إلا مؤرّخ ناقل ولا يتحمّل تبعات هذا التّوصيف، وهي إستراتيجية مُعمّدة من طرف لويس حتّى يضمن تواصل قارئه معه.

¹ - لويس، برنارد، الإسلام وأزمة العصر، مرجع سابق، ص 56.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

فالتأكيد والحرص على استمرار اقتران ذكر العصور المظلمة في أوربا بنهضة الحضارة الإسلامية، هو إصرار على اعتبارها بلا حدث، لأنها شرقية المنشأ إسلامية المفهوم ، ومؤرخوهم لم يعتادوا التأريخ لهكذا حضارة، فقد انتظروا أن يستولد التاريخ الأوربي من الحضارتين الأوربيتين " الإغريقية والرومانية "، حضارة أوربية جغرافيا وعقائديا وعرقيا، إلا أنهما عقرتا ويئسنا أن تحيضا هكذا حضارة مما يستوجب أن نحكم بأن الكون كله في ظلمة ، ما دامت أوربا في ظلام، حتى وإن كان النور قد أضاء بشعاعه ضفاف البحر المتوسط الجنوبية والشرقية.

يقدم برنارد لويس نفسه على أنه لم يكترب بوصف المؤرخين الأوربيين لذلك الفاصل بالظلمة، ويعترف بوجود حضارة رائدة في العالم لم تتأثر بظلمة أوربا وهنا يحسب له التنبه لهذا الحدث الذي قلل من شأنه المؤرخون الأوربيون بعدم الوقوف عنده والتعامل معه بلا حدث، إلا أن برنارد ضمن هذا الاعتراف إستراتيجية وصفية أساء من خلالها إلى حقيقة الريادة التي أطلقها في بداية كلامه، فلقد اشتغل على عنصر ترتيب الأوصاف، فقدّم عنصر طبيعة النظام الذي لا يدل في أي سرعة على ريادة دولة أو تفهؤها، لأنه ناتج عن عوامل، أخرى ووصفه " بالممالك " وما تهيؤه من اتهامات، وما تؤدي إليه من تصور لعلاقة الحاكم بالمحكوم وما تتطوي عليه من استبداد وقهر، بل إلى أبعد من ذلك وهو ما يحبّه برنارد، أي الرق والطبقية.

وأما الوصف الثاني فهو " الكبر والقوة "، فهو وصف مخدّر يحجب حقيقة القصد المراد، وطعم يزيد في مصداقيته مع أنه وصف مُسيء للحضارة الإسلامية التي تعني لديه ممالك يكبر ويفوق فيها الاستبداد والطبقية كلما ازدادت جغرافيتها، وهو ربط استراتيجي خطير، لأنه لم يحدّد موقفه من كلام المؤرخين، الذي سيعتمده في مقام آخر ويؤسس عليه أحكاما.

بالمقابل، تعمّد تأخير الريادة في العلوم وآدابها رغم وصفها " بالمبتكرة والخلافة " على حدّ تعبيره، ومع أنه الوصف الذي يتناسب مع الريادة الحضارية إلا أنه استحق التأخير، ومع أن أوربا لا ينسب لها التفوق إلا من خلاله، والغرض من ذلك الإيحاء بمادية الحضارة الإسلامية، ورتبة المعرفة فيها.

يشير لويس إلى " ذلك الميل الغريب عند المسلمين للارتقاء في أحضان كل من يعادي الغرب نكاية فيه، فقد صادقوا النازية، وتعاونوا مع هتلر على نحو ما فعل الحاج أمين الحسيني في فلسطين، ورشيد الكيلاني في العراق ، رغم أن ألمانيا النازية هي المسؤولة عن اضطهاد اليهود ودفعهم إلى الهجرة إلى فلسطين، بينما تمنع بريطانيا تلك الهجرة)¹.

¹ - لويس، برنارد، الإسلام وأزمة العصر، مرجع سابق، ص 25.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

نلاحظ له موقف خطير إذا استدلاً بحدث تاريخي، فهو يستثمره بأبشع الطرق لأغراض أيديولوجية ، ويؤسسه على مغالطات ليستنتج منه تبريراً مُقنعاً لاستغرابه، حيث يجعل من علاقة العرب والمسلمين مع الأتحاد السوفييتي وألمانيا، موقف معاندة للغرب فقط لا موقف تفتراضه المصلحة، ويحملهم مسؤولية اضطهاد الألمان لليهود رغم البعد الزمني بين الحداثين، ممّا يستوجب عدم اعتراض المسلمين لهجرة اليهود إلى فلسطين باعتبار صداقة المُتسبّب في ذلك.

كما يحتج برنارد لويس ويعترض على موقف المسلمين من الغرب بموقف بريطانيا من تهجير اليهود إلى فلسطين بأنّه موقف تاريخي يحسب لها، ويدين المسلمين في موقفهم من الغرب، محاولاً من الناحية الإستراتيجية أن يبرئ بريطانيا من أبشع وأخطر قرار اتخذته في حقّ المسلمين عموماً والفلسطينيين على الخصوص وهو إنشاء الكيان الصهيوني اليهودي على أرض المسلمين في فلسطين من خلال ' وعد بلفور ' المشؤوم ، الذي تأسست على ضوئه مشروعية الهجرة إلى فلسطين التي يدّعي لويس أنّ بريطانيا ترفضها.

" إذا انتقلنا من العموميّات إلى التفصيل فإنّه لا تعوّزنا الأفعال والسياسات التي إجتاحتها الحكومات الغربية، والتي أثارت انفعال وغضب الشرق أوسطيين وغيرهم من الشعوب الإسلامية، ورغم أنّ هذه السياسات غالباً هُجرت وحُلّت المشكلات الناتجة عنها، فإنّ ذلك لم يسبّب سوى تسكين مؤقت ومحليّ " ¹.

في انتقاله من الحكم العامّ على عداوة المسلمين للغرب، إلى تقديم الأسباب التفصيلية لهذه العداوة، يتّبع هذا التفصيل - الواقعي والحقيقي الذي أثبتته أكثر من مرّة - بمغالطة خطيرة وغير واقعية أفسد بها ما أظهره من حيادية وعلمية، إذ ادّعى أنّ السياسات الغربية التي أدت إلى تلك العداوة قد هُجرت، بل وسوّي كلّ ما ترتّب عنها من مظالم وآلام في حقّ المسلمين.

فإذا كانت ألمانيا هي من تسببت باضطهادها لليهود في هجرتهم لفلسطين - وهذا لا يعني تأييدنا للهجرة -، فإنّ بريطانيا هي من أوجبت الهجرة وحددت وجهتها قبل فلسطين، وأعطت الغطاء القانوني بقوة وعد بلفور البريطاني عام 1917م، مما يمنح المسلمين والعرب حقّ تجريم بريطانيا تاريخياً.

كأنّ برنارد لويس يريد من المسلمين أن يؤيدوا هجرة اليهود إلى فلسطين نكاية في النّازية التي اضطهدتهم ويُعلّبوا البعد الإنساني على البعد القومي والعقائدي، ليصفهم برنارد لويس '

¹- لويس، برنارد و إدوارد سعيد، الإسلام الأصولي، المرجع السابق، ص19.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

بمسلمين فوق العادة ' والغرض الاستراتيجي من اعتراضه واستغرابه من موقف المسلمين من الهجرة، هو دفعهم إلى تغيير هذا الموقف، لتتأكد أحقية اليهود بأرض فلسطين، وبإقرار من المسلمين أنفسهم.

" ولنفترض أنَّ العدائية وجَّهت ضدَّ الامبريالية بهذا المعنى : غزو وهيمنة غير المسلمين على البلدان الإسلامية، فلم هي مسنَّعة ضدَّ أوروبا الغربية - التي تخلَّت عن مستعمراتها الإسلامية - أكثر منها ضدَّ روسيا - التي لا تزال تحكم بقبضة حديدية ملايين المسلمين المعارضين لها وتسيطر على مدن وبلدان إسلامية عريقة ؟ ¹.

بالتأكيد أنَّ برنارد لويس يقصد عداوة الشعوب الإسلامية للغرب - هذا على فرض وجودها - ولا يعني عداوة الحكومات التي تُراعي في كثير من مواقفها المصالح واللياقة السياسية وغيرها من الاعتبارات، أمَّا الشعوب فإنها تعرف كيف تصنّف أعداءها، فكم من حكومات متحالفة بدون تحالف الشعوب.

وأما اعتراضات برنارد لويس عن عدم تكافؤ العداوة الإسلامية في الاتجاهين، وتأكيد على زوال السيطرة الغربية، مع بقائها روسيا - ومع الرّفص المبدئي لأي سيطرة - فإنَّ السبب واضح في رأي المنتبئين، ويتمثل في طبيعة الاستعمار الغربي الذي يتبع سياسة الأرض المحروقة مع مستعمراته ' استعمار عسكري، اقتصادي، ثقافي ، عقائدي ' مما يجعل مسببات العداوة متنوّعة ومستدامة حتّى بعد الرّحيل.

أمَّا السياسة الروسية مع مستعمراتها - مع الرّفص المبدئي لأي استعمار - فهي مصلحية مادّية برغماتية بالدرجة الأولى، فالدّافع العقائدي شبه منعدم، أمَّا النّقافي ففي مساحات ضيقة جدًّا لاستساغة الأهداف الاقتصادية و تهذيبها.

" ثمة سبب لفتور الاهتمام بالخمسين مليون مسلم- أو أكثر - الواقعين تحت الحكم السوفييتي، ربّما يعود إلى موازنة المخاطر والفوائد، فالاتّحاد السوفييتي قريب وله حدود مشتركة طويلة مع تركيا وإيران وأفغانستان، في حين أنّ الولايات المتّحدة - وحتّى أوروبا الغربية - بعيدتان جدًّا " ².

يتجاهل برنارد لويس الأسباب الحقيقيّة ويطرح تبريرات مادّية قد تجعل العداوة مُمكنة النّفعل، فالقرب من حدود الاتّحاد السوفييتي قد يغري بتحويل الإحساس العدائي إلى فعل وسلوك

¹- لويس، برنارد و إدوارد سعيد، الإسلام الأصولي، المرجع السابق ، ص 24

²- لويس، برنارد و إدوارد سعيد، الإسلام الأصولي، المرجع السابق ، ص25.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

عدائي، أمّا البُعد فإنّه حالة تُبقي هذا العداء مجرد موقف نظري مؤهّل أن يتخلّى عنه صاحبه لعدم إمكانية تجسيده كمشروع.

المطلب الثاني: إستراتيجية انتقاء (محطات) من العلاقة الدّينية:

لا يتعامل برنارد لويس في نقله للأحداث التاريخية مراعيًا السّياق الذي انتهى بالحدث إلى تلك النّتيجة، كالأحداث السّابقة والوضع العام، والضّرورات الاستثنائية وغيرها ممّا قد يدخل في تشكّل الصّورة النّهائية أو الأسلوب الذي أُعتمد في معالجة تلك الظّاهرة، بل يبتزّ الحالة المستهدّفة منه عن كل ذلك، ثمّ يطرحها كقاعدة يَسْتَوْلِد منها ما يشاء من أحكام، ويقضي بها على كثير من الحقائق التي لا تُلائم طرحه.

" إذا كان التّاريخ الإسلامي يخلو من مظاهر التّحرر والقبول والاستيعاب الغربية للمؤمنين بعقائد أخرى، ولغير المؤمنين على الإطلاق، فإنّه يخلو كذلك من شنائع طرد الإسبان لليهود والمسلمين، ومحاكم التّفنّيش، ومحاكمة المتّهمين بالهرطقة وإعدامهم حرقاً، ومن الحروب الدّينية، ناهيك بالجرائم الحديثة التي تُرتكب أو يتغاضى المسؤولون عن مرتكبيها"¹.

ما يطرحه برنارد لويس من قضايا تتعلّق بالتّاريخ الإسلامي أمر يبعث على الحيرة في فكر القارئ، حيث يبدو وكأنّه يتحدّث عن تاريخ لم يتخصّص فيه، ولم يُثبت له مرات عديدة، وفي سياقات مختلفة ومتعدّدة ما ينفيه هنا، فكيف يفسّر برنارد لويس ما سبق أن أقرّ به في غير موضع موقف الحكم الإسلامي من الآخر إن لم يكن مظهرًا من مظاهر الاستيعاب والقبول ؟ .

" وهنا – أيضا – حقّقت الحكومات [الإسلامية] والمجتمعات درجة من حرّية الفكر والتّعبير دفعت بالمضطهدين من اليهود بل والمسيحيين المنشقّين إلى الفرار من ديار المسيحيّة واللّجوء إلى ديار الإسلام، وإذا كانت حدود الحرّية التي أتاحها العالم الإسلامي في العصور الوسطى لا ترقى إلى المُثل العليا الحديثة بل ولا إلى الأساليب المطبّقة في كُبرى البلدان الديمقراطية المتقدّمة، فلقد كانت تزيد زيادة كبيرة عن الحرّية التي كانت متاحة في ظلّ النّظم التي سبقتها أو عاصرتها أو خلّفتها "².

¹ - لويس، برنارد ، أين الخطأ، المرجع السابق، ص 174.

² - المرجع السابق، ص 145.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

لكن من الغريب أنّ برنارد لويس ، حتّى وان اعترف بايجابية الإسلام تجاه الآخر، ومحاولة الظهور بمظهر الإنصاف مع الآخر، فإنّه يعتمد منهجين غير علميين لاستبقاء الإسلام في قفص الاتهام، والمحافظة على رمزية التّقدم الغربي.

المنهج الأول، المقاربة الخاطئة في المقابلة بين حدثين تاريخيين، يستلزم إثبات أحدهما نفي الآخر وإن كان هذا الأخير مؤصّل في كتب التّاريخ، وفي مؤلّفات برنارد لويس تحديداً، فالحدث المثبت على رأي لويس هو ' شنائع طرد الإسبان لليهود والمسلمين، ومحاكم التّقشيش، ومحاكمة المتّهمين بالهرطقة وإعدامهم حرقاً، ومن الحروب الدّينية، ناهيك بالجرائم الحديثة التي تُرتكب أو يتغاضى المسؤولون عن مرتكبيها '.

وهو اعتراف لكسب مصداقية فيما يريد نفيه عن التاريخ الإسلامي وهو خلّو التّاريخ الإسلامي ' من مظاهر التّحرر والقبول والاستيعاب الغربية للمؤمنين بعقائد أخرى، ولغير المؤمنين على الإطلاق '، ففي هذا الرّبط تجنّي - من خلفية أيديولوجية - على حقيقة تاريخية طالما أثبتها برنارد لويس كمؤرخ، وعمل بهذا السّياق على نفيها كمستشرق.

أمّا المنهج الثّاني، مقارنة خاطئة أخرى تتمثّل في مقابلة حدثين تاريخيين لكل حدث معطياته وسياقه التّاريخي الدّيني والثّقافي الخاصّ، مع التّأكيد على الفارق الزّمني المذهل بين الحدثين، لغرض الانتقاص من أحدهما بالنّظر إلى ما أحرزه الثّاني.

يقارن برنارد لويس بين مفهوم الحرّية ومساحتها وحدودها في التّاريخ الإسلامي في العصور الوسطى، دون اعتبار لما تمثّله تلك الطّبعة في مرحلتها التّاريخية، و مفهومها وحدودها وأبعادها ومقتضياتها وما سخر لها من تشريعات وفلسفات في العصر الحديث غربياً والمقارنة العلمية تفرض وحدة الزّمن بين أطراف المقارنة حتّى يتوصّل إلى حكم واقعي وعلمي.

لا شك أنّ المؤرّخ النّزيه لا يقوم بهكذا مقارنات، لأنّها من قبيل العبث التّاريخي الذي يفضح صاحبه ويكشف مآربه السّياسية والأيديولوجية، وذلك شائع في سلوكه مع الإسلام وحضارته، لأنّه يؤمن بجواز التّعسف في حقّهما، بل حتّى لانتمائهما جغرافياً للشرق الأوسط الذي انخرط مع الغرب المسيحي في بعض المبادلات الثّقافية والدّينية، أسىء استثمارها في سلوك الطّرفين.

" كانت هناك استعارات من الطّرفين وفي الاتّجاهين، ولم يكن التّلاميذ يخلصون دائماً لمن يقتدون بهم ، إذ أخذت أوروبا في العصور الوسطى دينها من الشرق الأوسط، مثلما أخذ الشرق

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

الأوسط منهاجه السياسي من أوربا، ومثلما نجح بعض الأوروبيين في إنشاء مسيحية دون رحمة وتراحم، نجح بعض أبناء الشرق الأوسط في إنشاء ديمقراطية دون حرية¹.

إلا أن اعتماد هذا الطرح غير العلمي لا يؤيده تاريخيا في الإغارة على الحضارة الإسلامية، لأنها ليست طرفا فاعلا في هذه المناكفات العرجاء، في سياق مهترئ أخلاقيا وعلميا، بل وساخر أحيانا، بطرحه في مشهد العقوق بين التلميذ وأستاذه.

" لا تزال آثار النَّعْصَبِ الدِّينِيِّ الغربي ظاهرة في مؤلفات عدد من العلماء المعاصرين ومستترة في الغالب وراء الحواشي المرصوفة في الأبحاث العلمية "².

فما أكدّه برنارد لويس من أخذ أوربا لدينها من الشرق، يثبت لهذا الأخير أحقيته كمرجع في كلّ ما تعلّق بما هو مسيحي، كما يثبت اختطاف الغرب للمسيحية من أيدي أهلها المسيحيين الشرقيين، والسطو على قداستها، وخنقها في تربة غريبة عنها، ممّا أباح لبرنارد لويس اعتبار ذلك نجاح البعض في استيلاء بطريقة قيصريّة – نسبة إلى عنف وقسوة القياصرة – مسيحية بذوق قيصري، واستثمار عناوينها لأغراض عرقية وأيديولوجية، أمّا الإسلام بشرقه وغربه فقد انتقت في حقّه وجه الدّعوى، فلماذا إذ يُقحم في مسألة مسيحية مسيحية، أم أنّ القدر الجغرافي كافٍ لثبوت هذا العداء؟.

أمّا ما تعلّق بحظّ الشرق من الغرب، والذي يساوم به برنارد لويس لتبرير تعسف الغرب في حقّ الشرق الأوسط الإسلامي تحديدا، فإنّ هذه المساومة غير متكافئة من الناحية الفعلية من بداية التبادلات والاستعارات، لا من حيث الطبيعة، ولا السّياق الذي تمّت فيه الاستعارات.

فالغرب – اللاديني حينها – ، كان في غربة روحية، وطرح أسطوري غير مقنع، ليس لديه ما يقدّمه للغير إلاّ تلك الأساطير التي ملّ من اجترارها، فكانت استعارته للمسيحية في بواكير أيامها النّقية تمثّل هبة من الشرق أوسطيين إلى الغرب القروسي، وبطلب منه و طواعية، ولذلك يتحمّل الغرب مسؤولية اختطاف المسيحية والإفساد باسمها.

¹ - لويس، برنارد، أين الخطأ، المرجع السابق، ص 232.

² - فوزي، فاروق عمر ، الاستشراق والتاريخ الإسلامي ' القرون الإسلامية الأولى '، الأهلية للنشر والتوزيع، المملكة الأردنية الهاشمية، عمان، ط1، 1998، المقدمة .

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

أمّا السِّياق الذي يدّعي برنارد لويس أنّه تمّت فيه استعارة الشُّرق أوسطيين للمنتج الغربي ' الديمقراطية ' فهو سياق آخر تماما، فالفارق الجوهرى ظاهر بين المسيحية كدين سماوي المصدر، والديمقراطية كطرح بشري صرف، لا تجوز المقاربة بينهما منهجياً.

إضافة إلى مسألة مهمّة جدًّا، لم يكن برنارد لويس أميناً في طرحها، وهي أنّ الديمقراطية الغربية فُرِضت على الشُّرق أوسطيين بقوة القرارات الصّادرة من المنظّمات الغربية تارة، والعالمية وبإيعاز من الغرب أخرى، وبقوّة السّلاح و العقوبات الاقتصادية كأسلوب جديد لإحياء هذه الاستعارات، أو كشرط لبقاء الحكّام المستبدّين - على رواية برنارد لويس - ممثّلين للمشاريع الغربية ومبشّرين بها، ولم تكن اختياراً حرّاً ولا مطلباً ذاتياً من مجتمعات الشُّرق الأوسط ، بل كانت في أغلبها سببا في ضياع مكتسبات ما قبل الديمقراطية كما أقرّ برنارد لويس بذلك في موضع آخر.

ومع أنّ برنارد لويس يُقرّ بأنّ المجتمع الإسلامي ليس طفرة، وأنّ العقيدة التي توطّره منشأها الوحي الذي يعتزُّ به، فإنّ هذا " الوحي الإسلامي ليس بداية بل تنمّة، وهو الحلقة الأخيرة في سلسلة الوحي، والجماعة الإسلامية على هذا ليست وجوداً جديداً، وإنّما هي إحياء وتحسين لشيء ما وُجد من قبل، منذ زمن بعيد " ¹.

يُخصّ تحديد العلاقة بين هذه الأطراف بأسوأ محطّاتها عبر التّاريخ، محمّلاً الطّرف الإسلامي المسؤولية لبيّر حقّ الرّد والتعسّف، مع محاولة ظهوره بالمؤرّخ التّزيه في إشارته إلى مرور بقية الديانات الأخرى بهذه الحالة العدائية للأخر دون الاعتراف للإسلام بحقّ الدّفاع عن النّفس الذي وصفه بالرّد الاضطراري ضدّ المسلمين، دفاعاً عن التّراث اليهودي المسيحي كما أشار في موضع آخر و هو توصيف استراتيجي يُحمّل الجانب الإسلامي تهمة الاعتداء.

" لكنّ الإسلام شأنه شأن الأديان الأخرى، عرف أزمنة بُعث فيها مزاج الكراهية والعنف في نفوس بعض أتباعه، ومن سوء حصننا أن نكون مضطّرين لمواجهة جانب - من العالم الإسلامي في الوقت الذي يمُرُّ فيه بمثل هذه المرحلة، وأنّ يكون الجانب الأكبر من الكراهية- وبالتأكيد ليس كلّ- موجهاً إلينا " ² ، كما يعطي بهذا الطّرح الحقّ للغرب بأنّ يُكيّف من الإسلام نمطاً يتلاءم مع الذّوق الغربي.

¹- لويس، برنارد ، ب م هولت، مؤرّخو العرب والإسلام، نقله إلى العربية وقدم له سهيل زكار، دمشق، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، ط 2008، ص 278.

²- لويس، برنارد، الإسلام وأزمة العصر، المرجع السابق، ص 70.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

" وهكذا تمَّ غرس بذور عداوة مستحكمة امتدت زمنا طويلا بين العالمين المسيحي والإسلامي، وراحت النُصرانية الغربية تنظر إلى الإسلام أو العالم (الآخر) على أنه معضلة، وهي معضلة اكتسبت بمرور الوقت أبعادا فكرية ودينيّة هامّة، إضافة إلى جوانبها السياسيّة والعسكرية الأصليّة¹.

وحتى يُمعن برنارد لويس في تَعوُّل الإسلام على الدِّيانات الأخرى، يلجأ إلى اعتماد المقياس الديموغرافي لتأكيد اضطهاد الإسلام لديانتين وإظهارها بمظهر الضّحية من خلال نسبة أتباع الديانتين في المنطقة الشّرق أوسطية.

" والمسيحية واليهودية كلتاها دين أقلية إلى حدٍّ بعيد جدًّا في الشّرق الأوسط بأسره، وقد ظلّت المسيحية تخسر أرضا على نحو مطّرد في الأراضي الوسطى، ديموغرافيا وسياسيًّا. وقد يعزّز من موقفها العودة إلى دين دولتين مسيحيّتين، وهما: أرمينيا وجورجيا، لكنّ تأثيرهما ظلّ محدودا للغاية حتّى الآن " ².

لم يُفعل برنارد لويس حقيقة اعترف بها كذا مرة في كونها أحد العوامل التي أدت إلى الوضع المسيحي في الشّرق الأوسط، كون أنّ أكثر الحروب المسيحية كانت داخلية أي ' مسيحية مسيحية ' ممّا يؤثّر على الجانب الديموغرافي لأتباعها، إلّا إذا كانت تلك الحروب تقتصر نتائجها على بعض الجروح الطّفيفة التي لا ترقى إلى التأثير على نسبة المسيحيين في الشّرق الأوسط.

" فبينما حارب المسلمون ربّما أكثر من المسيحيين ، أتباع العقائد الأخرى ليخملوهم على الدّخول في الإسلام، فإنّ المسيحيين كانوا يتجهون بدرجة أكبر إلى الحروب الدّينية الدّاخلية – باستثناء بارز يتمثّل في الحروب الصّليبية – ضد أولئك الذين رأوا أنّهم منشقون أو هراطقة " ³.

ومع هذا الاعتراف بوجود قتال مسيحي داخلي، فإنّه يضمّنه اتّهام الإسلام بأنّه دين عدواني انتشر بالسيف لا بالإقناع.

وإذا كانت المسيحية قد وجّدت لها متنقّسا في الغرب الأوربي حيث لم تعد حجّة كافية للطّعن في علاقة الإسلام ببقية الدِّيانات الأخرى فقد اكتسحت الجغرافية الأوربية كلّها وصولا إلى الأرض

¹ - دفتري، فرهاد ، خرافات الحشاشين وأساطير الاسماعيليين، ترجمة: سيف الدين القصير، دمشق، دار المدى للثقافة والنشر، ط 2، 2004م، ص80.

² - لويس برنارد، الايمان والقوة، مرجع سابق، ص 134.

³ - لويس برنارد، الإسلام وأزمة العصر، مرجع سابق، ص 154 .

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

الجديدة، فإن الديانة اليهودية لم تتمكن من ذلك للطبيعة الخاصة بها كدين لليهود فقط – وهذا المعطى لم يشر إليه برنارد لويس رغم علمه بهذه الحقيقة وهو سكوت استراتيجي ، بل أحال القارئ إلى فعل خارجي وراءه الأنظمة العربية التي يُحمل الغرب أخطاءها و قصورها الإسلام كدين ، مع أنها صنعة الغرب باعتراف برنارد لويس نفسه.

" وتمّ القضاء على اليهودية فعليا في معظم البلدان العربية، وبقيت بين أقلّيات صغيرة ومتناقضة في المغرب، تركيا، إيران، الجمهوريات السوفيتية السابقة، وهي دين الأغلبية – والمُهيمن – في إسرائيل"¹.

يضيف برنارد لويس حقيقة أخرى تصف طبيعة العلاقة بين الإسلام والمسيحية أنّهما من نفس النوع، وهو تعبير مُشكّل يطرح عدّة افتراضات، فالديانات التوحيدية، الإسلام من جهة، واليهودية والمسيحية قبل التحريف من جهة، ديانات سماوية تشترك كلّها في وحدة المصدر وهو ' الوحي الإلهي ' وفي وحدة الغاية وهي ' توحيد الله وعدم الشّرك به '، فليس هناك إذا ما يدفع إلى القضاء عليها في البلدان العربية والإسلامية كدين، أمّا ما يعنيه لويس ويريد تمريره بهذا الأسلوب فهو التّواجد الديموغرافي والسلوك المؤسّس على الطّرح الصّهيوني ، الذي يلقي الرّفص والممانعة الشّعبية العربية والإسلامية كما حدث له في أوربا سابقا.

هنا يجب التّنبه إلى المغالطة التي يتبنّاها برنارد لويس والتمتمّة في ترحيل حقيقة هذه العلاقة التي لا ينكرها المسلمون، إلى غير موضعها بين الإسلام وما حرّف من الديانتين ' المسيحية واليهودية ' ، وهو تصرّف استراتيجي خطير يستثمر فيه هذا المستشرق لإدانة الإسلام والمسلمين بناءً على هذه العلاقة المُفتعلة والخاطئة، والتّبرير لتعسف الإسرائيليين – مسؤولين ومستوطنين – وإصرارهم على ترحيل غير اليهود من فلسطين بناء على هيمنة الديانة اليهودية على الدّولة ومكوّناتها، قياسا على هيمنة الإسلام في أغلب الدّول العربية وقضائه – كما يزعم – على اليهودية والتّضيق على أهلها.

" فالإسلام والمسيحية كلاهما دينان من نفس النوع إلى حدّ كبير جدًّا، ولهما تاريخ مشترك، وعدد كبير من المعتقدات المشتركة، وعندما يكون لديك دينان بنفس المفاهيم الدّاتية، ويطالبان بنفس الحقوق في نفس المنطقة الجغرافية، يكون صراع بينهما شبه حتمي. ولكن، حتّى وإن كان الوضع كذلك، فقد كان هناك نوع من الوحدة في الصّراع"².

¹ – لويس برنارد، الايمان والقوة، مرجع السابق، ص 134، 135.

² – المرجع السابق، ص 179.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

كما يتعسف برنارد لويس عن قصد في اعتماد كل ما أعتق من الأفكار والطقوس على أنه دين، ويساويه بالديانات السماوية في كثير من الأوجه مثل : الهندوسية والكنفوشيوسية والبوذية ، وهي هرطقات أرضية لا علاقة لها بالوحي ، ولا يجوز بأي معيار أن تُذكر في موضع واحد مع الديانات السماوية.

قد يكون التبرير الأقرب إلى الواقعية الذي يدفع بمؤرخ مرموق ومستشرق حاذق مثل برنارد لويس إلى اعتماد هذا الخلط المقرّر، هو ذوقه الاستشراقي المؤطر على إلحاق الضرر بالإسلام ، إضافة إلى الحقيقة التي تضغط عليه كمؤرخ وهي أن الديانتين ' اليهودية والمسيحية ' دُنستا بفعل أيادي الرهبان والقساوسة بالتّحريف، ممّا يسمح بمساواتهما بالهندوسية والبوذية لاشتراكهم في كونهم نتيجة بشرية لا تتمتع بقداسة الوحي السماوي، ويكون ضمّ الإسلام إلى هذه الحظيرة المفتعلة من الديانات إهانة كبرى ومبرر لإلحاق أيّ تهمة بالإسلام تستحقّها بغيّة الهرطقات الأخرى.

" من أجل أن نقرب من بعض الفهم لسياسات الإسلام، ينبغي أن نفهم ' لغة الخطاب السياسي عند المسلمين وطريقة استعمال الكلمات وفهمها، وبنيّة الاستعارة والإشارة التي تُعدّ جزءاً ضرورياً لكلّ اتصال " ¹.

" هناك عواطف متشابهة عبّر عنها - بكلمات مختلفة إلى حدّ ما - من قبل مراقبين مسلمين للثورة الإيرانية، وهم متباعدون بقدر بُعد جنوب آسيا عن غرب إفريقيا، وفي أوساط الأقليات القومية المسلمة في الاتحاد اليوغسلافي الخاضع للحكم الشيوعي " ².

يقتبس من قرار للخليفة أمير المؤمنين عمر ' رضي ' يتعلّق بأسباب رفض أمير المؤمنين الموافقة على إسناد مناصب حسّاسة في الدّولة لأعداء شرعية، ومواقف سيادية، حيث اعتبرها برنارد لويس لغة خطاب سياسي دالّ على حقيقة العلاقة بين المسلمين والمسيحيين.

" عبّر الخليفة عمر عن رفضه استخدام المسيحيين في مراكز القوّة بهذه الكلمات : ' لا أكرّمهم إذ أهانهم الله، ولا أعزّهم إذ أدلّهم الله، ولا أدنيهم إذ أقصاهم الله ' " ³.

و أصل هذا الحديث جاء في سياق آخر تماماً له علاقة بأسرار الدّولة في مراسلاتها، وما تتطلبه من سرّيّة وأمانة حتّى في الموظّفين المسلمين أنفسهم.

¹- لويس، برنارد ، لغة السياسة في الإسلام، المرجع السابق ص 15.

²- Alexandre Popovic, Lislam Balkanique , les musulmans du sud-Est European dans la periode Post-Ottmane , Berlin 1986, pp.343 FF.

³- ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج 1 (القاهرة 1962م) ص 43.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

عن أبي موسى (رضي الله عنه) : أن عمر (رضي الله عنه) أمره أن يرفع إليه ما أخذ وما أعطى في أديم واحد وكان لأبي موسى كاتب نصراني يرفع إليه ذلك، فعجب عمر رضي الله عنه وقال: إن هذا لحافظ، وقال: إن لنا كتابا في المسجد وكان جاء من الشام فأذعه فليقرأ قال أبو موسى: إنه لا يستطيع أن يدخل المسجد. فقال عمر رضي الله عنه: أجنُبْ هُو؟ قال: لا بل نصراني، قال فانتهرني وضرب فخذي وقال أخرجني وقرأ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾، المائدة، قال أبو موسى: والله ما توليته إنما كان يكتب قال: أما وجدت في أهل الإسلام من يكتب لك؟ لا تُدْنِيهِمْ إِذْ أَفْصَاهُمْ اللَّهُ وَلَا تَأْمَنُهُمْ إِذْ أَخَانَهُمْ اللَّهُ وَلَا تُعْرَضُوا بَعْدَ إِذْ أَذَلَّهُمُ اللَّهُ فَأَخْرَجَهُ" ¹.

المطلب الثالث: نصائح في شكل جرعات إجبارية:

إنَّ الخبرة التي اكتسبها هذا المستشرق في الشَّان العربي والإسلامي جعلت منه مؤرِّخًا مختصًا في العلاقة مع الشَّرْق الأوسط بكل تحولاته، فقد رصد هذا المؤرِّخ المحطَّات الأكثر تأثيرًا على مجريات الأحداث وقام بتحليلها بشيء من الحياديَّة في أكثر الأحيان من النَّاحية النَّظريَّة.

" في أوقات السَّخَط وخيبة الأمل والغضب والإحباط هذه، فقَدَت الجاذبيَّات الأقدم للقوميَّة، والاشتراكية، والاشتراكية الوطنيَّة- عطايا أوربَّا في القرنين التَّاسع عشر والعشرين -، الكثير من قوَّتها، ويلتمس الديمقراطيون والأصوليون الإسلاميون اليوم ما هو أكثر من الولاءات الشَّخصية أو المحليَّة " ².

يؤكد لويس بهذا الاعتراف نماذج الوصِّفات السِّياسية والاقتصاديَّة والاجتماعية المنتهية الصَّلاحية التي أجبر الشَّرْق أوسطيون على التَّضحية من أجلها بقيمهم ومشاريعهم العقائديَّة والسِّياسية والأخلاقية، وأقدم هذه الوصِّفات ممارسةً و شعارًا في الواقع السِّياسي العربي هي القوميَّة، مع أنَّها تندرج ضمن مصفوفة البدائل الغربية التي تُطرح كحلول مُسْتَنَتَّة للجهود العائدة بالشُّعوب الشَّرْق أوسطية إلى منابعها الأولى ومشاريعها الأصيلية.

¹ - البيهقي، سنن البيهقي الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، مكتبة دار الباز - مكَّة المكرمة ، 1414 - 1994، تحقيق : محمد عبد القادر عطا، كتاب آداب القاضي، باب لا ينبغي للقاضي ولا للوالي أن يتخذ كاتبًا ذميًّا ولا يضع الذمي في موضع يتفضَّل فيه مسلما، حديث رقم (20196)، ج3، ص1475.

² - لويس، برنارد، الإيمان والقوَّة، المرجع السابق، ص 82.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

" أمّا الحلول التي تُعرض علينا في المجال السياسي، مثل : البعثية، والبربرية، والإفريقيّة والشُّبُوعية، تلك الشُّبُوعية التي يربعاها الاستعمار ويسهر على إنباتها في مدفاته، وما ذلك الأدب المُطنّب في المدح والتَّمجيد لماضينا إلّا وسائل إلفات في المجال السياسي، وفي المجال الفكري¹.

كانت القومية من أنجح الوصفات الغربية التي كُتِب لها أن تُعطى المبرر - ولو إلى حين - في واقع المجتمعات العربية وحتّى الإسلامية لأنّها توافقت مع تركيبة الشَّخصية العربية الطَّموحة التي تربّت على النِّقافة الشَّفوية من النُّثر والشُّعر، كما كانت من الوصفات الأكثر قبولا لإحداث التَّمايز في مقابل القوميات الأخرى في المنطقة، باعتبار أنّ الشُّرق الأوسط مزيج من القوميات ، فكان اعتمادها كعقيدة سياسية مبرر إلى حدّ ما، مع أنّها تعرّضت للاستغلال لأغراض أخرى.

" كلّ المحاولات لتعريف القومية العربية - رغم ما يشتمل عليه من ألفاظ غامضة- تكاد تُجمع على الأسس التي تستند إليها هذه القومية وهي : رابطة الفكر والموطن ووحدة اللُّغة والثَّقافة والتَّاريخ والنُّضال والمصير المشترك، وهذا عينٌ ما حقَّقه الإسلام للأمة العربية ولكن على مستوى أرفع وعمق حضاري أبعد ممّا عرفته القوميات الأوروبية الحديثة التي نشأت في أوربا " ².

وبما أنّ المنطق يفرض تفعيل الظروف التي تشكّل في مناخها أيّ مصطلح واحترام آليات تشكيله وأهدافه، إضافة إلى الاختبار العملي الذي تعرّضت له القومية من الممارسة الإسلامية لمفهومها وتحديد أهدافها وفق ذلك المفهوم، وضبط أبعادها بما يتوافق والمصالح الشرعية.

هذا التَّفاوت والتَّباین في التَّعامل مع مفهوم القومية أنتج صراعا مفتعلا في طبيعة وحقيقة القومية باعتبارها مشروعا سياسيا لا يتجاوزه أيّ مشروع سياسي آخر، أمّ لُحمة لغوية تؤيِّدها علاقة إثنية قد تتبنّى أيّ مشروع سياسي آخر، وهذا هو السِّياق الذي تبنّاه المشروع الإسلامي في علاقته مع القومية بالنظر إلى المناخ الذي وُلد فيه مصطلح القومية، مع كامل الضمانات لحرية المعتقد لشركاء القومية.

¹ - بن نبي، مالك ، إنتاج المستشرقين، المرجع السابق، ص 18.

² - عبد القادر، محمد الخير ، نكبة الأمة العربية بسقوط الخلافة العثمانية، دراسة للقضية العربية في خمسين عاما (1875-1965م)، القاهرة، دار التوفيق النموذجية للطباعة والجمع الآلي، ط1، 1985م، ص 28-29.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

" إنَّ حركة القومية العربية وُلدت في منتصف القرن التَّاسع عشر بجهود عدد ضئيل من السُّوريين، وكانت كثرتهم من النَّصارى لبناء نهضة أدبية عربية وتذكير الغرب بترائهم الثقافيِّ، وأنَّ الكليَّة السُّورية – الجامعة الأمريكية فيما بعدُ – لعبت (تحت إشراف المبشِّرين الأمريكيَّان) دوراً هاماً في ظهور هذه النَّهضة"¹.

إذاً لا تتضمَّن القومية في بدايات تشكُّلها رؤية مشروع سياسي يهدف إلى ممارسة السُّلطة، بقدر ما كان محاولة لإثبات الذات والمحافظة على الموروث الثقافيِّ العربي – المسيحي والإسلامي واليهودي – الذي قرأ تلك المرحلة التَّاريخية بمهْماز غربي قراءه خاطئة مضمونها التَّهديد القومي التُّركي لكلِّ ما هو عربي بشرعية الخلافة العثمانية، التي كانت في خصومة داخلية مع بعض المكوِّنات السِّياسية التُّركية العلمانية المُعادية لكل ما راعته وحافظت عليه الخلافة العثمانية.

فقد كانت " سنوات الحرب العالميَّة الأولى (1914/1918) تمثِّل الفترة التي طُفح فيها كيِّل الأتراك الاتِّحاديين ووضَّحت فيها اتِّجاهاتهم المُعادية للعروبة والإسلام، وعنفهم في قمع حركة الإصلاح النَّاشئة، وإعدام قادة الحركة العربيَّة أفراداً وجماعات في دمشق وبيروت، والحُكم غيابياً على قادتها في مصر"².

كانت الخلافة في مراحلها الأخيرة في حاجة إلى مساندة وتأييد من جميع رعاياها وفي مقدِّمتهم العرب بما أنَّها تمثِّل الإسلام بالدَّرَجَة الأولى، لكن القوميِّين قد وُعدوا من بريطانيا بما يؤهِّل مصطلح القومية من مجرد انتماء عرقي إلى مشروع سياسي يتَّوج في الأخير بإمبراطورية عربية كانت مُستَلَبَة باسم الإسلام من العثمانيِّين الأتراك الذين يتحمَّلون المسؤولية في جرائم الأتراك الاتِّحاديِّين، في تقدير بعض العرب الانفصاليِّين.

" شهدت هذه الفترة التَّحوُّل الخطير في اتجاه القضية عندما قرَّر قادة العرب الثَّورة على حُكم الأتراك الاتِّحاديِّين والدَّعوة إلى الاستقلال الكامل"³.

" لقد انفرط العِقد الذي كان يربطهم تحت راية الخلافة العثمانية، وأطلَّت عليهم دول غربية عنهم، نفوُّهم علماً وقوَّة ودهاء، فوقف العرب حائرين أمام هذا التَّحدي: وقف كثرتهم مع الدَّولة

¹ - Leonard Stein, The Belfour Declaration. London. 1961, pp 86/87.

² - عبد القادر، محمد الخير ، نكبة الأمة العربية بسقوط الخلافة الإسلامية، المرجع السابق، ص 11.

³ - المرجع السابق، ص 11.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

العثمانية تشدُّ أزرها وتدعو إلى إصلاحها لمواجهة الغزو الأوروبي ، وجنح آخرون إلى الانفصال عنها تحت تأثير الأفكار الجديدة، داعين إلى (دولة قومية) تُفرِّق بين الدين والدُّنيا "1 .

" لا فرق بين الأمراء الذين انفصلوا بإماراتهم عن الخلافة فصاروا سلاطين ودُوِيَّات تتناحر على أرض الخلافة، وبين ما طبَّقه الاستعمار غير المباشر بمن عيَّنهم ولأهله عند الإكباشي واحد: فهؤلاء أكثر خيانة للأمة من أولئك لأن السلاطين لم يُفْتِنُوا التَّاريخ الإسلامي الواحد لشرعنة تقبُّل الجغرافيا "2.

هنا ظهر البُعد الحقيقي الخفي في تبرير قبول الغربيين وعودهم بتأييد مشروع دولة قومية ذات عرق عربي بديلا عن إمبراطورية أوربية جغرافيا قريبة إثنيا من اللغات الأوربية، لأنَّ الغرب يعلم مدى محدودية مثل هذه المشاريع التي أثبتت فشلها أوربياً، كما أنَّها تضمن عدم وقوع المحذور أوربياً في أيِّ مشروع بناء دولة تستنزل بهدي الدين والقيم الريانية.

ومع أنَّ الأتراك الاتحاديين كانوا قلة من حيث العدد، إلاَّ أنَّ الفكرة كانت غريبة أكثر منها محلية ذاتية ممَّا مكَّنها من أن تجد طريقها إلى التجسيد، من خلال الدعم الغربي الذي يخفي مقاصدها الحقيقية كئمن لهذا الدعم.

" لم تأل بريطانيا جهداً في استغلال هذا الموقف وتوجيهه لتحقيق مآربها، رافعة شعار استقلال البلاد العربية وإحياء الخلافة في دار العروبة، فكانت الخديعة الكبرى التي واجهتها الأمة العربية في تاريخها الحديث "3 .

والأمر المُحير في موقف العروبيين – فوق العادة – أنَّهم لم يقرأوا أبعاد تصرفهم في شقِّهم عصا الطاعة لدولة الخلافة وهو في الحقيقة من أجل الخدمات التي قُدِّمت للاتحاديين الذين ضربوا القومية في في أشهر معاقلة، حيث اغتالوا قاداتها التاريخيين في أشهر العواصم العربية، مما يؤشِّر على ولاء عروبي مغشوش ومصالح شخصية وولاءات أجنبية ترتدي مُسوح القومية العربية نكاية في الخلافة العثمانية التي استطاعت أن تستنفر الدول الغربية.

إنَّ الانفصاليين باسم القومية العربية المتأمرين مع أعداء مشروعهم ضدَّ الخلافة الإسلامية في شكلها العثماني، برهنوا تاريخياً أنَّهم قد غرَّروا بهم سياسياً وأخلاقياً أمام الأمة العربية التي من أجدياتها الوفاء لأهل الفضل وعدم التَّنكر لهم، أو عون أعدائهم عليهم أو خيانتهم.

¹ – العظم، رفيق ، أسباب تفهقر المسلمين، المنار م 11/7، 1904، ص661.660.

² – المرزوقي، أبو يعرب: (فيلسوف عربي تونسي)، مقال في معاني الخلافة وأبعادها العميقة: مقال بمناسبة وفاة المستشرق برنارد لويس، الاثنين 21 مايو 2018 بمجلة الأمة. <https://www.alomah.com>

³ – عبد القادر، محمد الخير ، نكبة الأمة العربية بسقوط الخلافة الإسلامية، المرجع السابق، ص11.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

إنّ الدّولة العثمانية " وحتّى في عصور ضعفها ، كانت - بحقّ - الملاذ السّيّاسي للشّعوب الإسلامية المتطلّعة إلى العون في جهادها ضد الاستعمار، تطلّعت إليها حركة المقاومة الجزائرية ضدّ الفرنسيين بعد احتلالهم للجزائر، واستغاثت بها تونس، كما تطلّعت إليها شعوب القوقاز في نضالها ضدّ مطامع القيصريّة الروسية في القرن التّاسع عشر " ¹.

" ولكن سرعان ما تحوّل حلفاء الأمس وأدعياء الصّدّاقة العربية إلى أعداء لحركة التّحرّر العربي فقمعت هذه الثّورات كلّها بقوة وعنف، وظفّرت الأُمَّة العربية بقبض الرّيح بعد أن تمرّدت على دولة الخلافة العثمانية وساعدت على إسقاطها وحصدت خيبة الأمل" ².

مع هذا الواقع المفضوح الذي شكّته بريطانيا الاستعمارية مع السّدج من بعض المنتفعين - آنذاك - من القومية العربية، ومع أنّ لويس حملّ القومية العربية المسؤولية التاريخية وتبعات تخلف المجتمعات ، قبل أن يُرحّل هذا الحكم إلى الإسلام، فقد نصح بهذا الرأي - رغم أنّه عاب على العرب ذلك، ها هو يؤسّسه ليجعل من القوميات المتعدّدة في المنطقة مدخلا لإنسانيا يصل من خلاله إلى بني عقيدته ومحور مشروعه الشّرق أوسطي (اليهود والنّصارى).

"يقترح لويس ضرورة التّفاهم مع القومية العربيّة، وهذا معناه الواضح، التّعامل مع القوميات المختلفة في المنطقة والأيدولوجيات القوميّة، والأقليات النّصرانية واليهودية، وإهمال التّعامل مع المنطقة كمنطقة إسلامية " ³.

" إنّ الحلّ المقترح هو بكل بساطة استعادة ما أفقدنا إيّاه الانحطاط من تعالٍ على العرقية والطائفية والانضواء تحت مظلة أسمى توحدنا تاريخيا فننّحد جغرافيا ونصبح بحقّ ذوي سيادة وحماية ورعاية فلا يستطيع أحد النّفاذ بيننا ليفرقنا فنكون نحن من يفتّت الجغرافيا والتّاريخ وليس برنارد لويس ومن يعمل بخطّئه" ⁴.

يقول عمر " رضي الله عنه " في موضوع العنصرية والعصبية: " إنّ العرب شُرّفت برسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولعلّ بعضّها يلقيه إلى آباء كثيرة، مع ذلك والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا (يعني العرب) بغير عمل فهم أولى بمحمّد منّا يوم القيامة، فلا ينظرُ رجل إلى قرابة ، وليعمل لما عند الله، فإنّ من قصّر به عمله لم يُسرّع به نسبه" ⁵.

¹ - Arnold Totmbee, A study of History, Oxford University press London 1969. Vol 8. p 962/963.

² - عبد القادر، محمد الخير ، نكبة الأُمَّة العربية بسقوط الخلافة الإسلامية، المرجع السابق، ص 12.

³ - مطبقاني، مازن صلاح ، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، المرجع السابق، ص 385.

⁴ - المرزوقي، أبو يعرب ، مقال في معاني الخلافة وأبعادها العميقة، المرجع السابق.

⁵ - الطبري، محمد بن جرير ، تاريخ الطبري، دار المعارف، القاهرة 1963، ج4، ص 210.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

فقد قَبِلَ برنارد العروبة بما تحمله من ذوق عِرقي - ومسيبات التَّخلف والبربريَّة على حدِّ تعبيره - ليقطع الطَّريق على الإسلام ، رغم أنَّه هو الأقدر بلسان التَّاريخ وواقع الحال الذي أقرَّ به لويس في أكثر من موضع، جاعلا من هذا الطَّرح بداية مشروع خطير، يستنهض من خلاله النُّعرة اللُّغوية " القوميات المختلفة " في المنطقة، وتغييب اللُّحمة الدِّينية التي وحدت المنطقة لقرون عديدة، وحفظت للأقليات الدِّينية واللُّغوية الحقوق والحريَّات التي لم يجدها حتَّى في الغرب - باعتزافه هو-، وهو تعامل غير علمي، لأنَّه حلٌّ لغير مشكلته.

فقد أقرَّ لويس أنَّ الصِّراع عقائدي ضمن " مناظرة جيبون التَّصادمية " الأزلية، مع أنَّ الحلَّو عِرقيَّة إثنيَّة ، مما يقدر في نواياه بشأن النِّقاهم مع القومية العربية، وبما أنَّ أساس سوء العلاقة (عقائدي)، فكيف ينصح بضرورة النِّقاهم مع مكَّون لم يتسبَّب في إفساد هذه العلاقة، ولم يكن محور المناظرة الكبرى التي اعتمدها كحقيقة أزلية في بقاء سوء هذه العلاقة؟.

يعيد برنارد لويس صياغة مهزلة الانفصاليين في سياق استعلائي تأنبيي، يحكم من خلاله على سذاجة بعض القوميين المغرَّ بهم ، ويضع القومية العربية كاتِّمءاء غير قابل أو مُوهل للتميُّز بمفرده بمشروع خلافة أو دولة أمام اتِّمءاءات إجبارية في سياق فيه حقُّ الاختيار من النَّاحية الشُّكلية.

"وأمام الشُّعوب العربية طرق مختلفة لحلِّ مشكلة التَّكْييف طبقا للأوضاع الجديدة: فقد يُقبَلون أحد أشكال الحضارة الغربية المتنازعة الماثلة أمامهم، فيدمجون ثقافتهم وذاتيتهم في كيان كَلِّي مسيطر ، وقد يحاولوا أن يُعرضوا عن الغرب ونتاجه وأن يسعوا وراء سراب العودة إلى المُثل الثيوقراطية الضَّائعة فيوصلهم هذا لا إلى تلك المُثل، بل إلى حكم استبدادي معرَّز بما يُفتنَّب من الغرب من وسائل الاستغلال والكبْت ومن مصطلحات التَّعصُّب الرنَّانة " ¹.

لم يشِرْ برنارد لويس إلى حقيقة الأوضاع الجديدة وسياق تشكُّلها، ويدَّعي الاختلاف المُوهم بالتَّنوع الحقيقي، ويشترط في أحد الأشكال الحضَّارية المعروضة الوحيدة من النَّاحية الواقعيَّة و المفروضة وجوب إدماج التَّنافة والذاتية العربيَّة في هذا الكيان الحضَّاري الغربي، أو يختار العرب الحلَّ الأسوأ في نظر برنارد لويس والذي طرحه في سياق مشحون بالتَّخويف والتَّحذير المعرَّز بوسائل الاستبداد الغربية الحديثة.

¹ - لويس، برنارد ، العرب في التاريخ، ترجمة: نبيه أمين فارس ومحمود يوسف زايد، بيروت، دار العلم للملايين، 1954، ص 253، 254.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

" كانت هناك نزعة قووية لا واعية تحاول أن تصوغ الإسلام حتى يتلاءم مع القوالب النصرانية أو بالأحرى القوالب الغربية، وهذه النزعة تفترض أنه يجب على الإسلام أن يقبل (الإصلاح) على الخطوط والأنماط التي أتبعها الإصلاح الديني في أوربا الغربية، ولهذا يجب على القومية العربية أن تقلد النماذج الديمقراطية الدستورية السائدة في أوربا والولايات المتحدة الأمريكية"¹.

ومثل هذه الكتابات بالطبع إنما هي أدلة يمكن الاعتماد عليها للدلالة على قناعات الكاتب السياسية وهي في الوقت نفسه أكثر صدقا في كونها دليلا أيضا على جدارته العلمية، ثم إن هذه الكتابات تُبين بوضوح أن قلبه وعواطفه يكونان حيث يجب أن يكون عقله، ولذلك فإن مثل هذا المستشرق الذي يصبر على صدق أرائه قد يكون محاميا ممتازا، ولكنّه في الوقت نفسه لا يكون إلقاضيا فاشلا"².

" يحاول لويس أن يجد طريقة للتعامل مع العرب والمسلمين: هل يستخدم معهم سياسة القوة أم سياسة التهدئة؟ ويبسط لويس الأمور إلى حد كبير حين يصف العرب بالأطفال المدللين، وهذا التصوير فيه خروج عن المنهج العلمي الذي ينبغي فيه النظر إلى الأمم الأخرى على قدم المساواة والندية والتكافؤ"³.

لقد صور هذا المستشرق المؤرخ من خلال الاختيار الأول وضعية العرب قبل التمرّد، بل كان حالهم أفضل ممّا ينصح به، فإذا كانت نصيحة برنارد لويس للعرب ضرورة الاحتماء بكيان مسيطر، فقد كان واقعا حاصلًا مع الإمبراطورية العثمانية التي دوّخت الغرب، مع الاحتفاظ بالثقافة والذاتية العربية، ما يعني أن طرح برنارد لويس يدعو إلى التخلي على مقومات وثقافة القومية العربية، لصالح القوميات الغربية الحديثة، ورفضه كمؤرخ غربي التعامل مع كيان ' مسيطر' إسلامي.

يقول برنارد لويس عن رفض الجزائريين سياسة الاندماج مستغريا: " إنهم لم يقولوا : الجزائر جزائرية، أو الجزائر عربية، وإنما قالوا : الجزائر مسلمة "⁴.

يستغرب لويس على الأتراك افتخارهم بلقب "عثماني" الذي طوّعه برنارد لويس بآليات غربية ليصبح معناه "إسلامي" رغم أنه إنتساب عرقي عائلي (لآل عثمان) ومؤسسي الدولة

¹ - طيباوي، عبد اللطيف، المستشرقون الناطقون بالانجليزية، المرجع السابق، ص66.

² - المرجع السابق، ص140.

³ - مطبقاني، مازن صلاح، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، المرجع السابق، ص385.

⁴ - لويس، برنارد: الشرق الأوسط والغرب، المرجع السابق، ص95.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

التركية القديمة ، يقول برنارد: " وحتى كلمة 'عثماني' لم تكن تحمل معنى قومياً وإنما كانت في مدلولها شبيهة بكلمة 'عباسيين أو أمويين أو سلاجقة'، أما الأتراك فكان تعريفهم لأنفسهم أنهم 'مسلمون'، ولأنّ ولاءهم للإسلام وليت آل عثمان"¹.

لقد بلغ برنارد لويس مبلغاً متقدماً في اعترافاته المقصودة والعرضية في إظهار رفضه وعدم قبوله بحرية الشعوب لاختياراتها، والتقليل من مكانة الأخر، أو الارتياح لانجازات الأبطال لا لكونها تستحق ذلك، بل المهمّ عنده أنّهم ليسوا عرباً كما صرّح في حق إنجازات القائد صلاح الدين الأيوبي – رحمه الله-.

من خلال هذا الموقف، يتبين عدم اكتراث لويس باعتماد مناهج غيرعلمية، دون أن يخجل من قراءته أو يعنذر لهم إذا تعلق الأمر بالحضارة الإسلامية وتاريخها، مع أنه يتغنى – نظرياً بالحيادية والعلمية والمنهجية، ويعترض على المؤرخين المتعصبين – على حدّ قوله –، الذين لا تصدر نتائج أبحاثهم إلا من خلفية عقائدية أو أيديولوجية، واحتتمى لويس بفساد منهج المؤرخ (لامانس) في دراسته للحضارة الإسلامية وإعلانه ذلك على لسانه لإبعاد نفس التهمة عن أبحاثه رغم أنّها تجسدت في أغلبها بكل وضوح ، لأنّ القارئ بهذا الاعتراف وتقييم (لامانس) بهذا الحكم ، سيكون مستقظاً من لويس ويرفض في حقه أيّ تهمة من هذا الصنف، ولا يرضى لأعماله وبحوثه إلا بتقدير " العلمية ".

المطلب الرابع: إستراتيجية اعتماد علم (الإسلاميات) القروسطي:

مع ما يمتلكه الشرق من قرب واحتكاك بالظاهرة الإسلامية – دينا وحضارة وثقافة – فإنّ بعض المهتمين الغربيين القدامى الذين انشغلوا بالديانات، كانوا أعدل من غيرهم في وصف العلاقة معه التي لم تتجاوز الخلاف اللاهوتي ممّا حافظ على اللحمة الشرقية بين أصحاب الأديان، الأمر الذي لا يروق لأدعياء المسيحية أن تُوطر العلاقة على أساسه.

لم تُحترم القواعد المعتمدة في الدراسات التاريخية من حيث ترتيب المصادر وأولويتها في دراسة العلاقة التاريخية بين الإسلام والمسيحية، أو حتى اليهودية من طرف المؤرخين المعاصرين والمستشرقين، حيث تظهر الانتقائية على حساب الأمانة العلمية التي لم تُعدّ تهمّ أمام الضغوطات الإيديولوجية، أو الانتماءات العقائدية في الغرب .

¹ - Lewis , Bernard . The Emergence of Modern Turkey. Op.cit, p. 1-2.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

" تُعدُّ المؤلفات التي وضعها يوحنا الدمشقي (المتوفى سنة 750م) من أبكر الدراسات المسيحية الشرقيّة عن الإسلام، وأمّا مجادلاته مع الإسلام فإنّها إزّتدت طابعا لاهوتيا محضاً، وليس طابعا سياسيا إيديولوجيا، والسبب في ذلك يعود قبل كل شيء إلى أنّه لم تجرِ تحولات جماهيرية في عهد الخلفاء الأمويين – الذين كان هو ووالده وجدّه في خدمتهم- ، كما أنّ المسيحيين السوريين لم يروا بعدُ في الإسلام خطرا روحياً عليهم، وإنّما وقفوا منه كموقفهم من عقيدة شعب شبه بربري" ¹.

المؤرخون الشرقيون محضوؤون أكثر من غيرهم لعظم الأحداث التي شهدوها الشرق الأوسط عبر التاريخ، التي تنوّعت من حيث الطّبيعة والزّمان والمكان، فكانت بحوثهم التاريخية تتّصف بالمصادقية والرّصانة والتّجرد، لأنّ الحدث التاريخي مشرقياً بالدرجة الأولى، وهم أمناء على تفاصيله أكثر من غيرهم، ولأنّهم يشاركون إخوانهم من الديانات الأخرى هذا المشرق والعيش المشترك فيه.

لا يجد الصّلف الغربي في رواية المؤرخ المسيحي الشرقي ' يوحنا الدمشقي ' للعلاقة المسيحية الإسلاميّة، الثّرية المناسبة التي تمكّنه من تأسيس أو هام تاريخية تعود على ترويجها ودعمها على ذمّة التاريخ، فما جاء في مؤلفات الشرقيين ' الدمشقي والصوري وأسقف عكا وغيرهم ' عيبه الوحيد أنّ كتابه لا يليق بهم تشويبه أو استغلاله، لأنّهم إن فعلوا به ذلك قضاوا بقية حياتهم يدفعون ثمن ذلك التشويه.

" فالصيغة السّورية كانت على الأغلب أكثر تحفّظاً واتّساقاً بحيث نجد أنّ المناظرة كانت تظّم بدرجة أكثر أو أقلّ من الوصف والتّفصيل حجج الخصم وأرائه، أمّا الصّيغ البيزنطية (وكان ثيوفانس الواعظي – الواعظ – واحداً من أهمّ أعلامها)، فكانت في معظمها مؤدّجة، ناهيك عن أنّ المعطيات التي تقدّمها عن عقيدة المسلمين – إذا قدّمها – تأتي مشوّهة لهذه العقيدة بصورة حادّة " ² ، لذلك فقد أفصى الأوربيون المصادر الأصيلة التي تؤهّلهم من الوصول إلى أحكام صادقة – رغم توفّرها – واعتمدوا على النّمودج البيزنطي، وحاكموا الحضارة الإسلاميّة على أساسه.

¹ - جورافسكي، أليكسي ، الإسلام والمسيحية: من التناقص والتصادم إلى الحوار والتفاهم، ترجمة: الدكتور خلف محمد الجراد، بيروت، دار الفكر المعاصر، ط 2، 2000م، ص 69/68.

² - S. Jargy, Islam et chrétienté. Les Fils D'Abraham entre La confrontation et Le dialogue (Geneva, 1981), p108

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

" والواقع أنَّ التَّصوُّرات المتكوَّنة عن الإسلام كبدعة مسيحية مرتدَّة ومنشقة ، وعن محمَّد كنبِّي مزيف، انتقلت من مسيحيِّ سورية إلى البيزنطيين ومنهم إلى الأوربيين، ولا بد في هذا السياق من التأكيد أنَّ الصَّيغ السُّورية والبيزنطية للمؤلفات المسيحية الجدالية المناقحة عن العقيدة المسيحية قد تمايزت عن بعضها بشكل جوهري"¹.

وهذا التمايز يجب أن ينظر إليه من الناحية التاريخية والعلمية ، أنه اختلاف جوهري مسَّ حقائق عن التَّصورات التي كان المسيحيون السُّوريون أقرب إلى أحداثها من غيرهم، حيث أنَّ الصَّيغ السُّورية لا تتجاهل كثيرا من المعطيات الواقعية التي تربط الديانتين وطبيعة العلاقة بين أتباعهما الموصوفة في أغلب الأحيان بالإيجابية.

" والحقيقة أنَّ أوريا تعرَّفت المؤلفات الدينية والكلامية المعادية للإسلام في نموذجها البيزنطي بالدرجة الأولى، في حين أنَّ الأدب السُّجالي للمسيحيين السُّوريين باستثناء حالات قليلة جداً (مثلا : ما اشتهر في الأوساط المسيحية الإسبانية بعنوان: " رسائل عبد المسيح بن إسحاق الكندي" ، لم يكن معروفا عند الأوربيين"²، في حين أنَّ الغرب لا يُخفي تقديره للمعرفة الشرقية إذا تعلق الأمر بغير الإسلام وحضارته.

" والمسيحيون الشرقيون ذووا المعرفة بتاريخ الإمبراطورية الوثنية والمسيحية الرومانية، ومن خلالهم وجدت بعض الروايات حول التاريخ الفارسي والروماني طريقها إلى اللغة العربية، وذلك مع المادة اليهودية المسيحية التوراتية، بحيث أصبح الجميع جزءا من المادة العامة للتاريخ الإسلامية العامة"³.

هنا فقط يكون لشرقية المؤرخين المسيحيين السُّوريين وغيرهم معنى يضيف على الرواية التاريخية المشروعية، لأنهم لا ينضبون بشروط نقل الروايات التاريخية التي تتعلق بتاريخ الإسلام، بل بتاريخ الإمبراطوريات الوثنية والمسيحية والرومانية، وبالتالي فإنَّ التَّحقيق من الرواية والتَّجريد في إثباتها ونقلها يجعل من الاحتجاج بها تأكيدا على علمية وثبوت الحدث .

" ففي العصر الوسيط تحديداً، - أي في زمن المبادلات الثقافية الأكثر فاعلية، تشكلت في الوعي المسيحي (الشعوري واللاشعوري) القوالب النمطية الذهنية عن الإسلام، وهي التي نشأت في كثير من جوانبها بارتباط مُسبق وارتهان شرطي بنوع وطبيعة الموقف التقليدي للكنيسة من

¹ - Ipid, p.108.

² - جورافسكي، أليكسي ، الإسلام والمسيحية، المرجع السابق، ص 71

³ - لويس، برنارد ، ب م هولت، مؤرخو العرب والإسلام، المرجع السابق، ص 278.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

الإسلام¹، حتّى أصبح الوعي الأوربيّ في الخطوط الأمامية للإجهاد على الحضارة الإسلامية ولكن بدوق كنسي، مُبرِّءا الكنيسة التي تُمثّل المسيحيّة في هذا الصّراع، ومُلحِقاً تهمة التّخلف والعداء للحضارة والعلم بالإسلام، من خلال خصومة الوعي الغربي لكلّ ما هو إسلامي.

ومع أنّ بعضاً من التّغيّرات قد حدثت، إلّا أنّ نمط التّعامل مع الآخر لم يكتسب طرْحاً جديداً يتوافق مع الواقع، ويمنح الفرصة للطّرفين من أجل زرع طفرة التّقارب.

" يمكن القول بموضوعية كاملة: إنّ (علم الإسلاميات)، وُلِد في أحشاء المخطّطات الاستعمارية، أو على الأقلّ تزامن مع ارتفاع الأصوات الدّاعية إلى استعادة السّيّطرة على الأرض المقدّسة من أيدي مُغتصبيها المسلمين عن طريق إتّباع جملة من الإجراءات العملية التّطبيقية، في مقدّماتها، إنشاء المدارس العربية في الغرب كشرط لتحقيق المعرفة الدّقيقة لعقليّة العرب والعقيدة الإسلامية"².

ولم يتوقّف هذا التّشويه المؤسّس على علم الإسلاميات الذي رعته الكنيسة على الدّوائر الكهنوتية الرّسمية فقط، بل تعدّى ذوقه إلى ميادين الفلسفة التي من المفروض أنّ تكون حيث لا تكون الكنيسة للعداء المتأصّل بين الفِكرين ' الفلسفي والكنسي '، إلّا في مواجهة الحقيقة الإسلامية فإنّ كلّ العداوات والخلافات توضع جانبا.

" فقد تهكّم ' مارتين لوثر ' على تصوّرات القرون الوسطى (الأوربية) حول الإسلام، وقدم لتأييد وجهة نظره هذه عيّنات ونماذج تقليدية ممّا أسماه (خرافات الأوربيين وجهالتهم) حيال الإسلام، كما رفض لوثر فكرة الحروب الصّليبية، و نادى بدلا من ذلك بوجوب اتّخاذ موقف صبور ومتسامح من الأتراك، لأنّه رأى فيهم عقوبة ربّانية عادلة للمسيحيين بسبب خطاياهم وذنوبهم "³، وهو سياق في قمّة التّحريض على الخلافة الإسلامية على خلفية دينية عدائية، لأنّ الدّعوة الصّادقة إلى التّسامح معهم لا تجد جهودهم وتضحياتهم من أجل قيام إمبراطوريتهم، لا أنّ تختزل حقيقة وجودهم وحكمهم في رواية خرافية الغرض منها مجرد التّأنيب.

" أمّا رئيس دير كلوني (الأبّاتي)، بطرس المُبجل أو المُكرم-⁴ Petrus Vernabiles, 1059-1156 الذي ترجم القرآن إلى اللّاتينية، فيمكن من دون مبالغة تسميته بـ

¹ - جورافسكي، أليكسي، الإسلام والمسيحية، المرجع السابق، ص66.

² - المرجع السابق، ص 102.

³ - G. Zananiri, L'église et L'islam (Paris, 1969), pp.177/178.

⁴ - المحترم، بطرس 1092 -1156 Pierre Le vénérable

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجبيش-روح الاستعلاء"

(مؤسس الدراسات الإسلامية لدى مسيحيي القرون الوسطى)، وقد انطلق من مسلّمة حتمية الصّراع مع الإسلام، ولكن ليس بالسيف، وإنما بالكلمة والإقناع والحجّة، وفي نظره للمسلمين كهراطقة " ¹.

هذا على المستوى اللاهوتي الكنسي، أمّا على المستوى الفكري والفلسفي فقد كان لهما محطّات عدائية على خُطى بعض المؤرّخين ومواقف من الفكر والفلسفة الإسلامية لا تقلّ عدائية عن الروايات التّاريخية، بل تتجاوزها في التّهكّم والحطّ من أقدس الرّموز الدّينية والعلمية عند المسلمين.

" وإذا كان دانتي قد أفرد للفيلسوفين المسلمين (ابن سينا، وابن رشد)، مكانا في (اللّمبو)، الذي جمع فيه كلّ الخيرين من غير المسيحيين في جحيمه، فإنّه وضع نبيّ الإسلام محمّدا وابن عمّه الخليفة الرّاشد الرّابع، علي بن أبي طالب في الخندق التّاسع من الحلقة التّامنة في (الجحيم الدّانتي)، الذي يظنّ مثيري الصّدّامات والانشقاقات الدّينية والسياسيّة " ².

راهب لاهوتي فرنسي، ولد في ' أوفرني - Auvergnat، نشأ في دير قريب من سوكسيلانج تابع لدير كلوني صار رئيسا لدير ' دومين Domene- في 1120م، ثم رئيسا لدير كلوني - Abbe de Cluny، ترجم القرآن إلى اللاتينية سنة 1143م، توفي في 25 ديسمبر 1156م، عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، (بيروت، لبنان، دار العلم للملايين، مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر، ط 3، 1993م) ص 110.

¹ - عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، المرجع السابق، ص 79.

² - اليعقوبي، دانتي، الكوميديا الالهية، دار المعارف، مصر، ط 2، 1955، ص 371.

المبحث الثالث:

إستراتيجية الروح الاستعلائية والتمركز

حول الأنا الغربي

المطلب الأول: الأنا الغربي و إستراتيجية تأسيس السلبية
في السلوك الإسلامي

المطلب الثاني: العقل العربي وتهمة (الذرية) في
التفكير

المطلب الثالث: إستراتيجية الاستعلاء بالذوق العمراني
الغربي

المطلب الرابع: إستراتيجية تعويم الأحداث التاريخية
إيديولوجيا

المبحث الثالث: إستراتيجية الروح الاستعلانية والتمركز حول الأنا

المطلب الأول: الأنا الغربي و إستراتيجية تأسيس السلبية في السلوك الإسلامي:

من الناحية النظرية، يقر برنارد لويس بأمرين أساسيين يتعلقان بمكانة أوروبا في الأنا الأوربي، وبحقيقة هذه المكانة من الناحية الواقعية بين الماضي والحاضر.

" نلاحظ أن الأسس المتبعة في طرق البحث التاريخية تجد صعوبة في إزالة الخرافة التي تعتبر أوروبا في كل العصور تحتل الأهمية العالمية سياسيا وحضاريا كالتي تتمتع بها الآن " ¹.

فقد كشف خطأ الموقف الأوربي في تقدير مكانته عبر العصور استنادا على مكانته في العصر الحديث، ووصف هذا التقدير بالخرافي لأنه لا يستند على معطيات تاريخية واقعية، بل تأسس على ترحيل بأثر رجعي الحالة الصحية المتقدمة التي تشهدها أوروبا في العصر الحديث وإسقاط هذه الحالة على ما سبق العصر الحديث، والتعامل مع الآخر على هذا الأساس.

وكعادته في التهرب من المسؤولية التاريخية، يُحمّل برنارد لويس طرق البحث التاريخية الغربية فشل إزالة هذه الخرافة من التفكير الأوربي مع كونه أحد الداعمين لتأصيل هذه الخرافة من الناحية العملية، إذ يُهمل الموضوع الأهم في هذا القضية وهو المعالجة العلمية لما ترتب عمليا من مواقف عن هذه الخرافة في حق الآخر، وهو موقف مراوغ يكسب برنارد لويس تاج اكتشاف الحقيقة دون وجوب الالتزام بها من الناحية العملية.

"جاءت فكرة المؤلف ' برنارد لويس ' عن العلوم والتكنولوجيا شاملة، بحيث وجدناه يتحدث عن بعض أبحاث علماء المسلمين، وقد وقع المؤلف في كثير من المغلطات حين نسب الكثير من الاكتشافات العلمية لعلماء الغرب، ولم يعترف إلا بفضل سطحي لعلماء الإسلام، وليس هذا بجديد على من ينكرون أصالة العقلية العربية الإسلامية وإبداعها " ².

بل إنه يذهب الى حدّ التشفي والمبالغة في المباحات بالتقدم الغربي ويعتبر أي سلوك منه دال على الأفضلية العلمية والتكنولوجية التي توجع العرب والمسلمين، فهو يرى أن " الضربة الغربية

¹ - لويس، برنارد، المساهمات البريطانية في الدراسات العربية، جامعة لندن، نيويورك، تورنتو، 1941، ص 07.

² - تنبؤات برنارد لويس، مستقبل الشرق الأوسط، الترجمة لشركة رياض الريس للكتب والنشر، بيروت ط1، 2000، ص 13

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

المضادة فقد جاءت ضد الشرق من جهة أخرى؛ فعندما وصل ' فاسكو دي جاما ' إلى ' كاليكاتا ' قال إنه جاء للبحث عن المسيحيين والتوابل " ¹.

إذا كانت رحلة فاسكو دي جاما دينية تجارية بالدرجة الأولى، ولم تكن علمية بحتة كما يتباهى بها الغربيون ويحتجون بها عبي تاخر العرب والمسلمين في الاستكشاف، فضلا أن يثيروا الى بعض إسهامات العرب والمسلمين في بعض تلك الفتوحات العلمية.

" وربما لم يشر المؤلف إلى بعض الحقائق الهامة هنا لطمس معالم الحقيقة التاريخية، فقد كان للعرب الفضل الكبير في تنمية دراسات علوم البحار في مدرسة 'جنوا ' البحرية؛ إذ إنه قد أصبح تقليدا أن يكون كبير المعلمين في هذه المدرسة من العرب " ².

" لهذا فإن أقرب الاحتمال أن تكون الخرائط التي توصل عن طريقها ' كولومبوس إلى اكتشاف أمريكا من صنع الملاحين العرب، فضلا عن أن معظم الذين صاحبوا كولومبس من البحارة كانوا من المضطهدين دينيا في اسبانيا، أي أنهم من المدجنين الذين أُجبروا على التَّصير، ففرُّوا بدينهم خلاصا من هذا المحيط الخائق المستبد إلى ميدان أوسع وأرب وهو أمريكا" ³.

إن الواجب العلمي يفرض على المؤرخ النزيه أن يعمل بما أقر به من حقائق ولو خالفت ما هو سائد على افتراض أنه محل جدل علمي مؤسس فضلا أن يكون ' خرافة '، لا أن نجعل من العادة المستندة على ' خرافة ' عذرا في تبرير مكانة موهومة لأوربا في غياب استحقاقاتها التاريخية والموضوعية.

" وكان الدرس الأول لهذا الغزو الغربي للعالم الإسلامي يحمل حقيقتين :

الأولى، إن حملة صغيرة – كحملة بونابرت – تستطيع غزو واحتلال بلد عربي دون صعوبة تذكر، الثانية، إن حملة غربية ثانية كانت قادرة على إخراج المحتل الأول " ⁴.

" إن ما تعودنا عليه في الغرب هو أن يزداد تمسكنا بمتلنا الغربية كلما ازداد اتجاه الشرقيين إلينا، وذلك بجعل أنفسنا مثالا للفضيلة والتقدم الحضاري، فإذا تشبه الشرقيون بنا فذلك جيد

¹ - لويس، برنارد ، لغة السياسة في الإسلام، المرجع السابق ص 42.

² - تنيوات برنارد لويس، مستقبل الشرق الأوسط، المرجع السابق ص 12.

³ - المرجع السابق، ص 12.

⁴ - المرجع السابق، ص 14/13.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

والعكس يعد عندنا شراً، فالتقدم هو في محاكاتها والتقهقر والسقوط هو عدم التشبه بنا " ¹.

ورغم هذا التنبيه الذي يمتلكه برنارد لويس حول هذه المغالطة، فإنه لا ينفك أن يؤكد فعل هذه المغالطة ويرسخ لضغطها في توصيف العلاقة بين الشرق والغرب، ونعت كل ما هو شرقي عربي إسلامي بأسوأ النعوت.

لدقة ملاحظته، استطاع لويس أن يرصد حركة الأسرى - في حالة فرارهم من الأسر - ويسجل إبداعهم، يقول: " وكان الأسرى الغربيون في الشرق حين يفرون من الأسر، أو يُقْتَدون بالمال ويعودون إلى أوطانهم يكتبون كتابات كثيرة يحكون فيها عن مغامراتهم، وعن الأراضي التي رأوها، والناس الذين قابلوهم في الشرق الذي تكتنفه الأسرار " ².

فقد أثبت لأسير فار، كتابات كثيرة لا تستحضر مادتها العلمية وضمانتها التاريخية، ولا يعتد بحجيتها إلا إذا كانت حافظة من سجلها في ظروف نفسية وفكرية هادئة، وهي غير متوفرة في هذه الحالة التي أسسها لويس للحكم على عقلية ومواهب الأمة الإسلامية قاطبة.

ثم إن هذه الأسرار التي وصف بها لويس الشرق ، وأكد أنها شددت انتباه أسير أوربي فار من الأسر يخشى إعادته إلى الأسر، أو تراجع من دفع الفدية عن فديته، لم تمتلك تلك الأسرار من التأثير على شد انتباه مواطنين مقيمين على أراضيها، أحرارا آمنين على أنفسهم ، وقد توفرت لهم الوقت وكل أسباب النظر والتدبر والتجاوب معها، حيث لم يسجل لهم لويس أي إشارة تذكر، فكيف يكون حض الأسرى من المسلمين أمام أسرار الغرب ؟ .

يقول لويس: " ولكن أسرى الشرق الأوسط في الغرب، الذين عادوا إلى ديارهم، ظل معظمهم صامتا" ³ ، يريد تأسيس مبدأ السلبية عند المسلمين من خلال حالة لا تصلح أن تكون نموذجا معبرا عن الحالات العامة، كما أن الايجابية التي وصف بها الأسرى الأوربيين لا تعتمد كحكم عام لعدة أسباب منها:

1 - إن ما تعرض له أسرى المسلمين في الغرب عموما وفي اسبانيا على الخصوص، غني عن الذكر، أهمها الأشغال الشاقة، المعاملة السيئة، محاكم التفتيش، السجون السرية، الزنازين

¹- فوزي، فاروق عمر ، الإستشراق و التاريخ الإسلامي، المرجع السابق، ص 53.

²- لويس، برنارد، أين الخطأ، المرجع السابق، ص 45.

³- المرجع السابق ، ص 45.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

المرعبة...، هذه الحالة تُفضي إلى سلوك غير عادي، وعلم النفس يثبت ذلك، وهو عيب في المعاملة والواقع لا في كفاءة الشخص.

2 - أما الايجابية التي وصف بها أسرى الغرب في الشرق، فهي - إن صح تاريخيا ما ادعاه لويس- كذلك نتاج وضعيتهم في الأسر، التي يضبطها ويراقبها الشرع، وهي ايجابية في المعاملة والوضعية التي وفرتها جيوش المسلمين لأسرى الغرب منذ غزوة بدر الكبرى باعتبارها أول مواجهة بين الكفر والإسلام، وليست بالضرورة نابعة من كفاءة الأسرى الغربيين.

فالأسير في الإسلام، تحفظ كرامته كإنسان، ولا يُكف إلا بما يطيق، ولا يتخذ دروعا بشرية ولا يمثل به، ولا يقتص منه لخطأ غيره، بل وتحترم فيه الكفاءة وتستثمر لصالحه وتكون سببا في حرته، كذا النسب مثل الكفاءة.

وللمعاملة الراقية التي تُحرك البيئة الإسلامية ، فانه لا غرابة أن يحدث ذلك فيهم رغبة في سرد ما رأوه وكتابته، حتى يسجل التاريخ صفحة أخرى من مآثر المسلمين ولو بأقلام خصومهم، فتكون أبلغ مقالا، رغم أن لويس أحجم عن ذكر ما كتبه، ولم يحجم إلا لكون الشهادات لا تصب في سياق مشروعه.

فالقفز فوق كل هذه الحقائق التاريخية التي سبق للويس أن أشار إلى بعضها عرضا، والاكتفاء بالتلميح إلى (الاجيابة)، يعتبر تغريرا بالقارئ وتزييفا للوقائع - وهذا ديدنه-.

لكنه سرعان ما ينسى فيصرح بما يناقض به أحكامه السابقة، وكأنه يظن بالقارئ قبول الرأي الأخير دون النظر إلى ما سبقه، أو يتهم - بطريق غير مباشر- القارئ بالعجز عن استحضار ما قاله في نفس السياق، أو ظنا منه أن القارئ ينظر إلى قوله كلاما منزها عن كل اتهام إذ يقول - بعد ما صرح به .

" كما كان المسلمون يقومون بأسفار طويلة إلى الجنوب والى الشرق من ديار المسلمين، إما طلبا للتجارة أو نشدانا للمعرفة...وأما الأراضي التي تقع وراء الحدود الشمالية الغربية للإسلام، فلم يكن بها ما يغري بالزيارة من التجارة أو المعرفة..."¹

¹ - لويس، برنارد، أين الخطأ، المرجع السابق ، ص45.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

بالإضافة إلى ما تحمله هذه المقولة من تهديم و عصف للأحكام التي أطلقها، فإنها تحتاج إلى تمحيص وخاصة في مضمون قوله : " ...والى الشرق من ديار الإسلام.. " ، فالجملة تحتل توجيهين :

- اعتبار من " بضعية " ، أي : من بعض ديار الإسلام، وهنا لا يستقيم الأمر مع توصيف مسافة الأسفار بالطول، ثم إن ما كان جزء من الدولة يكون تابعا لها حكما، إضافة إلى عدم تحديده وتعريفه للقائمين بهذه الأسفار، فاللفظ هنا عام يصدق على كل فرد من الرعية، وبالتالي استعمال وصف " المسلمين " لا فائدة منه، إلا إذا كان الطرف الثاني غير مسلم لتمييزهم عنه، ولوجوده - ضرورة - خارج حدود الدولة جغرافيا .

- اعتبار "من" توجيهية، وهذا قياسا على قوله : " إلى الجنوب " ولم يقل بعدها : من ديار المسلمين، بمعنى حدود الدولة من الجنوب والشرق، وهذا هو الاحتمال الذي يستقيم مع السياق، وعلى هذا الأساس، فانه مرة أخرى يقضي على مسلمات في موقفه من المسلمين منها ما يلي:

- أن المسلمين منغلقيين على أنفسهم، ولا يستفيدون من الغير .

- أن المسلمين يتعالون على غيرهم - حتى يشاركوا اليهود في هذه الصفة - فهم كذلك يدعون اختيار الله لهم.

- أنهم ينظرون إلى الشرق (الصين)، والغرب (أوربا) باعتبارهم مصانع للوثنية والرقيق على التوالي.

- أما الحدود الشمالية الغربية للإسلام - أي أوربا-، فقد نفي عنها خاصية " الإغراء "، مع أن أثنى ما فيها يدخل في دائرة تخصص المسلمين وهو " تجارة الرقيق " التي أكد عليها مرارا.

بل انه يضيف إلى تهمة السلبية تهما أخرى تُنتج نقائص أخرى تركز هذه السلبية حيث " يدعوا لويس أن يهتم الغرب بأصول نظرة الشرق أوسطيين إلى الغرب وتطورها، ويزعم أنه في غياب التحليل الذاتي ونقد الذات في المنطقة يجعل هذه النظرة أكثر أهمية، وهذه الدعوة من لويس تأتي منسجمة مع دوره في الاستشراق السياسي والتخطيطي لمواجهة الوعي الصحيح لدى الشعوب العربية الإسلامية بحقيقة موقف الغرب من الإسلام والمسلمين"¹.

¹ - مطبقاني، مازن صلاح ، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، المرجع السابق ، ص383.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

إلا أن عيب لويس أنه لا يهتم بما يقع فيه من تناقضات أثناء تأليفه، والمهم عنده أن يصدر أحكاما حتى ولو كانت لا تتسجم مع ما توصل إليه من حقائق، فهو نفسه من يؤرخ لسلوك المسلمين ومواقفهم لحظة نصرهم على الرومان، ويثبت لهم ما عجز عنه غيرهم ممن يصفهم بالاجابية.

"عندما فتح المسلمون من العرب عددا من الولايات الرومانية في الشام وشمال إفريقيا وأوربا، لم يسلكوا مسلك برابرة الشمال الذين اعتنقوا المسيحية، والذين حاولوا جاهدين أن يحافظوا على بعض سمات الدولة الرومانية وقوانينها، وانتفعوا باللغتين اللاتينية واليونانية، اللتين كتبت بهما قوانينهم وكتبهم المقدسة"¹.

" بل إن المسلمين أتوا معهم بكتابهم المقدس، بلغتهم، وأنشأوا دولتهم، ومؤسستهم الخاصة ذات السيادة وشريعتهم الخاصة "².

يَعْتَبِرُ برنارد لويس التَمَيُّزَ و الاعتماد على القدرات الذاتية في بناء الدول والمجتمعات وجه من أوجه السلبية، ويشترط وجود البصمة الأوربية في أي مشروع عربي وإسلامي، مع أن قناعته في الحالات العامة من الناحية التنظيرية تناقض هذا الاشتراط.

" تصوغ كل حضارة فكرتها الخاصة عن الحكم الرشيد، وتنشئ مؤسسات تسعى من خلالها إلى وضع تلك الفكرة موضع التنفيذ، ومنذ العصور الكلاسيكية القديمة، عادة ما كانت هذه المؤسسات في الغرب تشتمل على شكل ما من أشكال المجالس أو الجمعيات التشريعية، التي يشارك من خلالها أفراد الدولة المؤهلون في تشكيل وإدارة الحكومة، واستبدالها أحيانا "³.

يؤسس برنارد لويس للسلبية في سلوك المجتمعات العربية حكاما ومحكومين، فهو يشرعن لوجود القوى الخارجية في البلاد العربية، من خلال فرضية عدم كفاءة الحكام العرب والمسلمون لتحمل مسؤوليات مجتمعاتهم السياسية والاقتصادية وغيرها .

" كثيرون في الشرق الأوسط سيجدون صعوبة في التكيف مع الوضع الجديد الناجم عن غياب القوى الاستعمارية الامبريالية، فللمرة الأولى منذ مئتي سنة يواجه حكام وشعوب الشرق

¹- لويس، برنارد، أين الخطأ، المرجع السابق، ص 153.

²- المرجع السابق، ص 153.

³- لويس، برنارد، القوة والقداسة، المرجع السابق، ص 84.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

الأوسط فكرة قبول كامل مسؤوليات بلادهم، وأن يتخذوا قراراتهم لوحدهم، وأن يرتكبوا أخطاءهم وأن يتحملوا مسؤولياتها¹.

كما يقرر برنارد لويس وجوب وقوع الحكام العرب في أخطاء، كانوا في السابق يحملونها للعدو الخارجي ألا وهو الغرب، لأن مسؤولياتهم كانت منقوصة بسبب التدخل الخارجي، مما يفتح قوسا خطيرا بضرورة الاستجداد بالخارج الذي يستطيع اتخاذ القرارات التي يعجز عنها الشرق أوسطيون.

" من الطبيعي في هذه الأحوال، أن الشرق الأوسط سيستمر في الافتراض أن المسؤولية الحقيقية والقرارات الهامة، سيتولاها أشخاص في أماكن أخرى بعيدة، إن من الطبيعي أن هذا الاعتقاد سيقود النظريات التأميرية ضد هؤلاء الذين يُعتقد أنهم أعداؤهم – كإسرائيل أو اليهود أو الولايات المتحدة - والغرب عموما " ².

"حتى أن بعضهم يذهب إلى دعوة قوى خارجية للتدخل، اعتقادا منهم أن قوة أجنبية هي وحدها قادرة على اتخاذ القرار وفرضه، وأفدح مثال على ذلك، الدعوات المتكررة لتدخل الولايات المتحدة في النزاع العربي - الإسرائيلي، في الوقت الذي تتعالى فيه صرخات الاتهام ضد ' الاستعمار الأمريكي ' " ³.

مغالطة مفضوحة يريد برنارد لويس تمريرها، وهي اعتبار أن التدخل الأمريكي في الصراع العربي - الإسرائيلي جاء كتلبية لمطلب من الطرفين، أو كمطلب دولي، مع أن الحقيقة غير ذلك تماما، لأن اختطاف الملف كان تحيزا مفضوحا للطرف الإسرائيلي الذي أعلن في أكثر من مناسبة أن إسرائيل حليف استراتيجي منذ عشرات السنين، وأنه يستحق الدعم المادي والعسكري والسياسي بدون أي قيد أو شرط، فهل يبقى لكلام برنارد لويس أي مصداقية علمية مع هذه الحقائق المعاصرة؟.

والغريب ورغم رأيه المعلن عن سلبية المجتمعات الشرق أوسطية، إلا أنه يقبل بإقامة علاقة ولا يخشى انتقال هذه السلبية إلى المجتمعات الأوروبية، وهذا يؤكد أن تلك الأحكام صادرة عن خلفية إيديولوجية، وليست مبنية على حقائق واقعية، ولذلك كانت " دعوة لويس إلى التعاون المتبادل مع الغرب وأخذ علوم الغرب وإنسانيته أخذًا يتلاءم مع التراث والتقاليد دعوة تُعبر عن

¹ - تنبؤات برنارد لويس، المرجع السابق، ص20/19.

² - ، تنبؤات برنارد لويس، المرجع السابق ص21.

³ - المرجع السابق، ص22.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

النظرة الاستعلائية المغلفة بألفاظ رقيقة ومنمقة، إذ كيف يكون الاقتباس جوهريا ومتلائما في الوقت ذاته مع التراث والتقاليد الإسلامية " ¹.

المطلب الثاني: العقل العربي وتهمة (الذرية) في التفكير:

يصرح برنارد لويس بكل أمانة علمية بحقيقة الإحساس الغربي تجاه الآخر والمسافة التي يأمل الغرب أن تبقى بين الطرفين والتي يحافظ من خلالها الغرب على مدى أحقيته بالتفرد والرمزية المؤسسة على اعتبارات دقيقة جدا .

" إنها عادتنا المقبولة في العالم الغربي - وهي تزداد كلما اتجهنا إلى الغرب - أن نجعل من أنفسنا نموذجا للفضيلة والتطور ، حسن أن تكون مثلنا، وغير حسن لو خالفنا، وكلما ازدادت شيئا بنا فمعنى ذلك أنك تتقدم، وان كنت أقل شيئا بنا فذلك هو التأخر، وهذا ليس صحيحا بالضرورة " ².

" جميل أن يعترف لويس أن التشبه بالغرب ليس حسنا بالضرورة، وكذلك الابتعاد عن الغرب ليس سيئا ، ولكن ما لا يناقشه لويس هو لماذا يريد الغرب من العالم الإسلامي أن يتخلى عن عقيدته وشخصيته الإسلامية ؟ والإجابة عن ذلك هي أن الشخصية الإسلامية المستقلة تمثل حاجزا يهدد المصالح الغربية الاقتصادية " ³.

إن سبب هذا الإحساس يعود إلى ما نسبه بعض المؤرخين الغربيين من تهمة إلى الفرد العربي المسلم بهدف احتقار قدراته ومواهبه حتى يستخف بكل ما له علاقة به من إنجازات وإبداع، والمؤسف أن هذا الطرح يصدر من أستاذ المستشرق قيد الدراسة وهو المشرف عليه أكاديميا.

"إن رفض مناهج البحث العقلية ، والأخلاق النفعية الحديثة ليس مرده إلى ما يسمى (بتعمية الشعب عن الثقافة) من جانب فقهاء الإسلام، بل انه نتيجة لذرية الخيال العربي، والطريقة التي يواجه بها الأشياء منفصلة عن بعضها البعض " ⁴.

¹ - مطبقاني، مازن صلاح ، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، المرجع السابق، ص 385-386.

² - لويس برنارد، الغرب والشرق الأوسط، المرجع السابق، ص 43.

³ - حسين، محمد ، الإسلام والحضارة الغربية، مؤسسة الرسالة، ط 5، 1972، ص42.

⁴ - هاملتون، جب ، الاتجاهات الحديثة في الإسلام، ت. هاشم الحسيني، دار مكتبة الحياة 1966، ص 23 ، 24.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

يغالط هاملتون الواقع والتاريخ ويمعن في تعقيد العطالة عند الفرد المسلم بأن يجعلها خُلقية غير قابلة للإصلاح، مما يترتب على ذلك فساد علاقته مع عالم الأشياء الذي يؤدي بدوره إلى خلل في العلاقة مع كل ما هو مادي.

ولعل أبسط ردّ على هذا الاتهام تلك العلاقات العقلية التي أظهرها العرب في تعاملهم مع محيطهم وتنبههم إلى الروابط التي يفرضها المنطق السليم، مما يجعل مقولة الأعرابي الذي سئل: "بِمَ عرفتَ ربك؟ فقال: البَعْرَةُ تدلُّ على البعير، والأثرُ يدلُّ على المسير، ليل داغ، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، أفلا تدل على الصانع الخبير!"¹.

يستثمر برنارد لويس من موقف أستاذه ويقدم قراءته لمفهوم الذرية في حالة العقل العربي والمسلم، تلك الصفة التي تتعارض مع مركزية التفكير عند الغربيين التي تتسم " بالبنية العضوية – أي القدرة على تمثُّل كل مكون من أجزاء متداخلة ومتفاعلة، وليس مجرد مجموعات من الكيانات المنفصلة غير المترابطة، هذه الخصائص مركزية في الشكل الغربي الحديث للحضارة، فهي من متطلبات علومنا الفيزيائية والطبيعية، وهي تحسم رؤية الفرد والجماعة للإنسان والكون "².

" لقد تحول الجهل بإنسانية ووجود العقل العربي إلى علم على يد المستشرقين مصداقا لقول المتكلمين: ' العلم من جنس الجهل '، وذلك حينما نقل الاستشراق العقل العربي المكتوب لا ليكون ذخيرة من الأخلاق للعرب، بل ليكون وسيلة لظهور الحضارة في الغرب واختنائها في الشرق، ورغم ما في هذا النقل من إظهار للعقل العربي، فإن الاستشراق نصب نفسه كوسيلة لتغريب هذا العقل واغترابه عن قومه وأهله "³.

مع أن الفرد العربي المسلم قد أظهر براعة في فهمه لمواضيع أكثر دقة وأوسع شمولية لا تتأثّر إلا بناظم عقلي غاية في الدقة والتحليل.

" أما الوعي التاريخي فقد أخذوه (أي العرب) عن القرآن بما أعطاهم من تصور شامل لقصة الإنسان على الأرض، وللتاريخ الديني للبشرية، ويمكن القول أنه منذ ذلك الوقت أخذ العرب يتمتعون بدرجة عالية من الوعي التاريخي ، ولم يصبح لهم تاريخ مشترك إلا بعد الفتوحات الإسلامية "⁴.

¹ - الجاحظ، عمر بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط7، ج 1، مكتبة الخانجي، 1998م، ص 163

² - لويس، برنارد، ظهور تركيا الحديثة، المرجع السابق، ص 36.

³ - عريبي، محمد ياسين ، الاستشراق وتغييب العقل التاريخي العربي، منشورات المجلس القومي للثقافة، ط1، 1991، ص 07.

⁴ - J.F. Schacht, The Arab Nation Paths and Obstacles fulfillment, 14th Annual Conference on Middle Eastern Affairs May 5-7, 1960 Middle East Institute Washington .D.C 1961, pp. 19/20.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

وتأصيلا لهذا المعنى، يؤكد لويس على أن نظرة العرب المسلمين إلى الغرب هي نظرة صراع بين حضارتين "الإسلام والمسيحية" لكن الخطأ الذي يقع فيه هو تشكيكه في قدرة - العربي الذكي الحساس - تجاهل تبعيته الفكرية والثقافية للغرب، وهنا لم يوضح لويس هل هذه التبعية أمر أبدي سرمدى؟¹.

" إن عمليات التركيب بين جزئيات العقل التاريخي العربي، وتوظيف نقد نظرياته بعضها لبعض من منظور المركزية الغربية، انتهى بمحاولة استلاب لهذا العقل بما له من جزئيات مع نهاية القرن السادس عشر"².

إن عبارة لويس فيها من الألغام ما يكفي لكشف دهائه وبعده عن المنهج العلمي والحيادية، فانه من جهة بدأ بعدم القدرة - وهو ما يعني الضعف والانهازامية - وكان الإشكال غير المقتدر عليه يلقى إجماعا على طبيعة الحكم عليه وهو في هذه الحالة " ضرورة تجاهل التبعية الفكرية والثقافية للغرب"، بغض النظر أكانت التبعية أمرا سرمديا أم مؤقتا، كما تسأل الأستاذ مازن، فان ذلك يعتبر تسليما بمغالطات في الحالتين.

إن تجاهل التبعية يرمز إلى تجاهل الذات وجوديا (عقائديا وثقافيا تاريخيا) وفقدان التمايز الطبيعي للذات عن الآخر، ما يعني تشكل الذات في قالب الآخر ثقافيا على الأقل، والتتكسر للخصوصية الفكرية والثقافية الذاتية، وأمام عدم القدرة على تجاهل ذلك - وهو ما يأسف له لويس - فانه يعني فاعلية الخصوصية وحيويتها، وبقاء عنصر المقاومة والدفاع عن تواجد الذات بكل ملامحها، وهي الحالة الطبيعية الدالة على مناعة الذات.

وكعادته، يشبع لويس عبارته بألفاظ قد يفهم منها عدالة وعلمية بحثه، فانه لم يبخل وصف العربي " بالذكاء والإحساس " تغريرا به في حقيقة نفسه- مع أنه سبق وأن حكم ببلادة إحساسه أمام أسرار الغرب مما جعله لا يسجل شيئا منها إطلاقا، وتأكيدا على أن قناعة تجاهل التبعية الفكرية والثقافية، ظاهرة صحية لا يختلف فيها اثنان، ويريد تمرير هذه المعاني المغلوطة والملوثة على القارئ العربي المسلم بالتحديد .

" إن استسلام العرب والمسلمين للتبعية والسيطرة الغربية، ليس نتيجة توفر القدرات لدى هذه الشعوب- والدليل تشكيك لويس في عدم القدرة على التجاهل- بل هو تخطيط مكر استخدمت فيه جميع الوسائل لاستمراره"³ وهنا لا بد من الإشارة إلى أنه بالإضافة إلى تبرير

¹ - مطبقاني، مازن صلاح ، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، المرجع السابق، ص384.

² - عريبي، محمد ياسين ، الاستشراق وتغييب العقل التاريخي العربي، المرجع السابق، ص 09.

³ - مطبقاني، مازن صلاح، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، المرجع السابق، ص384.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

الأستاذ مازن، فان هناك هدف استراتيجي مهم وهو الرغبة في تبرئة ذمة الأنظمة الغربية التي أسهمت بشكل فعّال في هذا الوضع.

" ولكن هذا الموقف يضطرننا - بما فيه من إفراط في الجحود -إلى طرح مشكلة الإسلام والعلم في صورة جديدة تتماشى أكثر مع سمو الدين ومنطق العلم، حيث لا نصحح نبحت في الآيات الكريمة هل ذكر فيها شيء عن غزو الفضاء أو تحليل الذرة، وإنما نتساءل هل في روحها ما يعطل حركة العلم؟ أو على العكس ما يشجعها وينميها؟ " ¹.

لقد تعمّد الغرب طرح السؤال الخاطئ المشوه الذي يدعم فرضية هاملتون في ذرية العقل العربي المسلم لقرون في توصيف العلاقة بين الإسلام والعلم باعتبار الإشكال القائم غربيا في هذا الموضوع، دون أن ينظر في واقعية وعلمية السؤال .

" فعندما يعلن الاستشراق أنه لا نصيب للعرب في تشييد صرح العلوم، وربما يؤدي بنا هذا الموقف المتطرف إلى تلافيه بعلمانية سطحية نشاهد أثرها حتى في إنتاج بعض المفسرين مثل" طنطاوي جوهرى"².

" ومما يزيد في دهشتنا عزوف الشرق الأوسط الإسلامي عن قبول العلم الأوربي إننا نعرف العطاء الهائل الذي أسهمت به الحضارة الإسلامية إبان العصور الوسطى في نشأة العلم الحديث، إذ اضطلع رجال الشرق الأوسط إبان تلك العصور بدور حيوي في تطوير شتى فروع العلم ونقلها ونشرها"³.

إن المجتمعات الشرق أوسطية قد أثبتت تاريخيا متانة علاقاتها بالعلوم بمختلف تخصصاتها من منطلق الحاجة الإنسانية لها، إضافة إلى موقف الدين الإسلامي من العلوم المجردة من أي خلفيات، فالغرب لم يكن عادلا في توصيف هذه العلاقة بل أخفق في فهمها.

" ولو كان علينا أن نبرر الفكر الإسلامي من هذه الناحية بالذات (تاريخ تطور العلم)، لكفانا أن نضع في حسابه ابتكارين، لولاهما لم يكن التقدم التكنولوجي في القرن العشرين شيئا يتصوره العقل أجل، إن التقدم التكنولوجي يشمخ اليوم في فضل العلم النووي الذي لا يمكن للباحثين في هذا الفصل من علوم الطبيعة أن يحصلوا فيه على طائل لو لا ما يجدونه مهينا تحت أيديهم من طرق حساب سرعتها فوق كل سرعة، فهل يمكن لهذه الآلات أن تقوم بعملياتها لو لم تهيب من قبل ذلك النظام العشري؟ " ⁴.

¹ - بن نبي مالك ، إنتاج المستشرقين، المرجع السابق، ص 25.

² - المرجع السابق، ص 25.

³ - لويس، برنارد ، أين الخطأ، المرجع السابق، ص 115.

⁴ - بن نبي، مالك ، إنتاج المستشرقين، المرجع السابق، ص 27.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

إن التوصيف الغربي لهذه العلاقة يصلح أن يكون توصيفا دقيقا للاستثمارات الغربية السيئة لما يسمى منتجات العلوم الحديثة، وإفراغها من البعد الإنساني أو الروحي الذي يشترطه الطرح الإسلامي، مع أن برنارد لويس يقر بأن المعطيات العلمية الحديثة لا تخلو من الجهد الإسلامي. " وكان بعضهم من المسيحيين، وبعضهم من اليهود، والغالبية من المسلمين، كانوا قد ورثوا الحكمة القديمة لمصر وبابل، وكانوا قد ترجموا وحافظوا على الكثير من حكمة الفرس واليونان وعلومهم، ولو لا ذلك لضاع الكثير منها " ¹.

" إن القرآن الكريم لم يأت قطعا، وبصورة مباشرة، لا بالحساب العشري ولا بالجبر، ولكنه أتى بالمناخ العقلي الجديد الذي يتيح للعلم أن يتطور كما تطور بالنسبة إلى مرحلته السابقة في العهد الإغريقي والروماني " ².

لا يتوقف موقف المسلمين من العلوم على مجرد التوافق والايجابية الحيادية فقط، بل إن فضلهم قائم في ما يعدّه الغربيون علامة على تميزهم عن المسلمين من حيث اعتمادهم على المناهج التجريبية التي دفعت إلى هذا السبق التكنولوجي المتسارع، وعلى تميز علماء الإسلام التجريبيين على وسائل ذاتية، وهي أهم شرط في التجارب العلمية الحديثة.

" ولكن دور العلماء الإسلاميين في العصور الوسطى لم يكن مقصورا على التجميع والحفاظ على التراث العلمي، بل إنهم ابتكروا مدخلا نادرا ما استخدمه القدماء ألا وهو ' التجريب '، وهو الذي مكنهم - إلى جانب وسائلهم الأخرى - من تحقيق خطوات تقدم واسعة في جميع العلوم تقريبا " ³.

إلا أن كل تلك الحقائق تعرضت للتشويه والاختلاس التاريخي على أيدي نخب من المؤرخين الذين تخصصوا في خلق فجوة معرفية بين الإسلام والعلم من خلال محاولة ظهورهم كمهتمين بأسباب تأخر المسلمين، ومحاولتهم تقديمهم للحلول الممكنة لإصلاح هذه العلاقة.

" ولكن يجب أن نضيف إلى ذلك أن أولئك الأخصائيين ليسوا مجرد متقنين يبحثون عن الحقيقة لأنها حقيقة، ولكنهم يبحثون عن جانب التطبيق منها في مجال المصلحة السياسية، ولعلمهم إذا لا ينتظرون وقوع الفراغ الإيديولوجي لاحتلاله، بل يصنعونه هم، وربما يشغلونه مؤقتا بأفكار سواهم حتى تنتهي في مرحلة أولى، عملية فصلنا عن أفكارنا بتلك الأفكار الفاصلة الوسطية " ⁴.

¹ - المرجع السابق، ص 116.

² - المرجع السابق، ص 28.

³ - لويس برنارد، أين الخطأ، المرجع السابق، ص 116.

⁴ - بن نبي، مالك، إنتاج المستشرقين، المرجع السابق، ص 45.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

هذا الجهد الغربي لم يتوقف عند نقطة تزييف التاريخ الإسلامي وتشويه العلاقة مع العلوم فحسب، بل قدمه أصحابه كمشروع يجوز استثماره لأغراض أيديولوجية ، يعطيها المشروعية في التعسف في حق الآخر باسم العلوم ومحاربة التأخر، وهو من أهم مظاهر أدلجة العلوم والمعارف وعولمتها.

" وفي المرحلة العصرية- العصر الحديث – والاستعمارية، فإنها تستكشف الفكر الإسلامي مرة أخرى، لا من أجل تعديل ثقافي، بل من أجل تعديل سياسي، لوضع خططها السياسية مطابقة لما تقتضيه الأوضاع في البلاد الإسلامية من ناحية، ولتسيير هذه الأوضاع طبق ما تقتضيه هذه السياسات في البلاد الإسلامية لتسيطر على الشعوب"¹.

" وكلما يتقدم هذا المفكر المسلم أو هؤلاء المسلمون بحل لهذه المشكلة، يسرع من طرفهم أولئك الأخصائيون لدراسة هذا الحل، فان كان خطأ زادوا في شحنة خطئه بطريقة أو بأخرى، وان كان فيه ما يفيد، حاولوا كل جهدهم للتقليل من شأنه، وتخفيض قيمته حتى لا يفيد"².

" هذه هي القاعدة العامة في الصراع الفكري الذي نشير إليه، ويترتب على هذا، أنه كلما لاحت في العالم الإسلامي أي بادرة ذات مغزى، ولو كانت لا تبصرها أعيننا، فان مجهر أولئك الأخصائيين يلتقطها على الفور، ليجري عليها كل عمليات التشريح، وتمر بكل أصناف التقطير حتى يبقى في محتواها الاجتماعي أقل ما يمكن من عوامل التيسير لصالحيتها، وأكثر ما يمكن من عوامل التعسير وانتقاء الصلاحية"³.

¹ - المرجع السابق ، ص 9.

² - المرجع السابق، ص 15.

³ - المرجع السابق، ص 15.

المطلب الثالث: إستراتيجية الاستعلاء بالذوق العمراني الغربي:

من السياقات التي لم يهملها برنارد لويس في تأكيد الاستعلاء، رفضه الاعتراف لمسجد السلمانية بالتفرد الهندسي الذي يحمل بصمات إسلامية رائعة، ويؤلمه ذلك، رغم أنه سبق وأن أشار إلى تميز التقليد الإسلامي قائلا: " إن جامع السلمانية الذي شُيد بعد قرن من فتح استانبول، يصور هيكل بنائه وطريقة زخرفته مدى تأثر الإسلام التركي بينابيع التقليد الإسلامي الأولى وأصالة حياته الدينية والجمالية في جوهرها وتميزها في آن واحد " ¹.

وبدافع الروح الاستعلائية، وضرورة المحافظة على هامش التميز الغربي، لا بد من استثناء يُحدث التبعية للهندسة الغربية، وهذا الاستثناء يفرض نفسه وبصورة واضحة - حتى لا يتهم برنارد لويس بأنه مؤرخ يتصيد الاستثناءات - لا تكلف جهدا، لأن موضع الاستثناء وارد في معلم (أيا صوفيا) الشهير

يقول برنارد لويس: " وان أروع ملامحه، أي (القبة الوسطى العظيمة)، تُدين بصورة واضحة لمثال آيا صوفيا إلى حد كبير " ².

والدليل على الربط القسري بين ما هو إسلامي وبيزنطي (مسيحي)، من خلفية استعلائية، حديثه المسهب على هذه القبة كونها " مركزية في هذا الجامع، يسندها اثنان من أنصاف القباب كما في آيا صوفيا، ولكنها لا تدعمها الأقواس النصف الدائرية الكبيرة كما في هذه الأخيرة" ³.

" كان سنان (مهندس جامع السلمانية) قادرا على إزاحة العواميد والعوائق الأخرى من وسط الساحة في الداخل " ⁴.

ومع أنه يقر بوجود اختلاف جوهري، أساسه تقنية بارعة في الهندسة المعمارية لما يمثله من تأثير على سلامة المبنى، ويتمثل في انعدام (الأقواس النصف الدائرية الكبيرة)، التي كانت حلا لمشكلة تقوية القبة المركزية وتوازنها في هيكل آيا صوفيا ، وما تكسبه هذه القبة من ضرورة جمالية وتاريخية في المبنى، إلا أنه يبقى مصرا على استعلائه.

والباعث على العجب أكثر أن الكاتب الذي استشهد به برنارد لويس في هذه القضية (أوليا جلبي) على مدار أربع صفحات - وهو أقرب عهدا ببناء جامع السلمانية -، لم يشير إلى أي

¹ - لويس، برنارد ، استانبول و حضارة الخلافة الإسلامية، المرجع السابق، ص 138.

² - المرجع السابق، ص 138.

³ - المرجع السابق، ص 138

⁴ - المرجع السابق، ص 138.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

تشبيهه بمبنى أيا صوفيا إطلاقا، بل صرح بما يقضي على ادعاء برنارد و يفصح خلفيته الاستعلائية.

يقول الكاتب (أوليا جلبي) واصفا جامع السليمانية أكثر من مرة : " منظر لا نظير له في أي مكان آخر من الدنيا...التي لا نظير لها لضخامتها وروعة بريقها...ولكن عندما رأوا القبة رفعوا قبعاتهم إلى العلا وهتفوا قائلين : ماريا مريا ...وليس للفرجة بأسرهم بناء واحدا يضارع هذا البناء " ¹.

عندما تحدث برنارد لويس عن جامع السليمانية، استشهد بوصف كاتب سماه (أوليا جلبي) وحين أورد نبأ إصدار أمر السلطان (مراد الرابع) لإعداد وصف شامل لمدينة استانبول، استند على قول كاتب سماه (أوليا أفندي) .

يقول مترجم الكتاب: وهو نفس الشخص الذي ذكره المؤلف فيما سبق بـ (أوليا جلبي)، وهو أحد أبرز الشخصيات التركية في القرن السابع عشر، محارب وسائح ومؤلف...².

وهذا سلوك أصيل في تصرف برنارد لويس، وهو التمويه على قارئه في محدودية مصادره، والتدليس عليه بتعدد مصادره واختلافها، مما يضفي على البحث ثراء معرفيا لاختلاف المصادر وتنوعها.

المطلب الرابع: إستراتيجية تعويم الأحداث التاريخية إيديولوجيا:

يثبت برنارد لويس مرة أخرى أنه لا يهتم بظهوره كمؤرخ متحيز ينتصر ويتنبه لتفاصيل وأبعاد الحدث إذا كان ذا صلة فكرية أو عقائدية بقيمه ومبادئه، وتتبدل شبكة تفكيره على استقطاب شواهد الحدث وأبعاده ورمزيته إذا كان ذو صلة بالتاريخ العربي والإسلامي.

" ففي مقالة له ظهرت في مجلد ضم أيضا مجموعة من المقالات التي يشيع فيها ضعف الترابط، وقلة في الشمولية والعمق حول مصر وسورية منذ نهاية العصر الأموي وحتى بداية الدولة العثمانية، وهذه المقالة متخمة بالمبالغات المسرفة في الجرأة على تعميم الأحكام التي تفتقر إلى الدقة والتحقق " ³.

¹ - لويس، برنارد ، استانبول و حضارة الخلافة الإسلامية، المرجع السابق، ص 139.

² - نفس المرجع ص 143

³ - طيباوي، عبد اللطيف، المستشرقون الناطقون بالانجليزية ، المرجع السابق، ص 109.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

وإذا سلمنا جدلا بإمكانية الغفلة عن إثبات جزئية في حدث ما، أو عدم الوقوف عندها بما تستوجبه طبيعتها ومكانتها، فإن ذلك يقبل في نوع محدد من جزئيات الحدث التي تشترط القراءة والاستنتاج من المؤرخ، لا أن تكون حدثا مرئيا ومشاهدا، أحدث تغييرا في واقع مجريات الواقع، فإن التغافل عن تسجيل هكذا حدث، يطعن في نزاهة المؤرخ الذي يكون قد تنبه إلى جزئية دقيقة في نفس المشهد أو استنتجها بوسائله الخاصة.

" يؤكد برنارد لويس على أن زيارة المأمون – الخليفة العباسي – لمصر كانت لغرض تنصيب أحد الولاة عليها، إلا أن الأمر الأكيد أن المأمون لم يُسرِع من بغداد إلى مصر من أجل أن ينصب أحد الولاة في إحدى مقاطعات الدولة، مع أن زيارته التي سبقت زيارته لمصر كانت أهم بكثير من تلك ، وما كان يجب أن تحذف تماما من المقالة¹.

تموقع برنارد لويس من هذا الحدث الكبير تموقعا خاطئا، إذ أن السبب الذي اعتمده لزيارة المأمون لمصر يكشف قصده في طمس القراءات التاريخية لزيارة المأمون للقدس ورمزية ما شملته من إجراءات تاريخية، مع أن السبب الذي ذكره من الناحية الفعلية إجراء داخلي يتعلق بشأن تنظيمي إداري، لا يتطلب

تتقل الخليفة شخصا إلى مكان الحدث إلا إذا كانت ستصحبه إجراءات أخرى، إضافة إلى سريته في أغلب الأحيان.

ومع أن الفارق بين الحديثين مغربي من الناحية التاريخية للمؤرخين، فقد تعمد برنارد لويس السكوت عن الحدث الأهم تاريخيا، والذي سيبقى شاهدا يفرض أبعاده في واقع الناس حيث تتعلق به خصوصيات وحقوق تاريخية دينية لمجتمعات تلك المنطقة، واكتفى في حق المأمون بتسجيل حضوره بروتوكولات تنصيب وال وعزل آخر.

والعجيب أن الحدث الذي لم يستترع انتباه برنارد لويس في زيارة المأمون للقدس يكتنز معان مهمة بالنسبة لأي مؤرخ، حيث جمعت فيه مادة تاريخية رائعة، فالقدس هي بوابة السماء في كل الأديان ومنير الأنبياء، يضاف إلى هذا المعنى الانجازين التاريخيين اللذين تعامل معهما برنارد لويس تعاملًا مفضوحًا بالتغافل عنهما، وهما الأحق بالذكر تاريخيا.

" إذ كان المفروض أن أمره بإجراء الترميم الواسع في قبة الصخرة في القدس يجب أن يكون أكثر إبرازا في المقالة من تنصيب وال إقليمي هناك، والحق أن هذا كان واضحا للمأمون

¹ - طيباوي، عبد اللطيف، المستشرقون الناطقون بالانجليزية ، المرجع السابق ، ص110.

الفصل الثالث : برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي " المصطلحات – التحريض-التجيش-روح الاستعلاء"

نفسه حين أمر بسك عملة نقدية خاصة، كتب عليها اسم القدس تخليداً للذكرى هذه المناسبة¹.

لقد تعمد برنارد لويس هذا الغياب التاريخي لأهداف إستراتيجية تفرضها قناعاته على أسلوبه في الكتابة والتأليف، حتى لا يُسهم في إضعاف موقف شركاء الفكر والمعتقد، ولا يُفيد الآخر' – العدو – بإثبات هذه الروايات التاريخية التي تدعم ما يطالبون به من حقوق.

بالمقابل، عندما كان برنارد لويس منهمكا في تفسير وشرح مفهوم الحرية، وإثبات أن الغرب كان سباقا في منظومة فكره السياسي، وقدرته على التفريق بين الاستبداد والحرية، استطاع أن يستجمع حسه الغربي، ويوثق حتى الأحداث الخارجة عن سياق الموضوع.

" وجاءت أول إشارة شرق أوسطية، عرفتها، إبان الثورة اليهودية ضد السلطة الرومانية بزعامة (بار كوخبا – Bar Kokhba)، خلال الفترة من عام 132م إلى 135م ، وعلى الرغم من سحق هذه الثورة في نهاية الأمر، فقد تمكن (بار كوخبا) من الاستيلاء على أورشليم (القدس حاليا)، والاحتفاظ بها لوقت قصير، واحتقلا بهذا الانتصار، سك عملة نُقش عليها (حرية أورشليم – Yerushalayim Herut) " ².

هنا يظهر الانحياز والانتقائية القاضية على النزاهة العلمية، النابعة عن تمرس عقائدي ايولوجي يجعل التأسيس على الروايات التاريخية في مؤلفات برنارد لويس-رغم غزارتها- محط نظر.

¹ - طيباوي، عبد اللطيف، المستشرقون الناطقون بالانجليزية ، المرجع السابق، ص11.

² - لويس، برنارد ، الإيمان والقوة، المرجع السابق، ص150.

الفصل الرابع:

إستراتيجية انتقاء المصادر لأحداث و فرق في التاريخ الإسلامي

المبحث الأول: المصادر الإستراتيجية لدراسة السلوك الإسلامي

المبحث الثاني: إستراتيجية مصدرية النص لشخصية الحاكم

العثماني "المسلم"

المبحث الثالث: برنارد لويس، نماذج إستراتيجية معاصرة

المبحث الأول:

المصادر الإستراتيجية لدراسة السلوك الإسلامي

المطلب الأول: علماء الإسلام ومصدر الحكم على سلوكهم

المطلب الثاني: إستراتيجية تأسيس العداوة بين السنة والشيعة

المطلب الثالث: إستراتيجية لويس مع الحشاشين

المطلب الرابع: إستراتيجية الغياب التاريخي المدروس " صلاح الدين الأيوبي أنموذجاً "

المبحث الأول: المصادر الإستراتيجية انتقاء دراسة السلوك الإسلامي

المطلب الأول: علماء الإسلام ومصدر الحكم على سلوكهم

من الغريب أن لويس يخالف كل الأعراف عند المؤرخين في تحريّ اعتماد المصادر العريقة والموثوقة عند إصدار أحكام على الأحداث التاريخية، أو سرد وقائع عن الآخر، فقد أظهر عدم اكتراث بهذا الموضوع في أكثر من مقام.

"إن للكاتب هذا عادة غريبة في الاستشهاد بمصادر ومراجع غامضة مجهولة حين لا يكون ذلك ضروريا، ولكنه يُهمل توثيق معلوماته حين يتعلق الأمر بقضايا جدلية حساسة المعنى فيها أوجه نظر خلافية " ¹.

يستشهد لويس بقول أحد الزوار الأوربيين واصفا احتفال ختان ابن السلطان، دون أن يقدم اسما أو تعريفا لهذا الزائر، فضلا عن سذاجة وسخافة الاهتمام بهذا موضوع من طرف مؤرخ لامع كبرنارد لويس، إلا أن القضية أبعد من أن يكون لويس مجرد ناقل لوصف الزائر للحفل وما حدث فيه ألا أن يكون هذا الوصف (الساذج) هو ما يأمله ويؤمن به لويس في إلحاق التهم بمن جاء في وصف الزائر الأوربي، الذي استطاع بجرأته أن يخلع عنهم صفة العلماء حيث يقول واصفا نهاية الحفل:

"..وفي النهاية، سار العلماء اللذين - والحق يقال - لا يمكنك أن تتصورهم علماء في مظاهرهم تلك، بل بالأحرى ، الحجاج والرهبان المتسولين، لأنه لا يمكن لأحد أن يتصورهم غير ذلك، وهو يشاهدهم في تلك الأغطية، والقبعات البيض المربوطة بأشرطة حول أوساطهم حفاة الأقدام، وأيديهم قذرة نتنة، ووجوه جد قذرة كريهة المنظر" ².

يعلم لويس أن هذا الوصف لا يتلاءم مع حالة أبسط رجل مسلم فضلا عن مرتبة العلماء، الذين يقرون أن من أبجديات شروط العبادة (الطهارة)، مع أن هذا النموذج من الوصف نجده فعلا مظهرا من مظاهر التقوى والزهد عند بعض الديانات المحرّفة، بل ويعتبر بعضها النجاسات والخبائث علامة على التقوى والارتقاء الروحي.

¹ - طيباوي، عبد اللطيف، المستشرقون الناطقون بالانجليزية ، المرجع السابق، ص 138.

² - لويس، برنارد ، استانبول و حضارة الخلافة الإسلامية ، المرجع السابق، ص 173.

" يدلُّ هذا الكلام على جهل هذا السفير أو المبعوث الانجليزي وتعصبه الممقوت ضد الأتراك العثمانيين، فالعلماء في الإسلام ولدى الأتراك لم يكونوا يربطون القبعات بأوساطهم، وان قصد هذا الوصف العمائم فإنهم كانوا يلفونها على رؤوسهم، ولعله قصد بعض الدراوشة فأخطأ في التسمية " ¹.

وحتى ننقيد بشروط البحث العلمي المحايد، وتنبين بحذر أنه أخطأ في التسمية أم أنه كان يقصدها، يجب أن نسجل موقف برنارد لويس من هذه التسمية وهو عدم الاعتراض عليها، أي أنه كان يقصد العلماء فعلا، لأن ذلك يتوافق مع تعريف برنارد لويس للعلماء في الإسلام الذين استطاعوا أن يلبوا للمؤمنين حاجاتهم الروحية في الترقى والتقرب إلى الله من خلال الموسيقى والرقص، وهو ما عجز عنه غيرهم حسب رأيه .

ولم يلبث لويس أن أفصح عن نيته، بعد أن أطرى الدراوشة بسيل من النعوت أهمها أنهم أوجدوا ما فشل فيه العلماء من تلبية الحاجات الاجتماعية والروحية لكثير من المسلمين، وأضافت الكثير الذي ينقص الإسلام السلفي، ويسرت طرق البحث عن الله، الأمر الذي جعلهم جزءا من الشعب- كما ادعى لويس - لتثبيت التهمة لطبقة العلماء أنهم علماء بلاط، وأنهم بعيدين عن معانات الشعب ، فجاء حديثه عن عيينة من هؤلاء الدراويش، " وكان القلندرية دراوشة متقلبين متسولين أثاروا عن قصد الرأي الإسلامي العام ضدهم بخلق لحاهم ورؤوسهم وحواجبهم، ونبذوا أوامر الشريعة ونواهيها وراء ظهورهم، وكان اسم 'بابا ' الأب- يطلق عادة على زعماء الدراوشة، وبوجه خاص على أولئك الذين ألهموا رجال الثغور الأتراك " ².

انه طعن غير مباشر في كل انجازات الجيوش العثمانية التي كان أساس قوتها (رجال الثغور) ، وكانت ثقافتها الدينية وفهمها لمعنى الجهاد والاستشهاد - على رأي برنارد لويس - نابع من زعماء الدراوشة مع استحضار وصفه لهم.

ثم إن ما يطرحه برنارد لويس بهذا الأسلوب الفج والممجوج والمفضوح، يوحي بأن الرجل قد تجاوز الزمن على أن يكون مؤرخا مرموقا كما ينظر إليه غربيا، فهل يستقيم كلامه عن الدراوشة وما أثبتته لهم من نبذ أوامر الشريعة و نواهيها وراء ظهورهم، وما أثبتته من إثارة الرأي العام الإسلامي بما فعلوه، مع ما يحتاجه المجاهد في سبيل الله من ترغيب في الجنة وشذذ الهمم وابتغاء ما عند الله.

¹- لويس، برنارد ، استانبول و حضارة الخلافة الإسلامية، المرجع السابق، تعقيب مترجم الكتاب، هـ ص 173.

²- المرجع السابق، ص 189.

إن الزائر أثناء قيامه بوصف ما حدث بعد ذلك، وصف مشهدا آخر وحدد هوية أصحابه صراحة وسماهم (بالدراويش)، مما يؤكد أنه كان يعني التسمية بعينها حيث يقول: " ثم تبعهم الدراوشة في جماعة من الحجاج الفقراء الذين يذهبون للحج إلى مكة كما يسمونها، والتي هي ضريح محمد، ويعتبر هؤلاء أشخاص مقدسون جدا في تركيا " ¹.

إن هذا الزائر يمكن أن يؤدي أي مهمة أخرى، إلا أن يكون مصدرا تاريخيا فهذا من أعجب العجائب، ذلك أنه ليس له علم بأبجديات يعلمها صبية المسلمين، فكيف يكون مصدرا موثوقا لمؤرخ كبير من حجم برنارد لويس ؟ !.

" وهذا مثال واضح لجهل هذا المبعوث الانجليزي الذي اعتبر مكة ضريحا للرسول - صلى الله عليه وسلم - والعياذ بالله، والحج عنده زيارة الضريح، وهكذا كانت أوربا الغارقة في الجهل حينذاك تتصور الإسلام ونبي الإسلام، ومن المؤسف أن البروفيسور برنارد لويس - أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة لندن ينقل كل هذا الهراء والسخف والتهم دون أي تعقيب أو تصحيح " ، بل جعله مرجعا وحجة لما يذهب إليه من أحكام " ².

إنها عودة إلى الجاهلية الأولى، يوظفها برنارد لويس بسكوته الاستراتيجي عن هذا الهراء ونقله والاحتجاج به دونما إشارة إلى ما فيه من أذاليل تمس عقائد اليهود، وشرف إعادة بناء الكعبة الذي حازه إبراهيم، ومن بعده محمد -عليهم الصلاة والسلام أجمعين- ، هكذا يكون تسخير المقدس لخدمة الإيديولوجي دونما حياء ولا تأنيب.

وكعادته، يقبل لويس أي مصدر أوروبي - حتى الشخص العادي - كما فعل مع الأسرى الأوربيين وأسس على خرافاتهم موقف من العقلية العربية، ويتجاهل أقوال المؤرخين الغربيين والشرق أوسطيين، فالمعلومات التي قدمها الزائر البندقي (أولنغستو - Langesto) ، على السلطان محمد الفاتح، يجب أن تؤخذ بحذر، لأنها تتعلق بقائد هزم الإمبراطورية البيزنطية، فعلى قدر العدو المهزوم يكون تقييم وتقدير المنتصر، ومعظم الأوصاف التي قدمها الزائر البندقي عن شخصية وسياسة واهتمامات وتصرفات السلطان لا تتأتى لمجرد زائر لبلاط السلطان، بل لأقرب المقربين منه، فضلا عن أنها تحتاج إلى مدة زمنية لتحصيلها والتثبت منها، ومع انعدام كل هذه الشروط إلا أن برنارد لويس يعتمد رؤية الزائر البندقي في كل ما تعلق بالسلطان محمد الفاتح.

¹ - لويس، برنارد ، استانبول و حضارة الخلافة الإسلامية، المرجع السابق ، ص 173.

² - المرجع السابق ، ص 174.

المطلب الثاني: إستراتيجية تأسيس العداوة بين السنة والشيعة:

لا يلتزم لويس بما يقرره من أحكام في حق الإسلام وشعائره، فيعتمد تأجيل الأحكام إلى ما بعد استثمار بعض الأحداث، فرغم أنه سيصرح بعد صفحات برفض الإسلام لمظاهر الرقص والموسيقى في العبادة، فإنه يشحن الجوَّ الفكري للقارئ ببعض المعلومات - خارج سياق النقاش - التي تجعل القارئ يحكم على طرح لويس بالعلمية والحيادية.

ففي معرض حديثه عن رأيه في خلو العبادة المسجدية في الإسلام من مظاهر الرقص والموسيقى، يُشَبِّهها بحالة العبادة في المسيحية واليهودية ويضيف علاقة الأخوة بين جميع الديانات - دون تحديد الطبعة المسيحية واليهودية -، وهو استثمار مفضوح لهذه العلاقة، ثم يُقِمُّ في هذا السِّياق الخاصَّ بالعبادة المسجدية مشهداً خارج السِّياق يفسد به حقيقة الحكم الذي أُجِّلَه عن قصد.

" ولكن نَمَتْ في الحقيقة منذ العهود الأولى طائفة من رجال الدين المتخصصين الذين قاموا بتأدية عمل كل من المحامين ورجال الكهنوت، وهم علماء الشريعة وفقهاء الإسلام الروحانيين " ¹.

" لا توجد في الإسلام طبقة كهنوتية بمعناها المعروف، وبكبار المؤلف في السُّطور القادمة، ويصِرُّ على تسمية علماء الدين الإسلامي بطبقة الكهنوت، وبينهما فرق شاسع، فليس العلماء والفقهاء في الإسلام وُسْطاء بين العبد وخالقه كما هو الأمر في الديانة المسيحية " ².

إن دور العلماء والفقهاء في الإسلام هو التعليم والتوجيه إلى الالتزام بأحكام الشريعة وشرح وضبط المقاصد منها، وإسقاط تلك الأحكام على أفعال العباد بضوابط وشروط، أما الوساطة التي يريد المؤلف إثباتها تأسياً بوساطة القسيسين في الديانة المسيحية، كي يبرر دعوى الأخوة بين الإسلام وغيره مما يسمى ديانة، فإن الأدلة النقلية والواقعية تنفي وجود مثل هذه الوساطة.

ويقرر لويس وجود طبقة كهنوتية في الإسلام لكن بمفهوم خاص لم يعهده علم الاجتماع الديني ولا حتى النظريات الكلاسيكية المنشغلة بمقارنة الأديان، " وللمرة الأولى في التاريخ الإسلامي، تمَّ خلق بنية مؤسسية - تراثية متدرجة لرجال الدين المحترفين، ولهم وظائف معترف بها وسلطات معترف بها، تستحق المقارنة بينها وبين الكهنوت المسيحي أو الكهنة في الإمبراطوريات القديمة، والقول بأنه لا يوجد كهنوت في الإسلام يبقى صحيحاً بالمعنى الفقهي؛

¹ - لويس، برنارد ، استانبول وحضارة الخلافة الإسلامية، المرجع السابق، ص 178.

² - المرجع السابق، المترجم هـ ص 177.

بمعنى أنه ليس هناك ترسيم للكهنة، ولا طقوس، ولا وساطة للكهنة بين المؤمن والله - ولكنه يبقى حقيقياً بالمعنى الاجتماعي والسياسي " ¹.

يعتمد لويس مدخلا مفضوحا في العلاقة بين السنة والشيعة - باعتباره ملفا دسما - جعلت منه التجاذبات السياسية والإقليمية ملفا قابلا للاستثمار في أي طاولة نقاش إقليمي أو دولي ، وانطلاقا من بعض الجزئيات المعزولة في تصرفات بعض المنتسبين للفقهاء الإسلامي، وهو تصرف فيه كثير من التجني، لأن الفقه الغالب - آنذاك-، كان فقها معتدلا، مؤسسا على المذاهب الإسلامية المعتبرة التي يدين بها السواد الأعظم من الأمة، التي تحارب الغلو والتطرف، وأن تصوير الكثرة من هذه المذاهب على خلاف هذه الصورة - بما فيهم أغلب المذاهب الشيعية - هو افتراء، وما وصف لويس للشيعة في سياق حديثه عن العلاقة مع الشيعة بـ (الغير) إلا دليل على القصد المفضوح.

وكتبرير للهدف الكهنوتي، يرى برنارد لويس " أن ترفع العلماء المتشدد من أصحاب الامتيازات - السنيين -، وجفاف عباداتهم، والشرعية الباردة لمبادئهم فشلت في أن تلبى الحاجات الاجتماعية والروحية لكثير من المسلمين، فاتجهوا نحو غيرهم لطلب العون والإرشاد، وكثيرا ما اتبعوا في العهود الأولى تعاليم الشيعة التي يعتبرها العلماء السنيون بدعة وضلالة " ².

يؤمن برنارد لويس بتشويه كل ما هو جميل في الفكر والفقهاء الإسلاميين، بل وحتى إنجازات إمبراطورية بأكملها، بالتشكيك والتهوين من قرار تتوقف عليه الممارسة السياسية بعد وفاته صلى الله عليه وسلم، ويصف الشورى التي اختارت عمر - رضي الله عنه - بألفاظ تقلل من مصداقيتها، معتذرا بالتجربة البسيطة للعرب في هذه القضية، مع أن الرصيد التشريعي من القرآن والسنة يغني عن التجارب السابقة التي طرحها برنارد لويس كملجأ وحيد، رغم احتكام المسلمين للقرآن الذي علمهم في حياته صلى الله عليه وسلم بوجود الشورى، قال تعالى: ﴿بِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا لَّفَلَبْتَ لَأَنْقَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾، آل عمران.

¹- لويس، برنارد ، ظهور تركيا الحديثة، المرجع السابق، ص 35.

²- المرجع السابق، ص 184، 185.

بل وصفهم في أقل القضايا شأنًا من قضية الخلافة بأنهم يخضعون للشورى ﴿ وَالَّذِينَ
 اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُعْفُونَ ﴾¹،
 الشورى. فقد تجاهل برنارد لويس تفاعل الصحابة مع الشورى ولم يبق منها غير التجربة العربية
 الهزيلة.

" ولم يكن أمام المسلمين ما يرشدهم سوى التجربة السياسية الهزيلة لعرب ما قبل الإسلام،
 وبعد مناقشة قصيرة شابتها لحظة من التوتر الخطر، وافقوا على اختيار أبي بكر، وهو واحد من
 أقدم المسلمين وأكثرهم احترامًا، خليفة رسول الله، وهكذا نشأت - بطريقة عارضة تقريبا - تلك
 المؤسسة التاريخية العظمى المعروفة بالخلافة " ¹، والغريب أن المترجم - محمد العزب موسى -
 لم يعلق على هذه القضية إطلاقًا، بل ذهب إلى عدم مساءلة مصادر برنارد لويس، بمعنى أنه
 يوافق في هذه القضية وغيرها من القضايا الخطيرة .

وبالعودة إلى وصف العلماء المسلمين، طرح مقدمتين خطيرتين تكون نتيجتهما نفس لكل
 التاريخ الإسلامي الحديث.

فالمقدمة الأولى في غلو وتطرف وجمود وجفاء طبقة علماء الإسلام الحقيقي - كما يسميه
 -نتج عنه فشل العلاقة بينهم وبين السواد الأعظم للأمة، ومنه استقالة غير مباشرة من واقع
 الأمة.

والمقدمة الثانية، تعويضهم ب (الغير) اعتمادا على مشروعية البحث عن الله - في العقائد
 المسيحية -، لكن هذا الغير - مع كونه مطلب حتمي - يصفه لويس بالدراوشة الذين امتلكوا
 لوحدهم حق التواصل مع الله.

" وقام المرشدون الدراوشة بمهمة رجال الدين والمرشدين الروحانيين، وفتحت اجتماعاتهم
 المجال للمؤاخاة والمعاشرة في سبيل البحث عن الله، وفي بعض المناسبات الكفاح لأجل
 الحاجات الإنسانية، كانت عقيدتهم حية، صوفية، نابعة من الحدس الطبيعي، وعبادتهم ملؤها
 العاطفة والوجدان، تستخدم فيها الموسيقى والغناء والرقص وذلك مساعدة للمؤمن في الاتصال مع
 الله " ².

ومع أن الطرح يثبت اختلاف السياقين، فالأول - سياق عبادة مسجدية - ، والثاني -
 سياق احتفال بمناسبات - إلا أن برنارد لويس يحمل العلماء قسرا سلوك الدراوشة وما يتضمن من

¹- لويس، برنارد ، الحشاشون، فرقة ثورية في تاريخ الإسلام، المرجع السابق، ص 41.

²- المرجع السابق، ص 185.

سلوك لا يليق بهيبة العلماء، كحضور مجالس الرقص والموسيقى والإسراف في الأكل، وعدم التورع عن الظهور بأيدي قذرة ومنتسخة - كما سبق وأن اعتمد هذا الوصف -.

وتكون نتيجة المقدمتين المرجوة مسبقاً أنه " ليس هذا فقط، بل يبدو الاحتفاظ بتأثير آخر وهو بقاء بعض المعتقدات المسيحية بين المسلمين المستجدين، والاحترام الذي أبدي - تحت ستار الأسماء المستعارة أحياناً للقديسين المسيحيين، وأعيادهم الدينية، وأماكنهم المقدسة " ¹.

يعمل لويس على تأسيس وإنشاء طبقة كهنوتية في الإسلام من خلال سلوك بعض المنتفعين باسم الدين، حتى يتساوى مع اليهودية والمسيحية، ففي معرض حديثه عن العبادة في المسجد، وبحكم اضطراره العقائدي يقر لويس براءة عبادة المسلمين من مظاهر الرقص والموسيقى والشعر، ويعزو هذا الوضع إلى الإسلام الصحيح الذي يحلو له أن ينعت به (السلفي) ، هذه الكلمة التي يستثمر لويس في سياقاتها، عندما يقول : " إن فروض العبادة في المساجد بسيطة لكن صارمة، والإسلام الصحيح (السلفي) قد رفض الرقص كالمسيحية واليهودية في عبادته وطقوسه الدينية، بل زاد على الديانتين الشقيقتين له فحرم الموسيقى والشعر في العبادة) " ².

رغم أن لويس (المؤرخ) ملم بالأحداث، إلا أنه يعتمد توجيهها توجيهاً مغرضاً، حيث لا يكتفي بسرد الحادثة كما هي ووفق الظروف والمعطيات والسياقات التي تحكمت فيها، بل يلجأ إلى تهجين الأحداث بمصطلحات لها أبعاد خطيرة من أجل استثمار صدق الحادثة - تاريخياً - لتأسيس أبعاد المصطلحات الدخيلة المستعملة بدهاء.

يقول: " وفي سنة 1512م ، اضطر السلطان المسن (بايزيد الثاني) أمام الأخطار المتزايدة أن يتنازل على العرش في حق ابنه (سليم الثاني 1512م-1520)، الذي وقع عليه أن يقود العثمانيين في الحرب الحتمية الآن ضد الشاه إسماعيل الصفوي في إيران " ³.

مصطلح (الصفوي) أعطى بعداً عقائدياً لا يتطلبه البحث، كما فيه تشويه وإساءة إلى طبيعة الطرح العلمي، ووصف الموقعة التي سيشير إليها بعد قليل (موقعة جالدران) بوصف لا يتناسب مع حقيقة الخلاف الحاصل بين الطرفين الذي تسبب في هذه الموقعة، وكذلك موقعة (تبرز) اللتان أتيا في سياق التوسع للإمبراطوريتين، وهو سياق عام لا يتحمل التوصيفات المذهبية.

¹ - المرجع السابق، ص 186.

² - المرجع السابق، ص 183.

³ - المرجع السابق، ص 52.

المؤرخ لويس برنارد، الذي تخصص في استثمار الفجوات التاريخية بين السنة والشيعية، بل وتقديمها على أساس مسلمة تاريخية من خلال استعمال بعض المصطلحات ذات الصلة بالموضوع ، يعمل على زيادة شحن الحدث وتأزمه، كما هو الحال عند حديثه عن العلاقة - السنية الشيعية .

" وأدى اضطهاد الشيعة في تركيا، واضطهاد السنين في إيران إلى الكراهية والخوف المتبادل، وسقيت هذه الكراهية بدماء الشهداء من الطرفين " ¹.

والمتأمل في كلامه، يحتل في كلامه أن لويس حينما تحدث عن اضطهاد تركيا - ويقصد الخلافة الإسلامية كنظام سياسي قائم وحاكم - لأن مصطلح (تركيا) في تلك الحقبة ليس له بعد سياسي، بقدر ما هو توصيف عرقي لمجتمع الدولة، ولا يملك القدرة على أن يوصف بالاضطهاد، الذي هو في العادة وصف لمن يمتلك وسائل الاضطهاد، ألا وهي الأنظمة الحاكمة، وهذا يؤسس إلى اضطهاد الخلافة الإسلامية إلى مكوّن أساسي من مكوناتها، على أساس مذهبي صرف.

كما أنه تعمد مصطلح (الشيعة)، الذي هو وصف للمذهب الإسلامي في إيران وله امتداد في بعض الدول العربية، في مقابل مصطلح (السنين) الذي يشير إلى أتباع المذهب السني، وهي مغالطة ثانية الغرض منها تأكيد انحياز الخلافة آنذاك إلى جهة مذهبية دون أخرى، وأن الاضطهاد كان للمذهب والفكر ولم يكن للأشخاص وسلوكهم ، وهذا التوصيف - إن ثبت تاريخيا - يؤثر سلبا على علاقة تركيا (الخلافة الإسلامية) برعاياها.

ثم انه حقن هذا المشهد الملغم بمخدر رومانسي خطير، حيث اختار بدهاء ومكر مصطلحا متأقفا في الضمير الإسلامي قاطبة دون خلاف ولا منازع في كل المذاهب الإسلامية، ألا وهو مصطلح (الشهيد) للدلالة على قداسة هذا الصراع والكراهية عند الطرفين، مما يستلزم ديمومة سقي أسبابه بدماء الشهداء فقط، ما دامت (الشهادة) عند الطرفين موجبة للجنة بنصوص ثابتة في المذهبين.

بمعنى آخر، أنه لا يجوز لأي طرف أن ينسأه ما دامت مرتبطة ب (الشهادة)، ولا أن ينسى تحت أي ظرف أو مصلحة، شأنها في ذلك شأن العلاقة العدائية المزمنة - في نظر لويس - مع بقية الديانات الأخرى (اليهودية والنصرانية)، وهو ما أفصح عنه بعد سطرين فقط

¹ - لويس، برنارد، الحشاشون، فرقة ثورية في تاريخ الإسلام، المرجع السابق، ص52.

عند وصفه للحواجز التي تسبب فيها الاضطهاد - على حد تعبيره - بين الإمبراطوريتين ، مشبها هذه العلاقة بعلاقة الإمبراطورية العثمانية بالغرب.

" وقامت منذ ذلك الحين بين الإمبراطوريتين: الإيرانية والعثمانية، حواجز لم تكن تقل في الأهمية عن تلك التي كانت بين العثمانيين والعالم المسيحي الغربي " ¹.

يلاحظ أنه لم يستطع أن يحافظ على هدوئه كمؤرخ، بل أفصح بحقيقة الخلاف المأمول تأصيله بين السنة والشيعية من مجرد خلاف بين مذهبين فقهيين لدين توحيدي واحد، إلى خلاف يرقى بكل أبعاده بين دين توحيدي وآخر لا علاقة له بالتوحيد، وذلك عند وصفه للعالم الغربي بالمسيحية، بما يعني أن الخلاف يجب أن يكون عميقا ومستمرًا بين السنة والشيعية عمق الخلاف الحقيقي بين الإسلام ومسيحية الغرب اليوم.

إضافة إلى ذلك، فإن مصطلح (الإمبراطورية الفارسية) توصيف غير دقيق حينها، فبعد انتصار الإسلام لم تبقى الحقيقة الواقعية لهذا التسمية، إلا حكاية عن الماضي، لأن الواقع حينها يثبت أن الحيز الجغرافي المتاخم لإيران كله خاضع للإمبراطورية والخلافة العثمانية مثل (مصر، سوريا، وشبه الجزيرة)، وحتى الخادم لإيران - كما سماه لويس - العراق، فقد نجح العثمانيون في ضمه إلى الإمبراطورية التي أضحت إلى خليج فارس، وهذا اعتمادا على قوله:

" وفي اتجاه الشرق، نجح العثمانيون في انتزاع العراق من أيدي أسياده الإيرانيين، وتمديد الإمبراطورية العثمانية إلى شواطئ الخليج الفارسي " ².

المطلب الثالث: إستراتيجية لويس مع الحشاشين:

مثلت الفرق الإسلامية المادّة الدّسمة التي اشتغل عليها برنارد لويس في بداية اتصاله مع البحوث التاريخية ذات الصلة بالإسلام ومجتمعاته، وانسجاما مع الدوافع الأيديولوجية كانت رحلة البحث الذي اختاره برنارد لويس بإشراف من عميد المستشرقين آنذاك الأستاذ ' جب هاملتون ' تبحث في موضوع شائك ، تعددت حوله الآراء ويصلح أن يُبعث من جديد لحاجة الوضع الإقليمي والدولي - السياسي والثقافي والأمني - لاستثمار بعض محطاته استثمارا أيديولوجيا معاصرا.

ركز برنارد لويس في بحثه على نقطة دار حولها الخلاف التاريخي في مسيرة الفرقة الإسماعيلية النزارية شكلت عنصر المفاجأة في تاريخهم وتتعلق بتسميتهم ' بالحشيشية ' والبعد

¹ - لويس، برنارد ، الحشاشون، فرقة ثورية في تاريخ الإسلام، المرجع السابق، ص 52، 53

² - المرجع السابق، ص 53

الذي تمثله هذه التسمية ومدى صدقها وانسجامها مع الحقيقة والواقع الإسلامي الذي تنتمي إليه هذه الفرقة.

" وهذه القصة على الرغم من ظهورها المبكر، وانتشارها الواسع، تكاد بالتأكيد أن تكون غير صحيحة لأن استعمال الحشيش، وتأثيره كانا معروفين في ذلك الوقت، ولم يكونا سرا، واستخدام المخدر من قبل رجال الطائفة لم يشهد به الكتاب الإسماعيلية، ولا كتاب السنة الرصناء، لا بل حتى إن اسم حشيشي هو اسم سوري محلي فقط، وربما هو عبارة عن صيغة تشنيع عامة، ومهما يكن من أمر، كان الاسم هو الذي سبب ظهور القصة أكثر من العكس"¹.

ورغم هذا الاعتدال النسبي في حقيقة تقبل هذا الطرح، فإن برنارد لويس لم يستثمر شهادات تاريخية مهمة في موضوع الخلاف المطروح، فقد توفرت لديه أدلة قوية من مصادر موثوقة لا يتسرب إليها أي شك من مصادر غربية قريبة من موقع الحدث تتناسب أقوالها وتتوافق شهاداتها مع ما رجحه من تبريرات، إلا أنه لم يستشهد بهذه الأقوال رغم مكانة مصادرها غربيا.

" وتبقى الحقيقة ، على أي حال أنه لا النصوص الإسماعيلية التي تمت استعادتها حتى الآن ، ولا أيا من النصوص الإسلامية غير الإسماعيلية المعاصرة التي كانت معادية عموما للنزاريين تشهد بالاستعمال الفعلي للحشيش من قبل النزاريين "².

" وحتى المؤرخون الرئيسيون للنزاريين من المسلمين، مثل الجويني الذين نسبوا كل أنواع الدوافع والمعتقدات الخبيثة للاسماعيليين، فإنهم في حقيقة الأمر لا يشارون إلى النزاريين بالحشاشين "³.

إن غياب مثل هذه الإشارات عند الجويني كان دافعا مهما بالنسبة إلى برنارد لويس في تحديد ميوله أكثر في حقيقة نسبة هذه الخرافة للنزاريين بالنظر إلى موقف الجويني منهم الذي يعتبر حجة عند الغربيين في أغلب المسائل، ومع ذلك راح برنارد لويس يستقصي الآراء ولكن بميول إلى إثبات التهمة لا برغبة في التحري التاريخي، فقد توفرت عنده مصادر غربية غاية في الدقة والحضور التاريخي للحالة.

"وكتب بعد ذلك بسنوات قليلة وليم رئيس أساقفة صور Willam Of Tyre بيانا قصيرا عن هذه الطائفة، ضمنه في التاريخ الذي صنفه عن الدويلات الصليبية"⁴ [بعد أن وصف

¹ - لويس، برنارد ، الحشيشية والاعتقال الطقوسي عند الإسماعيلية النزارية، المرجع السابق، ص 170

² - دفتري، فرهاد ، خرافات الحشاشين وأساطير الاسماعيليين، المرجع السابق، ص 144.

³ - المرجع السابق، ص 144.

⁴ - لويس، برنارد ، الحشيشية والاعتقال الطقوسي عند الإسماعيلية النزارية، المرجع السابق ، ص160.

شجاعتهم وعلاقتهم بقائدهم وطريقة اختيارهم لرئيسهم اعتمادا على فضائل الصفات والخلق، لا على قاعدة الوراثة] قائلا: ' هذا وإن كل من شعبنا وشعب المسلمين يطلقون عليهم اسم الحشيشية، ونحن لا نعرف أصل هذا الاسم'¹.

فقد وقف برنارد لويس من مصدر هذه المعلومات موقفا سلبيا جدا ولم يعره اهتمامه المعهود بالمؤرخين الغربيين المعاصرين عن قرب للأحداث التاريخية، رغم ما يمتلكه هذا المؤرخ من شهادات المؤرخين الغربيين التي اتفقت كلها على ما يشترطه برنارد لويس في المؤرخ المحترم.

ووليم الصوري من أهل فلسطين، ولد حوالي سنة 1130م، وتلقى تعليمه في الغرب، فلما عاد حضي بتقدير (أمريك الأول) له، فجرت رسامته شماسا ثم رئيسا للشماسين بصور، ثم أصبح مؤدبا لـ (بلدوين الرابع - 1170)، فلما تولى بلدوين الحكم، صار وليم مستشارا للمملكة، ورئيسا لأساقفة صور (1174 - 1175)، وجرى استخدامه عادة في السفارات والمفاوضات².

هذا من ناحية نشأته وتعليمه ومناصبه داخل دولته، ومكانته وما حاز من تقدير رسمي من حكام الغرب، كل ذلك لم يجلب انتباه برنارد لويس للاعتماد على آرائه، مع أنه من المعتاد أن تجلبه - اللغة السهلة القريبة من لغة الإنسان العادي - إلى اعتماد آراء أصحابها.

أما من ناحية الكفاءة العلمية والحضور التاريخي وكل ما ينصح به برنارد لويس " فإن وليم الصوري، فهو مؤرخ تغلب عليه الصفة العلمية والتدليل المنطقي، أدخل في تاريخه المتزن المترابط الذي احتداه المؤرخون قرونا عديدة ما استخلصه من أخبار شهود الحرب، وما اشتهر من القصص و التفاصيل الزاهية "³.

" اشتهر (وليم) بالاعتدال والاعتدال، ولذا كان له من الصفات العديدة ما يؤهله لأن يكتب تاريخا صادقا غير متحيز، اشتهر بدرايته باللغتين العربية واليونانية، كما اشتهر بمعرفته بتاريخ الدول الإسلامية"⁴.

إن مواصفات الاعتدال والاعتدال وعدم التحيز لم تغر برنارد لويس، وكأنه يبحث عن مؤرخ تتوفر فيه نقيض هذه المواصفات، وهو ما قد يجده بعد قليل.

¹ - W.Ture, Historiarerum in Partibus Transmarinis Gestarum, xx,31,ed.J.R. Migne, patarlogia. Paris, 1903.,P 810.

² - باركر، أرست، الحروب الصليبية، المرجع السابق، ص193.

³ - المرجع السابق، ص193

⁴ - المرجع السابق، ص193.

يُقيّم برنارد لويس هذه الشهادات والجهود وغيرها مما لم يذكر، من أجل الوصول إلى الحقيقة التاريخية تقييماً غير علمي إن لم يكن بذنباً ، وفي ذلك طعن في مواصفات المؤرخ النزيه، وترسيخ للسفاهة التاريخية التي أقرها برنارد لويس واعتمد على مُخرجاتها، حيث يحكم بعدم وجود أي جهد جدير بالاحترام في هذه القضية.

" لقد كان " جيمس أف قيتري " - أسقف عكا (1216-1228) أفضل مراقب فرنجي علما بالشؤون الإسلامية في الشرق اللاتيني بعد " وليم الصوري " ، وجاءت روايته عن الاسماعيليين النزاريين محاكية بشكل أساسي لما كان " وليم " قد كتبه قبل ذلك بعقود قليلة، على الرغم من أنه أضاف إليها تزويقاته الخاصة " ¹.

وبعد هذا التوافق الايجابي بين وليم و قيتري، وما وصفت بع جهودهما، فإن شروط برنارد في المؤرخ الثقة لا تنطبق عليها.

" وبعد بعض المحاولات التي قام بها أشخاص وضيوعي المكانة في سبيل إشباع رغبات الرأي العام، حوّل سلفستر دي ساسي Silvester de Sacy أعظم مستشرق في وقته اهتمامه نحو الموضوع، وقرأ في التاسع عشر من أيار لعام 1809م على المجمع الفرنسي Institut de France مذكرة حول الأسر الحاكمة لطائفة الحشيشية، مع الاشتقاق اللغوي لإسمهم " ²، مع أن المؤرخين (وليم و قيتري) لا ينطبق عليهما هذا الوصف (إشباع رغبات الرأي العام) الذي ينطبق على بركارد وعاشق باشا زاده، إلا أنه راح يسعى عن شخصية غير مستهلكة في بحثه.

لقد أعجب برنارد لويس بالعمل الذي قام به شيخ المستشرقين الفرنسيين أمام هذه الهيئة الرسمية، ويبدو أن إعجابه كان مصدره التوافق بين المستشرقين في مسألة مهمة وأسلوب أثبت فساده من الناحية العلمية والواقعية، وهو اعتمادهما على إثبات التهم انطلاقاً من رد المصطلحات إلى الاشتقاقات اللغوية المعجمية، لا على الوقائع والاقتراب والمعاشية الميدانية، مثل ما فعل برنارد لويس في تحديد مصطلح ' الحرية ' في المفهوم الإسلامي من خلال التعسف المعجمي، ومدلولها الغربي الذي يعني ' العدالة '.

" كانت مذكرة سلفستر دي ساسي معلماً متميزاً في الدراسات حول الحشيشية، ذلك أنه بالإضافة إلى حفنة المصادر الشرقية التي استعملت من قبل الباحثين السابقين، كان هو قادراً على أن يجذب الانتباه إلى المجموعة الغنية من المخطوطات العربية في المكتبة الوطنية في

¹ - دفتري، فرهارد دفتري ، خرافة الحشاشين، المرجع السابق، ص 159.

² - لويس، برنارد لويس ، الحشيشية والاعتقال الطقوسي، المرجع السابق، ص 169.

باريس، بما في ذلك إلى عدد من المؤرخين العرب الرئيسيين للحروب الصليبية، والذين كانوا حتى تلك الآونة غير معروفين في الأبحاث الأوربية"¹.

لكن ما يُسأل عنه برنارد لويس هو الجديد الذي قدمته هذه المخطوطات العربية من الشهادات لخدمة الحقيقة في هذه القضية أم أن المسألة بقيت على حالها، فهو لم يَقم إلا بإثبات استعمال دي ساسي لهذه المخطوطات دون ذكر ثمره ذلك، وقد أقر بذلك ولكن بطريقة تحفظ ماء وجهه.

" وفي الوقت الذي لم يأخذ فيه سلفستر دي ساسي برأي كثير من الكتاب المتأخرين، من أن الحشيشية قد عرفوا بهذا الاسم لأنهم كانوا مدمنين، نجده مع ذلك ذهب إلى القول أن سبب التسمية يعود إلى استخدام الحشيش سرا من قبل رؤساء الطائفة، من أجل إعطاء مبعوثيهم طعما مسبقا لمباهج الجنة، التي تنتظرهم حين إتمام مهامهم بنجاح، وهو بهذا يربط هذا التفسير بالحكاية التي وردت عند ماركو بولو"².

ليس غريبا أن يحتج برنارد ب دي ساسي الذي إستقى معلوماته من ماركو بولو، لأن هذه الطائفة من المؤرخين المستشرقين لها ذوق واحد في التعامل مع القضايا الإسلامية، فبرنارد قد سبق وترك المصادر الموثوقة واعتمد على مؤرخ - مختلف جدا - وهو عاشق باشا زادة في وصف السلطان محمد الفاتح وجنده، وأثبت للجند عنق الحسنات علنا تعبيراً عن مظاهر الانتصار العادية.

" ويقدم (ماركو بولو) تفاصيل أخرى بعد تتعلق بالكيفية التي درب بها شيخ الجبل حشاشيه ليصبحوا مطيعين له طاعة عمياء فيقول : ومتى أفاق الغلمان من غفوتهم ووجدوا أنفسهم في هذا المكان الرائع، ورأوا كل تلك الأشياء التي حدثتكم عنها، وجعلها على نمط ما جاء في شريعة محمد، ظنوا أنفسهم في جنة الخلد، ثم تقبل النساء العذرات بعد ذلك على هؤلاء الفتيان فيلاعبنهم ويشبعن رغباتهم، ويظفر الرجال منهم بما يرغبون، فلا يشاءون بعد ذلك أن يتركوا هذا المكان المشحون بالفتن واللذائذ "³.

واقع الحال أن دي ساسي لم يقدم في الأخير أي جديد للقضية، بل ذهب الى تأكيد القصة من خلال اعتماده على مصادر أكثر خرافية من الرأي الذي نفاه عنه برنارد لويس، الذي يبدو أنه أراد إقحام أستاذه في الجدل القائم، واستثمار مكانته العلمية التي انتهت الى مصدر عادي في مثل

¹ - لويس، برنارد لويس، الحشيشية والاعتقال الطقوسي، المرجع السابق، ص 169

² - المرجع السابق، ص 170.

³ - دفتري، فرهاد دفتري، خرافة الحشاشين، المرجع السابق، ص 173.

هذه القضايا الدقيقة مثل 'ماركو بولو'، وهذا ما قد يفسره تحليل برنارد لويس في آخر حديثه عن نتيجة بحث أعظم مستشرق في وقته.

" ولكن لم يتوفر حتى الآن - بقدر ما هو معلوم - نص أُطلق فيه على أحد من الاسماعيليين اسم 'حشاش'، ولذلك توجَّب التخلي عن هذه الصيغة، وتبيان أن سلفستر دي ساسي قد توهم حين رجح إمكانية أن يكون أصل كلمة Assissini أو Hessissini هو 'حشاش'، وذلك بالإضافة الكلمة 'حشيشي'، وقد بات من المقرر أن مختلف الصيغ الأوربية، وأشكال الكتابة قد صدر عن الكلمة العربية 'حشيشي' التي جمعها 'حشيشية' " ¹.

ومقتضى التخلي عن هذه الطرح يستوجب احتمال ثبوت الطرح الثاني لما له من الأدلة والشواهد التاريخية التي تقدم تبريرات علمية وتاريخية تفسر سياق ظهور هذه القصة والظروف التي ساعدت على تشكلها، أو على الأقل توجيهها توجيهها يتوافق مع شهادات المؤرخين الذين وصفوها بالخرافة على أقل تقدير.

يرى البروفيسور: فرانز روزنتال أن هناك " تمييزا طبقيًا معينًا قد تم بين المدمنين المؤكدين، وبين بقية الناس، وكان يعتقد أن متعاطي الحشيش هم طبقة دنيا من الناس إما بطبيعتهم أو لكونهم انحطوا إلى تلك الحالة من خلال عاداتهم التي تفسد جميع ملكاتهم، وبشكل خاص الشخصية والأخلاق التي تحدد موقع الفرد في المجتمع " ².

هذا على فرض أن القصة لها أصل تاريخي، باعتبار أن هذا المظهر في أي مجتمع وارد الحدوث كتصرف فردي، وكآفة اجتماعية شأنها في ذلك شأن بقية المظاهر السيئة في أي مجتمع.

" والمصادر العربية القليلة التي تشير إلى النزاريين بالحشاشين، لا تشرح البتة هذه التسمية من جهة استعمال الحشيش، حتى على الرغم من أنها كانت مستعدة لتكامل بكل أنواع التهم السيئة السمعة على رؤوس النزاريين " ³.

ومع أن هذا الطرح - إن توجب أخذه بعين الاعتبار التزامًا بالواقعية -، يبقى طرحًا مفضلًا أمام ما توفر من شواهد وأدلة تعزز الطرح الثالث الذي مفاده أن هذه القصة تداخلت في تكوينها عوامل عدة تجعل منها قصة خرافية أكثر منها حالة اجتماعية عامة.

¹ - لويس، برنارد لويس، الحشيشية والاعتقال الطقوسي، المرجع السابق، ص 170.

² - Franz Rosenthal, The Herb, Hashish versus Medieval Muslim Society, Leiden 1971. p140.

³ - دفتري، فرهارد دفتري، خرافة الحشاشين، المرجع السابق، ص 144.

" إنها قناعتي، - كما سينكشف في المناقشة لاحقا - أن الغربيين أنفسهم كانوا مسؤولين عن اختلاق خرافات الحشاشين في صورها الشعبية المألوفة، وعن وضعها قيد التداول في الشرق اللاتيني، وفي أوروبا أيضا " ¹.

لم يتعامل الفكر الأوربي مع تاريخ الإسماعيلية بموضوعية تاريخية كطائفة دينية سياسية - بغض النظر عن سلامة أو خطأ منهجها - مارست حقها في الوجود ضمن منظومة إسلامية أشمل، فكانت من هذه الطائفة تعبيرات مختلفة كالشجاعة والإقدام والطاعة وحب التضحية، التي فاقت المؤلف غربيا، ويمنع من الاعتراف به قناعات دينية راسخة، ومصالح تاريخية أيديولوجية معاصرة، مما استدعى البحث عن تفسير واقعي غربيا يتناسب مع طبيعة النفسية الأوربية المتلهفة والمتقبلة أن تتمتع بالأساطير انسجاما مع الظرف العام .

" وضع (جيمس أوف فيتري - James Of Vitry)، أسقف عكا سنة 1216، في تقرير له عما شاهده من سوء أحوال اللاتين المقيمين بالشرق، من حيث الكراهية الشديدة بين المسيحيين الوطنيين واللاتين، وإيثار هؤلاء الحكم الإسلامي على اللاتيني، وتضمن التقرير أيضا ما ركن إليه اللاتين من حياة الدعة والترف والمباذل، ولم يكن رجال الدين بأفضل منهم خلقا، فاشتهروا بالفساد والتآمر والمطامع الدنيوية " ².

" ومن المحتمل أن مثل هذه القصص قد خدمت - لاسيما بالنسبة للمراقبين الغربيين - في تقديم شرح معقول لسلوك كان بدون ذلك غير مفهوم كليا " ³.

لم يفعل برنارد لويس هذه المرة عنصر احتماله على غير العادة مع أن هذا الاحتمال تؤيده شواهد تاريخية غريبة عدة، واكتفى بمجرد ذكره اتقاء اللوم والتأنيب التاريخي، إذ لم يحدد برنارد لويس الحقبة التاريخية التي ينتسب إليها هؤلاء المراقبين - تعمية للقارئ- ولم يؤرخ لها بالعصور الوسطى وما تحمله من بصمات العداوة وعدم النزاهة في معالجة الأحداث الإسلامية، مما يدعم فرضية واحتمال صدق وواقعية هذا الطرح.

" وقد تبين أن علاقة الحشيش قد استهوت المراقبين الغربيين من العصور الوسطى بشكل خاص، وهم الذين كانوا بحاجة إلى تفسيرات بسيطة، لما كان يبدو سلوكا متهورا للفدائيين النزاريين " ⁴.

¹ - دفتري، فرهارد دفتري ، خرافة الحشاشين، المرجع السابق، ص 146.

² - باركر، أنريست باركر ، الحروب الصليبية، المرجع السابق، هامش، ص 125.

³ - لويس، برنارد لويس ، الحشيشية والاعتقال الطقوسي، المرجع السابق، ص 171.

⁴ - دفتري، فرهارد دفتري ، خرافة الحشاشين، المرجع السابق، ص 145.

" وهكذا تم التمهيد منذ زمن قيادة (سنان) في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، لتشكيل خرافات الحشاشين، التي وفرت تفسيرات مرضية لسلوك بدا متهورا أو خارقا للعقل الغربي من العصور الوسطى، الموهوب آنذ بقوى تخيلية سخية لتفسير كل شيء شرقي أو إسلامي"¹، بل ذهب بعض المؤرخين إلى أبعد من هذا الاحتمال، حيث لم يستبعدوا بالنظر إلى ما توفر من معلومات تؤدي إلى استنتاج العلاقة الحقيقية بين الاسم وحقيقة سلوك النزاريين، وأثبتوا عكس ما يراد غربيا أن يُثبت تاريخيا.

" وتشير الأدلة المتوفرة إلى أن اسم الحشيشية هو الذي قاد بمرور الوقت إلى إحياء لا أساس له وهو أن النزاريين، أو فدائيهم قد استعملوا الحشيش بطريقة منتظمة، وهي أسطورة جرى تقبلها في العصور الوسطى على أنها حقيقة، وأيدها سلفستر دي ساسي، ومستشرقون آخرون من القرن التاسع عشر بشكل أساسي "².

ومما يؤيد هذا الطرح كذلك أن برنارد لويس قدّم ما يدعم ذلك من الأسباب، حيث أشار إلى الاستعمال التاريخي لهذه التسمية ' الحشيشية ' غربيا، وأن هذه التسمية باعتبار السلوك الدال عليها عرفها الغرب في ممارسات بعض الملوك .

" وواقع الحال، جاءت كلمة حشيشي منذ القرن الثالث عشر في أشكال مختلفة في الاستعمالات الأوربية عنت في مفهومها الواسع: قاتلا مستأجرا محترفا، فالمؤرخ الفلورنسي جيوفاني فيلاني Giovanni Villani المتوفى في عام 1348م، قص علينا كيف أرسل صاحب لوكا Luca حشيشيته إلى بيزا Pisa لقتل عدو مزعج، هذا ونجد قبله دانتى قد تحدث في إشارة عابرة، في المقطع التاسع عشر من كتابه ' الجحيم ' عن الحشيشي الغدار"³.

إذا هي ممارسات عرفها الواقع الأوربي على المستوى الرسمي أكثر من مرة، أطر على أساسها المؤرخون الصليبيون تاريخ الطائفة النزارية، بما يخدم هدفهم من الحروب الصليبية، باعتبار أنهم أول من نسب هذه التسمية غربيا لهذه الطائفة، مع توفر المؤرخين العرب والمسلمين و عدم إثباتهم لذلك.

" غير أن تلك الخرافات المتجذرة في " الجهل المتوهم " للأوروبيين في العصر الوسيط بشكل جوهري، قد نسجت مع ذلك على نطف هامة وقطع من المعلومات أو المغالطات، وكذلك

¹- دفتري، فرهارد دفتري، خرافة الحشاشين، المرجع السابق، ص148.

²- المرجع السابق، ص 145.

³- لويس، برنارد لويس، الحشيشية والاعتقال الطقوسي، المرجع السابق، ص160.

على إشاعات فهمت بشكل مغلوط، ومزاعم منسوبة معادية، وأنصاف حقائق مبالغ فيها جرى التقاطها محليا بطريقة شفوية¹.

" وأصبحت كلمة حشيشي Assassin منذ ذلك الحين، اسما شائعا في معظم اللغات الأوربية، مرادفا لكلمة ' قاتل '، وبشكل أكثر دقة ذاك الذي يقتل خلسة، أو غدرا، والذي يكون ضحيته شخصية مرموقة، ودافعه إلى ذلك تعصب أعمى أو جشع، لكن واقع الحال لم يكن هكذا دائما، فقد ظهرت هذه الكلمة أولا في كتابات مؤرخي الحروب الصليبية، اسما لطائفة شاذة من الطوائف الإسلامية، كانت تسكن في غربي سورية، وتوجه من قبل شخصية أسطورية عرفت باسم ' شيخ الجبل ' " ².

إذا هو إسقاط لمفهوم غربي على حالة إسلامية لم يستوعبها الفكر الغربي ولم يجد لها تفسيراً من خلال ما لديه من المفاهيم والتجارب.

ما يثبت أن برنارد لويس لا يعالج القضية في إطار بحث تاريخي حيادي ترجيحه لموقف المؤرخ بركارد أوف ستراسبورغ الذي يثبته كحجة ، ويبرر برنارد لويس تمسكه به أنه أول من درس سلوك الفداء والتضحية عند النزاريين، و أول من أورد هذه القصة، دون استحضار أو مقارنة مع من سبق ذكرهم من المؤرخين.

" إن أقدم رواية أوربية معروفة تتح إلى شرح سلوك التضحية بالنفس للفدائيين كانت من إنتاج بركارد أوف ستراسبورغ، الذي زار سورية في خريف 1175م، وقد أضاف بركارد هذه الرواية باعتبارها جزءا من وصفه " للحشاشين " (أو الحشيشيين). إلى التقرير الذي رفعه إلى ' فريدريك الأول بريروسا '، الذي كان قد بعث به في مهمة دبلوماسية إلى صلاح الدين³.

عبر المؤلف عن مصدر هذه الرواية بأنها من إنتاج بركارد باعتباره مبعوث دبلوماسي يتخذ كل الاحتياطات في كتابة تقاريره إلى الملك فريدريك الأول تلك الاحتياطات تجعل يصدق المأثور الشفوي السائد آنذاك.

¹ - دفتري، فرهاد، خرافة الحشاشين، المرجع السابق، ص 146.

² - لويس، برنارد، الحشيشية والاغتيال الطقوسي، المرجع السابق، ص 160.

³ - دفتري، فرهاد، خرافة الحشاشين، المرجع السابق، ص 149.

بل إنه هو نفسه نفى معاينته لهذه التصرفات أثناء مهمته هناك حيث يقول: "إنني في الواقع لم أرفهم ولكني أعرف عنهم ذلك بالشهرة والكتابات الصحيحة فحسب، لذلك لا يمكنني أن أستطرد أكثر من ذلك أو أن أعطي مزيدا من المعلومات"¹.

كان بركاردو واقعيًا عندما حدّد أصل الرواية التي أثبتّها بأنّها مثل بقية الروايات الأخرى التي نتجت عن المشافهة السائدة في ذلك الوقت، ولم تأتي بجديد يشفع لبرنارد لويس تأصيل رواية بركاردو دون غيرها، والتفسير الوحيد أن روايته شملت المبالغات التي تؤيد سلوك الفدائيين الذي يحتاجه برنارد لويس للإدانة السلوك الإسلامي لا غير.

يضاف إلى ذلك أن برنارد لويس يقدم رواية المؤرخ الذي لم تدم إقامته إلا قليلا بسبب مناسبة عابرة لا تسمح له بالتحقق من المعلومة بسبب انشغاله بالحدث الأبرز على مؤرخ عايش المكان والزمان الذي من المفترض أن تكون تلك التهمة مسرحا لها وذلك لبعض العقود كمسؤول قريب مما يجري في الدولة.

" من المؤكد أن (بركارد) لا بد وأنه سمع ببعض المآثر الشفوي حول النزاريين خلال إقامته الوجيزة في سورية سنة 1175م ، عندما كانت ذكرى أول محاولة نزارية فاشلة على حياة صلاح الدين (الأيوبي)، والتي وقعت قبل ذلك بأشهر قليلة، كانت لا تزال حديثة العهد في الدوائر المحلية، وهذا قد يُفسر في حقيقة الأمر سبب اختياره أن يُضمّن تقريره الدبلوماسي وصفا للنزاريين"².

قد يكون المآثر الشفوي الذي كان شائعا في ذلك العصر، بل كان ثقافة مجتمعية سائدة، هو السبب العلمي عند برنارد لويس الذي رجّحه من خلاله رواية بركارد على جميع الروايات الأخرى تماشيا مع نهجه في اعتماد مبررات غريبة جدا وغير مألوفة عند المؤرخين، مثل رواية الحدث بلغة سهلة ، أي 'عامية' في حقيقة الأمر، أو 'الاختلاف' في توصيف مؤرخ ما، الذي يعني الفقر من الناحية العلمية، أو 'الشهرة' المؤسسة على اصطيات المشاهد الشاذة أو المفتعلة، كما أن بركارد توفرت في روايته ما توفر عند ماركو بولو ودي ساسي و عاشق باشا زادة من توابل المشاهد الصادمة التي يراد من خلالها الإساءة إلى الإسلام.

¹ - لويس، برنارد لويس ، الحشاشون، فرقة ثورية في تاريخ الإسلام، المرجع السابق، ص 13.

² - المرجع السابق، ص 150.

" غير أن " بركارد " يورد أيضا عاملا إغرائيا في شكل مكافأة، وعد من الزعيم النزارى بأن ينعم عليهم بالجنة، ويمكن اعتبار ذلك أول نص أيضا على نشأة " خرافة الجنة" التي كانت ستصبح من خلال صور مختلفة جزءا لا يتجزأ من خرافة الحشاشين¹.

" وكانت تلك القنوات الشفوية متوفرة للفرنجة بسهولة، ليس من خلال مواجهات مباشرة مع المسلمين وحسب، بل ومن العلاقات الوثيقة القائمة ومن زمن الصليبيين بين الدوائر الافرنجية من جهة ، والمسيحيين الشرقيين الذين كانت لهم اتصالاتهم الخاصة مع المسلمين من جهة أخرى².

إن هذه القنوات التي تُعتبر مرجعا لبركارد - مع إضافة فترة بقائه القصيرة في سوريا - لا تصمد مع ما ثبت لغيره من المعاشية الطويلة التي تسمح وتمكن من التحقق على أكثر الأحداث دقة وسرية فضلا عن حالة شائعة في المجتمع، ولذلك نجافي الحقيقة والواقع إذا لم نعتمد هذه الفوارق في التمييز بين طبيعة الروايات التاريخية الأصلية وغيرها من الخرافات الاستهلاكية.

" وبصبح الأمر أكثر تغيرا، إذا ما قارنا رواية (بركارد) مع الوصف المتضمن لحقائق عن " الحشاشين" أكثر بكثير والذي دونه بعد ذلك بسنوات قليلة (وليم الصوري)، صاحب الاطلاع الحسن، الذي أمضى بعضا من ثلاثة عقود في الأرض المقدسة، وربما كانت له اتصالات شخصية مع النزاريين المحليين، بل حتى من الممكن أن (وليم) كان حاضرا - كما سلفت الإشارة - عندما التقى سفراء " سنان " بالملك (أمرليك الأول) في القدس سنة 1173م، بينما كان سنان، بالنسبة لبركارد مجرد سيد لشعب غريب يعيش في جبال حصينة نائية³.

إن المؤرخ القدير هو من يقرأ الحدث بوسائله الخاصة مع التنبيه إلى القراءات الأخرى، فيحدد موقفه انطلاقا من ما يشاهده من مجريات الأحداث، لا أن يجتري مادة غيره - رغم ظهور تحيزها- فيكون إضافة سلبية للحدث لا مؤرخا متفحصا لمختلف الروايات ومرجحا لما استقر عليه الطرح العلمي كما ثبت في حق " وليم الصوري".

" كان مؤرخا عظيما في كل ما يتعلق بمادته، وفي إدراكه لموضوعه، وأشتهر أيضا بالذكاء وعدم التحيز، وصدق المعلومات، والطرافة، بالرغم مما تراء في أسلوبه من النزوع للخطابة، وما جرى من الغموض في التواريخ والترتيب الزمني⁴.

¹- لويس، برنارد لويس ، الحشاشون، فرقة ثورية في تاريخ الإسلام، المرجع السابق، ص 151.

²- المرجع السابق، ص 147.

³- المرجع السابق، ص 151/150.

⁴- باركر، آرست باركر ، الحروب الصليبية، المرجع السابق، ص 194.

" إن "وليم" - الذي تأثر بشكل مساو بإخلاص النزاريين لزعيمهم - لم يُقدِّم على إعادة إخراج أي من الحكايات المحلية التي كانت الدوائر الصليبية تتداولها آنذاك، ولا أطلق العنان لمخيلته الخاصة في مسألة كانت سُنْحِيَّير الفرنجة لزمان طويل لاحق".¹، وبالتالي، فإنه لم يقتنع بالأسباب التي يعتمدها المؤرخون الصليبيون في سر هذا الإخلاص ورده إلى " استعمال الحشيش"، ولم يسايرهم في طرح تفسير جديد من اكتشافه يثبت به مشاركته في رواية الحدث، بل توقف حيث لم يثبت عنده دليل تاريخي أصيل أو واقعي معاش.

" والى أن تتم رواية كل شيء عن الحروب الصليبية، تعتبر هذه الحروب فصلا رائعا من فصول الرواية الضخمة التي تمثل الحياة البشرية، إذ أنها عالجت الذروة من الجرأة والتقوى، كما أنها هوت إلى أحط مدارج الخزي والعار، وقد تنطوي أيضا على نوازع المصلحة الشخصية".²

مع كل هذه التوصيفات للروايات التي توفرت لإبراز التعامل الاستراتيجي لبعض المؤرخين في إثبات حدث تاريخي معين، يبقى الابتزاز الإيديولوجي والعقائدي سيد الموقف مع البعض، فمع أن "رواية" جيمس أوف قيتري ' هي من حيث نقاطها الأساسية، تصوير لمعتقدات النزاريين الفعلية أكثر دقة مما سبق لـ "بركارد" الأقل دقة بكثير قوله حول الموضوع"³، فقد اهتم لويس بتقرير 'بركارد'، واعتمده كمرجع وانتصر لكل ما جاء فيه عن الحشاشين رغم ما فيه من التشويهات والخرافات .

المطلب الرابع: إستراتيجية الغياب التاريخي المدروس "صلاح الدين الأيوبي

أنموذجاً"

يمتلك برنارد لويس عدة أساليب في الإساءة إلى الحدث التاريخي أو الشخصية التاريخية التي يريد استثمار مواقفها، فهو يُنَوِّع من أساليب الانتقاص والطعن إما بالتشكيك والاحتمالات، أو بالتضليل عن الحقيقة الواضحة، أو بالتعاطف العمدي وعدم الاكتراث، وخاصة إذا كان الحدث مؤلماً له أو كانت الشخصية من الوزن الثقيل، فهو يتعمد التقليل من شأنها بإظهار عدم اكتراثه مخالفا كل المؤرخين الغربيين الذين سَحَّرُوا كل مواهبهم التاريخية ووسائلهم العلمية، وتنافسوا من أجل التفرد بحدث عنه يَنَمَائِرُونَ به عن بعضهم بعضاً.

¹- باركر، آرنست بارك، الحروب الصليبية، المرجع السابق، ص 151.

²- المرجع السابق، ص 152 .

³- المرجع السابق، ص 161.

" هناك موضوع تاريخي حساس آخر يتعلق بالسلطان صلاح الدين الأيوبي شوّهه هذا الكاتب أيضا وأحاطه بضباب من الشك، إذ بينما تناول الكاتب سيرة البطل الإسلامي بشيء من الشجاعة النسبية عموما، فإننا نجد الكاتب يخرج عن طريقه بإشارة موجزة كي يقلل من شأنه " ¹.

فقد تعمّد برنارد لويس وضع القارئ لسيرة صلاح الدين في موضع الشك مما يقال عنه حيث أراد أن يظهر بمظهر المؤرخ المحايد في حق صلاح الدين الذي اختلفت حول شخصيته الروايات التاريخية الإسلامية إلى حد التناقض، والتي كان يُفترض أن تُجمع على مطلق الموصفات الايجابية لهذا القائد.

" فقد ادعى أن المؤرخين المسلمين قد صوروا صلاح الدين إما بصفة (إنسان قاسي القلب ومغامر طموح يهوى العظمة الشخصية، أو بصفة 'بطل الإسلام' " ².

بهذا العذر الاستراتيجي المفضوح، يريد برنارد لويس أن يحتمي من سفاهة موقفه العدائي لنموذج القائد المسلم، محملا المؤرخين المسلمين المسؤولية التاريخية وصف القائد صلاح الدين ونعته بما يأمله برنارد لويس أن يكون عليه، مع أن هذه الأوصاف السيئة يفرض الواقع والعقل أن تصدر عن مؤرخين غربيين تعبيراً عما لحق بجيوشهم من هزائم نتيجة قسوة ومغامرة صلاح الدين الطامح للعظمة، لا أن يكون مصدرها المؤرخون المسلمون الذين كان سيفٌ وجيشٌ صلاح الدين نُصرة لدينهم ودولتهم.

لقد أخرج أغلب المؤرخين الغربيين المشهود لهم غربيا بالكفاءة العلمية برنارد لويس بما أثبتوه للقائد صلاح الدين من مواقف وسلوك وأوصاف خَلْقية وخُلُقية لا تنزل به دون مرتبة ' القائد البطل'، كما خذله أشباه المؤرخين الغربيين الذين لا يتجردون من التحيزات العرقية أو العقائدية القومية خلال تسجيلهم للأحداث التاريخية، فيتخيرون ما يُرضي أقوامهم ويسكتون عما يُغضبها على رواية المؤرخ النزيه ' كريستو قولوس '، لذلك عمد برنارد لويس إلى تمرير موقفه الشخصي ولكن بنسبته إلى المؤرخين الذين يُقاسمون صلاح الدين العقيدة والمصير والآمال، فتكون هذه القَرابات ضامنة لمصادقية الطعون الواردة في حق صلاح الدين.

يبدو أن اهتمام برنارد لويس بضرورة الخروج من هذا الإحراج، أفقده توازنه العلمي فلم يتقيد بأبسط شروط الرواية والكتابة التاريخية التي تجعل منها شهادة تاريخية من الصعب تكذيبها أو ردّها

¹ - طيباوي، عبد اللطيف، المستشرقون الناطقون بالانجليزية، المرجع السابق، ص110.

² - The Article edited by P. M. Holf, Ann K.S Lambton and Bernard Lewis, Egypt and Syria to the end of Fatimid Caliphate, (The History Of Islam, Vo I, ch3), Cambridge, Cambridge University. 1970, PP : 297-98.

" من الغريب جدا أيضا أن الكاتب لم يشر إلى أي من هؤلاء (المؤرخين المسلمين)، ولم يذكر أيضا أي اقتباس منهم، وهو المولع بسرد المصادر التفصيلية لتعزيز مقولته في أمور هي أقل أهمية من صلاح الدين، إن لم تكن في الحقيقة تافهة أمثال اسم (شجرة الدر) " ¹.

يبدو أن برنارد لويس يضع قراءه جملة واحدة في مرتبة ' عامة الناس '، ولذلك لا يستدعي أن يذكر لهم أسماء ولا مراجع ولا حتى أقوال من نسب لهم أحكاما في حق صلاح الدين، في سياق استراتيجي وكأن هذه الأحكام من الشيع والشيعة والشهرة أصبحت لا تحتاج إلى هذا الإسناد والاستشهاد العلمي، مما يطرح مدى علمية وموثوقية الاحتجاج بأقواله وأرائه في مشاريع البحث العلمي.

" إن الأولوية التي أعطاها برنارد لويس للصفات الأولى لصلاح الدين تتناقض تناقضا شديدا مع صفة (بطل الإسلام)، وهي صفة ذات معنى عام ومبهم نسبيا، والكاتب بعد ذلك لم يقل كلمة واحدة حول شهرة صلاح الدين وسمعته التي لا تقل في الغرب عنها في الشرق بالرفعة والرحمة الإنسانية والفروسية (المتمثلة في (المروءة والشهامة) " ².

ضرب برنارد لويس صفحا عن كل ما كتبه الغربيون عن الايجابية في سيرة صلاح الدين كإنسان بالدرجة الأولى، وكقائد محنك في فنون الحرب، ومنتصر على أعظم إمبراطورية في عصره، ولم يقتنع إلا بما نسبه للمؤرخين المسلمين - لعلمهم مختلفين جدا مثل عاشق باشا زادة - من أوصاف تطعن في بطولة القائد صلاح الدين.

من أهم الأوصاف التي تقضي على شموخ القائد المنتصر وتنقص من نشوة الانتصار أنانيته التي يتطلبها غرور العظمة، والقسوة للمحافظة على هذه العظمة و منع اقتسامها مع أي أحد صديقا كان أم عدوا، وهذه الأخلاق والتصرفات أكثر ما تظهر في اللحظات المفصلية الحاسمة.

عند سقوط القدس في 02 تشرين الأول (أكتوبر) 1187م ، " لم يشأ صلاح الدين أن يحتفظ لنفسه بشيء من الغنائم التي قسمها بين الأمراء والجنود والفقهاء الذين رافقوه إلى القدس، وأظهر في مناسبات عدة أريحيته - نحو المسيحيين محاولا تجنبهم قسوة وضعهم الجديد" ³.

¹ - طيباوي، عبد اللطيف طيباوي ، المستشرقون الناطقون بالانجليزية، المرجع السابق، ص110/111.

² - المرجع السابق ، ص110.

³ - شاندر، ألبير شاندر ، صلاح الدين الأيوبي ، البطل الأتقي في الإسلام ، ترجمه عن الفرنسية : سعيد أبو الحسن. مراجعة وتحقيق : نديم مرعشلي، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط 2، 1993م، ص234.

هذه شهادة مؤرخ غربي يثبت للقائد صلاح الدين جهده في رفع معانات المتضررين من ويلات الحرب وتحسين ظروفهم في أكثر من مناسبة، وهي كناية على أنه يفعل ذلك دون تكلف أو حبا في الظهور بمظهر المتسامح مع خصومه المسيحيين، وذلك لنفي ما ادعاه برنارد لويس ، بل تعدت أريحته مجرد التخفيف من قساوة الهزيمة إلى أبعاد إنسانية وتاريخية لم تسترع انتباه برنارد لويس ومصادره الإسلامية المجهولة.

" فأمر بإبقاء المرضى في المستشفيات التي كان يعالجهم فيها الاسبتاريون، وتخلي عن كنيسة (القبر المقدس) للروم والسريان، وأُغْفِي- بناء على أمره - وأمر أخيه الملك العادل ألف وخمسمائة (1500) من الفرنجة من دفع الجزية"¹.

أعطى القائد صلاح الدين بهذا السلوك النموذج الرائع لطبيعة العلاقة مع الآخر، فأعطاه حق العلاج والمحافظة على سلامة الأنفس، كما أظهر احترامه الشديد لُدور العبادة ومقدسات المسيحيين بتخليه وتنازله عن هذا المبنى التاريخي والديني المهم، لصالح المسيحيين الروم، وهو موقف غاية في السمو وتقبُّل الآخر، وخَفَّف من الأعباء المادية عن الفقراء وغير القادرين، رغم ما تُمثِّله الجزية من مورد مهم لبيت مال المسلمين، لكنه فضَّل رفع معانات الفقراء على الدخل المادي لبيت المال.

لم تتوقف محاسنه عند هذا الحد، بل لم يترك فرصة إلا وسجل فيها موقفا لا يصدر إلا من العظماء الذين لا تلهيهم نشوة الانتصار عن رسم لوحات مشرفة لا يرقى إليها أدنى شك كونها تعبر حقا عن همة وفطنة وإنسانية صاحبها.

" بعد اتخاذه الاحتياطات لحماية خروج الذين فضلوا الرحيل - من الفرنجة - ، أمر (صلاح الدين) بإغلاق أبواب القدس باستثناء (باب داوود)، وممر أمامه صف المهزومين الطويل، وكان (هيراقليوس) بطريرك القدس في المقدمة، ويتبعه الاكليروس الزمني والروحي، وكان ينوء بحمل الأنية المقدسة والمصوغات الذهبية والأقمشة وكنز القبر المقدس "².

انه القائد الذي لا يتَهَرَّب من مسؤولياته التاريخية تجاه رعاياه أو أسراه الذين رفضوا البقاء تحت حكمه، واختاروا بيئة أخرى ونظام حكم آخر، فلم يخل مسؤوليته منهم بل احتاط لإتمام عملية خروجهم أمنين دون حدوث أي اعتداء عليهم من أي جهة كانت ومنهم أصحاب المناصب الدينية المهمة.

¹- شاندور، ألبير شاندور ، صلاح الدين الأيوبي ، البطل الأتقي في الإسلام، المرجع السابق، ص 234.

²- المرجع السابق، ص 234.

" ولفت المؤرخ العماد نظر السلطان إلى أن هذه الثروات كان يجب اعتبارها من الأموال غير المنقولة، وبالتالي أن تبقى مكانها بحكم المعاهدة، لأنها بهذه الصفة من حق المنتصر، واقتنع صلاح الدين بوجهة النظر هذه، لكنه فضل عدم المنازعة بملكية أموال القبر المقدس وتركها تمر، لأن الطهر الأكبر يكمن في عقيدة المؤمنين الحقيقيين أكثر مما يكمن في ذهب الآنية المقدسة"¹.

وكلما ظهر في المشهد استفزاز للقائد عساه أن يتراجع عن تألقه إلا ازداد رفعة وشموخا، فعند موازنته بين ما يريد أن يكتبه التاريخ عن الإسلام وعنه، وبين ما أخذه الاكليروس الزمني والروحي من آنية وذهب وكنز القبر المقدس، مع أنه من حق الفاتحين، إلا أنه لم يسمح لهذا التنبيه أن يفسد عنه سمو أخلاقه تحت عذر الأحقية ومنطق الشرعية، وترك المشهد يحدد نهايته بما يشهد له بنقاء بطولته.

لقد أظهر صلاح الدين تلك الأخلاق وهو في سعة من أمره، وكانت هذه المواقف مع رجال الدين والجند المهزومين، وأقدم على تلك الخصال دون أن يُسألها، فكيف به إن سُئل؟ وكيف إن كان السائل نسوة تبكين أزواجهن وأبناءهن وإخوانهن الأسرى؟.

" وجئت بعض النسوة على قدمي السلطان مبهلات: " لقد فقدنا كل شيء: منازلنا وأموالنا وديارنا، وسنتيه في بلاد أصبحت غريبة ومعادية بالنسبة إلينا، وبإمكانك أيها السيد أن تخفف ألامنا بأن تعيد ألينا أزواجنا وإخوتنا وأولادنا الراسفين بأغلال الأسر عندك" فأمر صلاح الدين بالبحث عن أزواج هؤلاء النسوة بين الأسرى وأطلق سراحهم، بل عمل أكثر من ذلك، فقد غمر هؤلاء النسوة بالهدايا والمؤن"².

لعله يُستنتج من هذا الموقف، حقائق كثيرة، منها أن النسوة لم يتجرأن على التصريح بهذا المطلب الخطير في توقيتته، إلا بعد أن رأين رأي العين ولمسن إنسانية القائد وكرم أخلاقه، وأنه لم يحتج إلى التنبيه في ما فعل فكيف، إذا نُبّه إلى مَكْمَن الألم وسبب المعانات؟!، وهو الذي تعمد عمليا برفعه.

وإذا كان هذا هو موقف القائد المسلم من الفرنجة المهزومين، الذي وصفه برنارد لويس نقلا عن المؤرخين المسلمين وليس بعضهم - وهو اقتباس غير علمي - بالقاسي، فكيف كان موقف قادة وملوك الفرنجة من بني عقيدتهم ولغتهم المهزومين عندما سمح لهم صلاح الدين بالمغادرة ولم يتخذهم كرهائن أو أسرى يفاوض من خلالهم من موقف قوة؟.

¹ - شاندر، ألبير، صلاح الدين الأيوبي، البطل الأتقي في الإسلام، المرجع السابق، ص 234.

² - المرجع السابق، ص 234.

وصحب المسلمون الفرنجة حتى أراضي (بوهيموند) حاكم أنطاكية، ويُروى أن فرنجة أنطاكية وفرسان (كونت طرابلس) استقبلوا بفتور إخوتهم القادمين من القدس، ويذكر بعض المؤرخين أنهم كانوا في بعض الحالات يقتلونهم ويجردونهم من أحمالهم ما أمكنهم ذلك، ويمنعونهم من دخول مدنهم، ويعملهم هذا كشفوا عن حقيقتهم تجاه أولئك المحترقين الذين أُرهبوا بالألم، بينما عاملهم أكبر عدو لعرقهم ودينهم بهذا القدر من الإنسانية " ¹.

لم يُسجل برنارد لويس من خلال مصادره - الإسلامية - صورة هذا الاستقبال، ولا وصف المعاملة بين الإخوة المسيحيين التي تنوعت بين القتل أو السلب، أو الطرد والمنع من التمتع بالأمن داخل أنطاكية وطرابلس المسيحيتين، ولم يجد له مصطلحا يستوعبه كما وجد لمعاملة القائد للفرنجة حكم القسوة ، حتى وان تحمل القائد مسؤوليته الإنسانية والأخلاقية مرة أخرى، ولم يتحجج بموقف إخوانهم المسيحيين.

" وعاد أولئك البؤساء أدرجهم نحو الجنوب بعد أن طردوا من (كونتية طرابلس) و (إمارة أنطاكية)، فأمر صلاح الدين بأن توزع عليهم الخيام، وأن يطعموا مجانا، حتى يتمكنوا من الإبحار إلى الغرب، وأمر بنقل عدد كبير منهم إلى الإسكندرية للتعجيل بترحيلهم، ولكن اعترضهم هناك كذلك كل أنواع العقبات، إذ رفض قادة مراكب (جنوة وبيزة و البندقية) أن يقلوا إلى أوربا إلا الذين يدفعون أجره السفر، ويتزودون قبل ركوبهم بما يكفيهم من الأطعمة طوال مدة الرحلة " ².

" وحسب العادة، حينما جاء قادة السفن يطلبون من حاكم الميناء أن يرد إليهم دفة السفن، دهش الأخير من قلة عدد فرنجة القدس العائدين إلى بلادهم بين الركاب رغم طول انتظارهم السفر، فتجرأ البحارة بالرد بأن أولئك الذين يتركونهم على اليابسة هم من الفقراء، وليس باستطاعتهم أن ينقلوهم مجانا، وطبيعي أن أقل حزمة من التوابل هي أكثر مواءمة لمصالحهم " ³.

" عندها اضطر الموظفون المسلمون أن يُزودوا أولئك الفرنجة بالمؤن ممن وجدوا أماكن للركوب، والى إصدار أوامهم إلى قادة السفن بعدم إنزال أولئك العتقاء الذين غدوا في نمة المسلمين إلا في موانئ فرنسا وإيطاليا تحت طائلة مواجهة الغضب المحقق لصلاح الدين " ⁴.

¹- شاندر، ألبير شاندر ، صلاح الدين الأيوبي ، البطل الأتقي في الإسلام، المرجع السابق، ص235.

²- المرجع السابق ص235.

³- المرجع السابق، ص235.

⁴- المرجع السابق ، ص 235.

لقد حارب صلاح الدين باستعماله لصلاحيات الحاكم قسوة المادية التي نتسبب في إهانة الكرامة الإنسانية أو التنازل عنها، وكان إصراره على سلامة الإنسان تعبيراً على دماثة خلقه وعلو همته وترفعه عن سلوك الانتهازية التي قلما ينفك عنها القادة المنتصرون.

ومما يبعث على الوقوف موقف الاحترام والتقدير للقائد صلاح الدين، أن هذا السمو والرفعة في المعاملة لم يظهره فقط مع الرعية من الفرنجة المهزومين، بل تعدت إلى قادة جيش عدوّه وما يمثله من رمزية سياسية وعسكرية، دلالة على أن العداوة لا تمس الجانب الإنساني، ولا يستغل هذا الأخير لإحراز انتصارات عسكرية أو سياسية.

" بعد معركة (يافا) بشهر واحد، وخلال اشتباك ضار بين المسلمين والفرنجة، أصيب ملك الإنجليز في هذا الصيف ب (الورداء) وألزمه المرض فراشه، وكان من الخطورة بمكان حيث أخذ المحيطون به ينتظرون سماع أنفاسه الأخيرة، ولما أحس ملك الإنجليز برغبة ملحّة إلى (الأجاص والدراق)، أمر صلاح الدين بأن يرسل إليه هذه الفواكه يوماً فيوماً مصحوبة بشراب لذيذ مبرد بثلج لبنان" ¹.

لم تتدخل إستراتيجية صلاح الدين العسكرية والسياسية في إفساد الجانب الإنساني فيه، وترك سلوكاً راقياً في التعامل مع الأعداء خارج ساحة المعركة، لأن النصر عنده ليس فقط قتل الأعداء وهزيمتهم، بل كذلك العفو عنهم والإحسان إليهم ما دام ذلك ممكناً. ولو شاعت الأقدار أن يحتاج صلاح الدين إلى موقف نبيل من الصليبيين في محطة من محطات الصراع، لما تجرأ قادة الصليبيين على تقديمهم لأنهم برغماتيون ماديون، ولأعتبروه خيانة للصليب يستوجب الإعدام، لأنه تزويد للعدو بأسباب القوة.

ولتقييم حكم برنارد لويس المتعلق بقساوة القائد صلاح الدين مع الفرنجة خارج المعارك، نقابل مواقفه وسلوكه مع مواقف وسلوك القادة الفرنجة المنتصرين بعد ذلك في بيت المقدس التي شهدت نُبل صلاح الدين وموقفه من الأخر ومقدساته وذلك عند سقوطها بيد الصليبيين.

" على أنه لم ينج من المسلمين بحياتهم إلا هذه الفئة القليلة، إذ أن الصليبيين - وقد زاد في جنونهم ما أحرزوه من نصر كبير بعد شقاء وعناء شديدين - ، انطلقوا في شوارع المدينة، وإلى الدور والمساجد، يقتلون كل من يصادفهم من الرجال والنساء دون تمييز، واستمرت المذبحة طوال مساء ذلك اليوم وطوال الليل، ولم يكن عَلمُ (تانكارد) عاصماً للاجئين إلى المسجد الأقصى من القتل، ففي الصباح الباكر من اليوم التالي، اقتحم ثلّة من الصليبيين باب المسجد،

¹ - شاندر، ألبير، صلاح الدين الأيوبي، البطل الأتقى في الإسلام، المرجع السابق، ص363.

فأجهزت على جميع اللاجئين، وحينما توجه ' ريموند آجيل' في الضحى لزيارة ساحة المعبد، أخذ يتلمس طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبتيه ¹.

" وفرَّ يهود بيت المقدس جميعا إلى معبدهم الكبير، غير أنه تقرّر إلقاء القبض عليهم، بحُجَّة أنهم ساعدوا المسلمين، فلم تأخذه الرحمة والرأفة، فأشعلوا النَّار في المعبد، ولقيَ اليهود بداخله مَصْرَعَهُمْ محترقين. وتركت مذبحه القدس أثرا عميقا في جميع العالم، ليس معروفا بالضبط عدد ضحاياها، غير أنها أدت إلى خلو المدينة من سكانها المسلمين واليهود " ².

لعله من سوء حظ اليهود الذين قضاوا حرقا في معبدهم أن شاركهم المسلمون في مظلمة التهجير القسري من مدينة القدس، وحتى لا تثبت تبعات المظلمة للمسلمين ضد المسيحيين، سكت برنارد لويس عن قسوة المسيحيين في حق اليهود الذين ضحى بحادثه حرقهم في معبدهم، مع ما تُمثِّله هذه الحادثة من النَّاحية التَّاريخية، ولم يجعل منها "هولوكست" استباقي رغم شرف الزمان والمكان.

وإذا كان برنار لويس لا يستقرُّه جسُّه التاريخي كي يصف الاعتداء على المعابد اليهودية بالقسوة المسيحية، فإنه ولا شك لن يتجرأ على وصف ' ريجنالد ' الناقض للعهد والهدنة مع صلاح الدين بالقائد الذي لا يحترم مقدسات الآخر.

" فالمعروف أن (بلدوين الرابع) ملك بيت المقدس عقد سنة 1180م هدنة مع صلاح الدين، ودخل في هذه الهدنة (ريموند) صاحب طرابلس، ومن شروط هذه الاتفاق ما يتعلق بحرية التجارة، فكان انتهاك هذا الشرط من قبل (ريجنالد) - بما فرضه من الإتاوات على القوافل الإسلامية سنة 1181م - من الأسباب التي أدت إلى توتر العلاقات بين المسلمين والصليبيين، يضاف إلى ذلك ما سبقت الإشارة إليه من مضيه إلى الحجاز ومحاولة نهب مكة والمدينة والاستيلاء عليهما " ³.

بعد أربع سنوات من نقض الهدنة، التي كان صلاح الدين يستطيع أن يتخذها ذريعة لرفض أي مفاوضات، بالإضافة إلى الوضعية المريحة سياسيا وعسكريا، لم يشأ صلاح الدين أن يُضَيِّع فرصة للسلام وحقق الدماء، مع أنه " أضحى مستعدا للقيام بهجوم ضخم على الصليبيين، وأيقن بأنه لا بد من القيام بهجوم كبير منظم ضد الصليبيين، وأصبح معظم جيش صلاح الدين يعمل في تعاون تام، وتهيأت الفرصة للقيام بعمليات مشتركة، أسهمت فيها القوى المختلفة من سائر

¹ - رنسيان، ستيفن رنسيان ، تاريخ الحروب الصليبية، المرجع السابق، ص 403.

² - المرجع السابق ، ص 405.

³ - باركر، أرنتس باركر ، الحروب الصليبية، المرجع السابق، ص 177.

جهات مملكته، التمس (ريموند) صاحب طرابلس سنة 1185 الهدنة من صلاح الدين، فأجابه إلى طلبه " ¹ .

" لم تنته سنة 1186م حتى اكتمل لصلاح الدين كل أسباب الاستعداد من الناحيتين: السياسية والعسكرية ما يحقق هدفه الكبير بالقيام بهجوم شامل على الصليبيين، ولم يمنعه من المبادرة إلى ذلك سوى سنوح الفرصة، لاسيما أن صلاح الدين لم يزل متقيدا بالمعاهدة التي عقدها سنة 1185م ، فكان لزاما عليه أن ينتظر حتى ينتهي أجلها أو ينقضها الصليبيون من جانبهم " ² . وهي عادة طالما تعامل معها صلاح الدين في علاقته مع الصليبيين حتى أصبحت ﴿ أَوْ كَلَّمَا عَهْدُوْا عَهْدًا نَّبَدَهُ، فَرِيْقٌ مِّنْهُمْ بَلَّ أَكْثَرُهُمْ لَأَ يَوْمِنُوْنَ ﴾ ، البقرة.

إن خطأ المستشرقين الغربيين أنهم لا يستنتجون أحكامهم على الآخر من خلال ملاحظتهم ومراقبتهم للواقع، وما رشح من علاقات ومواقف بعيد انتصار القائد صلاح الدين وما لمس من قبول وطاعة وولاء من المسيحيين الشرقيين، الذين يحق لهم وهدم تقييم مواقف سلطان القائد صلاح الدين باعتبارهم الجزء الأهم في الأحداث.

إن المسيحيين الوطنيين أو السوريين لم يتعرضوا لخطر من الأخطار، وكان لاتجاه الاورثوذكسية اليونانية وسائر المذاهب المسيحية الشرقية أهمية كبيرة، إذ رحبت بعودة الحكم الإسلام لما اشتهر به المسلمون من التسامح الديني، وللعداء التقليدي بين القسطنطينية وروما، فضلا عن عداة الإمبراطورية البيزنطية للصليبيين لاسيما بعد وفاة (مانويل) ³.

" أما المسيحيون في الغرب فاعتبروا انتصارات صلاح الدين كارثة شديدة الخطورة، وتعلقت أرستقراطيتهم بالأمل في استرداد ما كان لهم من سلطان، وشجعهم على ذلك أن بعض المعازل والحصون لا زالت في أيدي الصليبيين " ⁴.

" والخلاصة أن ما اشتهر به صلاح الدين من التسامح والرحمة والمروءة، لم يغيّر في الأوضاع السائدة شيء، واطمأنت العناصر المُخَالِفة للمسلمين في الديانة إلى التّغيير الجديد " ⁵ لأن هذه الأخلاق والمواقف والمعاملات لا تصمد كوقائع تؤسس عليها أحكاما تصدر في حق القادة العظام، أمام الخلفيات القروسطية و 'علم الإسلاميات' .

¹ - باركر، أرنست باركر ، الحروب الصليبية، المرجع السابق، ص178.

² - المرجع السابق، ص180.

³ - المرجع السابق، ص184.

⁴ - المرجع السابق، ص184.

⁵ - المرجع السابق، ص184.

" ولعل برنارد لويس هو الكاتب الغربي الوحيد الذي جرّد صلاح الدين - بغفلة وتعمّد - من صفاته النبيلة " ¹.

¹ - طيباوي، عبد اللطيف طيباوي ، المستشرقون الناطقون بالانجليزية، المرجع السابق، ص110،111.

المبحث الثاني:

إستراتيجية مصدرية النص لشخصية الحاكم
العثماني "المسلم"

المطلب الأول: محمد الفاتح، سيرة قائد تتجاوز مجال الحس
الغربي

المطلب الثاني: إستراتيجية الإيحاء بتنوع وتعدد المصادر

المطلب الثالث: لويس والسلطان سليم الثاني

المبحث الثاني: إستراتيجية مصدرية النص لشخصية الحاكم العثماني

" المسلم "

المطلب الأول: محمد الفاتح، سيرة قائد تتجاوز مجال الحس الغربي:

تعدُّ رسالة برنارد لويس إلى الأستاذ مازن صلاح مطبقاني المنهج النظري له في دراسته للتاريخ، بما أظهر فيه من وجوب الانتصار للحقيقة التاريخية والاعتماد على المصادر الموثوقة التي تكتسب موثوقيتها من معاصرتها للحدث، والتَّجَرُّد في نقله من الخلفيات الأيديولوجية أو العقائدية.

إلا أن الجانب التطبيقي الذي يعتمده برنارد لويس في دراساته التاريخية للظاهرة الإسلامية يؤكد أن المنهج النظري هو للاستهلاك الأكاديمي والإعلامي فقط، وعنوانا لاستقطاب الباحثين وترويعهم في الندوات والملتقيات العلمية.

تظهر هذه الحقيقة في الجانب العملي لبرنارد لويس عند تناوله لفتح القسطنطينية وحديثه عن الشخصية الإسلامية المحورية في هذا الحدث، وهو السلطان محمد الفاتح - رحمه الله -¹.

لقد توفرت لبرنارد لويس بخصوص هذا الحدث المهم من المصادر لأرخنة هذا الحدث ما لا يقبل الطعن أو الرد، وكذلك ما ينسجم مع منهجه النظري الذي يُرْعِب به الباحثين، ويُقصي على أساسه من يرى فيهم الخطر العلمي على مشاريعه الإستراتيجية.

تنوع الموقف التاريخي لأغلب وأشهر المؤرخين البيزنطيين من السلطان محمد الفاتح بين مؤرخ محايد يثبت ما تأكد لديه من حقائق حول الحدث برمته

¹ - محمد الفاتح: هو السلطان محمد الثاني بن مراد الثاني، سابع سلاطين آل عثمان، تولى الحكم وعمره 22 سنة، حكم ثلاثين عاما من 1451-1481م، اشتهر بـ ' الفاتح ' لفتح القسطنطينية، من أعظم السلاطين العثمانيين، تمت فتوح أوروبا الشرقية واليونان وشبه جزيرة القرم في عهده، عالم وشاعر، قائد عسكري عارف باللغات (العربية والتركية والفارسية واليونانية والسلافية واللاتينية)، أحد الفاتحين العالميين الثالث: اسكندر قبله ونابليون بعده ، توفي في معسكره - رحمه الله - . برنارد لويس، استانبول حضارة الخلافة الإسلامية، تعريب: الدكتور سيد رضوان علي، الرياض، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط 2، 1982م، هـ ص 17.

و من خضع لأحاسيسه كمؤرخ بيزنطي لم يكن يرغب للتأريخ لحدث سقوط قلعة المسيحيين الأخيرة، لكن لم يدفعه ذلك إلى تزييف الأحداث والطعن في أبطالها بناء على تلك الخلفية المسيحية.

" فشاهد العيان المعاصر (ريشيريو)، كان أكثر إنصافا للسلطان محمد الفاتح، فقد وصفه بكلمات يستحقها وبحياد تام " ¹.

كما أن " الأسقف (ليونارد) من جزيرة ' خيوس ' اليونانية والذي أرسله البابا (نيقولا) الخامس إلى القسطنطينية قبل سقوطها بعام واحد 1451م من أجل المساعدة في إقناع سكان مدينة بضرورة الاتحاد الكنسي مع كنيسة روما الكاثوليكية، فقد ترك شهادة وافية عن الفتح العثماني للقسطنطينية، وامتألت شهادته بروح الأسى والأسف على سقوط المدينة وعلى تقاعس المسيحيين، لكن عباراته لم تطفح كراهية للمسلمين أو السلطان الفاتح، فقد كان تركيزه بصفته رجل دين مسيحي على محاولة تلمس أسباب سقوط المدينة، ودعوة البابا لإنقاذها مرة أخرى " ².

" يعدُّ المؤرخ البيزنطي (ميخائيل كريستوقولوس - Michael Kritovoulus 1410/1470م) أحد أربعة مؤرخين بيزنطيين عاصروا سقوط مدينة القسطنطينية تحت سنايك خيل العثمانيين عام 1453م، بالإضافة الى (ميخائيل دوкас - Michael Ducas 1400 الى ما بعد 1462م)، ولاونيكوس خالكوكونديلاس - Laonicos Chalcocondylas 1423/1490م)، وجورج فرانتس - George Sphrantzes 1401/1478م)، حيث خلف لنا الجميع وصفا للعلاقات العثمانية- البيزنطية قبل وبعد فتح القسطنطينية " ³.

توفرت في هذه الكوكبة كل اشتراطات برنارد لويس النظرية، بالإضافة إلى الحوافز الواقعية التي تجعل من تاريخهم مقدما على غيره باعتبار أنهم معاصرين للحدث، وأن تاريخ إمبراطوريتهم هو ضحية هذا الحدث باعتبارهم بيزنطيين.

عند النظر في كتاب برنارد لويس ' استانبول حضارة الخلافة الإسلامية ' الذي ترجمه سيد علي رضوان، والذي اهتم فيه بالخلافة العثمانية من التأسيس إلى السقوط، مروراً بفتح القسطنطينية وغيرها من الأحداث، لا يسجل القارئ مصدرا واحدا لأي من المؤرخين الأربعة في

¹ - كريستوقولوس، ميخائيل كريستوقولوس ، تاريخ السلطان محمد الفاتح، تر: حاتم الطحاوي، القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط 1، 2014م، مقدمة الترجمة العربية، مقدمة الترجمة العربية، ص 8.

² - المرجع السابق، ص 8.

³ - المرجع السابق ص 10.

تسجيل تاريخ الخلافة وعلاقتها بمحيطها، وهو ما يبعث على الحيرة ويدعو إلى الريبة في ما يقره من أحكام وأحداث تاريخية لتركة هذه المصادر واستشهاده بأخرى.

مع أن برنارد لويس يعترف لأغلب هؤلاء المؤرخين بالكفاءة العلمية، الذين من ضمنهم أهم مؤرخ بيزنطي للسلطان الفاتح إلا أن ذلك لا يشفع له أن يتخذ كمرجع في مؤلفات برنارد لويس.

كان محمد الفاتح يعرف اللغة اليونانية، وكانت لديه مكتبة من الكتب اليونانية، وكان من ضمن حاشيته، عالم الدراسات الإنسانية الإيطالي كريكو بيتزو كوللي - Criaco Pizzo Colli من أنكونا، وكاتب سيرته كريستو بولوس - Critoboulos، والرسام فينيتيان بللي - Venitian Bellini¹.

عند استقصاء الشهادات التاريخية لأغلب هؤلاء المؤرخين البيزنطيين الذين قد يُحتمل منهم التحيز أو الطعن في شخص السلطان محمد الفاتح، يتوقف الباحث عن هكذا احتمال على نقيض ذلك تماما، حيث أجمع هؤلاء على تكامل شخصية السلطان ووعيه بمسؤوليته، وعلو همته وكرمه وأدبه وشجاعته وبسالته، مما أدى ببعضهم إلى ترك حتى الحزن والأسى على ما حدث، رغم جسامة الحدث التزاما بما يفرضه البحث العلمي التاريخي، أو الاعتذار إلى قومه كما فعل البعض الآخر.

وحتى يحدث الانسجام مع متطلبات البحث، يحسن اختيار مؤرخ من بين هؤلاء، تميز بخاصية إضافية عن غيره، حيث ركز على شخص السلطان وقدم ما يمكن أن يفيد في أغلب ما قيل عن السلطان، بل أظهر شجاعة ووفاء للمنهج العلمي قل ما يحدث.

" إن المؤرخين اليونانيين المُحدّثين [الذين يروق لبرنارد لويس اعتمادهم كحجة] مثل باباريجوبولوس - Pappariogopoulos يميلون إلى التوبيخ والتقليل من قيمة كريستوقولوس، لأنه جعل من الرجل [السلطان محمد الفاتح] الذي هزم البيزنطيين ' اليونانيين ' بطلا، غير أن هناك متخصصين موضوعيين ومنصفين كالبروفسور ألكسندر فان ميلنجن - Alexander Van Milingin في كلية روبرت - Robert College ' جامعة البوسفور في اسطنبول حاليا، والسير إدون بيرس - Edwin Pears، عمداء التخصص في تاريخ مدينة القسطنطينية، قاما بتقييم كريستوقولوس بقدر عال باعتبار حجة له وزنه، مقنع في الأمور التي تتعلق بالحملات العسكرية بشكل كامل " ².

¹ - لويس، برنارد لويس، ظهور تركيا الحديثة، المرجع السابق، ص 25.

² - ميخائيل كريستوقولوس، تاريخ السلطان محمد الفاتح، تر: حاتم الطحاوي (القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط 1، 2014م، ص 20.

لولا الفارق الزمني بين برنارد لويس ومنهجه النظري وفتح القسطنطينية، لحكم القارئ لكتاب كريتوقولوس ' تاريخ السلطان محمد الفاتح ' بأنه التطبيق العملي لشروط برنارد لويس ومنهجه النظري في كتابة التاريخ، الذي مكنه من الوقوف على شخصية السلطان ورصد سلوكه الرصين، مما أحدث فيه انقلاباً جذرياً في كامل مناحي حياته العلمية والعادية.

" وحده كريتو قولوس انفرد بتأليف كتاب كامل عن السلطان العثماني محمد الفاتح، بعدما حول ولاءه من الإمبراطور البيزنطي الأخير (قسطنطين الحادي عشر - 1404/1453م)، إلى خدمة العثمانيين " ¹.

لقد أثبت في هذا الكتاب ما سبب له عداوة شخصية مع المؤرخين المحدثين، الذين عجزوا عن التمييز بين الانتصار إلى الحقيقة التاريخية دون ما سواها، دون النظر إلى من جسدها عارية عن أي خلفية، ودونما اعتبار لأي عامل قد يعيق عن إثبات هذه الحقيقة أو إعلانها، أو المجاهرة لنماذجها بالاحترام والاعتراف.

" نظرا لكونك بطل العديد من الأحداث العظيمة، أيها السلطان الأكثر عظمة، وبإيمان كامل، فإن العديد من الانجازات العظيمة التي قام بها القادة والملوك القديما، ليس فقط الفرس واليونان، لا تستحق أن تقارن بالمجد والشجاعة والبسالة العسكرية التي أبديتها" ².

لقد قيم هذا المؤرخ السلطان من خلال انجازاته التي تؤهله إلى لقب ' بطل عظيم '، كما هو معمول به في تصنيف القادة والعظماء عند الفرس والروم، مع أن انجازاتهم لم ترق إلى عظمة السلطان، وهي الحقيقة التي حملت كريتوقولوس مسؤولية كتابة هذه الحقائق بلغة من يدعي أن العظمة والبطولة انتهت مع الإسكندر المقدوني وأمثاله في اليونان، دون أن يؤثر المقصد على قوة إثبات الحقيقة وإبراز القيم.

" بينما أنتم، الرجل الأكثر عظمة وقوة، الذي يمتلك معظم الأراضي التي تطلع عليها الشمس والمجد عبر انجازاتك العظيمة والرائعة التي لا تحتاج إلى شهادة.. بينما انجازاتك تفوق تلك التي أنجزها الاسكندر المقدوني، أو القادة والملوك الذي يعادلونه في الدرجة، لا يتم نشرها باللغة اليونانية للشعب اليوناني، وكذلك لا تنتقل إلى الأجيال التالية انجازاتك التي تستحق الثناء الأبدي" ³.

¹ - كريتوقولوس، المرجع السابق، ص 10.

² - المرجع السابق، ص 23.

³ - المرجع السابق، ص 23.

لقد تحرر هذا المؤرخ للحقيقة دون سواها، واكتمل تحرره عندما تنبه إلى تفعيل السنن التاريخية في تشكيل الأحداث دون استشارة المؤرخ، ولفت انتباه قومه إليها وضرورة تقبلها ، وأن من واجب المؤرخ أن لا يهملها أو يخفي أثرها في تشكيل الحدث التاريخي، وذلك من وفاء المؤرخ مع الحدث وأبطاله.

" ولهذا فلا شيء يجلب الدهشة إذا ما حدثت نفس الأشياء، وجرى تحمُّلها الآن أيضا بحيث يفقد الرومان (البيزنطيون) حكمهم وازدهارهم الذي انتقل إلى الآخرين، كما جاء من الآخرين إليهم، وهكذا تظل الأحداث بنفس الطبيعة، حتى الآن وبالنظر إلى تلك الحالة، كيف يمكن إذن أن نقوم بإدانة أمتنا، وبأية عدالة، لأنها لم تتمكن من الحفاظ على سعادتها للأبد، أو القيام بحراسة قوتها السامية وقدرها الطيب من السقوط " ¹.

هكذا أسس كريتو قولوس للبيزنطيين الخطوط العريضة التي يُقرأ ضمن إطارها حدث سقوط القسطنطينية، والسياق الواقعي الذي تسبب في ذلك، الذي كان من أهم مكوناته شخصية السلطان محمد الفاتح وبلاؤه وحنكته العسكرية باعتباره العنصر المهم في هذا الفتح، والشخصية التي تحمل مشروعا حضاريا يحتم على المؤرخين إثبات دوره في صنع الحدث، بل حتى من تسبب من القادة الرومان في سقوط القسطنطينية تحت أي مبرر، فإنهم كذلك لم يفعلوا ذلك اختيارا بل إجبارا تحت ضغط السنن التاريخية وأحقية السلطان وجيشه بالنصر المؤزر، مما يستوجب إثباته.

" وبنفس الطريقة، فإن الجيد منهم يجب أن يتم مدحُه وأن يتم الإعجابُ بالأعمال التي قام بها بشرف عبْر كل السبل الممكنة، إننا لا نرغب في نزع المديح والفضيلة عنهم بسبب ضعفهم وتراخيهم، فإن ذلك ليس عدلا " ².

إن حنكة المؤرخ تظهر في ما يقدمه من أحداث صادقة تتعلق بمن يخاطب، فقد ذكّر كريتوقولوس الرُّوم بأعظم أمجادهم التي لا يقبلون الانتقاص من أبسط أحداثها، لأنها لم تأتي فقط لضعف العدو، بل لقوة الروم وحنكة قادة جيشه آنذاك، وقناعتهم بعظمة ما هم قادمون عليه من انجاز، ويعود فضل أرخنة تلك الأمجاد الرومانية إلى الجهد التاريخي العلمي المجرد، الذي أثبت لكل طرف ايجابياته وسلبياته.

" هذا هو يوسيفيوس Josephus اليهودي¹، الرجل الصادق المطلع جيدا على الحقائق، يعترف في كتابه بسقوط أورشليم (القدس)، لقد امتدح مهارة وشجاعة الرومان، كما أعلى من

¹ - كيتوقولوس، المرجع السابق، ص32.

² - المرجع السابق، ص32.

شأنهم بصدق شديد إبان حديثه، كما أنه قام بتوجيه اللوم نحو الشرور التي ظهرت داخل أمته، غير أنه تحرر من توبيخ ولوم أولئك الذين لم يرتكبوا أخطاء " ².

لقد وضع هذا المؤرخ الذكي البيزنطيين أمام ضرورة الإقرار بدور المؤرخ يوسيفوس المتميز، وقارب بين الحدثين (سقوط القدس وسقوط القسطنطينية)، وصحح كريستوقولوس مفهوم وصورة المؤرخ المحترم في رؤية البيزنطيين من خلال هذا الموقف الجريء، وكشف بما لا يقبل النقاش عن ترددات هذا العمل التاريخي داخل بيزنطة وموقف مؤرخيها منه، ملتصقا تفهم موقفه وعدم الانسياق في اتجاه الطرح الكلاسيكي للأحداث التاريخية الملغم بعدة اعتبارات خاطئة.

" إني ألتمس العفو من أهل بلادي (البيزنطيين)، أولئك الموجودين الذين على قيد الحياة حاليا، الذين ربما سوف يقرؤون كتابي هذا في زمانهم حتى لا يقوموا بإدانتني واتهامي سواء بالحماقة أو بالضلال، وعضا عن إبداء حزني كما فعل الآخرون [ومنهم برنارد لويس ومؤرخه المختلف جدا عاشق باشا زادة] حول المصائب والمحن التي ألمت بنا، أو حمل عبء معانات أمتنا، فقد اخترت أن أسجل ذلك، وبشكل صريح وأن أعرض بشكل ساخر ومستخف لشرورنا الداخلية التي كانت حسب رؤية آخرين، يجب أن يتم تغطيتها كلما كان ذلك ممكنا، بحيث لا تجلب ملاحظة الجمهور " ³.

" وإذا ما كان هناك أشخاص متميزون تحملوا مسؤولية إدارة الأمور في زمانهم، وعبر فساد شخصياتهم قاموا بإدارة أمور الإمبراطورية ' البيزنطية ' بطريقة خاطئة، ولم يستغلوا الظروف بطريقة مناسبة، فان ذلك لا يمثل عيبا أو نقيصة في الأمة، لكن في أولئك الذين أداروا الفرص التي أتاحت لهم بشكل سيء وخاطيء، والعدل يقضي بأنهم وحدهم المسؤولون عن ذلك، ولا يجب أن تُدان الأمة بأكملها " ⁴.

¹ - يوسيفوس (37م-100م) (ويُكتَب كذلك: جوزيفوس - يوسفوس - يوسيفوس - يوسيفيوس - يوسيفس) باسم "يوسف بن ماتيتياهو" יוֹסֵפ בֶּן מַתִּתְיָהוּ في أورشليم (التي كانت حينها جزءا من اليهودية الرومانية) سنة 37 م.، من أسرة كهنوتية يهودية وأم ذات أصول ملوكية. وقد كان عالم ومؤرخ وكاتب سير روماني يهودي في القرن الأول الميلادي.

حارب ضد الرومان في الحرب اليهودية الرومانية الأولى (66-73 م.) كقائد قوات في الجليل، حتى استسلامهم للقوات الرومانية عام 67 م. وبعد ذلك أصبح عبدا لدى فسبازيان Vespasian، إلى أن حرره (3) فأخذ اسمه فلافيوس Flavius، وأخذ الجنسية الرومانية، وصادق تيطس Titus ابن فسبازيان. وقد أُرخ يوسيفوس التاريخ اليهودي، وخاصة الحرب الأولى السابقة الذكر:

Brill, Translation and commentary: Flavius Josephus, ed. Steve Mason, Leiden, ed 12 in Vols 10, 2000.

² - كريستوقولوس، ميخائيل - كريستوقولوس، تاريخ السلطان محمد الفاتح، المرجع السابق، ص 31.

³ - المرجع السابق، ص 31.

⁴ - المرجع السابق، ص 32.

بالعودة إلى برنارد لويس المؤرخ والمستشرق اليهودي المعاصر، صاحب المنهج النظري الرائع في البحوث التاريخية، لنرى منهجه العملي عند بحثه حدث سقوط القسطنطينية، وتقييمه لهذه الشخصية التي حازت كل هذا الإجماع، ونتوقف على المشاهد التي استرعت انتباهه في سلوك هذا القائد السلطان، ومدى توافق ما سيثبته مع ما أقره المؤرخون في شخصية محمد الفاتح.

" وتوجه - أي السلطان - نحو الكنيسة العظيمة المعروفة بـ : أيا صوفيا - Hagia Sophea، أي الحكمة المقدسة، حيث ترجل من جواده، ودخل مبناها، ثم دعا إماما صعد المنبر وجهر بعقيدة الإسلام : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله " ¹.

إن سلوك السلطان في لحظة انتصاره لم يقف معه لويس موقف مؤرخ عادل مقارنة بشرح اسم الكنيسة، الذي استعمله للإساءة إلى سلوك السلطان وجيشه، مع أن التاريخ الغربي لم يحدثنا عن سلوك القادة الغربيين المنتصرين إلا وهم يدوسون المقدسات بسنابك خيولهم لحظة الانتصار، ويعتبرون الترجل منها نقصا في نشوته، ومع ذلك مرّ المشهد دون تسجيل هذا النوع من الأدب في سجل السلطان الذي دخل الكنيسة بكل احترام ، فلم يسجل لويس أمرا بحرق أو إتلاف لرموز مسيحية- رغم كثرتها في الكنائس - أو قدح واستهزاء بمعتقدات المدينة المهزومة.

ملاحظة تستدعي التوقف عندها وهي عدم الدقة في الوصف عندما وصف أمر السلطان للإمام أن يصعد " المنبر " مع أن المكان ساعتهما عبارة عن كنيسة، أي لا وجود " للمنبر " المعروف عند المسلمين، ومن الدقة العلمية أن نسمي المكان الذي صعده الإمام باسمه الكنسي.

ثم يختزل الزمان ويتجاوز سلوك العظماء لحظة الانتصار، ويتشبهت بالمكان الذي رآه ولأدا للحضارات، وكأنه سياق عزاء اعتمده لويس ليخفف من وطأة هذا الحدث التاريخي العظيم فيقول محزونا ومفجوعا ومتأسفا، كما هو ديدن نموذج من المؤرخين الذين فضحهم المؤرخ البيزنطي كريستوقولوس، ليظفر بإستراتيجية السكوت عن تسجيل مآثر السلطان ويُعذر في ذلك ، وهي سلبية ترفع عنها أخوه في العقيدة المؤرخ الصادق يوسيفيوس Josephus، كما وصفه المؤرخ كريستو قولوس.

" وهكذا أصبحت الكاتدرائية اليونانية مسجدا، وفي مكان الإمبراطور في القسطنطينية حكم السلطان في اسطنبول، لتنمو وتزدهر مرة أخرى كمركز لإمبراطورية واسعة وحضارة عظيمة" ².

¹- لويس، برنارد ، استانبول و حضارة الخلافة الإسلامية ، المرجع السابق، ص 23.

²- المرجع السابق ، ص 23.

يرضى برنارد لويس بما يُشبه المؤرخ عند كتابته تاريخ الفتح العثماني، ويغض الطرف عن أشهر المصادر البيزنطية الأربعة، ولا يشير إلى أي منها أو يستشهد بتاريخها، بل يقر صراحة أن مصدره يكاد يكون من تأليف رجل عادي، مقدما مبررات مفضوحة وهي كون لغة المؤرخ عادية وسهلة بما أنها ستوجه إلى قارئ عادي.

اعتمد لويس في وصف الجنود الفاتحين - كغيره من المستشرقين - على ما كتبه أحد عامة الناس ، وما زاد إعجاب لويس به، لغته السهلة حتى أنه وصفه بأنه أقرب إلى الرجل العادي من أي شيء آخر وأعتبر لويس هذه الحالة سببا محفزا للأخذ برأيه، وترك ما توفر من مصادر غاية في الموثوقية والتخصص، مع أن هذا التَّسبُّب في ضبط مواصفات المؤرخ الحجة يتنافى مع أبسط الشروط العلمية، فضلا عن عدم توفر أبسطها في مؤرخه، إلا أنه يصفه ' بالمختلف جدا '، عدا أن يكون هذا الاختلاف هو سلبية هذا المؤرخ وتحلُّله من المصادقية والضوابط العلمية في نقل الحدث، عندها فعلا يتحقق فيه وصف برنارد لويس.

" ويتعلق الأمر بـ (درويش أحمد) الشهير بعاشق باشا زادة، قال عنه العلامة التركي الراحل محمد فؤاد كوبرلي¹ " أنه رجل ساذج على غير شيء من العلم"².

وإذا أردنا أن نتفحص فحصا علميا محايدا مدى مصادقية هذا الحكم، فإن أول ما يستوجب مراجعته هو مصدر هذا الحكم ونعني العلامة التركي ، محمد فؤاد كوبرلي ووزنه في كتابة تاريخ تركيا من خلال كتابه ' قيام الدولة العثمانية '، الذي صنفه المهتمون بالشأن التركي أنه " من أقدم كتب التاريخ عن الأتراك العثمانيين، وقد انتهى من تأليفه وتحقيقه في 1484م في عهد بايزيد الثاني "³.

الإلف المسيحي الأوربي حجّة عند لويس لتركنة الإسلام، وسلوك العامي المسيحي دليل يقضي على حقائق المصطلحات، فيجعل من لفظ (ترك) - الذي هو في حقيقته دلالة عرقية كغيرها من الدلالات- يقبل في تكوينه عادات ونمط تفكير معين يتلاءم مع مكونات الدلالة، إضافة الى تنوع الجانب الروحي لعناصر هذه الدلالة، نموذجا يحاكم من خلاله الإسلام.

ويُمنطِّق لويس هذا الطرح - المصيدة - لتقديم مبررات يريد من خلالها أن نزهو ونفقد صوابنا بما أقر به من أسلامية الإمبراطورية العثمانية التي لا تحتاج إلى هكذا تدليل حيث يرى

¹- لويس، برنارد ، استانبول و حضارة الخلافة الإسلامية ، المرجع السابق ، المترجم، ه ص 25.

²- كوبرلي، محمد فؤاد، قيام الدولة العثمانية 1484م، المرجع السابق، ص 157.

³- لويس، برنارد ، استانبول و حضارة الخلافة الإسلامية ، المرجع السابق، المترجم، ه ص 25.

أنه " كان من المؤلفين بين مسيحيي أوروبا في زمن ما أن يستعملوا كلمة (ترك) كمرادف لكلمة (مسلم)، ويقولوا لأي شخص اهتدى إلى الإسلام بأنه أصبح (تُركا)، ولم يكن هذا التعبير بعيدا عن المنطق، فإن الإمبراطورية العثمانية من مبدأ نشوئها إلى نهاية أمرها كانت دولة إسلامية " ¹.

والواقع يكذب دعوى المنطقية في هذا الطرح، فعندما أصدر لويس حكمه على الإمبراطورية بأسلوب التشفي الذي تضمنه قوله: (إلى نهاية أمرها) - وهو أسلوب غير متداول في كتابات المؤرخين النزهاء-، هل أبيد الكائن البشري التركي (لغويا وثقافيا ودينيا) بنهاية مرادفه (الإسلام)؟، أم أن هذا العرق أقام دولة - بغض النظر عن أسباب ذلك -، وكان قائدها سليمان الاسلاموي (أتاتورك)، الذي يعتبره لويس رمز التقدم.

تأثى للويس برنارد حظ وفرصة تاريخية في شخص وشهادة أحد المشاركين في الفتح، وسكرتير مجلس السلطان، وأحد كتاب النثر الفني عن العثمانيين، ألا وهو (طرسون بيك)، إلا أن برنارد لويس في غنى عن هكذا فرصة، مادام يجيز ما لا يجوز في حق الآخر.

يقول طرسون بيك عن السلطان محمد الفاتح لحظة دخوله المدينة - وهو القائد المنتصر - واعتلائه سقف كنيسة (آيا صوفيا) ليتمكن من رؤية واضحة لما حولها من المباني: " وحينما رأى المباني المنهدمة الخربة التي كانت ملحقة بهذه الكنيسة القديمة المتينة، تفكر في عدم خلود هذه الدنيا وفنائها النهائي القادم ، ووصل إلى مسامعي المتواضعة بيت شعر من إنشاده الحلو، في صوت حزين، والذي يبقى منقوشا على لوحة قلبي وهي:

ينسج العنكبوت خيطه في قصر كسرى ويرفع البوم عقيرته الحزينة في قلعة أفراسياب²

المؤرخ الذي لا يسجل لقائد منتصر هذا السلوك الإنساني الرفيع، ويمر عليه دون حس تاريخي، دون اعتبار لأبعاده الإنسانية والأخلاقية ، ولا لمصدره الموثوق المواكب للحدث التاريخي لحظة وقوعه، بل ويرaug للتهرب من تكلفة هذه الشهادة الحية بفتح قوس الخيانة واللامسؤولية تاريخيا، مؤرخ تفرص المسؤولية التاريخية تتبع مواقفه والوقوف منها موقف الحذر.

¹- المرجع السابق ، ص177.

²- المرجع السابق ، ص 24.

سبق وأن أقر لويس بعلو همة السلطان من خلال السبب الذي اعتمده لتأملاته، وهي أسباب لا يستحضرها قائد عادي، بل قائد صاحب مشروع إنساني قبل كل شيء، ولكن المؤسف أن لويس يقبل الجمع بين أمرين لا يقبل العقل السليم الجمع بينهما، فوصفه بهذا الارتقاء الإنساني والوجداني وأسفه على زوال هذه الأمجاد الإنسانية - حتى وإن كانت أمجاد أعدائه - دليل على نُبله ، وهو أمر لا يستقيم مع تهمة إعطائهم للأوامر بالسلب والنهب، التي لا تصدر إلا من قائد مننّس بالنصر. مَعود بالترقية والامتيازات.

قدم المؤرخ طرسون بيك أحداثا وأحكاما عن السلطان تتسجم كليا مع ما أقرّه المؤرخون البيزنطيون المشهود لهم بالكفاءة العلمية ومعاصرتهم لأحداث الفتح تحت إمرة السلطان محمد الفاتح، لكن برنارد لويس لا يكثر بهذا الانسجام التاريخي بين مؤرخ تركي وأشهر المؤرخين البيزنطيين، كون هذا الأخير لم يقدم ما يطعن في موقف المؤرخين البيزنطيين الذين خانوا تاريخ بيزنطة - حسب تقديره - ولم يسكتوا عما يجب السكوت عنه في مثل هذه الحالات بهدف التقليل من قيمة الفتح الإسلامي.

عند استشهاده برأي طرسون بيك في وصف السلطان محمد الفاتح، لم يجد ما يفتح شهيته التاريخية في هذا الوصف الدقيق من شاهد عيان، فقرر أن يفسد هذا الوصف النقي بالقضاء على ما تعارف عليه العقلاء، أن المشاهد للحدث أوثق - من حيث العموم - من السامع عنه، فقد أسس لقاعدة جديدة مفادها : أينما كان الحدث مشحونا بالأكاذيب والأباطيل عن الإسلام ونظامه فذاك هو الحدث التاريخي الأصيل الذي يُستشهد به .

إن جملة طرسون بيك " كان الجنود الفاتحون يمتعون أنفسهم بحظوظ الانتصار العادية "، جملة أفسدت المشهد التاريخي في رؤية برنارد لويس الذي كان ينتظره حسب الطلب، فها هو يفتح باب الممكنات - وهي لازمة في منهجه - للدلالة على نقص خبرة طرسون بيك ، ويدعمها برواية مؤرخ معاصر - تعمية لمفهوم المعاصرة - ، لأنه إذا كانت المعاصرة المقصودة في كلامه معاصرة الحدث، فان طرسون بيك كان يشارك صنّاع الحدث (الفتح) أشعة شمس ذلك اليوم، وبالتالي فهو أصدق وأوثق وصفا لمجرباته، وان كانت المعاصرة بمعنى عصر لويس برنارد، فان ذلك أدعى للطعن في روايته للفاصل الزمني الكبير، ولما أصاب الدراسات التاريخية من تشويه خدمة للأغراض الدينية والأيدولوجية، إلا أن تكون القاعدة عند برنارد لويس أن صدق الرواية مرهون باتساع الفاصل الزمني بين الحدث ومن يروي فصوله.

يقول لويس برنارد بعد إثباته لرواية طرسون بيك مباشرة: " ويمكن أن نأخذ فكرة عن نظرتهم إلى الفتح من كلام كاتب تركي معاصر آخر، وجدّ مختلف عن الأول، وهو المؤرخ

(عاشق باشا زاده)، وسرده التاريخي المكتوب باللغة التركية السهلة العادية للرجل العادي أقرب إلى نظرات المجاهدين الأتراك أو مقاتلي الثغور " ¹.

والعجب أن برنارد لويس يعتمد رواية مؤرخ هذا حاله، ويترك رواية طرسون بيك التي تؤيدها المعطيات الزمنية وطبيعة عمل هذا المؤرخ التي مكنته من تسجيل الحدث كما هو، " بل وأعجب من ذلك كله أن المؤرخ برنارد لويس عن علم بمنزلة عاشق باشا زاده من خلال مقال خليل اينالجي (The Rise Of Othmane Historiography)، في كتاب : Historians of Middle East، جمع وترتيب: برنارد لويس، و: ب م هولت " ².

كما أن برنارد لويس لم يذكر أدلة الاختلاف بين المؤرخين ، إلا إذا قصد تلك الادعاءات الباطلة التي لم تسترع انتباه (طرسون بيك) رغم قرينه من مصدر هكذا قرارات، ووضوحها للقاصي والداني إلى أن وصلت لعاشق باشا زاده، وهي تتلخص في أعظم الأحوال أن النهب المزعوم كان بأمر السلطان محمد الفاتح، لأن برنارد لويس يريد أن يلحق بهذه الشخصية الإسلامية الفذة ما يُذهب ألقها في لحظة انتصارها، وكان ذلك بتوجيه التهمة صراحة عند تطرقه لمدة الحرب حسب - روايته - التي استمرت لمدة خمسين يوماً ليل نهار، وفي اليوم الحادي والخمسين أصدر السلطان أمره بنهب دون تقييد، فهاجموا، وفي اليوم الحادي والخمسين، الثلاثاء تم الاستيلاء على الحصن " ³.

وهنا خلط كبير في سرد الأحداث مما حرم انتباه برنارد لويس تسجيل أن أوامر السلب والنهب لا يمكن تحققهما من الناحية الواقعية إلا إذا انهار الخصم نهائياً، فكيف يحدث ذلك والحصون لازالت قائمة حامية للرعية؟ لأنها لم يتم الاستيلاء عليها إلا بعد السلب والنهب.

وجد برنارد لويس ما يأمله للانتقاص من طُهر السلطان وألقِ الفتح وسُمو الفاتحين عند المؤرخ -المختلف جدا- المتخصص في هذه المهمات التي لا يستطيعها طرسون بيك ولا حتى المؤرخون البيزنطيون وذلك بما ضَمَّنه (عاشق باشا زاده) لحظة الانتصار من ذوق عسكري غربي - بالإضافة إلى الغنائم -، إذ أُلحق بالفاتحين تصرفاً يطعن في طهر سلوكهم و تمام إخلاصهم وعفة إيمانهم، حينما وصف عناقهم للفتيات الجميلات، مع تعدد تسميتهم التسمية الشرعية (المجاهدون) وما تحمله من دلالات الطعن والسخرية، عوض لقب (الفاتحين).

¹ - المرجع السابق ، ص 25.

² - المرجع السابق ، المترجم، هـ ص 25.

³ - المرجع السابق ، ص 25

هؤلاء الفاتحون الذي أقر لهم طرسون بيك بحقهم في متعة الانتصار العادية التي لم يصدقها برنارد لويس إلا وفق طرح المؤرخ - المختلف جدا- الذي أثبت طبيعة متعة انتصار الفاتحين الذين: "جعلوا أهل المدينة أسرى، وقتلوا إمبراطورهم، واعتنق المجاهدون فتياتهم الجميلات"¹، مما يوحي أن ذلك قد وقع أمام السلطان وأمام الملامم مما أتاح لهذا المؤرخ أن يسجل ذلك، قياسا على ما تفعله جيوش أوربا بالمسلمات لحظة الانتصار، أو عند عودتها من المعارك، ويندرج هذا السلوك ضمن هدف برنارد لويس في الحط والطعن في موقف المؤرخين البيزنطيين من السلطان وكأنهم لم يروا هذا المسجد ولذلك لم يسجلوه.

إن ما أثبتته المؤرخ البيزنطي ' دولفين ' في وصف مظهره السلطات، كقائد مسلم لا يتوافق مع حدوث هذا السلوك المشين أمامه من جنده " كان السلطان التركي العظيم محمد شابا يافعا في السادسة والعشرين من عمره، ذا طلعة بهية وقامة معتدلة، وكان ماهرا في استخدام الأسلحة يبعث مظهره الخارجي على الخشية والخوف أو بالأحرى على الاحترام، قليل الضحك حذر في أحكامه متصفا بالكرم الشديد². لأن متطلبات الخشية والخوف تمنع حدوث هكذا سلوك من جنود أمام قائدهم، فضلا عن واجب الاحترام الذي تفرضه قوانين الجندية في أي شريعة.

هؤلاء المؤرخون لم يكتفوا بوصفه بطلا فحسب، أو أن بطولته تتسجم حقيقة مع مظهره الخارجي، بل " أنه رجل لا يخضع لشهواته الجنسية، ويتميز بجديته وريصانته، ولا يطبق أن يسمع أخبار الشراب والسُّكر، ولا يضع نفسه تحت رحمة أي متع أو مسرات، فقد كان يتوق إلى تحقيق المجد فقط "³، وهو وصف للبناء الشخصي الداخلي المؤسس على العقيدة والمبادئ والقيم.

إن الذي لا يمنح شذاذ الأفاق فرصة التفكُّه بسرد ما وقع في مجالس خمرهم ويَعْفُ سمعه عن ذلك وهو في حال سلمه، لأنه لا يطبق ذلك لمروعته، لا يُقبل أن يسكت على المُجاهرة بالفاحشة من جُنْدِه لحظة نصره على أعداء الله، ودليل ذلك إثباتُ (عاشق باشا زاده) وجهته وسلوكه بعد ذلك مباشرة .

ثم إن هذه الحادثة لو ثبتت تاريخيا لكانت أدعى للمؤرخين البيزنطيين للطعن في سيرة السلطان، والتقليل من قيمة الفتح باعتبار أن السلطان هو حامي الشريعة في الأرض، ولما سكت المؤرخون المناوئون.

¹ - المرجع السابق ، ص، 25.

² - كرينتوقولوس، ميخائيل كرينتوقولوس، تاريخ السلطان، مرجع سابق، مقدمة الترجمة العربية، ص 9.

³ - المرجع السابق ، ص 10.

يتأكد طغيان الذوق الغربي الذي لا يراعي قداسة للجهاد ولا تقديرا لخصوصيات الأشخاص، ويبيح المشاهد الشاذة والصادمة للذوق العام والمُخلة بالحياء، وذلك بإثبات ما يُسقط تبعاتِه الدينية والأخلاقية في رحاب الطرح المعتمد في الكنيسة بين يدي القسيسين، وهو الأمر نفسه الذي وصف به مباشرة الفاتحين بعد عناق مع الجميلات وما يترتب عليه من مسؤولية شرعية حيث : " أدوا صلاة الجمعة في آيا صوفيا يوم الجمعة الأولى بعد الفتح، ودُعِيَ فيها للسلطان محمد خان الغازي"¹.

إن مصدر التأمّلات المشحونة بالحزن على زوال الأمجاد الإنسانية التي أثبتتها (طرسون بيك) للسلطان محمد الفاتح وهو يتفقد المدينة في لحظة انتصاره، يمكن أن يكون هو نفسه مصدر إعطاء الأوامر بالتهب والسلب للجنود، أو مكافأة الجند بالسكوت على تجاوزهم حدود الله، وهذه التهمة الملققة التي لم يثبتها المؤرخ وسكرتير السلطان ما هي إلا تمهيد لما هو أعظم وأفتك، وعلامة على الدموية التي يحبذ برنارد لويس أن يصف بها السلطان محمد الفاتح باعتباره قائدا مسلما يمثل الذوق الإسلامي، لأنه حاز هذا المنصب عن طريق الشورى التي يتغنى بها المسلمون، فهم لا يقدمون إلا من يروونه أكثر شبها بهم كي لا يجدوا في طاعته أي حرج، امتثالا لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ ، النساء.

فالحاكم المسلم مؤطر من الناحية الشرعية في أوامره ونواهيه بما يُوافق الكتاب والسنة وبما فيه مصلحة شرعية للأمة حتى يكون أمره من أمر الله ورسوله، أما أوامره التي لا سند شرعي يؤيدها فحكمها البطلان ولا شك .

عَنْ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: " عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ "².

¹ - لويس، برنارد لويس، استانبول و حضارة الخلافة الإسلامية ، مرجع سابق، ص 25.

² - صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، دار إحياء التراث العربي بيروت، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، باب وجوب طاعة ولاة الأمور في غير معصية، (1839)، ج 3، ص 1469.

المطلب الثاني: إستراتيجية الإحياء بتنوع وتعدد المصادر:

لم يستحضر لويس المشهد الذي رواه طرسون بيك في وصف محمد الفاتح عند اليوم الأول من الفتح، ولم تلجمه كل تلك الاعتبارات العلمية والتاريخية عن غيه، وراح يكيل للسلطان جريمة بشعة يرضي بها نفسه ومن اغتصب منهم عقولهم وميزانهم التاريخي، ويدعم التهمة الأولى، ولكن هذه المرة من مصدر أوربي بيزنطي، مما يجعلها فوق كل الشكوك والظنون، ويحتم وجودها فعلا أن هذا المصدر قد ذكرها، مما دفع برنارد لويس أن يستنجد بوسائله اللغوية الخاصة جدا والتي لا يستعملها إلا إذا كان الموقف لا يحتمل أي تأويل أو خلاف، ومن هذه الوسائل ما ورد عنه: " ولا بد أن تكون هذه الطريقة معهودة من زمن قديم " ¹.

" كان الأمراء الصغار في عمر حوالي 14 سنة، بعد الاحتفال ببلوغهم في طقوس الختان يُبعثون لحكم المقاطعات في الأناضول، حيث تُراقب كفاءاتهم ويُبلِّغ عنها السلطان، وفي خلال فترة معينة كان يُختار أحدهم ليكون وريثا في الملك " ².

لكن مع هذا الاهتمام بشأن من يكون مؤهلا لوراثة الحكم، فان هناك اهتمام مُكمل نظرا لحاجة الإمبراطورية إلى الهدوء والتوافق وبقاء هيبتها، وهو ضمان عدم حدوث صراع على السلطة داخل الأسرة الحاكمة، هذا الهدوء والتوافق الذي لم تضمنه الكفاءة، ولا اختيار السلطان الذي لجأ بدوره - حسب تقدير برنارد لويس - إلى تفعيل بعض سلطاته التشريعية للحفاظ على هذا التوافق.

عيب لويس أنه لا يعلم عوار تبريراته - فعذر المحافظة على الأنظمة وبقاء الإمبراطوريات - كما هو الشأن في الغرب -، فإن المذهب الميكياقلي الغربي لا يسيل لعاب عامة المسلمين فضلا عن القادة الفاتحين، الذين لا تكبر في أعينهم الدنيا بكل متاعها فضلا عن إمبراطورية كي يستبيحوا دماء الأبرياء من أجلها، لأنهم يعلمون ويعتقدون اعتقادا جازما أن إمبراطورياتهم وملكهم لا يدانون الكعبة شرفا وحرمة ووجوبا في المحافظة عليها، ومع ذلك فان شرفها وحرمتها دون حرمة وشرف مسلم مُصان دمه وعرضه.

¹-لويس برنارد، استانبول وحضارة الخلافة الإسلامية، مرجع سابق، ص 71

²- المرجع السابق، ص 71.

حديث " حدثنا علي حدثنا إسحاق بن سعيد بن عمر وبين سعيد بن العاص عن أبيه" عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: " قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دما حراما"¹.

" ولتجنب أخطار الصراع على تولي الحكم، اتخذ العثمانيون ما عُرف (بنظام قتل الإخوة)، ولا بد أن تكون هذه الطريقة معهودة من زمن قديم، لأنه أشار إليها الإمبراطور البيزنطي يوحنا السادس (كانتا كوزين المتوفى في 1383م) كقاعدة مُقرّرة، وفازت هذه القاعدة بتأييد دستوري في عهد السلطان محمد الفاتح بتسجيلها في القوانين الأساسية للإمبراطورية "².

يُظهر برنارد لويس تحرّره من منهج المستشرقين الذين اتهمهم بعدم الحيادية، ويوهم قارئه بأن مصادره قديمة، وغير مستهلكة تاريخياً، كاعتماده على يوحنا السادس، ويُثبت تاريخ ميلاده عن قصد، مع أنه لم يفعل ذلك مع المؤرخ المعاصر والمختلف جدا (عاشق باشا زاده)، فهو يُغرّر بقارئه مرة أخرى، فقد يفهم من كلامه أن القاعدة مُقرّرة عثمانياً، مع أن مدلول كلام يوحنا السادس لا يقصد ذلك، بمعنى أنها سابقة للفتح العثماني ومعمول بها في الإمبراطوريات المسيحية السابقة، وهو موقف مُحرج لبرنارد لويس الذي همه الوحيد إلحاق التهمة بما هو إسلامي فقط.

يقول د/ علي رضوان السيد - مترجم كتاب لويس برنارد (استانبول و حضارة الخلافة الإسلامية): " لم يصدر مثل هذا القانون عن السلطان محمد الفاتح، بل كما أثبت الباحث التركي المعاصر (علي همت بركي الافسكي) - رئيس محكمة النقض سابقاً في اسطنبول - أن نسبة مجموعة القوانين هذه المعروف بقانون ' نامه السلطان محمد ' إلى السلطان المذكور باطل، وأنه في شكله المطبوع إما مزور أو مدسوس عليه " وهكذا ينهار هذا الكلام "³.

أخفى لويس مصدره كمستشرق، واحتمى بيوحنا السادس مع أن مصدر علاقة هذه الجريمة التاريخية والأخلاقية بالسلطان محمد الفاتح ليس يوحنا السادس، بل أحد أعمدة وشيوخ برنارد لويس المستشرق (هامر)، حيث يذكر "علي همت" أن: "الذي أشاع صدور مثل هذا القانون من السلطان الفاتح هو المؤلف النمساوي (هامر) في أواخر القرن الثالث عشر "⁴.

¹-ابن حجر ، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للإمام الحافظ احمد بن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت، دون تاريخ، ج12، ص187، كتاب الديات، باب قول الله تعالى (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم)، حديث: 6862- طرفه في الحديث 6863.

²- لويس ، برنارد لويس، استانبول و حضارة الخلافة الإسلامية ، مرجع سابق ، ص 72 .

³- المرجع السابق، ه ص 72.

⁴- الافسكي، علي همت بركي الافسكي، العاهل العثماني أبو الفتح السلطان محمد الثاني فاتح القسطنطينية، ترجمة: محمد إحسان عبد العزيز، القاهرة ، 1953، ص 206/199.

يؤصل لويس لهذه الجريمة البشعة في سلوك القائد المسلم تخويفا للغرب من أي نموذج محتمل في أي ميدان، فقد كان يملك من الأدلة النقلية (من الكتاب والسنة) التي أساء توجيهها وقراءتها، ما يكفي، بعد أن وجد الرواية التاريخية التي تتوافق مع الهدف الاستراتيجي الذي رسمه لبحثه، وذلك من خلال تطويع هذه النصوص قسرا لتتلاءم مع التبريرات التي قدمت كأسباب لهذه الجريمة.

قال تعالى: ﴿ لَيْسَ بِسَطِّ إِلَيَّ يَدِكَ لِتَفْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لِأَفْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾¹ ، المائدة.

" وكان الأصل لهذا القانون مبدءا قديما معهودا - وهو أن موت واحد أو أكثر من الناس أفضل من أن يترك العالم للفوضى، وكان الفقهاء المتواطئون قادرين بشيء من مهارة التفسير أن يجدوا سندا سماويا لهذا العمل من الآية القرآنية التي تقول في سياق مختلف تمام: ﴿ وَافْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَفِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْهَيْئَةُ أَشَدُّ مِنْ الْقَتْلِ وَلَا تُفْتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُفْتَلُوَكُمْ فِيهِ إِنْ فَتَلُوكُمْ فَاغْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكٰفِرِينَ ﴾¹ ، البقرة".

وحتى إن قصد بهذا المبدأ تقدير المصالح و المفاصد وموازنتها أصوليا تحت طائلة تقبل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى، فإن ذلك لا ينطبق على الدماء و الأعراض، بل الأموال و ما شابهها.

بل إن الفقهاء من خلال الشرع أفتوا بجواز قتل الجماعة بالواحد حرمة لدم المقتول الواحد، وَقَالَ مُطَرِّفٌ: عَنِ الشَّعْبِيِّ، فِي: رَجُلَيْنِ شَهِدَا عَلَى رَجُلٍ أَنَّهُ سَرَقَ، فَقَطَعَهُ عَلَيَّ، ثُمَّ جَاءَ بِآخَرَ، وَقَالَ: أَخْطَأْنَا، فَأَبْطَلَ شَهَادَتَهُمَا، وَأَخَذَا بِدِيَةِ الْأَوَّلِ، وَقَالَ: لَوْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ تَعَمَدُنَا لَقَطَعْتُكُمَا، وَقَالَ لِي ابْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ غُلَامًا قُتِلَ غِيْلَةً، فَقَالَ عُمَرُ: لَوْ اشْتَرَكَ فِيهَا أَهْلُ صَنْعَاءَ لَقَتَلْتُهُمْ، وَقَالَ مُغِيرَةُ بْنُ حَكِيمٍ، عَنْ أَبِيهِ، إِنَّ أَرْبَعَةً قَتَلُوا صَبِيًّا، فَقَالَ عُمَرُ مِثْلَهُ، وَأَقَادَ أَبُو بَكْرٍ، وَابْنُ الرَّبِيعِ، وَعَلِيٌّ، وَسُوَيْدُ بْنُ مِقْرَانَ مِنْ

¹ - لويس، برنارد لويس، استانبول و حضارة الخلافة الإسلامية، مرجع سابق، ص 72، 73

لَطْمَةً، وَأَقَادَ عُمُرُ مِنْ ضَرْبَةٍ بِالذَّرَّةِ، وَأَقَادَ عَلِيٌّ مِنْ ثَلَاثَةِ أَسْوَاطٍ، وَأَقْتَصَّ شُرَيْحٌ مِنْ سَوْطٍ وَخُمُوشٍ¹.

وهذا تناسبا مع قوله تعالى: ﴿مِنْ آجَلٍ ذَالِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا...﴾²، المائدة . وقتل الناس جميعا قضاء على ديمغرافية الإمبراطور، فلا معنى لبقاء الإمبراطورية إذا كان هذا هو السبيل لبقائها.

هنا يؤكد برنارد لويس نسبة المبدأ الذي سبق ذكره للإسلام حصريا، لا كما ذكر يوحنا السادس مطلقا، وذلك من خلال اتهام الفقهاء المسلمين الذين وصفهم بالتواطؤ مع الحكام، وهو موقف صريح من خلاله " يظهر المؤلف هنا تعصبه ضد الإسلام فيشرك الفقهاء في أعمال السلاطين ولا يقول لنا كيف ومتى تم هذا التواطؤ؟ وكان الفقهاء الأتراك أبعد عن ذلك وهم الذين منعوا السلاطين في أوقات مختلفة عن التكييل بالمسيحيين القاطنين في الأناضول لكونهم من أهل نمة الإسلام"²، " عن قَيْسِ بْنِ حَفْصٍ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَالِدِ حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَمْرٍو حَدَّثَنَا مُجَاهِدٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنْ رِيحَهَا تُوْجِدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا"³.

«عن عاصمٍ قَالَ سَأَلْتُ أَنَسًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ الْفُتُوتِ قَالَ قَبْلَ الرُّكُوعِ قُلْتُ إِنَّ فُلَانًا يَزْعُمُ أَنَّكَ قُلْتَ بَعْدَ الرُّكُوعِ فَقَالَ كَذَبٌ ثُمَّ حَدَّثَنَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَتَلَ شَهْرًا بَعْدَ الرُّكُوعِ يَدْعُو عَلَىٰ أَحْيَاءٍ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ قَالَ بَعَثَ أَرْبَعِينَ أَوْ سَبْعِينَ يَشْكُ فِيهِ مِنَ الْفَرَاءِ إِلَىٰ أَنَاسٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَعَرَضَ لَهُمْ هَوْلًا . فَفَتَلَوْهُمْ وَكَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَهْدٌ فَمَا رَأَيْتُهُ وَجَدَ عَلَىٰ أَحَدٍ مَا وَجَدَ عَلَيْهِمْ»⁴.

¹ - الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، المحقق : محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر : دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى 1422هـ، كتاب النفقات، باب النَّفْرِ يَقْتُلُونَ الرَّجُلَ، رقم الحديث 16395، ج 2، ص 192.

² - لويس برنارد، استانبول وحضارة الخلافة الإسلامية، مرجع سابق، المترجم، ه، ص 72.

³ - ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، مرجع سابق، ص 259، كتاب النيات، باب إثم من قتل ذميا بغير جرم، الحديث: 6914. صحيح البخاري، الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ترقيم و ترتيب: محمد فؤاد عبد الباقي، تقديم: احمد محمد شاکر، ط1، دار التقوى للطباعة والنشر والتوزيع، 2012، كتاب الجزية، باب إثم من قتل معاهدا بغير جرم، حديث رقم (3166)، ص 398 و طرفه الحديث رقم 6914.

⁴ - صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب أبواب الجزية، باب إثم من قتل معاهدا بغير جرم، حديث رقم 6914 ص 4705.

والدليل على أن برنارد لويس ليس نزيها في روايته ولا يتحرى الدقة ولا الأدلة التي يحتج بها لتأكيد ما يذهب إليه، فإنه برغم إشارته صراحة باختلاف سياق الدليل عن سياق القضية محل النقاش بقوله : " التي تقول في سياق مختلف تماما "، ومع ذلك أسس عليها حكم جواز قتل الإخوة من أجل السلطة في المفهوم الإسلامي، واتهم الفقهاء بالتواطىء مع الحكام.

ثم هو يقحم الفقهاء دون أي دليل أو تحديد لهويتهم، وكان يحلو له أن يسرد أسماء عديدة في مواقف أخرى، وكل هذه الفلتات العلمية هي نتيجة لطغيان الذوق الأوربي في دراسة التاريخ الإسلامي بقصد مساواته بالسلوك الأوربي المشوّه ، حيث أخفق في الاحتجاج على مصدرية هذا السلوك عندما احتج بنص بعيد عن سياق المسألة باعترافه شخصيا، في الوقت الذي " تجاهل فيه عن قصد أن مثل هذه الأعمال الشنيعة في سبيل الاحتفاظ بالحكم أو استقراره، من سَمَل العيون ، واستخدام الخِصيان في الحریم، وقتل الإخوة قد تعلمه الخلفاء العباسيون والسلاطين العثمانيون من أباطرة بيزنطة " المسيحية ¹.

المطلب الثالث: لويس والسلطان سليم الثاني

يترقب لويس فرصة إلحاق التهمة بالشخصيات الإسلامية من خلال ما يصدرونه من مراسيم و أوامر تنظم الحياة العامة في الإمبراطورية التي تتكون من أعراق وأجناس وديانات مختلفة، والمسؤول الحقيقي على مراعاة حقوق رعاياها هم السلاطين الذين يجب أن يكونوا حذرين فيما يصدرونه، لأنهم مطالبون من جهة بحماية ورعاية وتطبيق أحكام الدين الذي يمثلون الخلافة من خلاله، وفي نفس الوقت مطالبون شرعا بالحفاظ على الحقوق الشخصية لرعايا الدولة الذين هم في ذمتها، وهذا ما ألمح إليه في صفحات سابقة (بالتوازن) إذ أكد أن " السلاطين العثمانيين كانوا مهتمين اهتماما بالغا وواعيا على الدوام بالمحافظة على التوازن بين العناصر المختلفة التي كانت تتركز عليها سلطتهم " ².

وإذا كان القتل هو سبيل السلطان محمد الفاتح للمحافظة على التوافق داخل الأسرة الحاكمة، فإن مشكلة تحقيق التوازن بين المكونات الديموغرافية لرعايا للإمبراطورية يبقى مهددا لوجودها، وبالتالي يقتضي إيجاد حل عاجل وذلك عن طريق الحل الأسرع والأسهل تأسيا بالسلطان الفاتح.

¹- لويس، برنارد لويس، استانبول و حضارة الخلافة الإسلامية، المرجع السابق ، المترجم، ص72.

²- المرجع السابق ، ص76.

" ومن مظاهر الاهتمام بهذا التوازن، ما أصدره السلطان سليم الثاني (1566- 1574م)، من أمر صدر في 23 ربيع الأول 981هـ، 23 يوليو 1573م¹.

ومضمون الأمر السلطاني يوحى كله بأنه سلوك الغرض منه المحافظة على الحقوق لكل الأطراف المكونة للإمبراطورية، ولا يوجد فيه تغليب لحقوق أي فئة دون أخرى، إلا أن برنارد لويس ساهم مع سابقه من المستشرقين الغربيين في اعتماد هذا الأمر السلطاني كحجة يستنتج منها إلحاق تهمة شرب الخمر بالسلطان سليم الثاني إلى حد التوافق معهم على تسمية السلطان بـ (سليم السكير)، وهذا نصُّ الأمر الصَّادر بكل حَيثِيَّاتِهِ:

" لقد أتى إلى علمي في هذه الآونة أن اليهود والمسيحيين في مدينة استانبول المحروسة يُدخلون الخمر والكحول في البراميل والصناديق والقربِ علناً، مُخالفين الفتوى الشريفة ومرسومي السلطاني، ويُقيمون المآدب، ويستعملون الموسيقى في اجتماعاتهم وحفلاتهم، وإنني لأجل ذلك أمرت بأنكم بمجرد استلامكم هذا الأمر أن تُعطوا اليهود والمسيحيين إنذاراً واضحاً ومناسباً، وأيضاً لحراس أبواب ' قيوجية ' المدينة المحروسة، بعدم استيراد الخمر إلى المدينة علناً في البراميل والصناديق والقربِ، وبأن لا يبيعوا للمسلمين ما يوردونه من الخمر سرا بالليل لاستعمالهم الشخصي، وأن يبقى بيع الخمر فيما بينهم سرا، وأن لا يُحوَّلوا دورهم إلى حانات، ولا يبيعوا الخمر والكحول علناً، ولا يلعبوا بالموسيقى في أعيادهم " ².

إن منشأ هذه التهمة هو ما جاء من تساهل في نص الأمر وتركيزه على حرمة جباية الخمر علناً، وما يُفهم منه من حظوظ السلطان في جواز جبايته سرا، وبإباحته لليهود والمسيحيين سرا ولرعايا السلطان من غير المسلمين، الذين قد يكونوا طريقه الأمن إلى قصر السلطان، أي وكأن السلطان يحتمي برعاياه كي تصل الخمر إلى قصره دون أي فضيحة.

إن من أهم حقوق المعاهدين حق الحماية و الأمن، وهذا الحق تقابله جملة من الواجبات المادية كالجزية، والسلوكية كالالتزام بالأداب العامة، وعدم تعريض الأمن العام إلى الخطر و خطورة استفزاز رعية الحاكم في دينها وعاداتها وتقاليدها وذلك بالمجاهرة بالاستهزاء بأحكام الدين وشعائره ، واستباحة نواحيه علناً مما ينقص من هيبة الشريعة وسلطان القضاء، قال تعالى: ﴿ وَإِن تَكْفُرُوا أَيْمَانَهُمْ مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتَلُوا أَهْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَأَن يَأْتِيَهُمْ لَعْنَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ ، التوبة.

¹- لويس، برنارد لويس، استانبول و حضارة الخلافة الإسلامية، المرجع السابق ، ص165.

²- المرجع السابق، ص 165، 166.

كما كانت الصيغة التفصيلية التي تفرضها طبيعة المشكلة وتعلقها بعدة احترازاات على السلطان أن يراعها موحية للغربيين عموما والمستشرقين على الخصوص بمثل هذه التهمة، فالغرب عموما - والمستشرقون بالخصوص- لا يُنصفون خصومهم، فرغم التحديدات الواضحة والألفاظ الدالة على مقاصد الأمر السلطاني، إلا أن ذلك لم يوح للمؤرخين الغربيين بشيء يستحق التسجيل عدا أنه دال على رغبة السلطان في شرب الخمر.

والحاكم المسلم مُدان غربيا مهما فعل، فهو السكّير إذا أصدر قرارا أظهر فيه سعة أفق تفكيره وتقديره للأخر، ووضع في اعتباره تركيبة رعيته ومكن بعضا منها من حقوقها الشخصية وفق ما تعتقده دينيا في ذلك الأمر، كما هو الطاغية المستبد الذي لا يُراعي حقوق الأقليات من رعيته وذلك بفرض رؤيته الدينية على الآخر الذي يخالفه العقيدة إذا كان الأمر حازما وشاملا لكل الرعية، حينها يرفع الغرب عقيرته محتجا على انتهاك حقوق الأقليات الدينية (المسيحية واليهودية)، وكان السلطان سليم الثاني حينها رمزا للاضطهاد الديني .

المبحث الثالث

برنارد لويس، نماذج إستراتيجية معاصرة

المطلب الأول: إستراتيجية الاستشراق في تقديم الصهيونية
واستثمارها

المطلب الثاني: السياسة والاستشراق " التجاوب
الاستراتيجي "

المطلب الثالث: الصهيونية والواقع البيولوجي اليهودي

المطلب الرابع: الحركات الإسلامية من زاوية استشراقية

المطلب الخامس: إستراتيجية التَّمَوُّع وتسخير الديني
للأيدولوجي

المطلب السادس: برنارد لويس وتحالف العَهْدَيْن

المطلب السابع: إستراتيجية اعتماد المقالات

المطلب الثامن: التفتيت ونهاية الاستراتيجية، تركيا
الاستثناء

المبحث الثالث: برنارد لويس، نماذج إستراتيجية معاصرة

المطلب الأول: إستراتيجية الاستشراق في تقديم الصهيونية واستثمارها

استقطب السياسي الإسرائيلي في الحكومات المتعاقبة الفكر الغربي عموماً والاستشراقي على الخصوص لما يملك من سلطة التأثير على القرار الغربي في القضايا ذات الصلة بالمشروع الصهيوني، وكجدار صد أمام أي خطر دولي يقف عائق أمام شرعنة الغطرسة الصهيونية.

" إلا أن عدداً كبيراً من الكتاب الغربيين الذين لم يكونوا صهاينة ولا يهوداً قد تبنا موقفاً مشابهاً لهؤلاء الصهاينة واليهود فهم على ما يظهر لم يكونوا مستعدين أن يتعبوا أنفسهم في فرز الحقائق من الأوهام حتى يستطيعوا أن يصدروا أحكامهم الخاصة، أو أنهم ألزموا أنفسهم عاطفياً بتأييد مجتمع هو أكثر أوروبية (أقرب إلى الغرب) في فكره وتقنيته وبالتالي أقرب مماثلة إليهم ومناسبة معهم من العرب"¹.

بمعنى أن التجرد العلمي لم يعد مهماً بالنسبة إليهم، بل أصبحوا أداة تجمع بين الحقيقة العلمية والأكاذيب المدروسة حيث جعلوا من ضرورة المحافظة على اللياقة مع كل ما هو غربي أحد أهم الأهداف

وبما أن أوروبا ' القارة العجوز ' هي مهد المدارس الفكرية الغربية، وحاضنة الفكر الاستعماري لم تعد تستقطب النوايا لتناقض نفوذها السياسي والاقتصادي والعسكري في الشرق الأوسط، وعدم كفاءتها كسند ضامن لنجاح المشاريع الفكرية الأيديولوجية.

" وجد برنارد لويس أن وجوده في بريطانيا لم يعد له جدوى، وأن مكانه الطبيعي هناك، في الولايات المتحدة، حيث مركز التأثير في صناعة القرار الغربي في الشرق الأوسط، وخاصة أن صهيونية الرجل حقيقة لا مرأى فيها، أكدها في كتاباته ومقالاته الصحفية، وأحاديثه الإذاعية المسموعة والمرئية ومحاضراته العامة "².

كان برنارد لويس مشروعاً جاهزاً، ارتحل بكل ثقله الأوربي ومكانته العلمية وتجربته العسكرية ضمن الوحدات الملكية، وكوريث شرعي لتراث المؤرخ والمستشرق العريق 'جب هاملتون' الذي تبنى وأشرف على رسالة لويس في الدكتوراه.

¹ - طيباوي، عبد اللطيف طيباوي، المستشرقون الناطقون باللغة الإنجليزية، المرجع السابق، ص 67.

² - لويس، برنارد لويس، الإسلام وأزمة العصر، المترجم، المرجع السابق، ص 11.

من أوائل المستشرقين الذين انحازوا صراحة إلى هذا المشروع بما يكتبونه من كتب ومقالات وتصريحات صحفية برنارد لويس، الذي " تولى قيادة اللوبي الصهيوني في حقل الدراسات الشرق أوسطية، والدراسات الإسلامية بالجامعات الأمريكية، من صنائعه الذين انتشروا في أقسام ومراكز بحوث الشرق الأوسط والدراسات الإسلامية بالجامعات الأمريكية، ممن يلعبون دور الخبراء العلميين ببواطن الأمور، الذين يقدمون المشورة لأعضاء الكونغرس، ومجلس الأمن القومي، والخارجية، ووزارة الدفاع (البنتاغون)، يتقدمهم لويس ويفتح أمامهم أبواب مراكز التأثير في صناعة القرار الأمريكي عامة، وما اتصل منه بالشرق الأوسط خاصة " ¹.

من أهم الخطوات الاستباقية التي أقدم عليها برنارد لويس داخل هذه الدوائر الرسمية - الأوربية والأمريكية على الخصوص - أحداث المواءمة بين قناعات الغرب في مختلف المجالات و صورة إسرائيل، وتبنيه الغرب إلى ما تعنيه وجودية إسرائيل في الشرق الأوسط اقتصاديا وسياسيا وحتى عقائديا.

يغالط برنارد لويس قراءه والمجتمع الدولي حينما يصور إسرائيل بأنها الدولة الوحيدة في الشرق الأوسط التي تلتزم بالمعاهدات والاتفاقات الدولية وتخضع لضغوطات المنطق، وذلك بمقابلتها بجيرانها العرب، في سياق تحديد القمع الذي مارسه الدول العربية ضد الحركات الإسلامية بإيعاز من الغرب.

" وعلى الرغم من أن الحكومات [العربية] الأخرى في المنطقة ليست خاضعة للقيود المحلية ولعالمية نفسها التي يخضع لها الاسرائليون، يبدو أنها تفهمت محدودية القمع " ².

ليس هذا فحسب، فقد تولى - نيابة عن المسلمين - مسؤولية المفتي التاريخي في أسئلة العلاقة بين الشرق والغرب لأن " الأفكار التي يطرحها لويس في كتبه سياسية محضه، موحية لصناع القرار في الغرب وموجهة للرأي العام الغربي لإقناعه بصورة الإسلام والمسلمين والعرب كما يرسمها لويس، مغلفة بغلالة أكاديمية رقيقة، لإضفاء بعض المصداقية عليها " ³.

من أهم الجهود التي أسرع برنارد لويس في إنجازها غربيا، ما يحتاجه الغرب مبدئيا كشرط لبناء علاقات مع الآخر وهو مكانة الديمقراطية كمكسب أوروبي في أي مجتمع، فهو يتعمد أسلوب الاستثناء كلما تباكى على وضع المنتج الغربي ' الديمقراطية ' في الشرق الأوسط.

¹ - لويس، برنارد لويس ، الإسلام وأزمة العصر، المترجم، المرجع السابق ، مقدمة المترجم، ص 11.

² - تنبؤات برنارد لويس، مستقبل الشرق الأوسط، مرجع سابق ص78

³ - لويس، برنارد لويس ،الإسلام وأزمة العصر، المترجم، المرجع السابق ، ص11.

" وفي معظم أنحاء الشرق الأوسط، يختلف الوضع نوعا ما، وهناك بلدان، وهما تركيا وإسرائيل، يقومان بتغيير حكومتيهما عن طريق الانتخابات، وبطرق أخرى أيضا في تركيا- وان لم يحدث هذا مؤخرا-، لكنه حدث عن طريق الانتخابات مرات عديدة، وباستثناء هذين البلدين، فالانتخابات لا تغير الحكومات، بل الحكومات هي التي تغير الانتخابات، طبقا للممارسة الشرق أوسطية المعتادة " ¹.

عرف برنارد لويس من أين تؤكل كتف الديمقراطية، وماذا يبقى منها لإرضاء الغرب بديمقراطية إسرائيل، وذلك بتواطؤ الغرب نفسه في حق الديمقراطية.

فالديمقراطية كما يفرضها الغرب على الشرق أوسطيين، ويتبجح بضرورتها - حتى على حساب قناعات مجتمعاتهم الدينية والثقافية - " هي ظاهرة معقدة تتطوي على أبعاد إجرائية وقانونية وغيرها، وهي متصلة بالحقوق الفردية والجماعية، ولها من حيث المفاهيم جانبين: الجنب الإجرائي الشكلي، كحق التصويت الحر و العام، ونظام الانتخاب القائم على الشفافية، لضمان المنافسة، فضلا عن وجود هيئات تشريعية وقضائية مستقلة " ².

هذا هو الجانب الذي يقصده المستشرقون في مفهوم الديمقراطية الإسرائيلية، ويقبلونه منقوصا ، ويعاملون إسرائيل على أساسه معاملة من استكمل مفهوم الديمقراطية بكل أبعادها اعتقادا وممارسة، مع أن هذا الجانب شكلي مناسباتي في عمومته، وهو ما اعترف به برنارد لويس لزميله صموئيل هنتغتون بكل أخوة.

" إذا كنا نعني بـ ' الديمقراطية ' حكم الأكثرية، فإن من أهم مشاكلها ما يعرف بـ ' كيفية معاملة الأقليات '، أننا هنا لا نعني بتعبير ' الأقليات ' هؤلاء الذين صوتوا ضد الحزب الفائز في الانتخابات، بل نقصد معنى أوسع من ذلك، أولئك الذين يختلفون بصورة جلية عن الأكثرية بسبب النوع أو الدين أو الأصل العرقي " ³.

المعنى الأوسع غير مفكر فيه استشرافيا في الحالة الشرق أوسطية، لأن له حولا أخرى لا تتحملها الديمقراطية المُرَهفة بالحسّ الغربي.

¹- لويس، برنارد لويس، الإيمان والقوة، المرجع السابق، ص155.

²- فرسون، سميح فرسون ، عطا عبد الوهاب، فلسطين والفلسطينيون، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط الأولى، أبريل 2003، ص314/313.

³- يوروفسكي، ملفين أي يوروفسكي، المبادئ الأساسية للديمقراطية، في : الديمقراطية الأمريكية، التاريخ والمركزات، مجموعة دراسات بعنوان ' أوراق الديمقراطية'، نشرتها وزارة الخارجية الأمريكية، ط 1، 2005، تر وتعليق: حسن عبد ربه المصري، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ص 23-

أما ما له علاقة بواقع المجتمع، وممارساته اليومية، وضروراته الحياتية في تحقيق العيش الكريم، وهو المؤشر الحقيقي على صدق واقعية التوجه الديمقراطي فإنه " الجانب المتعلق بالحقوق المدنية : " كالحقوق الإنسانية والمدنية للفرد، وحكم القانون، والمساواة للجميع في القانون، وحرية الاجتماع وغير ذلك ولكن الديمقراطية الإسرائيلية المثقلة بالتناقضات، وليس أقلها دور الدين في الحياة العامة، بالإضافة إلى التناقض الموجود بشكل عام بين الدولة والمجتمع والدين " ¹.

إن ادعاء برنارد لويس رسوخ الديمقراطية - بكل أبعادها وأهدافها - حصريا في الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة، فيه من التجني واللامصدقية والأيديولوجية المفضوحة ما ليس بوسع برنارد لويس إثبات خلافه . " إن لويس حين يتحدث عن غياب الديمقراطية في الشرق الأوسط عدا إسرائيل، يفوته أن يذكر ' أنظمة دفاع الطوارئ المستخدمة في إسرائيل لحكم العرب '، ولم يقل شيئا عن الاعتقال التحفظي للعرب في إسرائيل أو العشرات من المستوطنات غير الشرعية في الضفة الغربية المحتلة عسكريا " ².

ويكفي أن دليل هذا التجاوب غير المبرر من ناحية العلوم السياسية والواقع الفلسطيني الدال على خطأ ما يؤكد على تواطؤ هذا المفكر في علاقته الإستراتيجية بالإدارة الإسرائيلية من حيث التأسيس التاريخي لضرورة القبول القسري للكيان الصهيوني في قلب الشرق الأوسط، العربي والإسلامي في كل أبعاده التاريخية والقومية والعقائدية.

هذا التواطؤ تؤشّر عليه عدة حقائق، منها ما تعلق بيهودية هذا المؤرخ وهو حق أصيل لا يمكن تجاوزه ببساطة، ومنها ما ظهر من اهتمام فوق العادة بهذه الشخصية الأمريكية الجنسية والموطن على حساب بقية رموز الصهيونية المسيحية إسرائيلية ودوليا، من حيث التكريمات الأكاديمية إذ " يكفي أن درجتين من بين درجات الدكتوراه الفخرية الثماني التي حصل عليها، جاءتا من إسرائيل، وتحرص الجامعة العبرية بالقدس على الاحتفال بعيد ميلاده في خضم الاحتفال بقيام الدولة العبرية، ويحرص لويس على حضور تلك المناسبة العزيزة على قلبه " ³.

المطلب الثاني: السياسة والاستشراق " التجاوب الاستراتيجي "

" تُعرّف إسرائيل نفسها من خلال وثيقة الاستقلال كدولة يهودية، ستحقق ' المساواة الاجتماعية والسياسية الكاملة لكل مواطنيها '، أي أنها ستكون ديمقراطية، ويلقى هذا التصريح

¹ - فرسون، سميح فرسون، عطا عبد الوهاب، فلسطين والفلسطينيون ، المرجع السابق، ص313/314.

² - سعيد، ادوارد سعيد، الاستشراق والصهيونية، في مجلة المجلة، عدد 408، 2، 1987/12/8، ص28، 29.

³ - لويس، برنارد لويس، الإسلام وأزمة العصر، المرجع السابق، المترجم، ص11.

دعما في قوانين أساس الدولة. هنالك تضاد بين الصفتين - اليهودية والديمقراطية، وخاصة عندما يتعلق الأمر بمكانة المواطنين الفلسطينيين في الدولة " ¹.

يُنْبني هذا التعريف على ترتيب استشراقي وصفي للحالة اليهودية، الذي قَدَّمها على أنها طبعة متكاملة من كل النواحي التي تشترطها بناء دولة، وهو ما قد يكون حلا لمضمون مقولة ' وطن بلا شعب، وشعب بلا وطن ' ومن أبرز الداعمين لهذا الترتيب برنارد لويس الذي أصبحت أفكاره هي السند التاريخي والاجتماعي والاستراتيجي للسياسي الغربي عموما و الإسرائيلي على الخصوص.

فقد سخر عصارة جهده العلمي في دراسة الفرد والمجتمع والتاريخ الإسلامي لخدمة المشروع الصهيوني، فأصبح الساسة الإسرائيليون يفاوضون في المحافل الدولية انطلاقا من معطيات وتبريرات استشراقية لم تُعرف عنهم في بداية مشروعهم، مما عزز فيهم الإحساس المصطنع بالظلم وعداوة الآخر.

" يحاول نتتياهو أن يستشهد بأقوال المستشرقين والسياسيين الغربيين المؤيدين للفكر الصهيوني على أحقية اليهود بفلسطين، استنادا للحق التاريخي باعتبار أنهم أقاموا عليها يوما ما، ولا ينسى نتتياهو دور القوة في الحصول على الهدف معتبرا أن صاحب القوة هو صاحب الحق، ويذكر بدولة القوة أيام داود وسليمان - عليهما السلام - " ².

فالساسة الاسرائيليون يَحْمِلون نفس التقييم لنظرة العرب والمسلمين لتشكيلة المجتمع الإسرائيلي التي أقرَّ بها برنارد لويس في بحوثه المتعددة، وجعل من غرْبِيَّتِهِم حافزا مُهما يُحْمَلُ الغرب مسؤوليات تاريخية في علاقته مع العرب الذين لا يُفَرِّقون - حسب ما يؤدي إليه كلامه - بين الغرب واليهود.

" تبدو إسرائيل في نظر العرب دولة أسسها يهود أورييون، ومبنية على أساس نموذج الدول الليبرالية الغربية، وتمثل سلاحا للدول الغربية، وأداة يُقصد بها إلحاق الذل والهوان بالأمة العربية من جديد " ³.

¹-غانم، أسعد غانم، مهند مصطفى، الفلسطينيون في إسرائيل : سياسات الأقلية الأصلية في الدولة الاثنية، مدار، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، رام الله، فلسطين، ط 2009، ص320..

²- الهلول، جبر الهلول، المواثيق والعهود في ممارسات اليهود (قراءة في الفكر الديني والفكر السياسي اليهودي المعاصر)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 2004، ص 189.

³- نتتياهو، بنيامين نتتياهو مكان بين الأمم، إسرائيل والعالم، ط 2، تر: محمد عودة الدوري، مراجعة وتصويب، كلثوم السعدي، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، 1996، ص137.

يريد ننتياهو أن يرفع الحرج عن الغرب أمام العرب في دعمه لليهود كونه المُتسبب في هذه العداوة مع العرب التي نتجت عن كون إسرائيل هي رأس حربة الغرب في المنطقة أمام المدّ الشيوعي سابقاً، والإسلامي الإيراني حالياً.

يرى ننتياهو أن السياسة الخارجية كانت متحالفة مع العرب، ولولا وجود المخلصين البريطانيين تجاه الحركة الصهيونية وأهدافها لانتهى وعد بلفور وأصبح مجرد هفوة لسان، وأن هؤلاء المخلصين أجروا عملية موازنة بين العرب الضعفاء الذين لا يتمسكون بعهد، وبين اليهود الأقوياء الذين لن ينسوا صنيع بريطانيا لهم " ¹.

ويمكن اعتبار موقفَ برنارد لويس وجهه كمتشرك بريطاني من أجل الصهيونية، ودفاعه ضد تجريمها في الأمم المتحدة، ترجمة حقيقية لما أقر به ننتياهو من دور المستشرقين المخلصين في إحياء جذوة هذا المشروع بما قدموه من دعم لا مشروط حتى على حساب الأمانة العلمية والحقائق التاريخية.

" يؤكد ننتياهو أن النزعة العدائية عند العرب لاسيما المسلمون منهم ليست لليهود فحسب بل هي للغرب الذي سلبهم مجدهم وقضى على أمالهم وحضارتهم، فالعداء للغرب أصيل في سلوك العرب، ومن ثم يأتي عداؤهم لليهود من خلال العلاقة التي تربط اليهود بالغرب " ².

وهذا التّوصيف لسبب العداء - المفترض - للغرب الذي يطمح ننتياهو إلى تأسيسه وفرضه في العلاقة بين العرب والغرب، ويجعل منه حجة في أحقية استحقاق امتيازات إستراتيجية سياسية واقتصادية وعسكرية، هو نفسه التوصيف الذي يعتمد برنارد لويس .

" يرى ننتياهو أنه إذا كانت الدّول الديمقراطية لا تريد أن تمارس الضغط من أجل الديمقراطية في الشرق الأوسط، فعليها أن تعزز قوة الرّدع التي تمتلكها الدولة الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط ' إسرائيل ' ³ .

يُخَيّر ننتياهو الغرب بين خيارين إستراتيجيين مُهمّين لإسرائيل للمحافظة على هذا التفرد المزعوم بالديمقراطية، الذي مصدره المستشرقون من أمثال برنارد لويس، حيث جعله ننتياهو عذراً كافياً لاستحقاقه الدعم العسكري والتكنولوجي للمحافظة على هذا الانجاز الغربي، لا لفرض واقع سياسي وجغرافي على الفلسطينيين، وعذراً للتهرب من السلام الذي تعرّف عليه المجتمع الدولي، وفرض نمط جديد للسلام في المنطقة، باعتبار أن تركيبة المنطقة إيديولوجياً عصية على التّركيع،

¹ - الهلول، جبر الهلول، الموثيق والعهد في ممارسات اليهود ، المرجع السابق، ص 190 .

² - المرجع السابق، ص 191.

³ - المرجع السابق، ص 195

لأنها تتشكّل في معظمها من نخب فكرية وسياسية، إسلامية ووطنية خيارها الممانعة الدبلوماسية والمقاومة المسلّحة.

" فالسلام من خلال القوة وحده يمكن أن يُطبق في الشرق الأوسط، وعلى الدول الغربية أن تعرف ذلك، وعليها أن تقدم الدّعم الذي يجعل من إسرائيل الدولة القويّة التي تقوم بمثل هذا السلام"¹.

وهنا يجب أن نقرأ العلاقة بين هذا المطلب الخطير، ونصائح برنارد لويس للأنظمة العربية الرسمية- الخوذة الواقية - في كيفية التّعامل مع الحركات الوطنية والإسلامية التي تمثّل محور الممانعة الخلفي لنفس المحور في فلسطين العربية المحتلة.

ويُجيب عن عدم ضغط الدول الديمقراطية الغربية على الدول الدكتاتورية لتطبيق الديمقراطية بتقديم أسباب متناسبة تماما مع التبرير الاستشراقي المعاصر وهي:

1 - " يملك العرب موارد النفط في العالم، والدول الديمقراطية لا ترغب في الدخول في مجابهة مع مزودي اقتصادياتها بالوقود " وهو عذر لا يناقش فيه نتياهو لوجهته من جهة، كما انه خطوة الى الأمام لتحقيق الهدف المنشود وهو التزويد بالأسلحة الغربية الأمريكية، لحماية النفط الأمريكي في الخليج العربي من مخاطر محور الشرّ حسب التبرير المُعلن، وتحقيقا لمطلب إسرائيل الاستراتيجي وهو المحافظة على التقدّم العسكري في المنطقة.

2 - " تكتفي الدُول الديمقراطية، في إطار سياستها المتساهلة تجاه الأنظمة الدكتاتورية العربية، بأن يقتصر مفهوم الديمقراطية على المعنى الضيق له والمتمثل (بحكم الأغلبية): الذي ينقصه الدستور الذي يحمي حرية الفرد، ويشتمل على أجهزة التوازن والضبط، بالإضافة إلى الادعاء الذي يبرر نفسه، بأن النظام الديمقراطي سيوصل المتطرفين الإسلاميين إلى السلطة، في عدد كبير من الدول العربية"².

تعتبر إسرائيل نموذجا في نقض كل المعاني التي يشترطها النظام الديمقراطي في ممارسته للحكم، بدليل الإدانة الدولية، والقرار الذي أثبت وصف العنصرية في صيرورة تكوينها وفي علاقتها بالنسيج المجتمعي الذي يتبع لها.

¹ - نتياهو، بنيامين نتياهو، إسرائيل والعالم، المرجع السابق، ص 265.

² - المرجع السابق، ص 165.

" ويعتقد البعض الآخر أن غياب المساواة وانحياز الدولة وتعريفها وجوهرها، لا يمنح الدولة { بهذا النمط } صفة الديمقراطية، ويتم وصفها على أنها نظام ' إثنوقراطي '، وينطبق الأمر على دولة إسرائيل، حيث هنالك نقاش حول ماهية النظام وإذا ما كان فعلا ديمقراطيا تجاه مجموعات الأقلية أم لا؟¹ .

يقدم كل من ملفين آي يوروفسكي²، وجريج راسل³ الشروط النموذجية العملية التي يحكم من خلالها على مدى استحقاق نظام ما التمتع بتسميته نظام ديمقراطي، وذلك حسب المراجع الغربية الأساسية، لا كما يطرحه صموئيل هنتغتون وبرنارد لويس، أنه " لا يمكن أن يُسمى مجتمعاً ما نفسه ' مجتمعاً ديمقراطياً'، إذا كان يستثنى بصورة منتظمة جماعات معينة من سكانه من الحماية الكاملة التي توفرها قوانينه للجماعات الأخرى من أبنائه " ⁴، فضلا أن يكون هو مصدر التهديد، أو السالب للحماية من خلال الوسائل المختلفة التي تتحكم فيها الأكثرية.

أما راسل فإنه يؤسس إلى أصالة هذه الحقوق من حيث ارتباطها بالفرد، وتنبه المشرع الغربي والأمريكي إلى هذا الارتباط حيث " في وقت مبكر، حرص الفصل التمهيدي للدستور الأمريكي على الحديث عن ' حقوق لا يجوز التصرف فيها ' باعتبارها حقوقاً متأصلة في كل الناس بصفتهم بشرا، مما لا يحق لأي حكم أن يجرمهم منها " ⁵.

ولأن الغرب أطلق يد إسرائيل في الشرق الوسط، فلم يبق معنى للتظير حول الديمقراطية وعلاقتها بالحقوق، تم التركيز فقط على الجانب الشكلي الإجرائي لما يسمى ' الانتخابات الديمقراطية ' وبعض ضوابط هذه العملية، أما تعلق بالحقوق وما تمثله من اختبار حقيقي وواقعي لمشروعية الانتخاب الديمقراطي، فهو أمر مسكوت عنه ما دام المدعي للديمقراطية هو إسرائيل،

¹ - غانم، أسعد غانم، مهند مصطفى، الفلسطينيون في إسرائيل : سياسات الأقلية الأصلية في الدولة الإثنية، المرجع السابق، ص 321.

² - ملفين آي يوروفسكي ، أستاذ مادة التاريخ والسياسة العامة بجامعة كومنولث فرجينيا، ألف وحرر أكثر من 40 كتابا، من أحدث مؤلفاته : ' محكمة وارن ' عام 2001م، وكتاب : ' مسيرة الحرية : تاريخ دستوري للولايات المتحدة، طبعة ثانية عام 2001م شارك في تأليفه بول فينكمان ، : ملفين آي يوروفسكي، المبادئ الأساسية للديمقراطية، مرجع سابق ص 15.

³ - جريج راسيل : أستاذ مشارك، ورئيس قسم الدراسات العليا بكلية العلوم السياسية بجامعة أوكلاهوما في نورمن، من مؤلفاته كتاب ' هانس جاي مورجينثو وأخلاقيات فن الحكم الأمريكي '، وكتاب ' جون كوينسي أدامز والفضائل العامة للدبلوماسية ' وكتب أخرى.. ملفين آي يوروفسكي، المبادئ الأساسية للديمقراطية ، ص 27.

⁴ - يوروفسكي، ملفين آي يوروفسكي، المبادئ الأساسية للديمقراطية، في: الديمقراطية الأمريكية، التاريخ والمركزات، نفس المرجع، ص 23.

⁵ - راسيل، جريج راسيل، الدستورية وما يترتب عنها، في: ملفين آي يوروفسكي، الديمقراطية الأمريكية، التاريخ والمركزات، مرجع سابق، ص 36.

والمُدعى على حقوقه العرب المسلمون، أو حتى قوافل المهجرين الذين أدوا دور ' التيس السياسي المستعار '، فحقوق هؤلاء لا تدخل ضمن البرهنة الفلسفية لوثيقة الحقوق المعمول بها في الغرب.

" تتعامل الدولة والأغلبية الحاكمة في معظم الدول الإثنية مع مجموعات الأقلية على أنها مصدر للتهديد والقلق وعدم الاستقرار، هنالك من يسمي هذا النمط من الدول ب'الديمقراطية الإثنية'، أي أن الدولة في حالة الديمقراطية الإثنية هي مؤسسة غير محايدة، وتعطي أفضلية في التشريعات والسياسات والرموز لمجموعة اثنية واحدة في الدولة " ¹.

" خذ مثلا برنارد لويس فقد درس التاريخ الإسلامي طول حياته الجامعية فإذا ما تناول البحث في الماضي فمن النادر جدا أنه يتمكن من أن يحرر نفسه من تحيزاته اليهودية، فإذا جازف في الكتابة في المشكلات السياسية المعاصرة -وغالبا ما يفعل - فإنه يظهر نفسه وبوضوح صهيونيا متعصبا " ².

بالنظر إلى المناخ الذي رافق ميلاد الفكر الصهيوني - الذي تتبناه الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة، نجده مناخا اتسم بطابع يتناقض مع روح النمط الذي تسعى الديمقراطية إلى تحقيقه مما يفرض تشرب هذا الفكر لأهم مميزات ذلك المناخ وتأسيسها في برمجة السلوك السياسي للفكر الصهيوني.

" فقد نشأت الصهيونية أولا في شرق أوروبا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، حينما كانت الفكرة القومية في ذروتها، وحينما تهددت فكرة العقلانية المُستتيرة بأفكار رابطة الدّم والانتماء " ³.

وجد المستشرق برنارد لويس - تحت ضغوط ولائه للصهيونية - نفسه في موقف حرج من الناحية الأخلاقية والفكرية أمام العقلانية الغربية التي دوخوا بها الآخر وسفّوها بها مقدساته، حينما أصرت الصهيونية على اعتبارات أساسية في مشروعها تتنافى بوضوح مع هذه العقلانية المزعومة.

إن الصهيونية - التي هي المشروع الذي يمثل الحق اليهودي في فلسطين - تُجرّم عصور التنوير التي لم تكن وقيّة في معاملة الفرد على أساس مبدأ المساواة، " فقد جسّدت الصهيونية حالة خيبة الأمل من مثاليات الليبرالية المُستتيرة، وسعت - الصهيونية - أساسا إلى استنطاب

¹ - غانم، أسعد غانم، مهند مصطفى، الفلسطينيون في إسرائيل، مرجع سابق، ص 321.

² - طيباوي، عبد اللطيف طيباوي، المستشرقون الناطقون بالانجليزية، مرجع سابق، ص 109.

³ - نينمي، افرايم نينمي، تحديات ما بعد الصهيونية، تر: أحمد ثابت، مراجعة: محمد هشام، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ط 1، 2005، ص172.

المتفقين اليهود والذين شعروا بخيانة أوربا التي بدا أنها تخلت عن أفكار المساواة بغض النظر عن العرق أو الدين " ¹.

وبذلك أضافت الصهيونية إلى رصيدها مانعا جديدا لا يتناسب مع وصف نظامها السياسي بالدولة الديمقراطية، هذا المانع هو عدم كفاءة مثاليات عصر التثوير، الذي تُعتبر الديمقراطية إحدى مراحل توهجه وألفه، هذا من ناحية المناقشة النظرية في الرد على ادعاء برنارد لويس بتفرد إسرائيل بتبني النموذج الديمقراطي الحقيقي في الشرق الأوسط.

هذه المناقشة النظرية المجردة التي تعتمد على مقارنة مفهوم الديمقراطية بين سياقها التاريخي، واليهودية كحالة سوسولوجية عقائدية عاشت وضعيات مختلفة وقلقة، تبحث عن قارب نجاة بأي ثمن، أكدها النقاش العلمي المهتم بنماذج الأنظمة السياسية في الشرق الأوسط.

" إنه من الخطأ الاعتقاد بأن اليهودية ما قبل الحديثة والأرثوذكسية - والتي تبنيتها الدولة الإسرائيلية رسميا - هي يهودية أصيلة ، وهذا ما يوضحه بصراحة الكتاب المهم الأخير الذي ألفه (إسرائيل شاحاك) عن تأكيد الطبيعة العرقية والمعادية للديمقراطية لوجهات النظر الأرثوذكسية، والتي حظيت بدعم الدولة الإسرائيلية " ².

الطبيعة العرقية متأصلة في الممارسة السياسية الإسرائيلية خدمة للصهيونية، بل كانت بمثابة المفصلة لكثير من الحقائق ذات الصلة بالتاريخ اليهودي، ولم تنفع معها أقنعة الديمقراطية المزعومة والمتفردة التي أضفاها برنارد لويس على السلوك الإسرائيلي في المنطقة.

فقد " أدى تصوير تمرد ' ألتو ' اليهودي في وارسو بمظهر بطولي إلى طمس أدوار الأبطال غير الصهاينة، ومثال ذلك ' مارك إدلمان - Mark Edelman ' ، النائب غير الصهيوني من حزب ' البوند ' ، وقائد منظمة ' المقاومة اليهودية ' الذي قاد المُقاتلين المُتبقين إلى شاطئ النجاة عبر أنفاق المجاري في بولندا، فقد تم شطب اسمه من التاريخ بسبب بقائه في بولندا وتأيبده لحقوق الفلسطينيين، ففي أثناء الاحتفال بالذكرى الخمسين لتمرّد ' جتو ' وارسو، إعتذر رئيس الوزراء الأسبق ' إسحاق رابين ' عن تلبية دعوة الرئيس البولندي آنذاك ' ليخ فاوستا ' عن المشاركة في افتتاح نصب تذكاري لـ ' إدلمان ' ³.

بل إن الخدمات الغربية لإسرائيل المُتمثلة في دعم الهجرة إلى إسرائيل استكمالا لمشروع استحداث وطن، لم تنجو هي الأخرى من تعسف الطرح القومي العنصري المنافي للديمقراطية،

¹ - نينمي، افراييم نينمي، تحديات ما بعد الصهيونية ، المرجع السابق، ص 172.

² - المرجع السابق ، ص 182

³ - المرجع السابق، ص 183.

ولم يجد المهاجرون اليهود من الغرب ما يدّعيه برنارد لويس ويشرّ به الغُرباء من التّعامل الديمقراطي في إسرائيل.

" غير أن هؤلاء - المهاجرين - لم يكن الترحيب بهم واسعاً أو حميماً، إذ كان هؤلاء الذين يُطلق عليهم اليهود ' الشرقيون ' مزراحي بالعبرية، مهاجرين غير مُفضّلين عند النّخبة الإشتنازية الغربية، والتي انتظرت بدون جدوى قدوم كتلة اليهود الغربيين، وكانت الاتجاهات المتعالية فيما يتعلق بدمجهم في المجتمع الإسرائيلي صارخة إلى حد إرسالهم إلى مناطق نائية، وتسكينهم في منازل أقلّ مستوى"¹.

المطلب الثالث: الصهيونية والواقع البيولوجي اليهودي

لم ترعَ أبسط الحقوق الإنسانية التي يدّعيها برنارد لويس في السلوك الغربي أثناء تنفيذ مخطّط الهجرة حيث " تمّ دمجهم في إطار من مفاهيم المركزية العرقية والعنصرية التي تفرضها عملية التّأقّف، وطُلب منهم التّخلي عن شرقيتهم ' المتخلّفة '، وقسماتهم النّقافية ' العربية '، وقد حظي هذا الأمر بتوثيق كاف من جانب العلوم الاجتماعية الإسرائيلية"².

" تُعبّر - دولة إسرائيل - عن تفضيلها للأمة الاثنية المركزية عن طريق مجموعة من القوانين التي تمنح الأولوية لمن ينتمي لهذه الأمة، ويقف قانون العودة على رأس هذه القوانين، وتجند الدولة جميع اليهود، مواطنين وغير مواطنين من أجل بناء مجتمع اليهودي - الصهيوني وترعى وتتمّي الهوية اليهودية المنفصلة "³.

وإذا كان هذا الموقف مع المهاجرين اليهود من حيث العموم ، فإن له ما يُشخصه على الصعيد الاثني تشخيصاً دالاً على البعد الاستراتيجي للصهيونية، الذي شكّله مشروع الهجرة إلى فلسطين من أوروبا في عمومها وبنسبة كبيرة، وبعض الدول العربية التي جسد تواجد اليهودية فيها على شكل أقليات، المبرر على اضطهاد اليهود في العالم العربي على رواية برنارد لويس مثل ' المغرب واليمن '.

'هنريت دهان '، فتاة مغربية يهودية، كانت الشّخصية التي تُبطل إدّعاء برنارد لويس المؤدّج، وتُثبت عطالة الحسّ الغربي في شخص برنارد لويس، استطاعت ذلك رغم حداثة سنّها لتؤكد وجود ودقة الحسّ العربي - حتى وان كان يهودياً - .

¹ - غانم، أسعد غانم، ومهند مصطفى، الفلسطينيون في إسرائيل، المرجع السابق، ص 322.

² - نينمي، افرايم نينمي، تحديات ما بعد الصهيونية، المرجع السابق، ص 200.

³ - غانم، أسعد غانم، ومهند مصطفى، الفلسطينيون في إسرائيل، المرجع السابق، ص 322.

" أنتِ لست مغربية لأنك جميلة جدا "، اعتراف جميل، وقطعة مؤلمة، سببها الاستعلاء الوهمي المؤسس على القومية الزائفة، ولتأكيد هذه القطيعة، تطلّب الأمر بعضا من عمليات البتر الاستعجالية على مستوى القيم وحتى المبادئ الإنسانية التي لا تحتمل العمليات الجراحية.

" كبرتُ وأنا أسمع هذه الجملة منذ جئت مع والدي من المغرب إلى إسرائيل في عام 1949م وأقمنا في معسكر المهاجرين ' شَعار أليا - Shaar Aliyah '، ثم إلى معسكر آخر للترحيل اسمه ' بارديس شانا - Pardes Chana '، فقد سمعت هذه الجملة من مُمرضة بيضاء ترتدي زياً أبيضاً جاءت إلى خيمتنا في معسكر المهاجرين لتشرح لوالدتي طريقة تربيّتي أنا وشقيقتي وشقيقي الصّغير الذي وُلد في هذه الخيمة" ¹.

هكذا يتم تصنيف السلالة البشرية - حتى وإن كانت يهودية - كما تُصنّف السلّع الاستهلاكية، أو السلالات الحيوانية أو النباتية من أجل الاستتساخ أو التخصيب، في دولة يصفها برنارد لويس بـ ' الديمقراطية وحقوق الإنسان '، والمخرج لبرنارد أن هذا المنهج في التعامل مع المهاجرين تدعمه الدوائر الرسمية وإلا لما أثبتته ' هنريت ' مرة أخرى في معسكر آخر.

" كان حديث المُمرضة عن تربية الأطفال وكأنه من اختراع الصّهاينة وحدهم، وكانت المُعلّمة اليهودية الألمانية ذات الشّعر الفِضّي الطّويل في روضة الأطفال قد استخدمت أيضا الجملة نفسها، ثم قامت بتغيير اسمي - هنريت - وأعطتني اسم - أوا Ahuva، ذلك الاسم المُزعج بالنسبة لي أو للأطفال الآخرين" ².

لوضوح الاستعلاء اليهودي واحتقاره للأخر، فق تنبّهت ' هنريت ' - وهي طفلة صغيرة - لهذا التمرکز حول الأنا الغربي رغم ما يتطلبه من دقة وبعد نظر، بل والتدخل في أخص خصوصيات الأخر الذي هو حق طبيعي الذي لا تجوز الإغارة عليه أو المساس به في أي شرعة سماوية أو وضعية.

" لكن أدركت كطفلة ومبكرا أن هناك صراعا واضحا بين القيم الجمالية وكوني مغربية، إذ تمثّلت هذه الخبرة عندما اشتكت والدتي إلى المعلمة من عداوة الأطفال الآخرين تجاهي في الفصل، ولكن المعلمة ردّت مُشبّهة والدتي ببائع مغربي متجول رتّ، وأنه لا مكان في المدرسة لمثل هذه - السوقية والتخلف -، لقد تجاهلت المعلمة فحوى الشكوى تماما " ³.

¹ - أفرابيم نيمني، مرجع السابق، ص 237.

² - المرجع السابق، ص 237.

³ - المرجع السابق، ص 238.

العجيب أن التحيز الغربي ضد كل ما هو إنساني وطبيعي أصبح علنا، وبمقدور الإدراك البسيط أن يلتقطه، فقد استوعبت ' هنريت ' أن القيم الجمالية التي كانت تؤمن بها وعاشت ببعضها في المغرب ولازالت تطلب بعضها الآخر ليست هي القيم التي تستهوي الفرد أو تتشكل في طبيعته البيولوجية بالفطرة، وإنما هي التي إنتخبها الغرب وتشكلت فيه تحديدا فأصبحت غير قادرة على التعريف بقيمتها إلا ضمن المصنوفة الغربية للقيم الجمالية، بالإضافة إلى الإهانة الصريحة التي وجهت إلى أبعاد متعددة ذات علاقة خصوصية وقومية لشخص والدتها.

" في المدرسة، كان عليّ أن أقرأ وأتذكر كُتبا عديدة عني وعن أجدادي في ' الشنتل ' - وهي قُرى سكنها اليهود في بولندا- وعن أسرة ' المُقاتلين ' الذين أبلّوا بلاء حسنا دفاعا عن القدس المحاصرة، وعن من شاركوا في بناء أسوار وأبراج ' الكيبوتز الجديد - Choma U Migdal، وقد بحثت ولكن من دون جدوى عن ذاتي الحقيقية وعن أبي في مثل هذه الكتب "1.

إنها شروط المواطنة والانتماء التي يمكن للمُهَجَّرين اكتسابها بالبحث والتعلم وتحصيل الجزء الأكبر منها، مع حتمية بقاء الإحساس بالغربة عن وقائعها الفعلية في نفوس المُنتَمين إليها الجُدد.

لقد كانت حملات التهجير إلى إسرائيل سببا في كشف طبيعة وحقيقة هذه الدولة، إذ بيّنت بوضوح أنها صهيونية الذوق، غريبة العرق، وأن الديموغرافيا اليهودية الوافدة من الشرق مجرد عدد تكتمل به ضرورة الاعتراف الدولي بهذه الكيان.

" تفصل دولة إسرائيل بين الانتماء للأمة اليهودية وبين المواطنة الإسرائيلية، إذ يمكن للفرد أن ينتمي للأمة اليهودية دون أن يكون مرتبطا إسرائيليا، وينطبق هذا الوضع على يهود المهجر، ويمكن للفرد أن يكون مواطنا إسرائيليا دون الانتماء للأمة اليهودية، كما هو حال العرب في إسرائيل "2.

" شكل رفض بن غوريون لخطاب كابلانسكي ومقترحاته تجسيدا لمبادئه السياسية وكاشفا عنها، كان على مدى حياته العملية، متمسكا بعدم السماح بأي اعتراف بالأغلبية العربية في فلسطين كوضع ثابت، بمعنى أن التفوق الديمغرافي للعرب هي مسألة مؤقتة له، حيث يمكن نقلهم

1- أفراييم نيمني مرجع سابق، ص 240

2- غانم أسعد وطفة، مقال بالمجلة العربية لعلم الاجتماع، عدد 8، 2009م، ص 322.

حين يأتي الوقت المناسب ' كاندلاع الحرب '، ولأن الهجرة اليهودية قد تزداد في ظروف أخرى ' كالضغوط اللاسامية ' ¹.

" أما الشيء الذي اكتشفته مؤخرًا عن شخصيتي الحقيقية فكان يصفني بأني من يهود- المزارخي ' الشرقيين '، وهو تعبير يستخدم في إسرائيل للإشارة إلى اليهود غير الغربيين من ذوي الأصول الإفريقية أو الآسيوية، كانت تصفني هذه الكتب بأني ' قذرة ' و ' فقيرة ' و ' أعاني من أمراض معدية ' وغير مؤهلة من الناحية الروحية ' و ' أفقر إلى الطاقة الأخلاقية ' كما تصفني بـ ' الجهل والعنف والكسل ' ².

هذه التوصيفات جاءت من معتقدات عنصرية لا تتوافق مع مبدأ عقائدي موهوم أسس عليه اليهود علاقتهم بالآخر، يضمن لليهود المقدمة في تراتبية الجنس البشري وهي خرافة " شعب الله المختار "، قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَلُّهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَتَلَّهُمُ اللَّهُ ابْنِي يُوبِكُونَ ﴾، التوبة.

هذا الانتساب الذي يسمح لليهود بأن يدَّعوا مُستلزمات النبوة من حبّ وتفضيل، قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّونَهُ، فَلِمَ لِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْرِهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾، المائدة، فشرط المحافظة على هذا التميز، عدم انتساب اليهود الشرقيين الموصوفين بهذه الصفات للدولة الرسمية، وللمجتمع الممثل لها.

" كانت قراءتي لهذا الأدب (الأدب الإسرائيلي الطفولي) قد جعلتني أُصدِّق كل كلمة أقرأها، مثال ذلك: أن المزارخي قوم متخلفون وأغبياء وبدائيون ما اضطرني لاختيار البديل الأشكنازي، إذ كان ينبغي أن أضفي الطابع الأشكنازي على نفسي ' أي لأصبح بيضاء ' وهذا ما فرض علي أن أشيد شخصية أو هوية عنصرية وتقدمية وذكية، وتدمير الجذور أو الهوية التي

¹ - بيتربرغ، غابرييل بيتربرغ، المفاهيم الصهيونية للعودة: أساطير وسياسات ودراسات اسرائيلية، ترجمة: سلافة حجّاي، مدار، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، ط 2009، ص 99.

² - نينمي، افراميم نينمي، تحديات ما بعد الصهيونية، المرجع السابق، ص 241/240.

اكتسبها من والدَيَّ، بمعنى: رفض أي شيء يتعلق بهما: التَّاريخ والقيَم وأنواع الحبِّ والكراهية والألعاب والآلام " ¹.

إنها السياسة الديمقراطية التي تقوم بدمج العرب بشكل محدود، وتخلق إحساسا مغلوطا بالتطور الطبيعي حتى في صفوف مجموعة الأقلية، وتساهم في خلق حالة البلبلة التي وصل إليها أفراد الأقلية، وتعيش الأقلية نتيجة لذلك في حالة وجودية خطيرة بدأت بالتغلغل إلى قلب الوجود الجماعي في العديد من المجالات" ².

لا تتوقَّف هذه التَّوصيفات للإنسانية على الجانب النَّظري في أدبيات فئة عمرية مهمة في المجتمع، بل إلى خطوات عملية تحت عناوين بحثية تبحث في دراسة تلك الحالات بطرق تجريبية قصد تأييد تلك التوصيفات بنتائج بحث علمية خاضعة للتجربة شأنها شأن العينات النَّباتية أو الحشرات الغريبة.

لقد فحصني هؤلاء الفلاسفة ودققوا فيَّ كموضوع علمي - كفأر تجارب - واعتبروا ما يلي بمثابة أمر مُسلَّم به : لقد وصلنا إلى نتائج عن هؤلاء الشَّبَاب ' المغربية أوفاء، واليمينية موريا '، عبر فحص مُنتظَم، دلَّت على تخلُّف في التنمية الثقافية، فقد برهنت الاختبارات المكتوبة المتعدِّدة على مثل هذا التخلف والتي أجريت بين عام إلى عامين، وكان ذلك واضحا عند المقارنة مع شباب من السنِّ نفسه في أوربا، هل نفسر ذلك كنوع من الدُّونية الطَّبعية / البيولوجية ، ونعتبرها مثلا على نقص القدرات الثقافية وموانع ممارسة نشاط نفسي فسيولوجي " ³.

إن الحَيْف في هذا التَّعامل واضح مُغلَّف بلُفافةٍ علمية، حيث أن هذه التَّجارب انطلقت من قناعة واحدة مُقرَّرة سلفا لتصل إليها بعد سنتين وهي الدُّونية الطَّبعية الخَلقية التي لا ينفع معها أي تأهيل، قياسا على النموذج الغربي الذي تريد إسرائيل أن تستنسخ منه مجتمعا أوربيا في العادات والتقاليد، ونظاما سياسيا صنيعة الغرب وممثلا عنه في المنطقة.

هذا ما كتبه عني بالفعل كل من : كارل فيورشتاين - Feurstein، و م ريشيل - Richel في كتابهما بعنوان: (أطفال المِلَّة: التخلف الثقافي بين الأطفال المغاربة ودلالته التَّعليمية - The Children and its meaning in Education ، وحاول هؤلاء الفلاسفة تقديم نصيحة

¹- نينمي، افرابيم نينمي، تحديات ما بعد الصهيونية ، المرجع السابق، ص 242.

²- غانم، أسعد غانم، مهند مصطفى، الفلسطينيون في إسرائيل، مرجع سابق، ص 92.

³- نينمي، افرابيم نينمي، تحديات ما بعد الصهيونية ، المرجع السابق ، ص 243.

عملية للمُدرسين الذين يضطلعون بمهمة إعاقة تعليمي أنا وشقيقي وشقيقتي، وتعهدوا بالتخلص من الخصائص الاجتماعية والثقافية التي تسببت في 'تشوه نموي' ¹.

إن هذا التَّعهد الصَّادر من شخصيات علمية مرموقة في المجتمع الإسرائيلي الذي مضمونه تفعيل التخصص العلمي في إقصاء تنوع الخصائص الثقافية والاجتماعية الذي يُعدُّ من أهم مظاهر المجتمعات الديمقراطية الغربية التي تستوعب المخالف في الرأْي والثقافة والعادات والتقاليد وهو ما يقضي عليه هذا التَّعهد في المجتمع الإسرائيلي الذي أقر له برنارد لويس بهذا الاستيعاب في ضوابط يهودية.

" اكتشفت أيضا أن المؤلفين لم يُصمِّمًا على أي متخلفة فقط، بل وأضافا أنني أفنقد لحب الاستطلاع، والأدهى من ذلك أنه لا يوجد أحد حولي بقادر على تنمية حب الاستطلاع عندي، فأنا لا أهتم بالملاحظة، وغير قادرة على التمييز بين الحقيقة والخيال والشيء الطبيعي وذلك الذي يتجاوز الطبيعة " ².

إنها التَّرجمة الفعلية للرؤية الاستشراقية المتعالية عند برنارد لويس حينما شخَّص الحالة النفسية عند الأسرى الشرقيين وضُمور الحسِّ الشرقي رغم ما أُتيح من أسرار الغرب، أو هو إسقاط لمفهوم الذرية الذي أيده برنارد لويس حيث يرى بأنها " الميل لرؤية الحياة والكون على أنها سلسلة من الوحدات الجامدة والمنفصلة أو المتصلة بنوع من الرباط الآلي غير المُحكَّم، أو الرابطة العرَضية التي ليس لها علاقات ذاتية " ³.

" بل إن أساتذتي حذرونا بشدة من مغبةً تواجدي وسط الأطفال بسبب صرامة أخلاقياتي بشأن ممارسة الجنس والتي تعود إلى نمط تربيتي شمال الإفريقي، وأصروا على عرضي على طبيب نفسي متخصص " ⁴.

" هناك شيء واحد فقط واضح عندي سواء كنت واعيةً به أم لا، وهو أنني ابنة طاحونة تعليمية وثقافية واقتصادية، سَحقت كل شيء، ولم تترك لي هامشا لأي نوع من التطوير الذاتي خارج تلك الهيمنة الاشكنازية والصهيونية والإسرائيلية والأوربية المدمرة " ⁵.

¹ - نينمي، افرائيم نينمي، تحديات ما بعد الصهيونية ، المرجع السابق ، ص 244

² - المرجع السابق ، ص 244.

³ - Bernard Lewis, The Arabs in History, Reprints in 1975, 77, 81, 84. P : 201-202.

⁴ - نينمي، افرائيم نينمي، تحديات ما بعد الصهيونية ، المرجع السابق، ص 244.

⁵ - المرجع السابق، ص 251.

" نعم، نحن نريد السلام مع الفلسطينيين، ولكنه لم يكن هناك خطأ أقدمنا عليه في عام 1948م، هكذا حال المؤرخين الجدد، وإذا ظل السلام الحقيقي مرتبطاً بهذا التناقض الرئيس، فسوف يبقى سلاماً بعيد المنال لأنه يُقَرُّ بمفهوم أن الفلسطينيين في أرضهم من مرتبة ثانية بالنسبة لليهود، بل إن هؤلاء - المؤرخين - يقبلون بوجود تناقض بين الصهيونية والديمقراطية " ¹.

" هل يمكن أن يُقَرَّ أحد بوجود دولة ديمقراطية في ظل تواجد مليون من غير اليهود يفقدون المساواة في الحقوق وملكية الأراضي، أو العمل مع اليهود، أن الحسنة الوحيدة للمؤرخين الجدد هي أن كتاباتهم قفزت بالتناقضات داخل الصهيونية بعيداً عن القيود التي كانت مفروضة على تفكير معظم الإسرائيليين، وحتى على كثير من العرب." تحديات ما بعد الصهيونية، ².

أما في مجال التنظيمات، فقد امتد هذا التعارض مع الديمقراطية، " فقد اقترح بن غوريون في مؤتمر عمال السكك الحديدية في العام 1922م، متحدّثاً باسم الهستدروت أنه إذا لم يتمكن القسم العربي من التطور في الوقت المناسب، يمكن حينها السماح للعمال العرب كأفراد، بالانضمام إلى القسم اليهودي إلى حين توفر عمال كافين لكي يقيموا نقاباتهم القومية الخاصة " ³، فقد حافظ الإسرائيليون على النظرة الاستعلائية أمام الآخر، وتجريده من الصفات والمؤهلات الطبيعية التي تؤهله من ممارسة نفس النشاط الذي هو حكر على العرق اليهودي، فسياق شرط التطور يوحى إلى الجانب البيولوجي أكثر منه إلى الجانب الديموغرافي .

ومع أن إعلان الاستقلال للكيان الصهيوني يتضمن ملامح هذه الدولة ، ويقر بدورها الفاعل في تثبيت أسس عقيدتها السياسية تجاه مواطنيها حيث " ستحافظ على المساواة التامة في الحقوق الاجتماعية والسياسية للمواطنين كافة، من دون تفريق حسب المعتقد أو العنصر أو الجنس، وأن الدولة تضمن حرية الدين والضمير واللغة والتعليم والثقافة " ⁴.

المطلب الرابع: الحركات الإسلامية من زاوية استشرافية

" في زمن يشهد توترات متزايدة وأيديولوجيات متداعية و ولاءات مشتتة، ومؤسسات متهاكّة، فإن الإيديولوجية ذات التوجه الإسلامي تحقق مزايا عديدة: فهي توفر أساساً شعورياً

¹ - نينمي، افرابيم نينمي، تحديات ما بعد الصهيونية ، المرجع السابق ، ص 280/279.

² - المرجع السابق، ص 280.

³ - بيتربيرغ، غابرييل بيتربيرغ، المفاهيم الصهيونية للعودة، المرجع السابق، ص 98.

⁴ - إعلان الاستقلال الإسرائيلي، للمزيد، أنظر النص الكامل للإعلان على الموقع : <http://www.israel.gov>

مألوفاً للهوية والتضامن وإلقصاء الجماعي ، وأساساً مقبولاً للشرعية والسلطة ، وصياغة يمكن استيعابها فوراً للمبادئ التي يقوم عليها نقد الحاضر وبرنامج المستقبل¹.

هذه حقيقة الأيديولوجيا الإسلامية وما تمنحه لمعتققيها وتؤهلهم له في رؤية برنارد لويس، وهي رؤية كافية للاهتمام بها وبعلاقتها بالأنظمة الحاكمة في الشرق الأوسط، ورصد تفاعلها مع مجتمعات تلك المنطقة، لدقة تلك المزيا وأهميتها ضمن الرؤية الإستراتيجية لمشروع الشرق الأوسط الجديد.

ويعيب لويس على المفكرين في الغرب قصورَهم وعدم قدرتهم على الاعتراف بهذه المزيا، ويرفض حكمهم عليها، حيث يرى " إن الكتاب الغربيين - والمستشرقين منهم بوجه خاص - يجدون صعوبة كبيرة في تقبل الأصالة التي يتسم بها التراث الإسلامي، ويصفون كل من يوجّه أنظارهم إلى تلك الأصالة بأنهم يلتمسون المعاذير للإسلام عن طريق الدفاع الرُومانتیکی " ².

ومع ما اتهم به غيره، إلا أنه لا يلتزم الموضوعية في التعامل مع أقرّ به من حقائق، ولا يقف منها موقف المُنصف لأصحابها، ففي حال تبني المجتمعات الشرق أوسطية لمشروع مؤسس على نفس الأيديولوجية وإرادة تفعيل تلك المزيا، يجيش برنارد لويس أساطيل الغرب الإعلامية والاقتصادية والعسكرية، كي يحرمها من ممارسة هذه الحقوق، وذلك بتهويل خطر هذه الممارسة على الحضارة الغربية بالدرجة الأولى، وعلى حلفاء الغرب في الشرق الأوسط، ومنه تبدأ عملية الابتزاز السياسي للأنظمة الحاكمة في الشرق الوسط.

" ولهذا فإن قلة من المستشرقين الأحياء يبدون مستعدين للاعتراف بأن الحركات الدينية والوطنية في العالم الإسلامي تستمدُّ أكبرَ قسط من قوتها وحيويتها من مصادر ذاتية، وهي لذلك ليست محتاجة لأن تتبّع أو تقلّد الأنماط أو النماذج الغربية حتى تفوز بالرضا والقبول " ³.

وحتى يجد المبرر للهروب من مستلزمات اعترافاته، وما تفرضه من مواقف علمية داعمة - ولو نظرياً - لوجاهة المطالبة بحق تفعيل تلك المزيا في مجتمعاتها، يخلق برنارد لويس تفصيلاً واسترسالاً في دراسة هذه الأيديولوجية، مما يجعله في حل من أمره.

" وقد لوحظ في أكثر من بلد أن الأصوليين يحظون بشعبية كونهم خارج السلطة، ولا يمكن اعتبارهم مسؤوليين عن المشكلات الحالية، وإذا تولوا السلطة، ومعها المسؤولية فسرعان ما

¹ - لويس، برنارد لويس، الإسلام و أزمة العصر، المرجع السابق، ص68.

² - Lewis Bernard, The Arab In History 1950, Op.cit, pp 44/45.

³ - طيباوي، عبد اللطيف طيباوي، المستشرقون الناطقون بالانجليزية، المرجع السابق، ص.56.

يفقدون تلك الشعبية، لكن هذا لا يهمهم ، ذلك أن مجرد توليهم السلطة لن يكونوا في حاجة إلى الشعبية للبقاء في السلطة " ¹.

وكعادته تملّص من ما أقر به من خطأ إسقاط مفهوم الأصولية على الحركات الإسلامية، وأعتبره أنه إسقاط مضلل، وعدم صحته ودقته في الدلالة عليها، ثم يمعن في التهرب من تحديد موقفه مما تتطلبه منه اعترافاته، ويَعْمُرُ النقاش بسيل من التفريعات و التقسيمات تتعلق بالتنظيمات التي تتبنى هذه الأيديولوجيا، لزرع الشك في مدى التزام تلك المنظمات بما أقر به من مزايا، بل كَالْ لَتلك المنظمات تُهما جاهزة ارتكبت باسمها.

وتوجد بين الحركات الإسلامية التي تشرف عليها الدولة عدة أنواع كذلك : بعضها راديكالي وبعضها محافظ وبعضها تخريبي وبعضها استباقي، بدأت الحركات المحافظة والاستباقية بواسطة الحكومات التي تملك السلطة سعيا منها لحماية نفسها من الموجة الثورية وذلك مثل :الحركات التي شجعها في أوقات مختلفة كل من " المصريين والباكستانيين، وبصفة خاصة السعوديين " ².

ثم بعد التصنيف والتقسيمات، يُحَوَّلُ لنفسه وصف هذه التنظيمات بمصطلحات غريبة، لا تتوافق مع واقع هذه التنظيمات، بالإضافة أنها مُشَبَّعة بتجارب ورواسب غريبة وأحكام جزافية وفق الرؤية الغربية، وذلك بغرض تسهيل مهمة القارئ الغربي في الحكم على هذه التنظيمات، وعدم ترك الفرصة لها، تبريرا لما يجب أن يتخذ في حقها من إجراءات على جميع المستويات.

" وهناك أنظمة إسلامية راديكالية تحكم الآن - زمن تأليف الكتاب - في السودان وحكمت لفترة من الزمن في أفغانستان، وتمثل الحركات الإسلامية تهديدا كبيرا للأنظمة القائمة - المعرضة للخطر بالفعل - في بلدان أخرى وبوجه خاص في الجزائر ومصر " ³.

وبدلا من أن يقدم طرحا وقراءة صادقة للمعوقات التي حالت دون تمكن نجاح تلك التجارب، وعلاقة الغرب بذلك، راح يرفض التناقض في التعامل تجاه الأحداث التاريخية، وما يصحبها من مواقف سياسية وإعلامية وشعبية، والكيل بمكيالين ويجعل منه دليلا كافيا للاستثمار الأيديولوجي العفائدي، ويقدم لقرائه نموذجا على هذا التناقض، جمع بين حالتيه وقوعه في نفس السنة 1982 ، وفي نفس المنطقة ' الشرق الأوسط '.

¹ - لويس، برنارد لويس، الإيمان والقوة، مرجع سابق، ص 94.

² - لويس برنارد، الإسلام وأزمة العصر، مرجع سابق، ص 68، 69.

³ - المرجع السابق، ص 69.

" مثال على هذه المعايير المزدوجة، هو الذي وقع في مدينة ' حماه ' السورية في سنة 1982م، فقد بدأت الاضطرابات في هذه المدينة بتمرد تزعمه الإخوان المسلمون المتشددون، وقد ردت الحكومة السورية على ذلك بحدة وقوة، لم تستعمل الحكومة مدافع المياه والرصاص المطاطي، كما أنها لم ترسل جنودها لمواجهة القناصة والشراك المفخخة عند تفتيشهم المساكن للامساك بأعدائهم والتعرف عليهم بين السكان المحليين المدنيين، لكنها استعملت أسلوبا أبسط وأكثر أمنا وحسما"¹.

لم يقدم لويس كمؤرخ أدلة على وصف تحرك الإخوان بالتمرد، ولم يُتعب نفسه بذلك، بل ساير الرواية المعلنة من النظام السوري آنذاك، وهو موقف لا يليق بمؤرخ، مما يجعل القارئ يتقبل الانتهاكات التي وصفها برنارد لويس بالأمان والبساطة والفاعلية، في أسلوب تهكمي جارح للذوق الإنساني، لا لشيء إلا لأن الضحية شرق أوسطي عربي مسلم، وهو إقرار مُسبق منه قبل سؤاله عن الموقف الأمريكي لو كان الضحايا غربيون في بلد غربي.

فقد قدم للقارئ وصفا مربعا لما حدث، يتناقض كلياً مع ما أسماه ' الأسلوب البسيط الآمن والحاسم'، وكأنه يتحدث عن لعبة ترفيهية، وليس عن إبادة جماعية لمواطنين عزل، أرادوا ممارسة حقوقهم وتفعيل مزاياها التي اكتشفها برنارد لويس في أيديولوجيتهم، دون احترام لذوق القارئ الأوربي ولا لعقله.

" فقد هوجمت المدينة بالدبابات والمدفعية وقاذفات القنابل، وجاءت على أثرها البلدوزرات لاستكمال عملية التدمير، وخلال فترة قصيرة من الزمن حولت الحكومة جانبا كبيرا من المدينة إلى أنقاض، وقدرت منظمة العفو الدولية عدد الذين قتلوا حينئذ بما يتراوح بين عشرة آلاف وخمسمائة وعشرين ألفا "².

هذا المشهد لو رُوي بمعزل عن هذا الحدث، يصلح أن يكون تصويرا لالتحام جيشين، يغزو أحدهما مدن الآخر، لا أن يكون تصرف جيش نظام مع معارضيه، ومع ذلك أباح برنارد لويس لنفسه في أسلوب تشف أن يشير إلى ما كان يُفترض أن يُعامل به المتمردين من أسلحة، كما يحصل في الغرب.

ويبدو أن سلوك نظام الأسد في اختيار هذا النموذج من الأسلحة لغير وظيفته الطبيعية التي جُلب من أجلها، يمثل خدمة وموقف إستراتيجي لبني عمومة برنارد لويس، فما سماه الغرب بـ ' محور الشر '، يمثل نظام الأسد رأس هذا المحور، لكن ما دام شره في بني عرقه وعقيدته

¹ - لويس برنارد، المرجع السابق، ص 128

² - المرجع السابق، ص 128.

فان الغرب يكتفي بالفُرجة، وعلى أقصى تقدير التنديد مع الاستعداد للتزويد بالسلاح متى دعت الحاجة إلى ذلك.

وليس سرا أن استمرار الأنظمة الدكتاتورية جاثمة على صدور الشعوب العربية يعود إلى مساندة الغرب - والولايات المتحدة تحديدا - لها، مقابل تنفيذ أجندتهم في الإقليم ، وأجهزة القمع وأساليبه التي تنفذها تلك الأنظمة ضد شعوبها صنعت في الغرب¹ .

لم يَسْتَرَحْ بِالَ برنارد لويس - وهو المؤرخ - حجمُ الكارثة الإنسانية التي تصنف برؤية القانون الدولي جريمة حرب، على تقدير المعطيات التي أكدها لويس، بالنظر إلى نوع الأسلحة الغربية المستعملة وطبيعة الجهة التي استعملت ضدها لعدم التكافؤ، فهو لا يؤرخ لمشاهد الدماء ولا للتعسف ضد حقوق الإنسان، وخاصة المسلم، وإنما يستعمل حسَّه التاريخي الغربي في رصد التدايعات الإعلامية والسياسية لتلك المشاهد، ويملك في هذا التخصص القدرة على رصد فوارق التنديد والاستهجان بين الأحداث.

" لم تستحوذ هذه العملية - التي أمر بها وأشرف عليها الرئيس السوري حافظ الأسد - إلا على اهتمام محدود في ذلك الوقت، ويتناقض رد الفعل الهزيل الذي أحدثته هذه العملية مع ذلك الذي أثارته مذبحه أخرى وقعت بعد أشهر قليلة في نفس العام في معسكرات اللاجئين الفلسطينيين في صبرا وشتيلا في لبنان " ².

لم يُثبِت لويس مع الحَدَثَيْنِ حسَّه الإنساني المفترض في المؤرخ، ولم يُسجَل في الحالتين أي موقف إدانة وهو المؤرخ الغربي الحَدَاثِي، الذي يخشى على حضارته من البرابرة الكفرة، لكن منسوب الاستهجان والتنديد في الحادثة الثانية أزعجه وأجبره على فضح هذا التناقض بين رَدَّات الفعل بين الحَدَثَيْنِ، ولعلَّه تخصَّصٌ جديد لا يقدر على الوفاء بمناهجه إلا برنارد لويس وحده.

يتعجب برنارد لويس من نقص التنديدات والمواقف الفاعلة في الحالة السورية، مع العلم أن المصدر المفترض لها هو الغرب لعدة اعتبارات يعلمها برنارد لويس ومن أهمها ما يلي:

- أن الغرب هو رافع لواء حقوق الإنسان في العالم، والمُحَدِّدُ لطبيعة النموذج البشري الذي يستحقها.

- أن العرب هم أعداء حقوق الإنسان في نظر الغرب، فلا يعقل أن يأتي التنديد من مشرقهم.

¹ - لويس، برنارد لويس، أين الخطأ، المرجع السابق، ص 30.

² - لويس، برنارد لويس، الإسلام وأزمة العصر، المرجع السابق ص 129.

- أن النظام السوري آنذاك كان رمز الزعامة العربية، والمنظر للقومية العربية، والدولة المركز في الشرق الأوسط، فلا ينتظر من الأنظمة الأطراف الاعتراض على سلوك المركز.

وباعتبار هذه المُحدّثات التي لا ينكرها إلا جاحد، هل بقي لبرنارد لويس من وجهة في ادعاء التناقض في التّنبؤات بين الحَدّثين؟ إذ لم تبقى إلا جهة واحدة يُفترض أنها مطالبة بالتّنبؤ واتخاذ مواقف نصرّة لحقوق الإنسان وهي الغرب، الذي لم يشأ لويس أن يذكره صراحة ويُفردّه باللوم ويحمّله المسؤولية وحده، بل أشرك معه العرب تعمية على القارئ الغربي.

قد يكون التعجب في محله ونحن نعلم أن ضحايا الحَدّثين مسلمين ' سوريين وفلسطينيين'، ومنه لا يكون التباكي على الأنفس والعمران من وراء طرح برنارد لويس، بل لأن ضحايا صبرا وشتيلا من الفلسطينيين كان الفاعل المدان فيها ' إسرائيل ' وأعاونها من الميليشيات المسيحية في الجنوب اللبناني، ولذلك ثارت عقيرة برنارد لويس، وطالب بالمساواة في ردّات الفعل والتّنبؤات بين الحَدّثين، لأن الضّرر قد يلحق إسرائيل التي قدّمها برنارد لويس في صورة مُتحالف مع الفاعل الحقيقي، وليست الفاعل باجتياحها للبنان سنة 1982م.

" فقد دُبح حينئذ سبعمائة أو ثمانمائة فلسطيني بواسطة ميليشيا مسيحية لبنانية متحالفة مع إسرائيل، وقد أدّى ذلك إلى إدانة قوية وواسعة النّطاق لإسرائيل، استمرت تداعياتها حتى اليوم " ¹.

إلا أن برنارد لويس لم يطالب - كمؤرخ يرفع شعار حقوق الإنسان - الولايات المتحدة بما تفرضه المواثيق الدولية، والقيم الحقوقية الدولية، بل راح يسجل للقارئ طبيعة العلاقة بين نظام الأسد والولايات المتحدة ما بعد المجزرة، دون تأنيب أو لوم، ولعله تذكّر في آخر لحظة أن سلوك الغرب عموماً والولايات المتحدة خاصة هو من وحيه الاستشراقي المختلف جداً، فلم ينس أنه يميل في مثل حادثة حماة كاستشاري للبيت الأبيض " ان دورنا في كل هذا الأمر يجب أن يكون سلبياً، إننا يجب أن لا نفعل شيئاً" ²، إلا بتوطيد العلاقات وتميبتها، والوقوف على ما يحتاجه النظام من أسلحة، ومدى نجاعة ما أُستعمل منه في هذه الحرب، بالإضافة إلى الاطلاع على التقارير الاستخباراتية والاستفادة منها إستراتيجياً.

هذه السلبية هي موقف مدروس وإستراتيجي في موقف الولايات المتحدة، لا زالت تعتمد حتى في الحالات الإسلامية المعاصرة، ففي أحداث الخليج الأولى قامت الولايات المتحدة بنفس

¹- لويس، برنارد لويس، الإسلام وأزمة العصر، المرجع السابق، ص 129.

²- طيباوي، عبد اللطيف طيباوي، المستشرقون الناطقون بالانجليزية، المرجع السابق ص 139.

التصرف ضاربة بالشعارات التي تدين بها الآخر عرض الحائط وخاصة الحقوقية منها والإنسانية فبعد أن " حررت واشنطن الكويت من الغزو العراقي، والسعودية من التهديد باحتلالها، فقد حققت [واشنطن] أهدافها العسكرية من الحرب، وأعلنت وقف إطلاق النار، تاركة نظام صدام حسين كما هو، وممتيعة له القضاء على المعارضة الداخلية لنظامه، والاستمرار فيما بعد بسياسته التي عهدتها المنطقة " ¹.

" لكن مذبحه حماه لم تمنع الولايات المتحدة من أن تخطب ود حافظ الأسد بعد ذلك، الذي زاره مرارا العديد من وزراء الخارجية الأمريكيين : جيمس بيكر ' 11 مرة بين سبتمبر 1992/1990 '، و وارين كريستوفر ' 15 مرة بين 1996/1992 '، و مادلين أولبرايت ' 4 مرات بين سبتمبر 2000/1997 '، بل وكذلك الرئيس بيل كلنتون ' زيارة واحدة إلى سوريا، واجتماعين في سويسرا بين 1994/ و مارس 2000 " ².

إن المسؤولية التاريخية والقانونية للأحداث التي ارتكبت ولا زالت ترتكب في حق الحركات الإسلامية، سواء من الأنظمة الحاكمة، أو من جيش الكيان الصهيوني، لا يسلم الاستشراق من تبعاتها وان تظاهر بغير ذلك، وعلى رأس هذه المؤسسة الاستشراقية برنارد لويس نفسه.

إن موقف الغرب والأنظمة العربية العدائي، والمُقصي لدور الحركات والتنظيمات السياسية والفكرية والنقابية والطلابية الإسلامية الواعية والراشدة، مُؤسس على استشارات إستراتيجية من دوائر استشراقية، ونموذجها برنارد لويس، الذي نصح الغرب ووكلاءه من الحكام في الوطن العربي بكيفية التعامل مع هذه الحركات، وحذرهم من الاهتمام ببعض ترددات هذا التعامل.

"والسؤال الأساس الذي يشغل صانعي السياسة في الغرب في الوقت الحاضر يمكن أن يصاغ ببساطة على النحو التالي: هل يعتبر الإسلام - سواء كان أصوليا أو غير ذلك تهديدا للغرب؟ وقد أجيب على هذا السؤال البسيط بإجابات بسيطة متعددة ولكن معظمها مضلل، فوفقا لما تراه إحدى المدارس الفكرية أنه بعد انهيار الاتحاد السوفياتي والحركة الشيوعية، حل الإسلام والأصولية الإسلامية محلها باعتبارهما التهديد الأكبر للغرب ولأسلوب الحياة الغربية " ³، وهو الطرح الذي يؤيده برنارد لويس من الناحية العملية، وينسجم مع مضمون نصائحه التي سنترجم إلى واقع عند توفر القرار السياسي ووسائل تطبيقه لاستئصال جذور الحركة الإسلامية.

¹ - تنبؤات برنارد لويس، المرجع السابق، ص 16.

² - لويس، برنارد لويس، الإسلام وأزمة العصر، المرجع السابق، ص 129.

³ - المرجع السابق، ص 71.

" يثير مخاوف بلاد الغرب (أوروبا وأمريكا) من الجاليات الإسلامية التي ازدادت عدداً أملاً في أن يؤدي ذلك إلى دعم القوى العنصرية المطالبة بطردهم، ويعكس ذلك براعة لويس في تجسيد ما هو نظري ليصبح واقعا وهميا ، طالما يخدم الخط السياسي الذي ينشر كتبه دعماً له"¹.

وحتى وإن توفرت له وجهات نظر أخرى تتسجم مع ما أقر به من بعض الصفات الإيجابية في علاقة المسلمين بالأخر، فإنه يتغافل عنها ولا يستثمرها في إصلاح العلاقة التي يراد لها أن تكون غير طبيعية لجواز فرض مشاريع مدروسة وفق بوصلة ما تمنع العلاقة الطبيعية من تنفيذها.

ويحتوي كل من الرأيين على بعض عناصر حقيقية ، ولكن كلا منهما خاطئ إلى حد خطير فالإسلام في ذاته ليس عدواً للغرب ، وهناك أعداد متزايدة من المسلمين هنا وهناك لا ترغب إلا في قيام علاقة أوثق وأكثر صداقة مع الغرب وفي نمو المؤسسات الديمقراطية في بلدانها"².

حقيقة أن الإسلام ليس عدواً للغرب كمنطقة جغرافية، لكن الغرب الأيديولوجي عدو للروح الإسلامي، لأن الذين احتج برنارد لويس بموقفهم من الغرب ويرغبون في توثيق العلاقة به فإن الغرب لا يوافق على هذه العلاقة إلا إذا أدمج هؤلاء ثقافتهم وذاتيتهم في الثقافة والذاتية الأوروبية، وبالتالي لا يصلح الاحتجاج بموقفهم، لأنهم أصبحوا جزءاً من المكون الغربي.

" ووفقاً لما تراه مدرسة فكرية أخرى فإن المسلمين أناسٌ مُحترمون في الأساس ومُحِبون للسلام وأتقياء ، وإن كان البعض منهم قد تعرض لأكثر مما يحتمل بسبب المآسي العديدة التي ألحقناها نحن الغربيون بهم ، وقد اخترنا أن ننظر إليهم كأعداء لأننا نحتاج سيكولوجياً إلى عدو يَحُل مَحَلّ الاتحاد السوفياتي المنهار"³، وهذا ما تثبته الوقائع التاريخية، حيث فسّر الغرب من خلال بعض مؤرخيه ومستشرقيه الفاعلين كل تصرف طبيعي للفكر العربي والإسلامي من أجل ممارسة الحق في الوجود والتأثير والتأثر على أنه لغة عدائية تتطلب طرح حلولاً متعدّدة.

وهناك آخرون ممن يلتزمون تماماً بإسلامهم ويدركون تماماً مطالب المجتمع الغربي الحديث إلا أنهم يرون كذلك ما فيه من جوانب إيجابية : روح البحث السائدة فيه التي أنتجت العلم والتكنولوجيا الحديثين، وعنايته الكبرى بالحرية والتي أدت إلى ظهور الحكومة الديمقراطية الحديثة ، ومع احتفاظ هؤلاء بعقائدهم وثقافتهم الخاصة فإنهم يسعون لمشاركتنا في تطلعاتنا لبلوغ عالم أفضل وأكثر حرية "⁴.

¹ - لويس، برنارد لويس، الإسلام وأزمة العصر، المرجع السابق، تقديم رؤوف عباس، ص 23.

² - المرجع السابق، ص 71

³ - المرجع السابق، ص 71.

⁴ - المرجع السابق، ص 72.

وحتى في حال قبوله الاحتفاظ بالهوية الثقافية والدينية، فإن برنارد لويس لا يتنازل على السبق والتطلع الغربي لبلوغ عالم يحددون ملامحه من حيث مساحة الحريات فيه، ولا يسمح للأخر إلا بمجرد المشاركة التي تعتبر موقفا إيجابيا منه.

" الأمر الذي خلق للمسلمين ولا يزال يخلق - حتى بعد زوال السيطرة السياسية للغرب - مشكلات ضخمة لإعادة توجيه حياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية على صعيد علاقاتهم مع الآخرين " ¹.

إن إدعاء برنارد لويس زوال السيطرة السياسية الغربية على الأنظمة والمجتمعات العربية، هو إدعاء غير واقعي، وذلك لغرض إثبات أن العطالة العربية والإسلامية هي ذاتية لا دخل للغرب فيها، مع أنه أثبت أكثر من مرة الدور الغربي حتى في العلاقات العربية العربية، وأثر المشاريع الاقتصادية على القرارات السياسية والمواقف السيادية.

نصح برنارد لويس الولايات المتحدة بالضغط على قيادات " الحركات " الإسلامية من خلال تحسيس حكامها بخطورة التساهل معهم، لأن هذه الحركات هي القوة الوحيدة التي تهدد مشروعه، وتستطيع هزيمته، بل ويشخص لويس طبيعة هذا الضغط وقوته وآلياته، منبها إلى بعض السلوك الذي يصحب عملية الضغط، ناصحا بعدم الاكتراث به وتجاهله قائلا: " دون مجاملة ولا لين ولا هواده لتخليص شعوبهم من المعتقدات الفاسدة " ².

إن السلوك الذي اعتمده الرئيس السوري في مجزرة حماة، باستعماله الطائرات والدبابات والمدفعية الثقيلة، ثم البلدوزارات لتنظيف مسرح الجريمة، يأتي في سياق نصيحة برنارد لويس كترجمة ' بعدم المجاملة ' بالرش بخراطيم المياه، ولا اللين باستعمال الرصاص المطاطي، أو التعذر بعدم تكافؤ القوى، وتأسيس قوة المنطق لا منطق القوة وبسرعة التنفيذ وحتى لا يكتب لأي محاولة وساطة فكرية أو سياسية النجاح، فقد أوصى لويس بسرعة التنفيذ، وعدم تخلل العملية مراحل فتور فأوصى بعدم الهواده.

¹- لويس، برنارد لويس، الغرب والشرق الأوسط، المرجع السابق، ص 212.

²- <http://muntada.sawtalmamah.com>

هذه النصيحة تكتنّز خلفيةً فكريةً خطيرة، فعدم المجاملة أوحى به لويس إلى أصدقاء أمريكا في العالم العربي كله، وأنهم من حيث الضغط سواء مع غيرهم من أعداء أمريكا ولكن بشكل آخر من أنواع الضغط.

وأما تجنب اللين، فهي دعوة للشدة والعنف بغض النظر إلى قاعدة تكافؤ القوى، كما أوصى بضرورة تشديد الحصار (الاقتصادي والسياسي والفكري) على المجتمعات العربية والإسلامية، وعدم إغفال أي سلوك أو قيمة اجتماعية يمكن الاستفادة منها حيث يؤكد على المكونات الثقافية (يجب تضيق الخناق على هذه الشعوب ومحاصرتها باستمرار، واستثمار التناقضات العرقية، والعصبيات القبلية والطائفية فيها قبل أن تغزو أمريكا وأوروبا وتدمر الحضارة فيهما) ¹.

" من غير المرجح على الإطلاق أن الأمريكيين كانوا سيحرصون على استرضاء حاكم ارتكب مثل هذه الجرائم على أرض غربية ضد ضحايا غربيين، ورغم أن حافظ الأسد لم يصبح حليفاً لأمريكا في أي وقت، أو بتعبير البعض عميلاً لها، إلا أن من المؤكد أن ذلك لا يرجع إلى عدم محاولة الدبلوماسية الأمريكية تحقيق ذلك " ².

يطرح برنارد لويس نفي مقارنة الاسترضاء لنظام الأسد لو أن الضحايا غربيين، لكن هناك مقارنة إستراتيجية مهمة للغرب تستدعي السكوت على جرائم الأسد، وتستحق تكرار الزيارات له وهي مهمة التأكد من التزام النظام السوري بالتوجيهات الاستشراقية ذات العلاقة بالحركات الإسلامية من جهة، وممارسة الابتزاز السياسي عليه في علاقته الحدودية مع الكيان الصهيوني في جغرافية الجولان من جهة ثانية.

"وقد ظهرت عدم ثقة الغرب في الحركات الإسلامية، واستعداده للسماح بل لمساندة الحكام الدكتاتوريين الذين ظلوا يبعدون مثل هذه الحركات عن الحكم في شكل مأسوي بالغ " ³.

قدّم برنارد لويس جزءاً من التبريرات الواقعية التي تُشكّل قناعة عند الغربيين لكنها محزنة في تقديره، تُعبّر عن ازدواجية الغرب في التّعامل مع الانتهاكات التي تمسّ القيم التي ينادي بها، إذ شكّل موقف الغرب من أحداث حماة مفهوماً جديداً للقيم الإنسانية فحواه " أن أولئك الذين لم يثرّ ذبحهم في حماة إلا إلى مثل هذا الاهتمام المحدود في الغرب كانوا من الإخوان المسلمين

¹ - <http://muntada.sawtalummah.com>

² - لويس برنارد، الإسلام وأزمة العصر، مرجع سابق، ص 129.

³ - المرجع السابق، ص 12.

ومن أسرههم وجيرانهم، وقد بدا الأمر وكأن حقوق الإنسان في نظر الغربيين، لا تنطبق على الضحايا المسلمين الأتقياء، كما أن الضوابط التي تفرضها الديمقراطية لا تنطبق على قتلهم ' العلمانيين ' " ¹.

المطلب الخامس: إستراتيجية التّموضّع وتسخير الديني للأيديولوجي

حتى وإن لم يقر الغرب المسيحي بخلفيات موقفه المتباينة من الكيان الصهيوني وإشكالية الصراع العربي الإسرائيلي، فإن أساس هذا التباين غير المُعلن وسببه الحدث الديني التاريخي بين اليهودية والمسيحية، وهو ما أدّى إلى الاضطهاد المسيحي لليهود الذي أقره لويس مقارنة بالاستيعاب الإسلامي للديانات الأخرى في أكثر من موضع.

" يلاحظ أن المذاهب [الدينية] المسيحية تفاوتت في استيعابها لهذا التحول تفاوتاً كبيراً، فالبروتستانت (الأمريكيون والبريطانيون) تمثّلوا هذا التحوّل كأعمق ما يكون، حتى أصبحت اليهودية جزءاً من لحمهم ودمهم، والكاثوليك (فرنسا وإيطاليا وإسبانيا) ظلّوا أكثر تحفظاً إلى حدّ ما ، ولذلك لم يُرَى الفاتيكان اليهود من دم المسيح إلا عام 1966م ، أما الأرثوذكس (الأوروبيون) الشّرقيون فلا يزالون يحتفظون بتلك النظرة المتوجسة تجاه اليهود واليهودية " ².

ورغم الاحتكاكات التاريخية بين المسيحية والإسلام عبر التاريخ، فإن العداوة بينهما لم تتأسس على هكذا سبب يصعب تجاوزه تاريخياً، مما أتاح وصف العلاقة بغير العدوانية من حيث العموم، قال تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ۗ لِّلَّذِينَ ءَالِيَهُودَ ۗ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۗ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ۗ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيٌّ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ فِسِّيْسِينَ وَرُهْبَانًا ۗ وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ، المائدة . انعكس هذا الموقف في نفس المنحى على المواقف السياسية للدول الغربية المسيحية وفق الطبعة الدينية من حيث العلاقة مع المشروع اليهودي الصهيوني "هذا ما يفسر التفاوت في المواقف السياسية، حيث التماهي مع الدولة اليهودية في أمريكا وبريطانيا - وأخيراً في ألمانيا البروتستانتية -، والتحفّظ في أوربا الجنوبية على السياسات الإسرائيلية (خصوصاً من طرف فرنسا أكبر الأمم الكاثوليكية الغربية)، والرّيبة في أوربا الشرقية، وخصوصاً روسيا" ³.

¹ - لويس، برنارد لويس، الإسلام وأزمة العصر، مرجع سابق، 129.

² - كامل، مجدي كامل، المسيحية الصهيونية، التطرف الإسلامي والسيناريو الكارثي، دمشق، دار الكتاب العربي، ط1، 2007، ص

³ - كامل، مجدي كامل، المسيحية الصهيونية، التطرف الإسلامي والسيناريو الكارثي، المرجع السابق، ص57.

لذلك كان العمل جادا على حمل الدول الغربية الكاثوليكية والأرثوذكسية على تعديل موقفها من اليهودية الصهيونية ومتطلبات مشروعها، خاصة أن هذه المذاهب لازال الغرب ينظر إليها على أنها مذاهب شرقية بامتياز وتعتبر أصل المسيحية حيث حافظت أكثر من غيرها على روح وملامح المسيحية ولو بمقاييس الغرب.

من الناحية التاريخية أدى الاحتضان البروتستانتي لقضية اليهود إلى استغلالها واستثمارها في فرض مشاريع أخرى ثقافية اقتصادية سياسية في الواقع العربي الإسلامي باعتباره العدو الأول لليهود غربيا.

"فكرة إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، آمن بها المسيحيون البروتستانت قبل إيمان اليهود بها، وسعوا إلى تنفيذها قبل أن يسعى اليهود إلى ذلك، بل قبل أن يؤمن اليهود بإمكانية تحقيقها، ويمكن الجزم بأنه لولا الدعم الاعتقادي لهذه الفكرة من طرف البروتستانت الأمريكيين والبريطانيين لما اهتم بها اليهود اهتماما عمليا¹.

فلقد كان للعلاقة البروتستانتية اليهودية القائمة على المعتقدات الدينية الدور الكبير في الإصرار على الشرق الأوسط كوجهة لهذا المشروع، بل على فلسطين تحديدا التي ستشهد عودة المسيح - عليه السلام - ، ولذلك قدم البروتستانت للصهيونية المبرر التاريخي والديني في أحقيتهم بفلسطين وفق الروايات المسيحية.

" حينما طرح تيودور هرتزل - مؤسس الحركة الصهيونية - فكرة (الدولة اليهودية)، لم تكن دوافعه دينية بالأساس، فهو قومي علماني في الصميم، ولذلك كان مستعدا لقبول استيطان اليهود في أوغندا أو العراق أو كندا أو الأرجنتين، أما المسيحيون الصهاينة في أمريكا وغيرها فقد آمنوا من أول يوم بفلسطين وطنا لليهود، واعتبروا ذلك شرطا في عودة المسيح، وأخرجوا (المسألة اليهودية) من الإطار السياسي إلى الإطار الاعتقادي " ².

من الناحية النظرية، كعادته يقرر برنارد لويس الأحكام من الناحية التاريخية بكل علمية وأمانة، فهو عند تأصيله لمصدر ظهور العداوة لليهود ولبعض ما تعلق بتاريخهم كالصهيونية ومبدأ السامية، تتبع برنارد لويس التسلسل التاريخي لتلك العداوة مشيرا إلى منبثها الأول من حيث الزمان والمكان .

¹ - المرجع السابق ، ص58.

² - المرجع السابق ، ص58.

" أما عن تهمة ' المعاداة للسامية ' فالفكرة تشير إلى العداء لليهود في أوربا منذ العصور الوسطى ¹ ، هذه المرحلة التي كانت الكلمة الأولى فيها للمذهبيين الكاثوليك والأورثوذكسي باعتبارهما آنذاك الممثلين الشرعيين للمسيحية تاريخياً، لأن البروتستانتية - المذهب المتغلب سياسياً الآن - هو حديث النشأة على يد مارتن لوثر في القرون المتأخرة.

وكان من المساهمات الأوربية في النقاش الدائر ما يسمى بالعداء للسامية وإلقاء كل التبعات على ' اليهود '، وكان اليهود في المجتمعات الإسلامية التقليدية يتعرضون للقيود العادية والمخاطر العارضة التي تتعرض لها كل أقلية، ولكنهم كانوا أفضل حالا - في أهم جوانب الحياة - تحت الحكم الإسلامي من حالهم تحت الحكم المسيحي، حتى ظهور وانتشار التسامح الغربي في القرنين السابع والثامن عشر ² .

يقدم برنارد لويس مقدمات مهمة جدا عن علاقة اليهود ببقية المجتمعات الأخرى، ويُقر أن العداء الأكبر يبرز مع الطرف الغربي المسيحي باعتباره المُتسبب في العداوة للسامية، أما الطرف الإسلامي فإن العلاقة تكاد تكون طبيعية نسبياً، وحتى ما قد يوصف بشبه عداوة فإن مصدره كذلك ليس إسلامياً.

" وقد استمر هذا العداء ضد اليهود لمواقفهم في الغرب وعادت هذه الحركة للظهور بقوة في أواخر القرن التاسع عشر وأستخدمها اليهود كتهمة يواجه بها كل من يعادي الأهداف القومية اليهودية ويقف في طريق تحقيقها " ³ .

لقد استثمر برنارد لويس في عداء الغرب للسامية بتحميل العرب والمسلمين أسباب ذلك العداء وفاتورته التاريخية لكونهم الطرف الوحيد الذي يعيش حالة صراع مع اليهود في فلسطين، فهو يتصد أي سلوك عربي أو إسلامي ليطوعه كموقف عدائي ضد السامية رغم إقراره بمصدرية العداء زماناً ومكاناً.

يقدم ادوارد سعيد شاهد على قناعة برنارد لويس بالسلوك العدائي للمسلمين تجاه الماسونية، من خلال تناوله للمظاهرات التي قامت في القاهرة في: 1945/11/2م، وكان استنتاج سعيد أن قراءة لويس لسياقات وأبعاد المظاهرة لغرض التعصب وليس للاستفادة التاريخية العلمية، " بل ليظهر هنا وفي أماكن أخرى أن الإسلام أيديولوجية معادية للسامية وليس ديناً " ⁴ .

¹ - Lewis Bernard , The New Anti-Semitism , in New York Review of Books , Apr 10.1986, pp :31.

² - برنارد لويس، أين الخطأ، مرجع سابق، ص 241.

³ - مازن صلاح مطبقاني، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، مرجع سابق، ص 351.

⁴ - سعيد، ادوارد سعيد، الاستشراق، المرجع السابق، ص 307.

ولذلك فقد أُتِّم بها العديد من الأفراد الذين رفضوا فكرة إنشاء الدولة اليهودية في فلسطين، وينطوي توجيه هذه التهمة إلى العرب عند لويس على عدة مغالطات أولها أن العرب ساميون بل هم أصل الساميين، والثاني أن يهود أوربا ليست لهم علاقة بالسامية فهم من أصول غير سامية واختلطت دماؤهم ولم يعودوا يمثلون السامية في خصائصها الأساسية¹.

يجد برنارد لويس نفسه مُحَرَجًا من الناحية التاريخية والعلمية في الدِّفاع عن كل مكونات المجتمع اليهودي كي يُثبت له وبأي طريقة نسبته إلى السُّلالة السَّامية التي لا تنطبق على كل اليهود المهاجرين من أوربا وأمريكا الذين لا ينتمون للمجتمع اليهودي بعلاقة النَّسب ' الدَّم ' التي لا يعترف اليهود الساميون إلا بها، بل عن طريق مشروع إقامة دولة قومية على أساس ديني، ولذلك من غير المقنع الوصول إلى خطاب متكامل عن موقف الغرب والعرب من المجتمع اليهودي ، ولا قبول أن سبب رفض إنشاء وطن قومي لهم كونهم ساميون.

لذلك يعمل لويس على الرِّبط بين الحالتين في الموقف الغربي، بين العداوة للسامية التي لا تنفع لتجريم العرب كونها غير فاعلة أو مقنعة باعتبار أن العرب هم أصل السَّامية، وبين قبول قيام دولة صهيونية على أراضي عربية وإسلامية المرفوضة بإجماع عربي وإسلامي، فهو يستخدم العداة الغربي للسامية كسبب قوي في رفض العرب والمسلمين قيام دولة إسرائيل على أراضي عربية، مع أن الحالتين منفصلتين تاريخياً، لكل حالة سياقها وأسبابها ومعطياتها.

" كانت أولى الأقوال التي تُنم تحديداً عن العداة للسامية في الشرق الأوسط تصدر عن الأقليات المسيحية، ويمكننا إرجاعها إلى مصادر أوربية، وكان تأثيرها محدوداً، فعندما جرت محاكمة ' دريفوس ' في فرنسا مثلاً - وهي التي أتهم فيها ذلك الضابط الفرنسي اتهامات ظالمة وأدانته محكمة عدائية- كانت تعليقات المسلمين عادة ما تناصر اليهودي المضطهد ضد الذين اضطهده من المسيحيين " ².

" ولكن السُّم واصل انتشاره، وبدأت ألمانيا النازية- اعتباراً من 1933- مع شتى العاملين لحسابها في بذل جهود متكاثفة ' نجحت بصفة عامة نجاحاً رائعاً ' في ترويح الصُّورة الأوربية ونشرها في العالم العربي " ³.

قد تكون هذه هي الحالة الوحيدة التي يرفض فيها برنارد لويس استجابة الشرق أوسطيين للأفكار الغربية، ويفتح قوس إمكانية فعل ذلك مع بقية الأفكار، وهو موقف غير مفهوم إلا في

¹- مطبقاني، مازن صلاح مطبقاني، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي ، المرجع السابق، ص351

²-لويس، برنارد لويس، أين الخطأ، المرجع السابق، ص 241.

³- لويس، برنارد لويس، أين الخطأ، المرجع السابق ، ص 242/241.

سياق واحد فقط، كون أن هذه الاستجابة ستعزز من موقف العرب والمسلمين، كون العداء ناتج عن تصرفات ومواقف اليهود في أوربا وليس على أساس عرقي كما يروج له، والدليل التواجد العربي في الغرب الذي لا يحتاج إلى بيان وتأكيد.

أما ربط معاداة السامية بالعرب والمسلمين فقد كتب بعض اليهود يعارضون آراء لويس في هذه الفرضية وكذلك في فرضياته الأخرى عن العلاقة بين المسلمين واليهود، ومن هؤلاء (نسيم رجوان)، الذي " انتقد الأمانة العلمية للويس في تحريف النصوص التي ينقلها عن غيره " ¹.

لقد قام المؤرخون الغربيون بإعادة قراءة وثيقة هرتزل الداعية إلى إقامة دولة يهودية قومية بذوق صهيوني، على خيارات جغرافية متعددة كما سبق بيانه، وذلك بتحديد الإحداثيات الجغرافية لهذا المشروع بما يخدم الغربة البروتستانتية عن المسيح -عليه السلام -.

أما الشطر الثاني فقد التزم دعاة الوطن القومي من بروتستانت ويهود بالذوق الصهيوني - نسبة إلى جبل صهيون - الذي يعتبر المشروع الديني اليهودي، بإضافة بعض المعتقدات الأخرى الذي يُقابل المشروع المسيحي في فلسطين، حيث تمثل الصهيونية المبرر الإيديولوجي الذي يدعم المشروع العام لليهودية .

إلتزم برنارد لويس وأفتتح بضرورة الدفاع عن الفكرة بكل أبعادها، فقد غرر بقرائه لإثبات أن السامية هي سبب رفض المجتمعات العربية وبعض دول العالم لإقامة وطن على أنقاض الوطن الفلسطيني، كما يبرر الممارسات الصهيونية ويرفض نعتها بـ 'العنصرية' في المحافل الدولية.

" والنقد العام الذي يُمكن توجيهه إلى لويس فيما يتعلق بالصهيونية، هو أنه أولاً لم يكتب عنها بمنهج المؤرخ الذي يلتزم قواعد المنهج العلمي من مراعاة الحقائق، وفحصها، وتحليلها، وجمع الشواهد التي تؤيد أو تعارض القضية موضع البحث ليخرج باستنتاجات موضوعية " ².

" إن لويس مدافع متحمس لتلك الدولة (إسرائيل) إلى درجة أنه قدم شهادته للدفاع عنها أمام لجان الكونغرس الأمريكي، ألا يجب أن يؤثر هذا الموقف السياسي في رأينا في موضوعيته العلمية عندما يكتب عن دولة معادية جدا لإسرائيل " ³.

إن الغيرة على الصهيونية التي استحققت تلك التوصيفات من المجتمع الدولي في لحظة يقضة الضمير، هي دلالة واضحة على الدفء الحاصل بينها وبين هذا المستشرق - المختلف جدا - عن ما يزعمه من حيادية علمية ومنهجية رصينة في كتابة التاريخ المعاصر .

¹ - Nassim Redjwan, ' Anti-thesis, ' in Jerusalem Post. June27, 1986, p : 13.

² - طيباوي، عبد اللطيف طيباوي، المستشرقون الناطقون بالإنجليزية، المستشرقون الناطقون بالإنجليزية، المرجع السابق، ص 351.

³ - G.H. Jansen. ' Militan Islam ' (London : 1979) p :85.

المطلب السادس: برنارد لويس وتحالف العهدين

من الناحية النظرية، شكّل الغرب عموماً وأمريكا بالخصوص شبه قناعة لدى الشرق أوسطيين تتعلق بدور الدين وقيمه وأهدافه في الواقع الاجتماعي والسياسي الغربي مفادها إقصاء تام لتلك القيم والأهداف، وربط بين هذه القناعة وما وصل إليه من تقدم في جميع المجالات، ليضع المجتمعات العربية الطامحة للتطور والأنظمة الراغبة في البقاء في السلطة أمام ضرورة تحديد العلاقة وخاصة من الناحية السياسية مع دور الدين.

" لكن فكرة دمج الحرية والإيمان بشكل لا يستثنى معه أحدهما الآخر حققت بعض النتائج بين المسيحيين، وقد توفّر حلاً قابلاً للتطبيق لمشاكل الإسلام السياسي"¹.

" إن فصل الدين عن الدولة في أمريكا لا يعني بالضرورة فصل الدين عن المجتمع، وبالتالي عن السياسة، فقد وصف هنتنغتون الخصوصية الإيمانية الأمريكية بقوله: إن أمريكا أمة تحيا بروح الكنيسة، إلا أن الكنيسة عند هنتنغتون لا تعني المسيحية، وإنما قصدت " الدين المدني - Civil Religion" في أمريكا، وهو منظومة من القيم والأفكار والمعتقدات التي يؤمن بها العقل الجمعي الأمريكي، وهذه المنظومة ذات طابع فكري وسياسي، ولكن جذورها دينية"².

فقد كان الطرح الغربي لفكرة ' فصل الدين عن الدولة ' طرحاً حاداً وحرفياً لمنطوق هذه العبارة في الواقع العربي والإسلامي، بخلاف الواقع العملي لمضمونه في الواقع الغربي الاجتماعي والسياسي، الذي لا يرغب في الربط بين ما وصل إليه من تطور وما ينتمي إليه من معتقدات، كي يُبقي على فرضية الفصل قائمة في مفهوم الأوسطيين.

ويظهر اهتمام النظام السياسي الأمريكي بالجانب المعرفي الديني من خلال الواقع الثقافي الذي يعرف " أكثر من 1300 دار للنشر متخصصة في الكتب المسيحية، إضافة إلى 7000 مكتبة لتوزيع الكتب المسيحية، حيث تقدر مبيعاتها بحوالي ب 3 مليارات دولار سنوياً"³، حيث يفرض هذا الواقع إرهابات على الجوانب القانونية والفكرية والسياسية وحتى الحقوقية على آليات ومراكز صنع القرار الأمريكي أن يستجيب لمتطلبات تلك التحديات.

¹ - تنبؤات برنارد لويس، مستقبل الشرق الأوسط، المرجع السابق ص 37.

² - الشورجي، منار الشورجي، الثابت والمتغير في سياسة الولايات المتحدة الخارجية، السياسة الدولية، مج 40، العدد 161، تموز (جويلية) 2005، ص 213.

³ - هلال، رضا هلال، الدين والسياسة في أمريكا: علمانية أم متديتة، في الامبراطورية الأمريكية، ج1، القاهرة، مكتبة الشروق، ط2001، ص

وبدافع الانجازات السياسية والسبق الانتخابي بين الجمهوريين والديمقراطيين، وبحكم التركيبة الأيديولوجية المتنوعة للحزبين - مع طغيان الطرح الاقصائي عند الجمهوريين -، فقد مثلت تلك الإرهاصات التي تلح على تمثيلها ثقافيا وسياسيا فرصة للطرفين في السباقات الانتخابية وخاصة للجانب الجمهوري الذي يغلب على مسؤوليه الذوق الأيديولوجي المرتهن صهيونيا.

" مع المحافظين الجدد تحوّلت التبريرات الدينية إلى عنصر قيمي فاعل في صوغ استراتيجيات السيطرة الأمريكية، فالأغلبية النخبوية من هؤلاء المحافظين منبهرة بالمدرسة الفكرية اليوشتراوسية (نسبة إلى ليو شتراوس 1899-1973)، وهو لاجئ يهودي من ألمانيا، درس الفلسفة في جامعة شيكاغو، حيث كان يُعبر أهمية خاصة للافتراضات الماورائية المجردة، وشديد الإيمان بالمطلق، معتمدا منها تبريرا يُقر (الكذب النبيل) ¹.

ولإيجاد التوافق المدروس ومبررات الاستقطاب السياسي، تبنّى السياسي الأمريكي أفكارا دينية مغرية تاريخيا ودينية أسطوريا تتناسب مع العقلية الأوربية القروسطية، معروضة في الواقع الأمريكي وذلك من خلال إجراءات إعلامية وثقافية وحتى اقتصادية ترهن صوت الناخب الأمريكي .

" سعى نخبويو المحافظين الجدد إلى تسويق أفكار اعتقاديته طالت أكثر من 50 مليون أمريكي مفادها: أن السلام غير ممكن، بل غير مرغوب فيه لأن الحروب المدمرة هي التي ستؤذن بنهاية العالم وصعود المؤمنين لملاقاة المسيح في منتصف الطريق إلى الجنة" ².

وبربط المحافظين الجدد أهدافهم السياسية بتفسيرات عقائدية مسيحية، دخل الطرح الصهيوني على الخط بما تمتلكه اليهودية من علاقة وطيدة، بل من أسبقية تاريخية وأبوة العهد القديم ' التوراة ' الذي يُمثل المصدر العتيق للمسيحية، ولا يكتمل إيمان المسيحي إلا بإسناد العهد الجديد ' الإنجيل ' إلا به.

" نَمَّ تقاطع اعتقادي بين اليهودية المتأخرة والبروتستانتية المسيحية المغالية في التطرف، من حيث أنّ اليهود هم ' شعب الله المختار'، وأنّ البشرية تُسلم بقياد اليهود نحو الفضيلة، وأنّ أورشليم هي مدينة السماء المقدسة، بل هي مدينة الإله ' يهوذا ' الذي يربعاها في التاريخ ³.

¹ - الخازن، جهاد الخازن، المحافظون الجدد والمسيحيون الصهيونيون، دار الساقي، بيروت، ط 1، 2005، ص 11.

² - المرجع السابق، ص 21.

³ - مراد، محمد مراد، المدارس التاريخية الكبرى، دراسات نظرية في مناهج البحث وفلسفة التاريخ، مكتبة الفقيه، بيروت، ط 1، 1996، ص 50-55.

" إنها مقولات مؤدلجة تُقدّم المبرر الديني - الإلهي لتحقيق أهداف اقتصادية وسياسية على حساب قهر الشعوب ونهب ثرواتها واستلاب إرادتها.¹

وبما أن ملاقاته المسيح - عليه السلام - هو أقدس لقاء يتمناه أي مسيحي مؤمن لا يمكن نحققه إلا بالصعود إليه - من باب ربط السبب بالنتيجة - ، فإن المسيحيين مطالبين بالتنسيق على مستوى السياسات الكبرى مع اليهود في البلدين ' أمريكا وإسرائيل ' بتوفير الشروط الضرورية اللوجيستية في المحافل الدولية، وربط العلاقات الثنائية مع بقية الدول بما يفيد حدوث هذا اللقاء في ظروف طبيعية ولكن إستعجالية.

" الخلفية الاعتقادية لبوش والمحافظين الجدد تنطلق من التسليم بأن العالم كله فئة ضالة، ولا يبقى سوى المؤمنون الحقيقيون، غير أنّ إيمانهم لن يكتمل من دون صعود، وهذا لن يتحقق من دون خراب العالم "².

إذا، فخراب العالم عنصر جوهري يقف حائلاً أمام تحقق المُعتقد المسيحي الذي يحتاج بالأدلة والنصوص الدينية إلى الشراكة المسيحية اليهودية، هذه الأخيرة الساعية إلى تحقيق مشروع وجودي للأمة اليهودية في جغرافية عودة المسيح - عليه السلام - للقاء المؤمنين المسيحيين والسير بهم من منتصف الطريق إلى نهاية قصة الإنسان، وعلى قدر قداسة الحدث وتاريخيته يكون من الضروري تنوع وتعدد المنظرين في أعلى مستويات النظام السياسي والعسكري الإعلامي الأمريكي.

" ذلك أن جماعة المحافظين الجدد الذين أوصلوا بوش الابن إلى البيت الأبيض، ينتمون بأكثريةهم إلى أصولية بروتستانتية متطرفة تقاطعت عقدياً و مصلحياً مع توراتية صهيونية مدفوعة بنزعة الاحتلال والسيطرة "³.

اشتغل برنارد لويس على هذا التقاطع البروتستانتي اليهودي، حيث اجتمعت في هذا التحالف ميزتان مهمتان للمشروع التاريخي لبرنارد لويس المُكَمَّل والمُعَدَّل لاتفاق سايكسبيكو، وهما: القرار السياسي الجريء، ومشروع تهيئة الجغرافيا الشرق أوسطية بما يتطلبه الوضع الجديد من موقف صارم وحل إجباري لقضيته المرحلة منذ عقود ألا وهي الصراع العربي الإسرائيلي.

¹ - مراد، محمد مراد، السياسة الأمريكية تجاه الوطن العرب بين الثابت الاستراتيجي والمتغير الضرفي، بيروت، دار المنهل اللبناني للطبع والنشر والتوزيع، ط1، 2009، ص47.

² - الخازن، جهاد الخازن، المحافظون الجدد والمسيحيون الصهيونيون، المرجع السابق، ص25.

³ - مراد، محمد مراد، السياسة الأمريكية تجاه الوطن العربي، المرجع السابق، ص38.

المطلب السابع: إستراتيجية اعتماد المقالات

لكلِّ عصر وسائله وآلياته في تسجيل أحداثه وتطوراتها ومناقشتها وتحليلها، ولقد كان جهد المؤرخين في الماضي يعتمد على وسائل وآليات مستمدة من واقعهم وفق تباعد أو تقارب الأحداث، وحدوث العلم بها وبتفاصيلها وأبعادها، مما يسمح للمؤرخين ويُمكنهم من روايتها والتحقُّق من مراحلها، ومقارنة بعضها ببعض لكشف التناقض المحتمل في رواية الحدث، وترتيبه بين السابق واللاحق لمعرفة العلائق والمسببات.

" إنَّ السرعة الفائقة التي صاحبت تطور الدراسات السياسية المعاصرة في أمريكا بخاصة ومن ثم رواج عملية التقارير العامة والسطحية والطلب المتزايد على المقالة التقريرية وبالتالي غزو الصحافة والإذاعة والتلفاز لمعاقل البحث العلمي، كل ذلك ساهم وبطرق مختلفة بنصيبه في الحطُّ من مستويات الدقة العلمية، وساعد على ازدياد التخبط والاضطراب، إضافة إلى ذلك، فإن مختصرات الأخبار المتداولة والمقالات اليومية العابرة بدأت تدريجياً ولكن بصورة متزايدة تحلُّ محلَّ الاعتماد على الوثائق الأصلية أو حتى التفكير الأصيل " ¹.

يعتبر المؤرخ برنارد لويس الشخصية العلمية الغربية الأكثر استقطاباً لوسائل الإعلام المختلفة في أمريكا وأوروبا، للرَّصيد المعرفي التاريخي والسياسي الذي له علاقة بالدرجة الأولى بأشهر الأحداث المعاصرة، وخاصة ما يتعلق منها بالشرق الأوسط والحركات الإسلامية ومحور الممانعة وبقاء الأفضلية للقرار الأمريكي دولياً، ولدوره في توجيه السياسات العامة في أمريكا من منصبه كمستشار فاعل وتحت الظلِّ، تلقى توجيهاته طريقتها إلى التنفيذ، وتقدَّم حتى على آراء المستشارين الرِّسميين الذين يشغُلون مناصب علنية في الدولة.

من أهم وأشهر المقالات التي كتبها برنارد لويس التي عبَّر من خلالها وأجاب بطريقته الخاصة عن جملة من الاستفهامات حول قناعاته ودوره ضرورته في أمريكا، حيث تضمن صدور هذا المقال جرأة برنارد لويس والضمانات التي يمتلكها في مقابل المنظمات العالمية، كما اختار الضوء على الظل في نصرة قناعاته وتوجهاته بعد أن كان يفضل خدمتها عن بعد حفاظاً على مكانته كمؤرخ عريق.

" ففي مقال دغدغ فيه الغرور الوطني الأمريكي بعنوان (القرار المعادي للصهيونية)، هاجم فيه هذه المرَّة قراراً تبنته الجمعية العامَّة للأمم المتَّحدة في أكتوبر سنة 1976، وهاجم أيضاً

¹ - طيباوي، عبد اللطيف طيباوي، المستشرقون الناطقون بالانجليزية، المرجع السابق، ص68.

أولئك الذين تبثوا المشروع الذي أعلن أنّ الصُّهيونية التي تمارس في إسرائيل هي ضرب من ضروبِ العنصرية وضُرْب من التَّمييز العنصري " ¹.

لقد كان برنارد لويس أكثر صهيونية من الحكومة الإسرائيلية باعتبار أنه عالم ومؤرخ يفترض فيه الحيادية والايجابية في ما تعلق بحقوق الإنسان وحرياته التي لا يجوز المساس بها تحت أي عذر وممّن كان هذا التجاوز.

لقد كان مقالهُ ضربةً في الصَّميم للحضارة الغربية ولمكانته العلمية، حيث أساء إلى أحد رموز التاريخ السياسي للحضارة الغربية التي جمعت العالم تحت قبة واحدة للتقليل من الصراعات وترسيخ الأمن والسلم العالميين ومعاينة الأنظمة الاستبدادية أو المسيئة لحقوق الإنسان، أو المنظمات التي تسيء إلى مقدسات المجتمعات.

لم يصمد برنارد لويس لقرار صادر عن أعلى هيئة عالمية يُفترض أنها غربية بالدرجة الأولى في فكرة إنشائها، وواقعية التحكّم الغربي في مفاصل تنظيماتها، بل وتُعتبر رمز حضارة و حداثة الغرب، ولم يكن وفيها للأهداف التي أُسّست من أجلها هذه الهيئة، في الوقت الذي يُسلّطها سيفا على رقاب الدول الشرق أوسطية عندما تريد تفعيل خياراتها السياسية والاقتصادية الإستراتيجية .

" إن الموضوعات التي تخصّ الإسلام أو العرب كما كتبها أو درسها المستشرقون الأوائل وقدّمهم فيها الجيل الجديد من مدرّسي العلوم السياسية قد تخلفوا فيها تخلفا بعيدا عن الحاجة التي اقتضاها العالم المتغيّر " ².

فقد برنارد لويس صوابه عندما أصدرت أعلى هيئة غربية قرارا يُدين الممارسات الإسرائيلية في فلسطين ويُكيّفها كجريمة تستحق العقاب، لأنّ تلك الممارسات تحدّث كتعبير على التَّمييز العنصري المرفوض في كل القوانين الدولية والشرائع السماوية، ومن أجله كانت هذه الهيئة الدولية.

بل ذهب به الغضب إلى فُقدان توازنه وتوجيه التُّهمة إلى الاتّحاد السوفيتي الذي كانت وسائلُ إعلامه سبّاقة إلى نشر وإعلان هذا الانتصار العالمي لحقوق الإنسان، وأغرب ما في المقال ربطه بين سرعة الإعلان عن القرار وسرعة صدوره عن هذه الهيئة، ليستنتج في الأخير

¹ - طيباوي، عبد اللطيف طيباوي، المستشرقون الناطقون بالانجليزية، المرجع السابق، ص 142 .

² - المرجع السابق، ص 147.

إمكانية الضغط العربي والاتحاد السوفيتي على الدول من أجل المصادقة على استصدار هذا القرار .

مقال ضد روسيا يقول فيه: " إن السرعة التي أعلن فيها القرار من خلال أجهزة الإعلام الروسية لا يتلاءم مع بطئها المعتاد وهذا ينبئ عن الكثير " ¹.

إلا أن ذكاه وحنكته أذهبتهما الصهيونية، فلم يتفطن إلى الكيفية التي نشر بها مقاله في هذه المجلة الفصلية و ما تتطلبه الموافقة على نشر مقال.

" وهذا بالتأكيد - سرعة إصدار القرار - ينسحب أيضا على السرعة التي ظهر فيها مقال هذا المستشرق في إحدى المجلات الفصلية الأمريكية المعروفة وفي الشهر الذي أعلن فيه القرار إذا اعتبرنا الحقيقة في أن المجلات الفصلية في مثل مستوى هذه المجلة (مجلة الشؤون الأجنبية) تستغرق شهورا إن لم يكن سنينا لدراسة المقال وتقديره من الناحية العلمية ومن ثم نشره لذلك فمن حقنا الشرعي أن نشك في سرعة نشر هذا المقال نتيجة تأثير المخابرات الأمريكية أو بعض الوكلاء السياسيين ².

وهو موقف لا يُحسد عليه برنارد لويس، فقد كان مسيئا لأمانته العلمية ونزاهة أبحاثه التاريخية، بما كشفه به تعصبه وانحيازه لإسرائيل حتى ولو على حساب سيرته العلمية.

كما أظهر برنارد لويس موقفا متسرعا في تتبع الأحداث في مصر السبعينات، حيث تكهن عدم صبر أمريكا على الرئيس ' أنور السادات ' محرزا على سرعة إسقاطه، كما أعطى المبرر لإسرائيل أن تتحرك تحت عذر سبق وأن تبين عدم صحته ألا وهو أن العرب معادون للسامية ومتحالفون مع دولة أوربية كانت السبب في انتشار هذا العداء.

" ليس من المحتمل أن تضييع أمريكا وقتا كثيرا معه - أنور السادات - بسبب اضطراب حكمه وتزعزعه. ومن غير المحتمل - في الوقت نفسه- أن تثق إسرائيل أيضا بمن أعلن بنفسه عن تعاونه مع النازية وأن تصريحاته العلنية إنما هي صدى لنغمات الأساليب الأوربية العنصرية ضد السامية " ³.

لكن الواقع أثبت أن مقال لويس لا يحمل من الحقيقة إلا مقدار الحبر الذي كُتب به، فقد توّدت العلاقات الأمريكية المصرية وانتهت العلاقات الإسرائيلية المصرية بمعاهدة ' كمب ديفيد

¹- طيباوي، عبد اللطيف طيباوي، المستشرقون الناطقون بالانجليزية، المرجع السابق ، ص 142.

²- المرجع السابق، ص 142.

³- جريدة التأييمز اللندنية، 8/ أكتوبر / 1971.

' - رغم ما ألحقته بالجسد العربي - ولم يظهر في وقت المقالة شيء مما احتمله برنارد لويس، فكان مقاله للاستهلاك والترويج الإعلامي الذي قد يكشف أشياء أخرى أو يدفع بأي طرف إلى سلوك متهور أو موقف تنازل .

ومنه يكون برنارد لويس قد غير نموذج المتلقين عليه وحقل نشاطه، فمن منابر الملتقيات العلمية والبحثية مع الطلاب والباحثين والمهتمين، إلى صحف المجالات العامة والموائد المستديرة التي يقرؤها ويتابعها عامة أفراد المجتمع الأمريكي، ولعل ذلك يأتي انسجاماً مع ما اعتمده في منهجه في قبول روايات المؤرخين العاديين الذين هم أقرب إلى العامي منه إلى المؤرخ المتخصص الذي لا يكتب بأسلوب بسيط .

" إن أعظم ضرر متواصل لم يزل يرتكب لا يكمن في تكرار - بصورة مجملة - مفاهيم التعصب اللاهوتي الذي ساد العصور الوسطى النصرانية ضد الإسلام بقدر ما هو في تعمّد استمرارية تزييف وتحريف التاريخ الإسلامي " ¹.

المطلب الثامن: التفتيت ونهاية الإستراتيجية، تركيا الاستثناء

يقراً برنارد لويس الحالة التركية بأعين غربية تأمل عودتها من التيه والضياح التاريخي والإيديولوجي - على تقدير برنارد لويس - الذي فرضته الخلافة الإسلامية جغرافياً وسياسياً وثقافياً، بهدف إحياء القومية التركية وإتمام مشروع مصطفى كمال.

" إن الجهود الواعية في تركيا الحديثة للعودة إلى السمة التركية أمر مهم من الناحية السياسية، لأنه يؤثر على أسس التنظيم السياسي والاتجاهات العامة لسياسة الدولة، بيد أن تأثيره محدود في المجالات الأخرى " ².

بمعنى أن برنارد لويس قد حدد الاستثمار الغربي من الحالة التركية المعاصرة التي لا تلقى القبول والرضا إلا في الجانب السياسي المعتمد في السلوك التركي، وهو علمانية الدولة من حيث قوانينها وسلوكها السياسي، وسياستها الخارجية وخصوصاً مع إسرائيل، أما الجوانب الأخرى الثقافية والاجتماعية فإنها ستبقى تطرح مشكلاً مهماً يؤجل النظر فيه.

" فقد تمّ طمس الحضارات التركية القديمة تحت تأثير الإسلام تماماً بحيث لا يمكن القيام بأي بحث حقيقي للثقافة التركية القديمة، ولا تزال هناك بطبيعة الحال محاولات لإحيائها " ³.

¹ - طيباوي، عبد اللطيف طيباوي، المستشرقون الناطقون بالانجليزية، المرجع السابق، ص 10.

² - لويس، برنارد لويس، ظهور تركيا الحديثة، المرجع السابق، ص 29.

³ - لويس، برنارد لويس، ظهور تركيا الحديثة، المرجع السابق ص 29.

يتحامل برنارد لويس على الإسلام - التركي على حد قوله - ويجعله قاضيا على القوميات والثقافات التي اعتنقته كدين، مع أنه أثبت له قدرته على استيعاب ما يفوق الثقافات والقوميات ألا وهي الديانات المسيحية واليهودية التي يفترض التنافر معها، والهدف من ذلك قطع الطريق على تكرار مشروع إمبراطورية إسلامية على الأراضي التركية بأي شكل من الأشكال.

" ثمة خاصية أخرى من خصائص الإسلام التركي من نوع مختلف إلى حد ما وإن كانت لها أهمية متشابهة، تتمثل في العزل الاجتماعي للجماعات غير المسلمة، فقد كانت الإمبراطورية العثمانية متسامحة إزاء الديانات الأخرى، بالتوافق مع الشريعة الإسلامية والتقاليد الإسلامية، وقد عاش رعاياها المسيحيون واليهود بشكل عام في سلام وأمان " ¹.

هذا الأمر ذكره بشيء مهم وهو اختلاف العلاقة مع المسيحيين واليهود على ما كانت عليه تحت حكم القومية العربية ويتأسف بقوله " ولكنهم كانوا منفصلين بشكل صارم عن المسلمين في جماعاتهم المنفصلة، ولم يكن باستطاعتهم قط الاختلاط بالمجتمع المسلم في حرية، كما كان الحال ذات مرة في بغداد وفي القاهرة، ولا القيام بأي إسهامات تستحق الذكر في الحياة الثقافية للعثمانيين " ².

يحول برنارد لويس أن يجد تفسيراً لهذه الإشكالية التي أخرجته أمام التاريخ العربي وما صدر فيه من تعسف غربي، بل ويزداد قلقه عندما يسترجع علاقة الإسلام بالشرق الوثني.

" وللوهلة الأولى قد يبدو غريباً أن الحضارة الإسلامية في مراحلها الأولى كانت تتقبل تأثيرات الإغريق وإيران، وحتى من الهند والصين، ومع ذلك رفضت الغرب بشكل حاسم، بيد أنه ليس من الصعب الوصول إلى تفسير لهذا الموقف " ³.

يخرج برنارد لويس عن صمته ونفاقه الثقافي السياسي ليعلن أن هذا الوضع الذي فرضه السلوك التركي الذي لم يقدم التنازلات المرجوة للغرب، لن يبقى في نفس المستوى من التوافق الشكلي مع الغرب، بل سيشهد تحولات مهمة عبّر عنها قائلاً: " وفي السنوات الحديثة، فإن الانجازات والآمال المتعلقة بحركة الإصلاح الشامل قد دخلت مرة أخرى مجال المنازعة، بل وحسب ما يبدو في مجال الخطر، وعلى المدى الطويل سوف يكون الإيقاع الأعمق في الحياة

¹ - المرجع السابق، ص 33.

² - المرجع السابق ص 34.

³ - المرجع السابق ص 64.

التركية، بدلا من الحركة السطحية السريعة في زماننا، هو الذي يحسم مستقبل العلاقات بين تركيا والإسلام، ومع الغرب ومع نفسها " ¹.

المؤشر الذي يعتمد برنارد لويس في قياس ذبذبات الإيقاع الموعود، يعتمد على مدى تنكّر الأتراك لكل ما هو إسلامي في السلوك والعبادة والعلاقة مع الآخر، مما يستلزم قبول المشروع الغربي بكل حيثياته، حتى ما كان يقلق الغرب في السلوك التركي.

" وقد ارتبط نمو الشعور بالهوية التركية بالابتعاد عن الممارسة والتقاليد الإسلامية والاقتراب نحو أوروبا، وبدأ هذا مع إجراءات عملية بحثة تمثلت في الإصلاحات قصيرة المدى التي تهدف إلى تحقيق غرض محدد، ثم تطورت إلى محاولة عمدية واسعة النطاق تقود الأمة بأسرها عبر الحدود من حضارة إلى حضارة أخرى " ².

لا يملك الغرب أوراق كثيرة في مناورته مع الأتراك، باعتبارهم جزء جغرافي مهم من أوروبا، وشريك مهم في حلف الناتو من حيث العدد والعتاد، إذ تحتل تركيا المراتب الأولى في ترسانة الحلف، ورغم التنوع الثقافي والطائفي المنسجم مع النسيج العام، فإن الغرب لا يملك إلا ورقة الأكراد مع الحدود السورية والعراقية.

العلمانية عند برنارد لويس ليست مجرد فصل الدين عن الدولة وتعطيله عن ضبط القوانين الصادرة عن تلك الدولة، بل هي قطيعة مع كل سلوك إنساني يرفض الظلم وينتصر للعدالة ويحترم حقوق الآخر، ودعوة للتعسف على الحقوق الطبيعية للمجتمعات الشرق أوسطية.

فهو في توصيفه للنظام التركي الحديث بكل مكوناته الإعلامية والسياسية لا ينضبط بالشروط الغربية للدولة الحديثة، حيث يرى أنه " بات من الواضح أن الحزب [الحاكم] الذي يقوده [الرئيس التركي]، ليس إسلاميا فحسب، فهو بالنسبة لكثير من أتباعه أصولي، فصحافة الحزب تكشف عن مواقف معادية للمسيحيين والسامية والغرب، وبشكل أعم معادية للبرالية والحدثة، ويظهر زعماءه والناطقون باسمه تعاطفات مع أكثر العناصر الأصولية تطرفا في إيران وبعض الدول العربية، وقيمون تحالفات مع هذه العناصر " ³.

¹ - المرجع السابق ص 36.

² - المرجع السابق ص 21.

³ - تنبؤات برنارد لويس، مستقبل الشرق الوسط، المرجع السابق، ص 38.

" فكرة الشرق الأوسط الجديد ليست وليدة الساعة؛ فقد بدأ التفكير فيها في أوائل الثمانينات من القرن العشرين، وكذلك بدأ التفكير الإيراني في تملك السلاح النووي في الزمن نفسه"¹.

هناك علاقة شبه عضوية بين المشروع النووي الإيراني، والمشروع الغربي الأمريكي الضاغط لتأسيس دولة إسرائيل في مناخ إقليمي قيد التهيئة، هذا المناخ يتطلب توفره إجراء عمليات جراحية كبيرة ومتنوعة تشرف عليها دوائر تخصصية ماهرة، ومصادر مالية سخية، وقرارات سياسية جريئة.

" في أوائل سنة 1982م نشر (عويد ينون) المدير السابق بوزارة الخارجية الكيان الصهيوني، تصورا لما يجب أن يكون عليه (الشرق الأوسط الجديد) وهي التسمية التي يريد الغرب تسمية المنطقة العربية والاسلامية بها، ثم عاد هذا التصور يظهر في كتاب شمعون بيريز (الشرق الأوسط) الذي نشرته صحيفة الشرق الوسط السعودية في سنة 1993م أي في النصف الأول من تسعينيات القرن العشرين- أي بعد تصور (عويد ينون) بعقد أو يزيد قليلا "².

الملاحح التي يفترضها المشروع تعين في الوقوف على الخلفية والأهداف التي يرمي إليها الداعون الى هذا المشروع، حيث تستشف إرادة الانتقام والثأر للاضطهاد اليهودي في أوربا الشرقية، ولكن من مجتمعات وأنظمة لا علاقة لها بالاضطهاد الأوربي لليهود، وهي مجتمعات الشرق الأوسط، وبالتحديد العربية والإسلامية.

" مشروع (ينون) يغلب عليه التقسيم السياسي الجغرافي للطائفي للمنطقة العربية، بحيث تكون دويلات صغيرة ضعيفة تشبه المعازل التي صنعها النازيون لليهود في أثناء الحرب العالمية الثانية - مثل (جيتو وارسو) الشهير الذي كان يخضع خضوعا تاما للسيطرة النازية في كل شيء؛ إذ كان اليهود فيه لا يزيدون عن كونهم أدوات إنتاج لصناعات صغيرة يتحكم فيها النازيون مقابل أثمان ضئيلة بخسة، وبعض الطعام "³.

كما يستثمر هذا المشروع في الجانب النفعي بدعوى التكامل الاقتصادي للمنطقة التي توفرت فيها كل إمكانيات التطور والنهضة، إلا أن المشكل يبقى في عدم التنسيق بين دولها بسبب مانع التطبيع مع إسرائيل الذي تتمسك به أغلب الدول العربية.

أما مشروع الشرق الأوسط لـ (شمعون بيريز) فهو مكمل لمشروع (عويد ينون)، لأن مشروع (ينون) جغرافي سياسي، ومشروع (بيريز) اقتصادي يطبق على مناطق النفوذ الضعيفة

¹- النقيب، عبد الرحمن عبد الرحمن النقيب، مشروع الشرق الأوسط الكبير، المرجع السابق، ص 104.

²- المرجع السابق، ص 104.

³- النقيب، عبد الرحمن عبد الرحمن النقيب، مشروع الشرق الأوسط الكبير، المرجع السابق، ص 104

المطبعة، ويمكن أن يتلخص فيما زعم (بيريز) في أنه سيحقق ازدهارا اقتصاديا بالمنطقة، لأن المنطقة ستستفيد من العبقرية العقلية اليهودية، بالتضامن مع العالم العربي - بعد تدجينه - الغني بالخامات والأيدي العاملة"¹.

لم يقتصر الطرح على المعنى الضيق للشرق الأوسط، بل شمل كل امتدادات الشرق الأوسط، وخاصة القسم الإفريقي منه.

" في نفس إطار التقسيم الطائفي للشرق الأوسط، رسم الاسرائليون خططا لاعادة تشكيل إفريقيا، وتسعى خطة ' ينون ' إلى تقسيم إفريقيا على ثلاث أسس : الإثنيات اللغوية، ولون البشرة، والدين"².

بالنسبة للجانب المالي لهذا المشروع، فإن إسرائيل تمتلك من مصادر التموين الخارجية من خلال المؤسسات الاقتصادية العالمية ما يضمن لها قطع خطوات مهمة في هذا الاتجاه مع ضمان القرار السياسي، ويبقى التنظير له من الناحية التاريخية والاستشراف لأبعاده.

" عملت إسرائيل في وقت مبكر على تحويل خطط برنارد لويس إلى إجراءات واقعية، وهي تدرك أن الأقدار وضعت بين أيديها هذا الفيلسوف الذي يرسم الخرائط من أجل تحقيق هدف استراتيجي طموح هو قيادة المنطقة العربية بعد أن يتم تقسيمها إلى شطايا ودويلات"³.

" في 23 حزيران/ يونيو 2007م اجتمع كل من الملياردير ' جورج سوروس ' هو الممول الرئيس لشركات الاتصال والمعلومات من خلال الإعلانات لشركات تويتر وجوجل والفييس بوك، وبرنارد لويس ورام إيمانويل الخبير الإعلامي في فنون الدعاية، و جون بونر السياسي الأمريكي، واتفقوا على المرحلة القادمة لتقسيم الشرق الوسط وتحقيق حلم إسرائيل الكبير من النيل إلى الفرات"⁴.

كان مشروع برنارد لويس في العراق فاشلا إلى حد بعيد، ومع أنه يرى أن " العراق دولة مصنعة وليست حقيقية، وأن احتلاله سيكون فرصة لتصحيح هذا الخطأ الذي ارتكبه البريطانيون، أي تفكيكه إلى عدة دويلات بحسب الطبيعة السكانية، وحسب الانتماءات الدينية

¹ - المرجع السابق ، ص 105.

² - الجورجي، عادل الجورجي، برنارد لويس، سيف الشرق الأوسط، المرجع السابق، ص 84.

³ - المرجع السابق ، ص 67.

⁴ - الجورجي، عادل الجورجي، برنارد لويس، سيف الشرق الأوسط، المرجع السابق ، ص 146/145.

والعرقية " ¹ فإن المشروع لم يصل إلى منتهاه لاعتبارات جيو سياسية وأمنية تخضع لها المنطقة في الوقت الحالي.

تنبه دعاة المشروع إلى الأرض الرخوة التي تبشر بنجاح المشروع حيث تتوفر التبريرات المتمثلة في الديموغرافيا المسيحية المتمركزة في الجنوب الذي طالما حاول الانفصال لكنه لم يقدم تبريرات مقنعة، فضلا عن عدم وجود الدعم المسيحي الخارجي الذي لم تكن جنوب السودان من أولوياته، حيث استثمر برنارد لويس في الصمت الدولي في سياق مقارنة تصب في صالح إسرائيل صاحبة المشروع .

" بلغ عدد ضحايا الحرب الأهلية المستمرة في السودان خمسة أضعاف عدد قتلى الحروب العربية - الإسرائيلية مجتمعة، وذلك بحسب إحدى التقديرات المصرية، لكن العالم الخارجي بما فيه معظم إفريقيا، يبدو وكأنه ينظر إلى الموضوع بلا مبالاة " ².

عملت إسرائيل على تأجيج الحالة في المحافل الدولية والظهور بمظهر المدافع عن الأقليات، باعتبارها أكثر من تضرر - بحسب زعمها - من الاضطهاد.

" الصراع تصاعد بقوة لدرجة تدخل قوى خارجية في الأمر من جانب إسرائيل التي أعلنت أنها تدرس طلبا بإرسال ' قوات شرطة ' إلى جنوب السودان، بدعوى المشاركة في نشاطات الأمم المتحدة بجنوب السودان " ³.

بل نشطت الدبلوماسية الإسرائيلية في هذا الاتجاه على أعلى مستوياتها، لتؤكد عزمها على تجربة المشروع مرة ثانية ولكن في معطيات أخرى يبدو أنها إيجابية أكثر من سابقتها ' العراق ' ، وظهر ذلك جليا في العلاقة الحميمة التي توّطّرها المسيحية الصهيونية عن بُعد.

" يقول سيلفاكير إن بلاده تعتبر دولة إسرائيل نموذجا يحتذى به ومثلا للنجاح، وأنه سيعمل معها يدا بيد من أجل توثيق العلاقات بين البلدين " ⁴.

" في ما وصف بيريز هذا اللقاء بأنه لحظة تاريخية، وأن ' دولة إسرائيل دعمت وسوف تدعم دولة جنوب السودان في جميع المجالات '، وهذه قضية خطيرة للغاية في ظل الدعم الدولي

¹ - المرجع السابق، ص 106

² - تينوات برنارد لويس، مستقبل الشرق الأوسط، المرجع السابق، ص 71.

³ - الجوجري، عادل الجوجري، برنارد لويس، سيف الشرق الأوسط، المرجع السابق، ص 93/ 94 .

⁴ - الجوجري، عادل الجوجري، برنارد لويس، سيف الشرق الأوسط، المرجع السابق ، ص 94.

لسيلفاكير خاصة بعد انضمام دولة جنوب السودان لصندوق النقد الدولي، بعد توقيع الاتفاقية في العاصمة الأمريكية واشنطن " ¹.

بهذه الترتيبات والمواقف المعلنة، اطمأن برنارد لويس على نجاح مشروعه، الذي لم يلق في العراق العربي من يتحالف مع الصهيونية العالمية من أجل مشروع إسرائيلي صرف، وهو ما كشفه الساسة والمتفقون السودانيون قبل حدوثه، والى أبعاده على المنطقة العربية وتردداته على القارة الإفريقية.

يقول الدكتور حجازي إدريس المستشار الاقتصادي والمفكر السوداني، مؤلف كتاب ' السودان وكارثية انفصال الجنوب ': إن انفصال جنوب السودان ليس صناعة سودانية وإنما صناعة غربية إسرائيلية، وتاريخيا لا توجد قاعدة أساسية موحدة ارتكزت عليها نداءات الانفصال، ولكن تأجيجها كان يأتي دوما من الخارج وفق حجج متنوعة مسنودة بدعم لوجيستي مالي عسكري " ².

يقول المشير عبد الرحمن سوار الذهب - الرئيس السوداني الأسبق - " الدور الإسرائيلي والغربي في انفصال الجنوب كان رئيسيا، ونعتقد أن أمر الانفصال كان أولا وأخيرا ثمرة لتدبير غربي وأمريكي تحديدا ونتيجة للتدخل الصهيوني المباشر، فإسرائيل هي الممول الرئيسي للتمرد في الجنوب.. سيكون لإسرائيل نفوذ سياسي واقتصادي وعسكري كبير في الجنوب السوداني، لكن هذا لا يشعرنا أن إسرائيل جارة، هي موجودة في الجنوب لكنها لن تأخذ مكانة الجار " ³.

" السودان نموذجا حيا لتطبيق خطة برنارد لويس لتفتيت الدول العربية، إذ لم تتجح الخطة فحسب في تقسيم الدولة الى دولتين شمالية وجنوبية، وإنما امتد الأمر إلى مشاريع تقسيم جديدة في غرب البلد ' دارفور ' وشرق السودان ' كردفان '، وهكذا فإن تفتيت السودان يمضي على قدم وساق، وبإلحاح غربي وتدخل إسرائيلي " ⁴.

وضع برنارد لويس خريطة لتقسيم السودان تشتمل على أربع دويلات هي : دويلة النوبة، المتكاملة مع دويلة النوبة في الأراضي المصرية التي عاصمتها أسوان، ودويلة الشمال السوداني الإسلامي، ودويلة الجنوب السوداني المسيحي -وهي التي أعلن عن انفصالها في استفتاء تم

¹ - المرجع السابق، ص 94.

² - المرجع السابق، ص 100.

³ - المرجع السابق، ص 101.

⁴ - الجوجري، عادل الجوجري، برنارد لويس، سيف الشرق الأوسط، المرجع السابق ، ص 93.

ليكون أول فصل رسمي طبقاً للمخطط - ودويلة دارفور، والمؤامرة مستمرة لفصلها عن السودان بعد الجنوب مباشرة حيث أنها غنية باليورانيوم والذهب والبتروول " ¹.

بهذا المشروع يقضي برنارد لويس على كل الادعاءات الغربية الزائفة المناذية بضرورة التعايش مع الأخر بغض النظر عن لونه وجنسه ودينه، التي جعلها المشروع أسباباً لانتهاك وتقسيم دول ذات سيادة على شعوبها، وعضو في كل المنظمات الدولية، كي يزيد هذا المشروع من منسوب العداوة للآخر.

" الذي لا شك فيه أن انفصال جنوب السودان تحوّل إلى زلزال جيوسياسي واسع النطاق في السودان الجنوبي نفسه والسودان الأم وباقي المنطقة العربية والإفريقية المحيطة، لأن عشرات الحركات الانفصالية الطائفية أو العرقية الناشطة في شتى بقاع العالم العربي وإفريقيا أصبحت تنظر إلى هذا الانفصال باعتباره نموذجاً يجب الاحتذاء به " ².

يحدد برنارد لويس موقع الدولتين العربيتين الأكثر قرباً وانسجاماً مع الطرح الغربي من الناحية الواقعية، ومن حيث المواقف السياسية في القضايا المصيرية التي تتوافق تلقائياً مع الطرح الأمريكي بالخصوص، مما أكسبهما وصف الحليفين التقليديين للولايات المتحدة الأمريكية. المملكة العربية السعودية وجمهورية مصر العربية، الأولى تستمد من الحرمين الشريفين والثروة النفطية مكانتها، والثانية من تاريخها الفرعوني والحروب العربية زعامتها للعرب.

تمثل هاتين الدولتين - من خلال سياستهما الخارجية - الراعي الرسمي للسياسة الغربية الأمريكية في المنطقة، استناداً إلى المرجعية السالفة الذكر المرتبهة غربياً حيث السند الأمريكي للأسرة الحاكمة، وهو ما أفصح عنه مؤخرًا الرئيس الأمريكي بجرأة لم تكن في سابقه، إذ أعلن أن الملكيات والإمارات الخليجية- وكان بصدد الحديث عن السعودية - ستسقط بمجرد أن تتخلى عنها الولايات المتحدة لمدة أسبوع فقط .

وأما الدولة الثانية - مصر - فهي من ضمن التوابع للقضية الفلسطينية التي تنازلت عنها بريطانيا للولايات المتحدة، حيث تأطر هذا الاحتواء بمعاهدة كامب ديفيد مع الإسرائيليين، لذلك نرى برنارد لويس من الناحية النظرية يصف الدولتين على أنهما قويتان عصيتان عما قد تتعرض له بقية الدول العربية، ويعطي تبريرات تتناقض مع الخطة الفعلية لمشروع التقنيت، في سياق تحذير غير صريح لهاتين الدولتين.

¹- المرجع السابق ، ص 94.

²- المرجع السابق ، ص 97.

"هناك إمكانية قد تتسبب بها الأصولية، وهي ما أصبح يدعى «اللبننة». فمعظم دول الشرق الأوسط- ومصر استثناءً واضح- حديثة النشأة، وذات تكوين مصطنع، وهي لذلك معرضةٌ [للدخول في الحالة اللبنانية] ، فإذا تمَّ إضعاف السلطة المركزية بصورة كافية، فليس هناك مجتمعٌ مدنيٌّ قادر على الحفاظ على الكيان السياسي قائماً، وليس هناك شعورٌ حقيقي بالهوية الوطنية العامة، أو ولاءٌ فعلي للدولة الوطنية"¹.

" وليست الكيانات التي أنشأها الاستعمار الوحيدة المعرضة لخطر التفتت، فالمملكة العربية السعودية والتي ولدت بدورها في فترة ما بين الحربين، لم تكن نتيجة للتوسع والتسوية الاستعماريين، هي صنعة الطموح العائلي والولاء القبلي والحماسة الدينية"².

إذا عدنا إلى ما كتبه برنارد لويس عن تاريخ قيام المملكة العربية السعودية تتبين المغالطة التاريخية التي يروج لها، فهو يختار التنظير الذي يتناسب مع المرحلة حتى وإن كان فيه تجاوزاً تاريخياً لبعض الأحداث.

" تبنَّى حكام نجد السُّعوديون الآراء الوهابية ونجحوا لفترة من الزمن في نشرها بقوة السلاح، وقد قاموا بسلسلة من الحملات امتد بها حكمهم وعقيدتهم إلى جزء كبير من أواسط بلاد العرب وشرقها، بل إنهم أغاروا كذلك على أراضي الهلال الخصيب التي كان العثمانيون يحكمونها حكماً مباشراً"³.

" ومن الأمور ذات الدلالة، أنه حدث في الأراضي الإسلامية القديمة، في آسيا وإفريقيا أن ظهر لأول مرة استقلال الولايات ثم اتسع مداه، ولم تكن هذه الحركات بأي معنى تعبيراً عن معارضة شعبية أو قومية للحكم العثماني"⁴.

إذا لم تكن نشأة دولة آل سعود نشأة طبيعية، بل كانت كغيرها من الدول الأخرى لاحتكاكات استعمارية عميقة الأثر، لا يحلو لبرنارد لويس أن يجعل منها السبب المباشر لقيام هذه المملكة، لأن الدسائس البريطانية للخلافة العثمانية الإسلامية والاستخفاف بالدول العربية حينها هو الذي حرض على قيام هذه المملكة وغيرها مما يعتبر شظايا المؤامرة البريطانية للتوسع البريطاني.

¹ صالح، فخري صالح، برنارد لويس المؤرخ الذي قدّم خبرته لصانع القرار الأميركي، مقال بمناسبة وفاة المستشرق برنارد لويس، مقال بمجلة الحياة بتاريخ 26 /05 /2018 ، <http://www.alhayat.com/article/4582800/>

² - تنبؤات برنارد لويس، المرجع السابق، ص 76.

³ - لويس، برنارد لويس، الإسلام وأزمة العصر، المرجع السابق، ص 39.

⁴ - لويس، برنارد لويس، ظهور تركيا الحديثة، المرجع السابق، ص 55.

" كانت هذه البلاد، بما فيها المدينتين المُقدَّستين ' مكة والمدينة ' خاضعة لحكم أعضاء الأسرة الهاشمية، أحفاد النبي منذ أكثر من ألف عام، وإن كانت السيادة الاسمية فيها خلال القرون القليلة الماضية للعثمانيين، وقد رأى ابن سعود في إنشاء ملكيات هاشمية برئاسة مختلف فروع الأسرة الهاشمية في العراق وشرق الأردن كجزء من عملية إعادة تشكيل الولايات العثمانية في أعقاب الحرب العالمية الأولى تهديدا لملكه ¹ .

لقد ظهرت هذه المملكة وغيرها من الدول العربية كحل معتمد منذ البداية لخيانة بريطانيا للعرب بعد الوعود بإقامة الخلافة العربية الموهومة بدلا من الخلافة العثمانية المجددة للخلافة الإسلامية التي أبقت حكم المدينتين المُقدَّستين في الأسرة الهاشمية عملا بالنص الشرعي، إضافة إلى أن ابن سعود - على حد قول برنارد لويس - فسّر تواجد الهاشميين - وهم أحفاد النبي (صلى الله عليه وسلم) في الأردن والعراق، على أنه تشكيل جديد للخلافة العثمانية التي يتعامل معها كعدو، وهذا هو الطرح الذي عملت بريطانيا على ترسيخه في السلوك السياسي العربي حينها.

" ففي السنوات الأخيرة من عمر الإمبراطورية العثمانية استغل الشيخ عبد العزيز بن سعود (الذي ولد في عام 1880م تقريبا وحكم من 1902 الى 1952م) بمهارة الصراع بين العثمانيين من جهة والقوة البريطانية التي كانت تزداد اتساعا في شرقي بلاد العرب من جهة أخرى، ففي ديسمبر 1915م وقّع اتفاقا مع بريطانيا حصل فيه - مع احتفاظه باستقلاله - على دعم مادي ووعده بالمساعدة إذا تعرض للهجوم، وقد اختتمت هذه المرحلة بانتهاء الحرب العالمية الأولى وتفكك الإمبراطورية العثمانية ² .

" حقق السعوديون في هذا الغزو نجاحا باهرا، فقد استولت قواتهم أولا على ' مكة '، ثم استسلمت المدينة بغير حرب في الخامس من ديسمبر 1925م، بعد حصار دام عشرة أشهر، وبعد ذلك بأسبوعين طلب الشريف علي، الذي كان قد خلف والده حسين، إلى نائب القنصل البريطاني في جدة إبلاغ ابن سعود بأنه سينسحب من الحجاز، مصطحبا مستلزماته الشخصية ³ .

لقد سمى برنارد لويس هذا التوسع ' غزوا ' الذي دعمته بريطانيا وشجعت عليه من خلال العلاقة والتنسيق الأمني الذي أحاطت به بريطانيا أسرة آل سعود، ودور نائب القنصل البريطاني في جدة، كما أشار برنارد لويس إلى لحظة توقيع الاتفاق بالتأكيد على - مع احتفاظه باستقلاله،

¹ - لويس، برنارد لويس، الإسلام وأزمة العصر، المرجع السابق، ص 141.

² - لويس، برنارد لويس، الإسلام وأزمة العصر، المرجع السابق، ص 141.

³ - المرجع السابق، ص 142.

ما يعني أن ابن سعود كان في مهمة بريطانية بالدرجة الأولى، هدفها إسقاط الخلافة الإسلامية العثمانية.

" كان الاعتراف الإسلامي أكثر بُطناً وأشد تناقلاً، فقد زارت بعثة إسلامية من الهند جدّة، وطلبت من الملك أن يُسلّم السيّطرة على المدينتين المقدّستين إلى لجنة من ممثلي جميع البلدان الإسلامية، ولم يُجب ابن سعود على هذا الطّلب وأعاد البعثة إلى الهند بحرا"¹.

ما كانت بريطانيا لتقبل هكذا طلب، فقد رفضت ذلك من خلال إسقاط الخلافة الإسلامية، فكيف تقبل أن تعود سلطة المدينتين المقدّستين إلى لجنة مكونة من عديد الدول الإسلامية، فإن ذلك يعني في المفهوم السياسي البريطاني السعودي خلافة إسلامية بصورة أخرى، وقد تشترك في هذه اللجنة تركيا الإسلامية، المؤهلة الوحيدة لقيادة ورئاسة هذه اللجنة.

" وفي يونيو من نفس العام ' 1927م '، عقد مؤتمراً إسلامياً جامعاً في مكة دعا إليه ملوك ورؤساء الدول الإسلامية المستقلة وممثلين عن المنظمات الإسلامية في البلدان التي تخضع لحكم غير إسلامي، وحضر المؤتمر تسعة وستون شخصاً من جميع أنحاء العالم الإسلامي وألقى فيهم ابن سعود كلمة أوضح فيها صراحة أنه أصبح الآن ملكاً للحجاز، وأنه سيقوم بواجباته في حماية الحرمين الشريفين وحماية الحجيج، ولكنه لن يسمح بأي تدخل خارجي في أدائه لهذه المهام "².

كان طلب منظمة مسلمي الهند هو الدافع للإسراع بعقد هذه القمة التي يفترض فيها أن تكون قمة تشاور بين جميع الدول بخصوص السلطة التي تشرف على المدينتين المقدّستين، لا أن تكون قمة إملاءات وقرارات فوقية غير قابلة للنقاش، في قضية تتعلق بمقدسات المسلمين، ودون تفويض منهم.

" وقد أثار ذلك ردود فعل مختلفة من جانب ضيوفه، فقد اعترض البعض وغادروا البلاد، وقبل البعض الآخر بالنظام الجديد واعترفوا به، وكان في مقدمة هؤلاء رئيس وفد مسلمي الاتحاد السوفيتي الذي ذكر في مقابلة مع وكالة الأنباء السوفيتية ' تاس '، أن المؤتمر الإسلامي قد اعترف بالملك ابن سعود حامياً للأماكن المقدسة، وأنه دعا كذلك إلى تحويل بعض أجزاء الأردن إلى مملكة الحجاز الجديدة، وأيد ابن سعود بوجه عام "³.

¹ - المرجع السابق ، ص 142.

² - لويس، برنارد لويس، الإسلام وأزمة العصر، المرجع السابق ، ص 142.

³ - المرجع السابق، ص 143.

" على أن الاعتراف من جانب البلدان الإسلامية، بل ومن البلدان العربية نفسها، استغرق وقتاً أطول، فقد أبرمت معاهدات صداقة مع تركيا وإيران في سنة 1929م، ومع العراق في سنة 1930م، ومع الأردن في سنة 1933م، ولم تعترف مصر بضم السعوديين للحجاز حتى عقد اتفاق مايو 1936م " ¹.

كان هذا السرد التاريخي برواية برنارد لويس الذي يحاول من خلفية سياسية مفضوحة أن يجعل من الطموح الأسري والولاء القبلي والحماسة الدينية، أسباب وحيدة لقيام المملكة العربية السعودية، دون الإشارة إلى العوامل الفعلية التي غيرت الموازين، والتي تكون على ضوءها المملكة العربية والسعودية كغيرها من الدول نشأت على أنقاض الاستعمار الأوربي ولو بطريقة خاصة.

وأما الحليف الثاني للغرب فإن برنارد لويس شارف أن يكون شاعراً في وصفه، وأحسبه قد برأ الانتداب البريطاني، الذي جثم على صدور المصريين السنين الطوال، فقد قدم مصر العربية أنها دولة فوق العادة تغيراً ببعض حلفائه الإيديولوجيين، والحالمين الفخوريين بالحضارة الفرعونية.

" ومن الأمثلة الماثلة للعيان مصر، وهي أمة بكل ما في الكلمة من معنى، ففي المستقبل كما في الماضي، ستبقى مصر مصرية بامتياز، بغض النظر عن أي تغيرات قد تطرأ على النظام أو حتى على الثقافة، والمغرب مثل آخر أنتجته مثل مصر عوامل الجغرافيا والتاريخ " ².

مع أن مشروعه لا يُنبئ ولا يتناغم مع هذا التوصيف حيث كشف عن عملية جراحية خطيرة تتعرض لها الجغرافيا والمجتمع والثقافة المصرية، فقد أظهر مشروع التفتيت حظوظاً للنقوذ اليهودي في السويس وغربها، كما كشف عن دولة دينية نصرانية في أسبوط وجزء من الإسكندرية، وتشكيل سوداني مصري في تكتل الثوبة على بساط أسوان والسد العالي، إضافة إلى مصر الإسلامية في القاهرة وضيافها (أنظر خارطة 3 و 4 و 3، ملحق الخرائط و الصور ص390/391).

يهدد برنارد لويس الدول العربية الأخرى التي استعصت على مشروعه مثل سوريا والعراق بالنموذج اللبناني الذي سيظل قائماً بكل إشكالاته، ما لم تؤمن السلطة اللبنانية حدودها الجنوبية مع إسرائيل، وشرط آخر أن يخرج النظام السوري من اللعبة السياسية اللبنانية بخروج حزب الله من أي حسابات الوضع الإقليمي.

¹ - المرجع السابق، ص 143.

² - تنبؤات برنارد لويس، المرجع السابق، ص 80.

³ - الجوجري، عادل الجوجري، سيف الشرق الأوسط (برنارد لويس) ومهندس سايكس بيكو 2، المرجع السابق ص 235/214

" وما من شك أن النموذج اللبناني أحد الأمثلة التي قد تُحتذى في المستقبل في كل من سوريا والعراق " ¹.

وبعد وفاة هذه الشخصية التي عاشت من الناحية الفكرية من أجل تجسيد مشروعها التاريخي والثقافي العقائدي، يظل الفكر السياسي العربي والإسلامي ملزماً بمراقبة ما إذا " كانت هذه هي الوصفة الإستراتيجية التي قدّمها «مؤرخ الإسلام» الشهير للإدارة الأميركية في عهد جورج بوش الابن وعتاة المحافظين الجدد الذين صرّحوا حينها بأنهم يريدون احتلال المنطقة وتغيير العالمين العربي والإسلامي بالقوة، بل إعادة تقسيم المنطقة بما يتوافق مع الأصول العرقية والقومية، والهويّات الطائفية والمذهبية، للشُّعوب المنضوية في إطار الدُّول الوطنية التي شكَّلتها اتفاقيات سايكس- بيكو عام 1916 " ².

¹ - تنبؤات برنارد لويس، المرجع السابق، ص75.

² - صالح، فخري صالح، برنارد لويس المؤرخ الذي قدّم خبرته لصانع القرار الأميركي، المرجع السابق.

الخاتمة

إذا كان الأستاذان إدوارد سعيد و محمد أركون جزءاً من المستشرق ' برنارد لويس ومؤلفاته

' حالة علمية مشوّقة '، فإنّ هذا التّشويق ليس ممتعاً فقط بل مُتعب لأمرين مهمّين:

- أسلوب برنارد لويس في الكتابة والتّأليف الذي يتعدّى مجرد طرح الأفكار ونشرها كمعلومة تُضاف إلى معارف الآخرين، إلى تنظير تؤسّس عليه مشاريع فكرية وسياسية وثقافية كبرى.

- يُضاف إلى ذلك غزارة إنتاجه التي فتحت الباب أمام تشعّب آرائه من النّاحية النّظرية مع شيء واحد حافظ عليه خلال تأليفه وهو أنّه مؤلّف مُدلج، استباح في سبيل ذلك كثيراً من الضّوابط العلميّة والمسلّمات في الكتابة والتّأليف.

لذلك كانت رحلة مشوّقة ومُتعبة في نفس الوقت في سبيل البحث عن العلاقة بين مشاريعه الاستشراقية المعرفية والسياسات الغريبة، وخاصّة من خلال كمّ هائل من أفكار وآراء وتحليلات برنارد لويس الذي أوتي النّفس الطّويل والمسارات الغريبة والمُفاجئة في تفكيره.

أضاف برنارد لويس إلى إستشراقه حضور إرادة الصّراع مع الآخر، الأمر الذي فرض رؤية جديدة لنتائج بحوثه، من نتائج يُفترض فيها العلميّة والحياديّة إلى آراء تُستحضر لإذكاء الصّراع بين الدّيانات والمجتمعات والثقافات.

مَثَل برنارد لويس من خلال مؤلّفاته ومشروعه لحظة تاريخية في حياة الكثيرين في الشّرق الأوسط، لحظة كان فيها التّحالف بين العالم والحاكم لأغراض عقائدية وثقافية وأيديولوجية، بعكس الجانب الآخر الذي يشهد قطيعة مُفتعلة بين السياسة والعلم كمظهر من مظاهر الحداثة والتّطور، كلُّ ذلك لقطع الطّريق أمام الفكر السياسي الإسلامي القادر الوحيد على تحديد مراحل الصّراع ونتائجها، إذا أيدته القرارات السياسية العربية الرّسمية.

بعد إتمام فصول ومباحث هذه الدّراسة، يُمكن إثبات النتائج التّالية:

- أنّ الصّراع بين الغرب والشّرق - المُفتعل غربياً في أكثر مراحلها - لم تكن الحروب الصّليبية نهايته ولا حتّى الحركات الاستعمارية الحديثة، بل هو مدّ متواصل متنوّع الأشكال.

- أن هذا الصّدام يستفيد غريبا من التحوّلات الاقتصادية والسياسية والثقافية وكذلك التكنولوجية في مواجهة الشرق.

- أن هذا الصّراع غير مواقع من ساحات الحروب ونمط العسكرية، إلى ساحات المعرفة ومراكز البحوث والدراسات، وخضع الاستشراق بسببه إلى الاستغلال الأيديولوجي.

- أن الاستشراق قد غير مناهجه وآلياته، ولم يعد خاضعا للضوابط العلمية والأهداف المعرفية.

لذلك تُوصي الدراسة بما يلي:

1- ضرورة تنبّه النخب العربية ' الثقافية والسياسية ' إلى الخطر الذي يمثله مشروع برنارد

لويس

2- ضرورة الإسراع بمشروع معرفي أكاديمي عربي إسلامي، للرد بالطرق العلمية على ما تركه برنارد لويس من مغالطات تاريخية وأحكام أيديولوجية، وترجمته إلى اللغات الأجنبية وخاصة الانجليزية والتركية والفرنسية.

3- استشراف ما تبقى من مستقبل مشروع الشرق الأوسط، والتّحضير اللوجستي لإخفاقه بكلّ الوسائل المعرفية المشروعة، وخاصة في الدّول التي طرحها برنارد لويس كمجتمعات غير عادية، فقد مرّت بتجارب الإمبراطوريات الكبرى مثل: تركيا وإيران، وعدم السقوط مرة أخرى في مُعطى العرقية الذي أزال إمبراطوريات شامخة كبرى، فكيف بدويلات منشطية، مع حقّ الاحتفاظ بالحقوق العربية في هذا المشروع.

4- إنشاء ما يُعادل مراكز البحوث والدراسات الغربية، ورصد الأموال والطّاقات الفكرية والجامعية، مهمّة هذه المراكز متابعة نشاط المراكز الغربية والردّ عليها في حينها.

5- دعم هذه المراكز بقرارات سياسية جادة، وإسنادها إلى الطّاقات الأكاديمية الفاعلة والوفية لثوابت الأمة العربية والإسلامية.

6 - اعتماد الأساليب العلمية الحديثة، والابتعاد عن النّطرف والغلو والخلفيات المذهبية والأيديولوجية والسياسية، الأمر الذي قد ينحرف بهذه الجهود عن أهدافها، والحذر من عملية الاحتواء أو التّدجين.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
أ	الشكر والتقدير
ب	الإهداء
1	المقدمة
17	الفصل الأول: مفهوم الإستراتيجية و الاستشراق (الشرق الأوسط الفكرة والأبعاد)
18	المبحث الأول: في معنى الاستشراق و الإستراتيجية
19	المطلب الأول: المصطلح الدلالي للاستشراق
19	1 - لغة
19	2 - اصطلاحا
19	المطلب الثاني: المصطلح الدلالي للإستراتيجية
21	المطلب الثالث: بداية التمدد و أسبابه
23	المطلب الرابع: مأسسة التفكير الإستراتيجي و تفعيله
26	المطلب الخامس: نماذج سياسية لصناعة إستراتيجية
28	المطلب السادس: الإستراتيجية و الإستشراق
30	المبحث الثاني: الاستشراق البريطاني
31	المطلب الأول: بداية الاتصال بالشرق
32	المطلب الثاني: تطور الاستشراق البريطاني
36	المطلب الثالث: الاستشراق البريطاني في القرن العشرين
38	المطلب الرابع: الاستشراق البريطاني الأكاديمي

40	المطلب الخامس: طبيعة الاستشراق البريطاني وأهم ملامحه
40	1- الطبيعة الدينية (الدافع التنصيري)
41	2- نماذج من المستشرقين المنصرين
42	3- الطبيعة السياسية والاقتصادية الاستعمارية
44	4- الطبيعة الاستعلائية ودعوى التفوق
46	5- الطبيعة التخصصية التحليلية
48	المبحث الثالث: الإستشراق الأمريكي
49	المطلب الأول: حقيقة الانتساب و النشأة
51	المطلب الثاني: الاستشراق الأمريكي (الطبيعة و الإضافة)
54	المطلب الثالث: البعد السياسي و الاقتصادي في الاستشراق الأمريكي
57	المطلب الرابع: خصوصية الإستشراق الأمريكي (الدراسات الإقليمية و الحركات الفكرية)
60	المطلب الخامس: الارتباط بالعلوم الاجتماعية (خصوصية الإستشراق الأمريكي و إضافته)
61	المطلب السادس: إستراتيجية الجهد العربي و الإستشراق الأمريكي
64	المطلب السابع: الإستشراق الأمريكي و القرصنة اليهودية
67	المبحث الرابع: الإستشراق و جذور (مشروع الشرق الأوسط الجديد)
68	المطلب الأول : الشرق الأوسط بطبعته العتيقة
70	المطلب الثاني: الشرق و ذاتية الحضارة
71	المطلب الثالث: الشرق و الغرب ، العلاقة و التعبير
75	المبحث الخامس: التصورات والترتيبات "الشرق أوسطية الجديدة"

76	المطلب الأول: التصورات، الطرح الإعلامي، والمشروع الشرق الأوسط
78	المطلب الثاني: الطرح الرسمي
83	المبحث السادس: البعد السياسي لمشروع الشرق الأوسط الجديد
84	المطلب الأول: الدور التوافقي بين الحقيقة الجغرافية والهدف السياسي
85	المطلب الثاني: المصطلح ودلالته عن هذا البعد
87	المطلب الثالث : اللمة السياسية الإسرائيلية في المصطلح
89	المطلب الرابع: الأسس الفلسفية للسياسة الأمريكية
91	المطلب الخامس : المشروع إسقاط ثان للتجربة الأمريكية وتكرار للذات
95	المبحث السابع: البعد الاقتصادي لمشروع الشرق الأوسط الجديد
96	المطلب الأول: الرؤية الأمريكية لاقتصاديات هذا المشروع
98	المطلب الثاني: المنطق التجاري عند الشرقيين ودوره في المجتمع
100	المطلب الثالث: الرؤية الإسرائيلية الاقتصادية من خلال المشروع الشرق الأوسط
102	1- في مجال الطاقة
105	2- بنك الشرق الأوسط
106	المطلب الرابع: المؤشرات أساسية للاقتصاد الإسرائيلي و اقتصاديات الدول العربية المجاورة لفلسطين والإجمالي العربي.
108	المبحث الثامن: البعد الثقافي مشروع الشرق الأوسط
109	المطلب الأول: التأسيس الأكاديمي لهذا البعد
111	المطلب الثاني: السؤال الثقافي ومصير المشروع الشرق أوسطي
113	المطلب الثالث: من نماذج وصور الربط الثقافي للمشروع

115	الفصل الثاني: حياة برنارد لويس العلمية و منابعه الفكرية و أثرها في علاقة الاستشراق بالعولمة
116	المبحث الأول: حياة برنارد لويس العلمية
117	المطلب الأول: نشأته
120	المطلب الثاني: لويس برنارد ورحلة التحول
121	المطلب الثالث: المكانة الاعتبارية للويس
125	المبحث الثاني: المنابع الفكرية للويس
127	المطلب الأول: الثقافة اليهودية الصهيونية
130	المطلب الثاني: الزخم الاستشراقي الأوروبي
132	المطلب الثالث: الاستشراق الأمريكي
134	المطلب الرابع: الأحداث المعاصرة للنشأة و الظروف السياسية العالمية
137	المبحث الثالث: مؤلفات برنارد لويس ونشاطه الفكري
139	المطلب الأول: الفرق والعقيدة الإسلامية
140	المطلب الثاني: التاريخ العربي الإسلامي
145	المطلب الثالث: الفكر السياسي الإسلامي والحركات الإسلامية المعاصرة
147	المبحث الرابع: كرونولوجيا فكرة العولمة "علاقة عفوية أم إستراتيجية مخبرية

148	المطلب الأول: استمدادات الفكرة تاريخيا
149	المطلب الثاني: الطرح الجديد للفكرة المتجددة
152	المبحث الخامس: بداية تكون الشرق في الوعي الغربي
153	المطلب الأول: احداثيات الشرق في المخيال الغربي
154	المطلب الثاني: الطبعة الأخيرة، الأطر والمفاهيم
157	المبحث السادس: عولمة الاستشراق والهيمنة على مدارسه
158	المطلب الأول: العولمة بين الشمولية والاستجابة
161	المطلب الثاني: مفاهيم استشراقية مؤسسة للعولمة ودالة على العلاقة
166	الفصل الثالث: برنارد لويس ووسائل الاستشراق الاستراتيجي" المصطلحات - التحريض - التجيش - روح الاستعلاء"
167	المبحث الأول: إستراتيجية استخدام المصطلحات
168	المطلب الأول: لديمقراطية حقنة إجبارية رغم انتهاء الصلاحية
176	المطلب الثاني: العلمانية حرب على القداسة
186	المطلب الثالث: الحداثة و إستراتيجية الانسلاخ القيمي
194	المطلب الرابع: الأصولية، المرجعية والاستخدام
198	المطلب الخامس: دار الحرب و دار الإسلام (بين المسيحية والإسلام)
206	المبحث الثاني: إستراتيجية التحريض والتجيش

207	المطلب الأول: السلبية أمام الأقوال الفجة وعدم الرد عليها
211	المطلب الثاني: إستراتيجية انتقاء (محطات) من العلاقة الدينية
218	المطلب الثالث: نصائح في شكل جرعات إجبارية
225	المطلب الرابع: إستراتيجية اعتماد علم (الإسلاميات) القروسطي
230	المبحث الثالث: إستراتيجية الروح الاستعلانية والتمركز حول الأنا الغربي
231	المطلب الأول: الأنا الغربي و إستراتيجية تأسيس السلبية في السلوك الإسلامي
238	المطلب الثاني: العقل العربي وتهمة (الذرية) في التفكير
244	المطلب الثالث: إستراتيجية الاستعلاء بالذوق العمراني الغربي
245	المطلب الرابع: إستراتيجية تعويم الأحداث التاريخية إيديولوجيا
248	الفصل الرابع: إستراتيجية انتقاء المصادر لأحداث و فرق في التاريخ الإسلامي
249	المبحث الأول: المصادر الإستراتيجية لدراسة السلوك الإسلامي
250	المطلب الأول: علماء الإسلام ومصدر الحكم على سلوكهم
253	المطلب الثاني: إستراتيجية تأسيس العداوة بين السنة والشيعة
258	المطلب الثالث: إستراتيجية لويس مع الحشاشين
269	المطلب الرابع: إستراتيجية الغياب التاريخي المدروس " صلاح الدين الأيوبي أنموذجا"
279	المبحث الثاني: إستراتيجية مصدرية النص لشخصية الحاكم العثماني "المسلم"
280	المطلب الأول: محمد الفاتح، سيرة قائد تتجاوز مجال الحس الغربي
293	المطلب الثاني: إستراتيجية الإيحاء بتنوع وتعدد المصادر

297	المطلب الثالث: لويس والسلطان سليم الثاني
300	المبحث الثالث: برنارد لويس، نماذج إستراتيجية معاصرة
301	المطلب الأول: إستراتيجية الاستشراق في تقديم الصهيونية واستثمارها
304	المطلب الثاني: السياسة والاستشراق " التجاوب الاستراتيجي "
311	المطلب الثالث: الصهيونية والواقع البيولوجي اليهودي
317	المطلب الرابع: الحركات الإسلامية من زاوية استشراقية
327	المطلب الخامس: إستراتيجية التَّمَوُّع وتسخير الديني للأيديولوجي
332	المطلب السادس: برنارد لويس وتحالف العَهْدَيْن
335	المطلب السابع: إستراتيجية اعتماد المقالات
338	المطلب الثامن: التفتيت ونهاية الاستراتيجية، تركيا الاستثناء
351	الخاتمة
353	ملحق الفهارس
354	فهرس الموضوعات
361	فهرس المصادر و المراجع
383	فهرس الآيات و الأحاديث
389	فهرس الخرائط و الصور
394	الملخص بالعربية و الانجليزية

قائمة المصادر والمراجع

- 1- القرآن: برواية ورش
- 2- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى 1422هـ
- 3- المستدرک علی الصحیحین، أبو عبد الله الحاكم، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2002
- 4- تحفة الأحوذی، شرح جامع الترمذی، دار الكتب العلمية، دون تاريخ.
- 5- سنن البيهقي الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، مكتبة دار الباز - مكة المكرمة، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ج4، 1994.
- 6- سنن الدارقطني، علي بن عمر أبو الحسن الدارقطني البغدادي، دار المعرفة - تحقيق: السيد عبد الله هاشم يماني المدني، ج 3، بيروت، 1386 - 1966.
- 7- سنن بن ماجه، للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، حققه ووضع فهرسه محمد مصطفى الاعظمي، ط2، الرياض ك المحقق: 1984.
- 8- صحيح البخاري، الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ترقيم وترتيب: محمد فؤاد عبد الباقي، تقديم: احمد محمد شاكر، ط1، دار التقوى للطباعة والنشر والتوزيع، 2012.
- 9 صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، دار إحياء التراث العربي بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، 2014.

10-فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للإمام الحافظ احمد بن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت، دون تاريخ.

أولاً- كتابات برنارد لويس:

أ-كتب برنارد لويس المترجمة بالعربية

- 1- الحشاشون-فرقة ثورية في تاريخ الإسلام، ترجمة محمد العزب موسى، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط2، 2006.
- 2- أين الخطأ والتاثير الغربي واستجابة المسلمين، ت. محمد عناني، تقديم ودراسة رؤؤوف عباس، إصدارات سطور، ط1، 2003، مصر.
- 3- ظهور تركيا الحديثة، ترجمة: قاسم عبده قاسم، سامية محمد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2016.
- 4-إستانبول وحضارة الخلافة الإسلامية، تر: سيد رضوان علي، (جدة، الدار السعودية للنشر، 1402هـ -1982م).
- 5- اكتشاف المسلمين لأوروبا، ترجمة: ماهر عبد القادر، القاهرة، المكتبة الأكاديمية، ط1، 1996.
- 6-الإسلام وأزمة العصر، حرب مقدسة وإرهاب غير مقدس، تقديم: رؤؤوف عباس، تعريب: أحمد هيكل (مكتبة الأسرة، 2004.
- 7-الإيمان والقوة، الدين والسياسة في الشرق الأوسط، ت. أشرف محمد كيلاني، دار الكتاب العربي ط1، 2017، دمشق.
- 8-الحشيشية والاعتقال الطقوسي عند الإسماعيلية النزارية، ترجم وقدّم له وزاده: أ سهيل زكار (دمشق، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 2006م).
- 9-العرب في التاريخ، ترجمة: نبيه أمين فارس ومحمود يوسف زايد، بيروت، دار العلم للملايين، 1954.

- 10-الغرب والشرق الأوسط، ت. نبيل صبحي، دون تاريخ، بدون ناشر.
- 11-المساهمات البريطانية في الدراسات العربية، جامعة لندن، نيويورك، تورنتو، 1941.
- 12- برنارد لويس ، ب م هولت، مؤرخو العرب والإسلام، نقله إلى العربية وقدم له د / سهيل زكار، دمشق، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، ط. 2008.
- 13-برنارد لويس، ادوارد سعيد، الإسلام الأصولي في وساءل الإعلام الغربية من وجهة نظر أمريكية، بيروت، دار الجيل، ط1، 1994.
- 14- جذور الغضب الإسلامي، مجلة الأطنطي، العدد 266، أيلول 1990
- 15-لغة السياسة في الإسلام، ترجمة، إبراهيم شتا، دار قرطبة للنشر والتوثيق والأبحاث، ط1، 1993

أ - كتب برنارد لويس بالانجليزية [مرتبة حسب تاريخ تأليفها]

- 1- British Contribution To Arabic Studies, Longmans Green Company, London, 1941.
- 2 -The assassins, A radical Sect in Islam, 1st edition 1967, Phoenix, imprint of Orion Books Ltd, London, 2003 edition
- 3 -The Emergence of Modern Turkey. Oxford 1968 2ed edition
- 4 -The Arabs in History, London: Huchinson &co.1950, 5th edition 1970, reprinted, New York: Harper, Row, 1975.
- 5 -The state of the middle Eastern studies “in the American scholar, summer 1979
- 6 -The Revolt of Islam, In New York Review of Books, June 30th, 1983.
- 7 - The New Anti-Semitism, in New York Review of Books ,1986. The assassins, A radical Sect in Islam, Phoenix, imprint of Orion Books Ltd, London, 2003 edition.

ج- المقالات

- A- The Article edited by P. M. Holf, And K.S Lambton and Bernard Lewis, Egypt and Syria to the end of Fatimid Caliphate, (The History of Islam, Vo I, ch3), Cambridge, Cambridge University. 1970.
- B- Negotiation and StatCraft, Hearings before the permanent-before the Subcommittee on Government Operations, United state, 93^{ed} Congress 2nd session, March, 8,1974.

ثانياً: - المصادر والمراجع بالعربية

أ- الكتب:

- 1- **إبن قتيبة**، عيون الأخبار، ج 1 ، القاهرة 1962م.
- 2- **ابن منظور**، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، ج8، دار صادر، دون طبعة، 2003.
- 3- **أحمد سمايلوفيتش**، فلسفة الاستشراق وأثرها على الأدب العربي المعاصر، القاهرة، 1980م.
- 4- **أحمد يوسف أحمد وآخرون**، التحديات الشرق أوسطية الجديدة والوطن العربي ، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط2، 2000.
- 5- **آربي**، المستشرقون البريطانيون، ترجمة : حامد الغامدي ،لندن، 1946.
- 6- **أرنست باركر**، الحروب الصليبية، نقله إلى العربية : الدكتور السيد الباز، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1967.
- 7- **أسعد غانم**، مهند مصطفى، الفلسطينيون في إسرائيل، سياسات الأقلية الأصلية في الدولة الاثنية، مدار ، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، رام الله، فلسطين، ط 2009.
- 8- **افرايم نينمي**، تحديات ما بعد الصهيونية، ترجمة: أحمد ثابت، مراجعة: محمد هشام، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ط 1، 2005.

- 9-ألبرت أشفيستر، فلسفة الحضارة، تر: عبد المؤمن بدوي، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ط3، 1983.
- 10-البيان والتبيين، عمر بن بحر الجاحظ، التحقيق : عبد السلام محمد هارون، ط7، ج 1، مكتبة الخانجي، 1998م.
- 11-ألبيير شاندر، صلاح الدين الأيوبي. البطل الأتقي في الإسلام، ترجمه عن الفرنسية: سعيد أبو الحسن. مراجعة وتحقيق: نديم مرعشلي، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط 2، 1993م.
- 12- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ج1، القاهرة، 2004.
- 13-ألبيسي جورافسكي، الإسلام والمسيحية : من التناقص والتصادم إلى الحوار والتفاهم، تر: الدكتور خلف محمد الجراد، دار الفكر المعاصر ، بيروت، ط 2، 2000.
- 14-باكينام الشرقاوي الأبعاد السياسية لمشروع الشرق الأوسط الكبير " الجديد" ، عبد الرحمان عبد الرحمان، النقيب مشروع الشرق الأوسط الكبير وتداعياته السياسية والاقتصادية والتربوية ، مصر، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط 1، 2010.
- 15-بنيامين نتنياهو، مكان بين الأمم، اسرائيل والعالم ، ط 2، تر: محمد عودة الدوري، مراجعة وتصويب، كلثوم السعدي، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، 1996.
- 16- بيار كونيسا ، صنع العدو، أو كيف تقتل بضمير مرتاح، ترجمة : نبيل عجلان ، بيروت،المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ، ط1، 2015.
- 17-بيير هاستر ، عما نويل كانط ، تاريخ الفلسفة السياسية من جون لوك إلى هيدجر ، تحرير: ليوشتراس ، وجوزيف كرويبي ، ترجمة محمود سيد أحمد،القاهرة ، ج 2 المجلس الأعلى للثقافة ط2005.
- 18-توماس ميشيل اليسوعي، بناء ثقافة الحوار،ترجمة : ناصر محمد يحي ضميرية، دمشق، دار الفكر، ط1، 2010.

- 19- **تبييري هنتش**، الشرق الخيالي ورؤية الآخر، صورة الشرق في الخيال الغربي، الرؤية السياسية الغربية للشرق الأوسط، ترجمة مي عبد الكريم محمود ، دمشق، دار المدى للثقافة والنشر، ط 1، 2006.
- 20- **تنبؤات برنارد لويس**، مستقبل الشرق الأوسط، الترجمة لشركة رياض الريس للكتب والنشر، بيروت ط1، 2000.
- 21- **جارودي**، أمريكا طليعة الانحطاط ، تعريب: عمرو زهيري ، تقديم: كامل زهيري (دار الشروف 1420هـ -1999م).
- 22- **جاكولين روس** ، مغامرة الفكر الأوربي، قصة الأفكار الغربية، ترجمة: أمل ديبو، مراجعة: زهيدة درويش، (أبو ظبي: دار كلمة، 2011).
- 23- **جب هاملتون**، الاتجاهات الحديثة في الاسلام، ت. هاشم الحسيني، دار مكتبة الحياة 1966.
- 24- **جبر الهلول**، المواثيق والعهود في ممارسات اليهود (قراءة في الفكر الديني والفكر السياسي اليهودي المعاصر) ،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 2004.
- 25- **جمال قنان** ،نظام عالمي جديد ام سيطرة استعمارية جديدة ،بيروت،مركز دراسات الوحدة العربية ، ط 1 ، 1999.
- 26- **جهاد الخازن**، المحافظون الجدد والمسيحيون الصهيونيون، دار الساقى، بيروت، ط 1 ، 2005.
- 27- **جورج دوغلاس**، بول دوغلاس ، أمريكا إسرائيل " علاقة حميمية « التورط الأمريكي مع إسرائيل منذ عام 1947 حتى الآن ، ترجمة : ج/ محمد زكريا إسماعيل، بيروت بيسان للنشر و التوزيع ، ط 1 ، 1994.
- 28- **جون اسبوزيتو**، التهديد الاسلامي، تر واعداد ' المؤسسة المتحدة للدراسات والبحوث في واشنطن '، الحلقة الثانية، في مجلة ' المجتمع '، الكويت، ع 1034، 26 رجب 1413هـ / 19 يناير 1993م.

29- **جيرمي سولت**، تفتيت الشرق الأوسط، تاريخ الاضطرابات التي يثيرها الغرب في العالم العربي، ترجمة -نبيل صبحي الطويل، دمشق، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، 2011.

30- **جيل كيبيل**، يوم الله : الحركات الأصولية المعاصرة في الأديان الثلاثة، تر : نصير مروة، قبرص، 1992م.

31- **حامد غنيم أبو سعيد**، الجبهة الإسلامية في مواجهة المخططات الصليبية، جبهة الشام وفلسطين ومصر، (القاهرة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط 1، 2007.

32- **حسن الباش**، الشرق و الغرب، مركزية الحضارة و نظرية الإقصاء من المجابهة ؟ إلى الحوار، أم الحوار إلى المجابهة، دمشق، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع . ط1، دون تاريخ.

33- **حسن عبيد عيسي**. برنارد لويس، جهود وأهداف، موسوعة الاستشراق - معاودة نقد التمركز الغربي وكشف التحولات في الخطاب ما بعد الكولونيالي، مجموعة من الأكاديمين، اشراف والتحرير: د/ عامر عبد زيد الوائلي، وطالب محيبس الوائلي (الجزائر، دار ابن النديم للنشر والتوزيع، ط1، 2015.

34- **حيدر تقي فضيل**، البعد السياسي في الفكر الإستشراقي، موسوعة الاستشراق، معاودة نقد التمركز الغربي، وكشف التحولات في الخطاب الكولونيالي، تأليف مجموعة من الأكاديمين، اشراف وتحرير د. عامر عبد زيد الوائلي، طالب المحيبس الوائلي، الجزائر ابن نديم للنشر والتوزيع الطبعة الأولى 2015.

35- **خليل حسن**، النظام الدولي، المفاهيم والأسس، الثوابت والمتغيرات، منشورات الحلبي الحقوقية، ط 3، بيروت، لبنان، 2013.

36- **خميس غربي حسين العجيلي**، صدمة الإستشراق وردة الفعل السلبية عند البطالين العرب، موسوعة الاستشراق - معاودة نقد التمركز الغربي وكشف التحولات في الخطاب ما بعد الكولونيالي، مجموعة من الأكاديمين، اشراف والتحرير : د/ عامر عبد زيد الوائلي، و طالب محيبس الوائلي (الجزائر، دار ابن النديم للنشر والتوزيع، ط1، 2015.

- 37-دانتى اليعيرى، الكوميدى الالاهية، دار المعارف، مصر ، ط2 ، 1955.
- 38-دونالد إيلسون، هل هناك أهمية للمؤسسات البحثية؟ مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، الإمارات . أبو ظبي، 2007.
- 39-رضا هلال، الدين والسياسة في أمريكا: علمانية أم متديتة، في الامبراطورية الأمريكية، ج1، القاهرة، مكتبة الشروق، ط 1، 2001
- 40-رفيق العظم، أسباب تفهقر المسلمين، المنار 11/7 /1904
- 41-رقية العلوانى، كريستيان فانسين، تحرير : منى أبو الفضل، نادىة محمود مصطفى، مفهوم الآخر في اليهودية والمسيحية ، دمشق، دار الفكر، ط1، 2008.
- 42-رينيه جيرار ، الشرق و الفكر الرومانطيقى الألماني ، أطروحة مقدمة إلى كلية الآداب و العلوم الإنسانية في جامعة باريس ، نانسي ، مطبعة ج توماس ، باريس ، مارسيل ديديه ، 1963م.
- 43-زكارى لوكمان ، تاريخ الاستشراف وسياسته، ترجمة و تحقيق شريف يونس، دار الشروق ط1، 2007، القاهرة.
- 44-زيبغيو بريجنسكى، رقة الشطرنج الكبرى" الأولية الأمريكية ومتطلباتها الجيوستراتيجية " عمان، الدار الأهلية للنشر، 2007.
- 45-ساسى الحاج، -الظاهرة الاستشرافية وأثرها على الدراسات الإسلامية، مركز الدراسات العالم الإسلامي، مالطا، 1991.
- 46-نقد الخطاب الاستشراقى ج1، ، بيروت : دار المدار الإسلامى، 2002.
- 47-ستيفن رنسيمن، تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر العربى للطباعة والنشر، 2006.
- 48-سعيد إدوارد، الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء، (بيروت، دار صعب، ط1، 1981)
- 49-سليمان الخطيب ،الحوار مع الغرب " أنماط انتقال الأفكار وآلياتها بين التفاعل والاستيلا، الحوار مع الغرب: آلياته، أهدافه، دوافعه، تحرير: منى أبو الفضل وآخرون، دمشق، دار الفكر، ط1، 2008م.

50-سميح فرسون، عطا عبد الوهاب، فلسطين والفلسطينيون، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط الأولى، أفريل. 2003.

51-سهيل القش ، في البدء كانت الممانعة، بيروت ،دار الحداثة ط1980.

52- سيد محمد العطاس، مداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية، ترجمة: محمد طاهر الميساوي، كوالا لامبور، ماليزيا، دار الفجر، عمان: دار النفائس، 2000.

53-شيمون بيريز، عصر جديد لا يطيق المتخلفين ولا يغفر للجهلة، في ماذا بعد عاصفة الخليج؟ مجموعة من المؤلفين، القاهرة مركز الأهرام للترجمة والنشر، 1992.

54-صدام مرير الجميلي، الاتحاد الأوربي ودوره في النظام العالمي الجديد، لبنان، دار المنهل اللبناني، ط1، 2009.

55-صموئيل هنتغتون ، من نحن ؟ ، تحديات الهوية الوطنية الأمريكية ، (الولايات المتحدة ، دار سيتر، 2004.

56-طه عبد الرحمن، سؤال العمل : بحث عن أصول العملية في الفكر والعلم، الدار البيضاء،، بيروت : المركز الثقافي العربي،.2012

57-عادل الجوجري ، سيف الشرق الأوسط (برنارد لويس) ومهندس سايكس بيكو 2، دمشق دار الكتاب العربي ط 1، 2013.

58-عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، بيروت، لبنان، دار العلم للملايين، مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر، ط 3، 1993م.

59-عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، التبشير، الاستشراق، الاستعمار، دمشق، دار القلم، ط11 ، 2013.

60-عبد الرحمن خرشي، فلسفة الاستشراق وأثرها في الصراع الحضاري، دار هومه للنشر و التوزيع، 2013، دون طبعة، الجزائر.

61-عبد الرحمن عبد الرحمن النقيب، مشروع الشرق الأوسط الكبير وتداعياته السياسية والاقتصادية والتربوية، مصر، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط 1، 2010.

- 62- **عبد الرزاق بلعقروز**، قوة القداسة: تصدع الدنيوية واستعادة الديني لدوره، منتدى المعارف، بيروت، ط 1، 2014.
- 63- **عبد العال الباقوري**، الاستراتيجية الإسرائيلية ، تجاه الوطن العربي، مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية، ط 1 2009.
- 64- **عبد الغفار عفيفي الدويك**، إسرائيل والشرق الأوسط ، مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، ط 1، 2010.
- 65- **عبد الكريم منصور**، الإمبراطورية الأمريكية، البداية والنهاية، دمشق، دار الكتاب العربي، ط 1-2005.
- 66- **عبد اللطيف طيباوي**، المستشرقون الناطقون بالانجليزية، دراسة نقدية، ت قاسم السمراي ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1991.
- 67- **عبد الله محمد الأمين**، الاستشراق في السيرة النبوية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة 1997م.
- 68- **عبد المجيد الشرفي**، الثورة و الحداثة و الإسلام، دار الجنوب، 2011 دون طبعة، تونس.
- 69- **عبد النبي اصطيف** ، نقد (صراع الحضارات) نحن والعرب ، من صدام الحضارات إلي الشراكة المعرفية، بغداد، مطبعة الآداب ، 2000.
- 70- **عبد الوهاب المسيري** -العلمانية والحداثة والعولمة، تحرير: سوزان حرفي ، دمشق، دار الفكر، ط 1، 2013.
- 71- **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**: نموذج تفسيري جديد، القاهرة، دار الشروق، 1999.
- 72- **عرفان عبد الحميد**، المستشرقون والإسلام، بيروت ط 3، 1983.
- 73- **علي الأمين مزروعى**، القوى الثقافية في السياسة العالمية، ترجمة : أحمد حسن المعيني، (منتدى العلاقات العربية والدولية) ، ط 1 ، 2017م.

- 74- علي همت بركي الأفسكي، العاهل العثماني أبو الفتح السلطان محمد الثاني فاتح القسطنطينية، ترجمة : محمد إحسان عبد العزيز، القاهرة ، 1953.
- 75- عمر فروخ و مصطفى الخالدي ، التبشير و الاستعمار في البلاد العربية ، بيروت ، ط5، 1973.
- 76- غابرييل بيتيريرغ، المفاهيم الصهيونية للعودة: أساطير وسياسات ودراسات اسرائيلية، ترجمة: سلافة حجّاوي، مدار، المركز الفلسطيني للدراسات الاسرائيلية، ط 2009.
- 77- غراب أحمد عبد الحميد ، رؤية إسلامية للإستشراق ، لندن ، المنتدى الإسلامي 1411 هـ، ط.3
- 78- غليون سمير أمين: ثقافة العولمة ، وعولمة الثقافة ، دار الفكر المعاصر للطباعة والنشر والتوزيع ط2000.
- 79- غوته ، الأعمال الكاملة ، ترجمة : ج.بورش (هاشيت ، الديوان الشرقي للشاعر الغربي ، ج 1، 1871، كتب (الديوان) بين العامين 1814 م-1816م.
- 80- غوستاف لوبون، روح الثورات والثورة الفرنسية، نقله الى العربية : محمد عادل زعيتر، القاهرة : المطبعة العصرية، 1934.
- 81- فاروق عمر فوزي، الإستشراق والتاريخ الإسلامي، القرون الإسلامية الأولى، دراسة مقارنة بين وجه النظر الإسلامية ووجهة النظر الأوروبية، (عمان الأهلية للنشر والتوزيع، ط1، 1998
- 82- فرانسيس فوكوياما، نهاية التاريخ والرجل الأخير، ترجمة: حسن أحمد أمين (القاهرة، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ط 1993.
- 83- فرهاد دفتري، خرافات الحشاشين وأساطير الاسماعيليين، ترجمة: سيف الدين القصير، (دمشق، دار المدى للثقافة والنشر، ط 2، 2004.
- 84- فؤاد جرجس، السياسة الأمريكية تجاه العرب - كيف تصنع؟ ومن يصنعها؟ بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، 2000.

85- كامل حسن الدليمي، موسوعة الاستشراق - معاودة نقد التمرکز الغربي وكشف التحولات في الخطاب ما بعد الكولينيالي، مجموعة من الأكاديمين، اشراف وتحرير: د/ عامر عبد زيد الوائلي، وطالب محبيس الوائلي (الجزائر، دار ابن النديم للنشر والتوزيع، ط1، 2015).

86- كرين برينتون، تشكيل العقل الحديث، تر: شوقي جلال، مراجعة صدقي حطاب، سلسلة عالم المعرفة. 1989.

87- كلود كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، من ظهور الإسلام حتى بداية الإمبراطورية العثمانية، نقله للعربية: د/ بدر الدين القاسم، بيروت، دار الحقيقة للطباعة والنشر، ط 3، 1983.

88- لبيب الطاهر، صورة الآخر (الجامعة التونسية، نشر مركز الأبحاث الدراسات الوحدة العربية، والجمعية العربية لعلم الاجتماع (بيروت) بحث: (الآخر في الثقافة العربية).

89- مازن صلاح مطبقاني، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي (الجزائر، مؤسسة عالم الأفكار للنشر والتوزيع- ط 2011.

-مالك بين نبي،

90 - إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1969م.

91- مذكرات مالك بن نبي، "العفن " ج 1 -1932-1940، ترجمة: نور الدين خندوري، الجزائر شركة الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1-2007.

92- مشكلات الحضارة: شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر كامل مسقاوي، تقديم: محمد همام، دار الكتاب المصري-دار الكتاب اللبناني، طبعة. 2012.

93- مجدي كامل، المسيحية الصهيونية، التطرف الإسلامي والسيناريو الكارثي، دمشق، دار الكتاب العربي، ط1، 2007.

-محمد أركون،

- 94- تاريخية الفكر العربي الإسلامي، تر: هاشم صالح، (بيروت، مركز الإنماء القومي، المركز الثقافي العربي، ط3، 1998م).
- 95- قضايا في نقد العقل الديني (كيف نفهم الإسلام اليوم) ترجمة وتعليق هاشم صالح، دار الطليعة ط4، 2009، بيروت.
- 96- نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية، دار الساقى، بيروت، ط 2، 2012.
- 97- محمد الخير عبد القادر، نكبة الأمة العربية بسقوط الخلافة العثمانية، دراسة للقضية العربية في خمسين عاما (1875-1965م)، القاهرة، دار التوفيق النموذجية للطباعة والجمع الآلي، ط1، 1985م.
- 98- محمد الدعمي، الاستشراق، الاستجابة الثقافية الغربية للتاريخ العربي الإسلامي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1، 2006.
- 99- محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري، دار المعارف، القاهرة 1963
- 100- محمد حسين، الإسلام والحضارة الغربية، مؤسسة الرسالة، ط 5، 1972.
- 101- محمد فتح الله الزيايدي، الاستشراق، أهدافه ووسائله، دمشق، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، 2011.
- 102- محمد فؤاد كويرلي، قيام الدولة العثمانية 1484م.
- 103- محمد محفوظ، الإسلام والغرب وحوار المستقبل، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، الدار البيضاء المغرب، ط 1، 1998
- 104- محمد مراد، - السياسة الأمريكية تجاه الوطن العرب بين الثابت الاستراتيجي والمتغير الضرفي، بيروت، دار المنهل اللبناني للطبع والنشر والتوزيع، ط1، 2009.
- 105- المدارس التاريخية الكبرى، دراسات نظرية في مناهج البحث وفلسفة التاريخ، مكتبة الفقيه، بيروت، ط1، 1996.

- 106-محمد ياسين عريبي، الاستشراق وتغييب العقل التاريخي العربي، منشورات المجلس القومي للثقافة، ط1، 1991.
- 107-محمد يوسف عبد الله، رأس الأفعى بريجنسكي وشيطننة سياسات أمريكا في الشرق الأوسط، دار الكتاب، القاهرة، ط 1، 2013.
- 108-محمود حمدي زقزوق - (الإسلام والإستشراق) في الإسلام والمستشرقون، جدة 1405 هـ، 1985.
- 109-الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، القاهرة: دار المعارف، 1997.
- 110-محمود عبد الفضيل، العرب وتحديات النظام العالمي، سلسلة كتب المستقبل العربي، بيروت، ط1، أكتوبر 1999، ط2، 2004،
- 111-مصطفى طلاس وآخرون، الإستراتيجية السياسية العسكرية، ج1 (دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط 2011، دمشق.
- 112-مصطفى صايح، السياسة الأمريكية اتجاه الحركات الإسلامية، الجزائر، دار قرطبة للنشر والتوزيع ط1 2010.
- 113-ملا جاسم، ناصر عبد الرزاق، المستشرق هاملتن، دراسة نقدية لتطور موافقة من التاريخ والحضارة العربية والإسلامية، ط1، جامعة الموصل 1998.
- 114-ملفين آي يوروفسكي، المبادئ الأساسية للديمقراطية، ترجمة حسن عبد ربه المصري، في: الديمقراطية الأمريكية، التاريخ والمرتكزات، مجموعة دراسات بعنوان ' أوراق الديمقراطية'، نشرتها وزارة الخارجية الأمريكية، ط 1، 2005، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
- 115-موريس لومبارد، الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى، ترجمة: عبد الرحمان حميدة، بيروت، دار الفكر المعاصر، ط2، 1998.

- 116-موسوعة الاستشراق - معاودة نقد التمرکز الغربي وكشف التحولات في الخطاب ما بعد الكولينيالي، مجموعة من الأكاديمين، اشرف والتحرير: د/ عامر عبد زيد الوائلي، وطالب محيبس الوائلي (الجزائر، دار ابن النديم للنشر والتوزيع، ط1، 2015
- 117-مخائيل كريتوقولوس، تاريخ السلطان محمد الفاتح، تر: حاتم الطحاوي (القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط 1، 2014م.
- 118-ميشال جحا، الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، معهد الإنماء العربي، ط1 1982.
- 119-ناجي عبد الجبار، التشيع والاشتراكية، المراكز الأكاديمية للأبحاث , 2011
- 120-نبيل خليفة، جيوبوليتيك لبنان، الإستراتيجية اللبنانية، جبل لبنان، مركز بيلوس للدراسات والإتجاهات، ط .2006.
- 121-نجيب العقيقي، - المستشرقون، القاهرة، ط4، بدون تاريخ.
- 122-المستشرقون ج3، دار المعارف القاهرة، ط4، 1980
- 123-هشام آل قطيط، أسطورة هرمجدون والصهيونية المسيحية، دار النمير للطباعة والنشر والتوزيع ط1، .2004
- 124-هيلين ايليري، الجانب المظلم في التاريخ المسيحي، تر وتقديم: سهيل زكار، دمشق، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 2014.
- 125-وديع أبو زيدون، تاريخ الإمبراطورية العثمانية، من التأسيس إلى السقوط، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، ط 2، 2011.
- 126-يحي سعيد قاعود، أطروحات فوكوياما وهنتغتون والنظام العالمي الجديد - دراسة تحليلية مقارنة -الرياض ط1 - 2015.
- 127-يقوت سالم، حفريات الاستشراق، (بيروت، المركز الثقافي العربي، 1989)
- 128-يوهان فوك، تاريخ حركة الإستشراق، الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا حتى بداية القرن العاشر، ترجمة: عمر لطفي العالم، دار قتيبة، 1996، دمشق.

أ المقالات، المجلات والدوريات والجرائد

- 1- إبراهيم أبراش حدود النظام وأزمة الشرعية في النظام الدولي الجديد المستقبل العربي السنة 17 العدد 185، تموز/يوليو 1994.
- 2- أبو يعرب المرزوقي: في معاني الخلافة وأبعادها العميقة: مقال بمناسبة وفاة المستشرق برنارد لويس، الاثنين 21 مايو 2018 بمجلة الأمة.
<https://www.alomah.com>
- 3- أحمد عادل، عرب وعالم، جريدة الأهرام ' بوابة الأهرام ' 2018/05/26م.
- 4- احمد صدقي الدجاني التحديات الشرق أوسطية الجديدة والوطن العربي، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز الدراسات الوحدة العربية، 1994
- 5- دليل برامج الدراسات العربية والإسلامية والشرق الأوسطية بالجامعات الأمريكية، واشنطن: الملحقة الثقافية بسفارة المملكة العربية السعودية، بدون تاريخ.
- 6- محمد أركون، الدراسات العربية الإسلامية في أوروبا، في مجلة الأصالة (الجزائر) العدد 44/ مجلد 6، ربيع الثاني 1397هـ/ أبريل 1977م.
- 7- فؤاد فرسوني، بين الدراسات الإقليمية والدراسات الاستشراقية، في عالم الكتب (الرياض) مجلد 5 العدد 01، رجب 1404هـ/ أبريل 1984م.
- 8- فهمي هويدي، السوق الشرق أوسطية: التطبيع أم السلام أولاً؟ جريدة الأهرام 1993/05/30.
- 9- خير الله رشق سعد، الاستشراق: منهجية النُّعالي على تراث الشعوب، في مجلة دراسات عربية، عدد 09/ جويلية. 1990.
- 10- علي بن إبراهيم النملة " الإستشراق في خدمة التنصير واليهودية في مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- ع3، رجب 1410 هـ/ فبراير 1990 م.
- 11- عرفات يجتمع بيهود " أكريكين " في جريدة المدينة المنورة، عدد 7886، 28 ربيع الآخر 8، 1409/ 12/ 1988.

- 12- **رضوان السيد**، اليهودية والصهيونية في الإستشراق في الفكر الإسلامي، س 19،
ع1، جمادي الأولى 1409 هـ كانون الثاني 1986 م.
- 13- **رسالة الرئيس الأمريكي (ت، روزفلت) إلى الكونغرس في 1904/12/06.**
- 14- **محمد محمود الإمام**، السوق الشرق أوسطية: التطبيع أم السلام أولاً؟ جريدة
اليسار، العدد 41 تموز/يوليو، 1993.
- 15- **حميد السماك**، دراسة بعنوان (الاستشراق في خدمة السياسة الأمريكية)، منشور في
جريدة المستقبل اللبنانية، العدد 3726 الجمعة 30 تموز 2010.
- 16- **فخري صالح**، برنارد لويس المؤرخ الذي قدّم خبرته لصانع القرار الأميركي، مقال
بمناسبة وفاة المستشرق برنارد لويس، مقال بمجلة الحياة بتاريخ 26 /05 /2018.
<http://www.alhayat.com/article/4582800/>
- 17- **عبد الوهاب المسيري**، فيلسوف العلمانية الأكبر، مجلة أوراق فلسفية، العدد 1،
2000.
- 18- **علي أسعد وطفة**، البنية الرمزية والأسطورة للمقدس: حضور المقدس وانحساره في
الثقافة العربية المعاصرة، اضاءات، المجلة العربية لعلم الاجتماع، العدد 08، خريف
2009.
- 19- **سيد حسين نصر**، لقاء أجراه منير عكاشة، تر: أميرة الزين، مجلة " أديان " (مركز
الدوحة الدولي لحوار الأديان)، العدد: صفر، خريف 2009.
- 20- **السيد ولد أباه**، مقالة بعنوان (برنارد لويس وعلمته الإسلام) منشور في جريدة
الشرق الأوسط العدد 10678، الجمعة 22 شباط 2008.
- 21- **منار الشوريجي**، الثابت والمتغير في سياسة الولايات المتحدة الخارجية، السياسة
الدولية، مج 40، ال عدد161، تموز(جويلية) 2005.
- 22- **مجلة المنار**، ج 1 م 17، 28 ديسمبر 1913.
- 23- **جريدة التأييمز اللندنية**، 8 /أكتوبر / 1971.
- 24- **مجلة المجلة**، عدد 408، 2، 1987/12/8،
- 25- **مجلة الثقافة (الجزائر)**، العدد 9، ربيع الأول 1406 / نوفمبر - ديسمبر 1985م.

26-مجلة هارتس، 1993/07/20.

27-مجلة القدس العربي 1992/07/21.

ثالثاً: - المصادر باللغة الأجنبية

أ- الكتب

1 -**Adel Safty**, from Camp David to the golf, negotiations, language and propaganda and war Montreal, Newyork, black rose books, 1992.

2 -**Alastair Hamilton**: William Bedwell the Arabist (1563-1632) Leiden 1985.

3 -**Alexandre Popovic**, Lislam Balkanique , les musulmans du sud-Est European dans la periode Post-Ottmane , Berlin 1986.

4 -**Arnold Totmbee**, A study of History, Oxford University press London 1969. Vol 8.

-**Asef Hussain**,

5 -Western Conflit with Islam, (Leicester 1990)

6- " the Ideology of Orientalism " in Orientalism, Islam, And Islamists (ed, A,Hussain et al, (Vermont, USA: 1984).

7-**B,V,A**, Roling, International Law in an Expanded World (Amesterdam : Djambatan, 1960 .

8-**B.H.L.Hart**, strategy, the Indirect Approach, London rober.1966.

9-**Ben-Shahar** (el al) Economies cooperation and Middle East Peace.

10-**Brill**, Translation and commentary: Flavius Josephus, ed . Steve Mason, Leiden, ed 12 in Vols 10, 2000.

11-**C.E. Boswrt et al** (the Islamic world from Classical Modera (Princeton 1989) .

- 12-Camille Manssour** , beyond Alliance, Israel in a foreign policy, translated by James A Cohen new york Colombia Unwersup , press,1994.
- 13-David L. Sills**, The International encyclopedia of social sciences, New York. The Macmillan company and the free press-1968.
- 14-Edward Said**, Orientalism,New York, Vintage Books, 1979. - Manfred Halpern., The Politics of Social change in the Middle East and North Africa, (Princeton :3691) P.XVII.FF.
- 15-Franz Rosenthal** : The Herb, Hashish versus Medieval Muslim Society, Leiden 1971.
- 16-G. Zananiri**, L'église et L'islam (Paris, 1969)
- 17-G.H. Jansen**. ' Militan Islam '. (London : 1979)
- 18-George Clark**, War and Society in the 17 Century (Cambridge : Cambridge University Press,1958).
- 19-J.F. Schacht**, The Arab Nation Paths and Obstades fulfilment 14th Annual Conference on Middle Eastern Affairs May 5/7.1960 Meddle East Institute Washington .D.C 1961 .
- 20-John Stuart Mill**, A Few Words on Non-intervention, in Dissertations and Discussions, Vo: 3, (London, 1867).
- 21-K.von. Klause witz**, on war, translated by : JJ Graham,1908.london Routedege 1966 .
- 22-Leonard Binder**, Area Studies: A Critical reassessment " in the study the Middle east. edited by Buder (New York:1976).
- 23-Leonard Stein**. The Belfour Declaration. London. 1961.
- 24-Moroe Berger**, Middle Eastern and North African Studies : Development and needs ,in Middle east studies Association Bulletin .Vol.1. No.2, 1967.
- 25-Near Eastern Studies**: A guide for perspective Gradiate Studies, at Princeton university .
- 26-P . Jemssurier** , the great pyramid. london.1977
- 27-Richard Samuels**, Encyclopedia of US National Security, 2005.
- 28 -S. Jargy** , Islam et chrétienté. Les Fils D'Abraham entre La confrontation et Le dialogue (Geneva, 1981).

29-Thomas Arnold, (The Caliphate). Lahore. Karachi, oxford University,1966.

30-W.Ture, Historiarerum in Partibus Transmarinis Gestarum, xx,31,ed.J.R. Migne, patarlogia. Paris, 1903.

31-Watt, M. Muhammad , The prophet and Stateman, Oxford and newyork, 1961.

أ -المقالات والمجلات والدوريات

1 -A critical Analysis of Islamic studies at north American universities, compiled, by the committee On Oriental studies of the Islamic youth Congress in Tripoli , Libya,1973 and update in march 1975, cedar rapids (USA).

2 -André Pertuzio, La Problématique énergétique des états unis, in : Revue Géostratégique, N9, Octobre 2005.

3 -Annenberg Research Institute for Judaic and Near Eastern studies, statement « of purpose ». in the Jewish Quarterly. Vol LXXVII, N° 01, 1986.

4 -Annual Report of S.O.A.A Governing Body 1949.

5 -Assef Husain, Islamic fundamentalism and Islamic Radicalism, Hearings before the subcommittee On Europe and Middle east of the Foreign affairs of house of representatives of 990 congress, June24 , July 15,sept 30,1985.

6 -M.T. Klare , « la nouvelle doctrine d'intervention , Américaine, les conflits de faible intensité » le monde diplomatique, mars 1986.

7-Mohammed Ben Aboud, Orientalism and the Arabe Elite. "in Islamic Quarterly. Vol 26 No 1. Jan March 1982.

8-Nassim Redjwan, 'Anti-thesis, 'in Jerusalem Post. June27,1986

9 -P.M. Holt "the origins of Islam Studies" in Al Kulya (Kartum) N⁰ 1 1952.

10- Report of the Interdepartmental commission of Enquiry on Oriental, Slavonic, European and African Studies (London, 1947) .

11 -Report of the sub –Committee on oriental, East European and African Studies (London 1961).

12 -Robert, Devereau, ”A Note on Middle eastern studies in the United States, “ in Islamic Quarterly (London) vol 10, N° 3,4.july-Dec 1966.

13 -Le Monde .03/09/1993,

14 -Expansion Octobre 1991.

ج-مواقع الانترنت

1- <http://muntada.sawtalummah.com>

2- [http:// www.israel.gov](http://www.israel.gov)

فهرس الآيات والأحاديث

فهرس الآيات

الصفحة	الآية
98	﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنبَغُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٤﴾ لِيُؤْفِقِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٥﴾ ﴾، فاطر
218	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾، المائدة
254	﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا لَّفَلَبْتَ لَانفِضُوا مِنْ حَوْلِكَ بِأَعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿٥١﴾ ﴾، آل عمران.
255	﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾، الشورى.

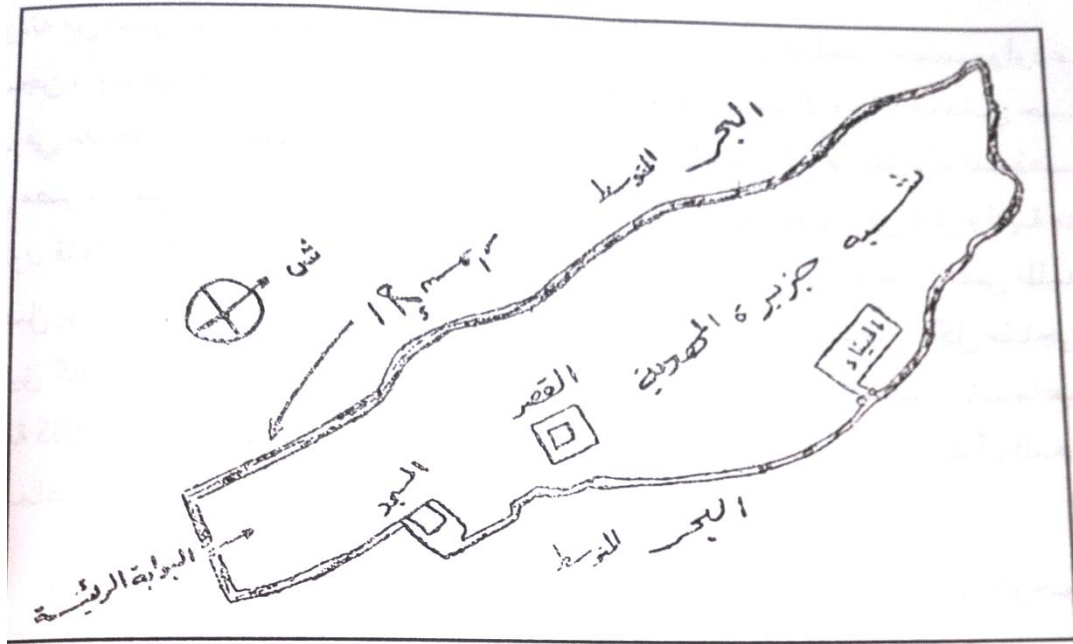
277	<p>﴿ أَوْ كَلَّمَا عَلَيْهِمْ عَهْدًا تَبَدَّلَهُ بَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿١١﴾ ، البقرة</p>
292	<p>﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ ﴿١١﴾ ، النساء</p>
295	<p>﴿ لَيْسَ بَسَطْتُ إِلَى يَدِكَ لِتَفْتَلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَفْتَلِكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿١١﴾ ، المائدة</p>
295	<p>﴿ وَافْتَلَوْهُمْ حَيْثُ تُفْتَلْتُمُوهُمْ وَأَخْرَجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْمِثْنَةَ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُفْتَلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُفْتَلَوْكُمْ فِيهِ فَإِن فَتَلَوْكُمْ بِافْتَلَوْهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكٰفِرِينَ ﴾ ﴿١١﴾ ، البقرة</p>
296	<p>﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا... ﴾ ﴿١١﴾ ، المائدة .</p>

298	<p>﴿ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ ، التوبة.</p>
314	<p>﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ غَزِيرُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ فَوَلَّهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضِلُّهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَتَلَّهُمْ اللَّهُ ابْنِي يُوقِظُونَ ﴾ ، التوبة</p>
314	<p>﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّؤُهُ. فُلِمْ يَعَذِّبْكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْمِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ ، المائدة</p>
327	<p>﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ فِسِّيْسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ، المائدة</p>

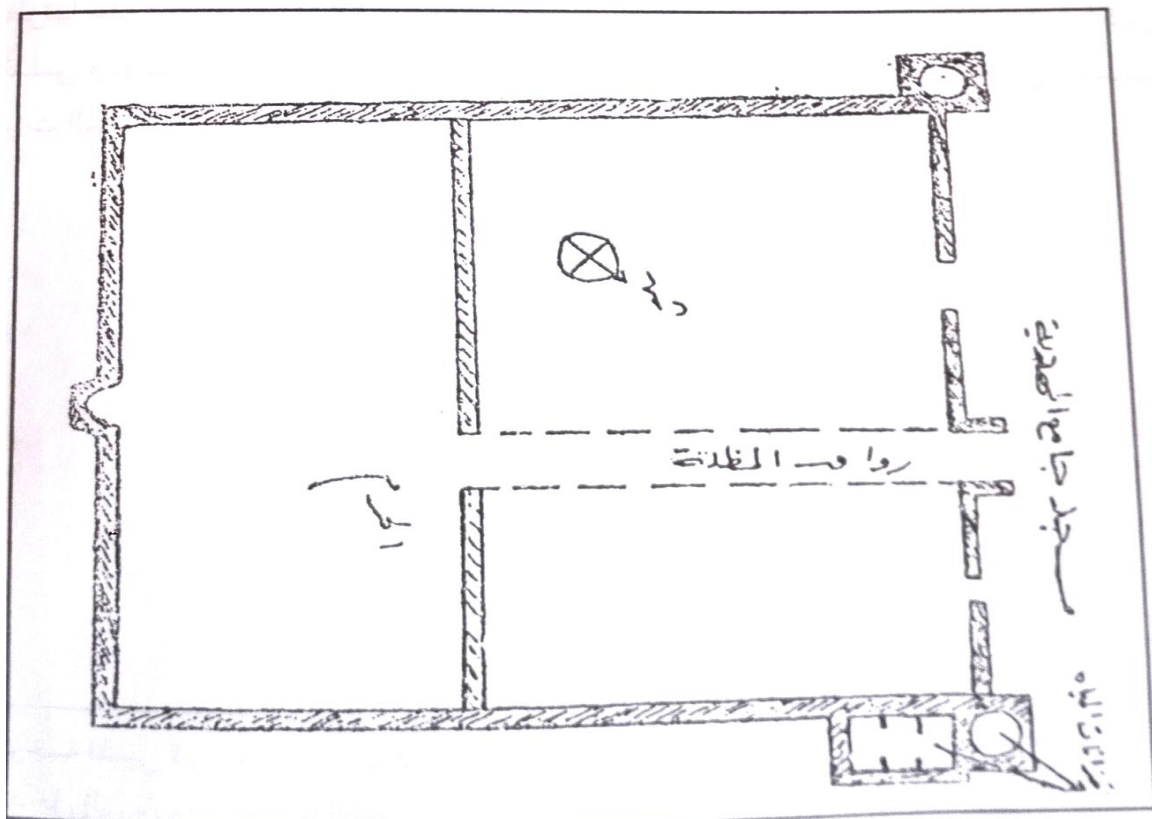
	<p>اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ غَلامًا قُتِلَ غَيْلَةً، فَقَالَ عُمَرُ: لَوْ اشْتَرَكْتُ فِيهَا أَهْلُ صَنْعَاءَ لَقَتَلْتُهُمْ، وَقَالَ مُعْبِرُهُ بُنُ حَكِيمٍ، عَنْ أَبِيهِ، إِنَّ أَرْبَعَةً قَتَلُوا صَبِيًّا، فَقَالَ عُمَرُ مِثْلَهُ، وَأَقَادَ أَبُو بَكْرٍ، وَأَبْنُ الزُّبَيْرِ، وَعَلِيٌّ، وَسُوَيْدُ بْنُ مَقْرِنٍ مِنْ لَطْمَةٍ، وَأَقَادَ عُمَرُ مِنْ ضَرْبَةٍ بِالذَّرَّةِ، وَأَقَادَ عَلِيٌّ مِنْ ثَلَاثَةِ أَسْوَاطٍ، وَأَقْتَصَّ شُرَيْحٌ مِنْ سَوْطٍ وَخُمُوشٍ "</p>
296	<p>عن قَيْسِ بْنِ حَفْصٍ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَمْرِو حَدَّثَنَا مُجَاهِدٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنْ رِيحَهَا تُوْجِدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا".</p> <p>«عن عاصمٍ قَالَ سَأَلْتُ أَنَسًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ الْفُتُوتِ قَالَ قَبْلَ الرُّكُوعِ فَقُلْتُ إِنَّ فُلَانًا يَرْعُمُ أَنَّكَ قُلْتَ بَعْدَ الرُّكُوعِ فَقَالَ كَذَبٌ ثُمَّ حَدَّثَنَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَتَلَتْ شَهْرًا بَعْدَ الرُّكُوعِ يَدْعُو عَلَى أَحْيَاءٍ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ قَالَ بَعَثَ أَرْبَعِينَ أَوْ سَبْعِينَ يَشْكُ فِيهِ مِنَ الْقُرَاءِ إِلَى أَنَاسٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَعَرَضَ لَهُمْ هَؤُلَاءِ . فَقَتَلُوهُمْ وَكَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَهْدٌ فَمَا رَأَيْتُهُ وَجَدَ عَلَى أَحَدٍ مَا وَجَدَ عَلَيْهِمْ.</p>

فهرس الخرائط و الصور

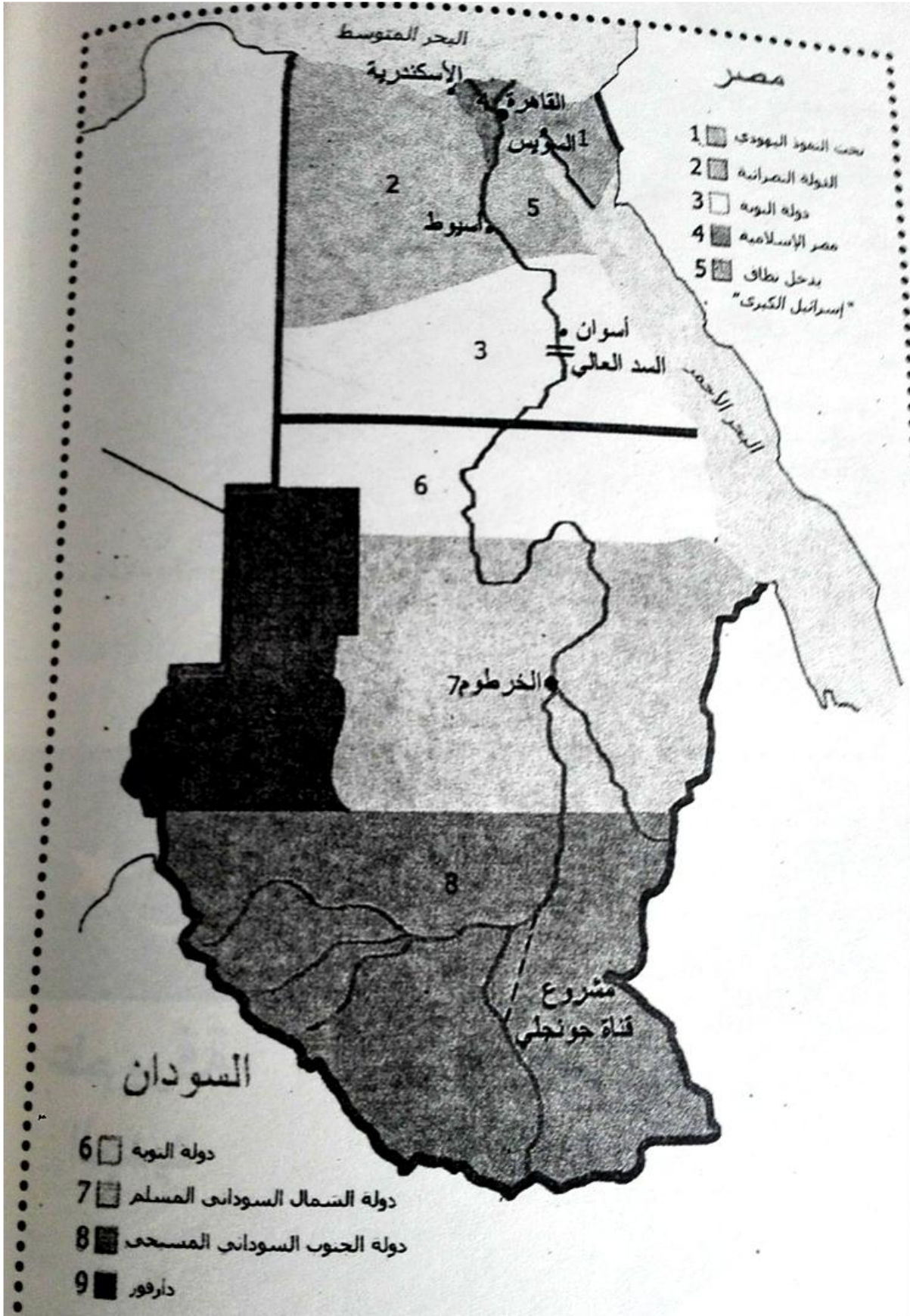
خارطة 1: قلعة المهديّة



خارطة 2: مسجد قلعة المهديّة



خارطة 3: خارطة تقسيم مصر و السودان



خارط 4: خارطة إسرائيل الكبرى المزعومة



الصورة 1: قلعة مصياف

The castle of Masyaf.



الصورة 2: مدخل قلعة حلب



Entrance to the citadel of Aleppo.

الملخص

تهدف هذه الرسالة إلى تقديم قراءة متأنية في أثر وفعل بعض التخصصات المعرفية " الكلاسيكية و الحديثة " في محاكمة وتشكيل الواقع المعاصر لشعوب الشرق الأوسط انطلاقاً من قراءات متحيزة وموجهة لأحداث غائرة في ماضي الزمن، بهدف إدانة ماضي وحاضر تلك الشعوب ورهن مستقبلها بناء على أسوأ محطات تاريخها.

الرسالة تُحاول رصد تلك التأثيرات القائمة بين المعرفة الاستشراقية كعلم مجرد عن أي اعتبارات، وبين الاستعمالات المُجافية للحقيقة التاريخية العلمية، وذلك بجهود فردية وبرامج دوائر رسمية متخصصة في مثل هذه المشاريع.

حدّدت الرسالة شخصية المؤرّخ المستشرق البريطاني " برنارد لويس 1916م- 2018م " كنموذج للكشف عن حقيقة وجود هذه العلاقة وبيان أثرها على هذه الشعوب، ولكشف "الدور" وذلك من خلال مؤلفاته في التاريخ الإسلامي، ومقالاته وتصريحاته واستشاراته التاريخية والسياسية، باعتباره أهم شخصية غربية اهتمت بالآخر الذي هو في الأخير ' العرب والمسلمون ' في أدق خصوصياته.

حاولت الرسالة أن تحيب على بعض الأسئلة المهمة، وتعطي بداية تفسير لبعض الأحداث المعاصرة التي يغلب عليها طابع ' المؤامرة ' في الظاهر، التي يراد لها أن تنتهي بفرض خارطة 'جيوسياسية' جديدة وفق هندسة استشراقية مفعمة بالذوق الأيديولوجي المسيحي الصهيوني تحديداً، تكون فيه الكلمة الأخيرة للتفسير الاستشراقي الاستراتيجي المَعوّل والمقبول رسمياً في الدوائر والمنظمات الغربية، المحلية والدولية.

الكلمات المفتاحية: الاستشراق، برنارد لويس، الشرق الأوسط، المؤامرة، الخارطة الجيوسياسية

Abstract

The purpose of this thesis is to provide a close interpretation on the effect and the act of some “**modern** and **classical** cognitive disciplines” that judge and shape the cotemporary reality of the Middle East based on biased and oriented interpretations for past events in order to condemning their past and present and mortgaging their future based on the worst episodes in their history.

This thesis tries to monitor the existing impacts between cognitive orientalism as a pure science impartial on any considerations and the misuse of the historical and scientific reality through individual efforts and specialized official circles programs.

This thesis identified the British historian and orientalist [**Bernard Lewis**, 1916-2018] as a prototype to reveal the existence of this relationship and to show “**the role**” through his works in Islamic history: his articles, his statements and his historical and political consulting as regarded the most major expert western figure in the academic fields of Middle East concerned with the “other”, “Arabs and Muslims” in most accurate details.

This thesis attempts to answer some crucial questions and gives an early interpretation to some contemporary events that are predominately of “conspiracy” nature which is supposed to end with the imposition of a ” new **Geopolitical Map**” for the Middle East in accordance with orientalism geometry which is full of Christian and Zionist ideological strategies in particular and to be the final word in interpretations of orientalism of global strategies and internationally/nationally formally accepted by western circles and organizations.

Key words: Orientalism; Bernard Lewis; Middle East; Conspiracy; Geopolitical map